

مكتبة الأسرة
٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

بريان م. فاجان
ترجمة د. أحمد زهير أمين

نهب آثار وادى النيل

ودور لصوص المقابر



Amly

الفكرية



الأعمال

•

نهب آثار وادی النيل
ودور لصوص المقابر

محمود الميمني

٥٠. السكتة والشلل من جهة مسحة وجهه
حيث يترك مسحة على شفه في سنة الصغرة، وقد اكتسب
في التوبة الله له وصلة هبة في شكل في سنة الصغرة، وقد اكتسب
حسب ما تملكه (الرجل)، وتحتله (الرجل)، وتحتله (الرجل)،
أما من الذهب المثلث (وهو عيار ٢٢ قيراط)
منه هذه التاتوت التي يعوي مومياء الله توت عنة

الذهب: تاتوت مصنوع من الذهب

الذهب: تاتوت مصنوع من الذهب

لوجه الميمني

بني الميمني

نهب آثار وادی النيل ودور لصوص المقابر

المؤلف: بريان م. فاجان
المترجم: د. أحمد زهير أمين
المراجع: د. محمود ماهر طه



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

إشراف : مصطفى غنايم

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

نهب آثار وادى النيل

ودور لصوص المقابر

المؤلف : بريان : م. فاجان

الغلاف

والإشراف الفنى :

الفنان : محمود الهندي

الإخراج الفنى والتنفيذ :

صبرى عبدالواحد

الإشراف الطباعى :

محمود عبدالمجيد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

على سبيل التقدير:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلا بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتسم عطرها ربيعاً للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهداً ووعداً ليس لنا إلا الوفاء به لنثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

«بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها
أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على
بنيتكم فتسلبون المصريين».

سفر الخروج ٣: ٢٢

ملحوظة بخصوص الصور

دفعنى بحثى عن الصور المناسبة لكتاب الغارة على النيل إلى التوسع فى البحث فى مصادر علم المصريات وتاريخ القرن التاسع عشر، حتى الكتب الثانوية، وقد حاولت موازنة الصور المعاصرة (لزمان الكتاب) مع أحدث المعلومات عن المواقع الأثرية ذاتها. ويضطر أى باحث على أى حال، إلى الاعتماد بشكل مكثف على كتاب «وصف مصر» عند اقتباس الصور، وما هى إلا تصورات وانطباعات ترجع إلى أوائل القرن التاسع عشر، ويحتوى كتاب دافيد روبرتس «مصر والنوبة (١٨٤٦)» على مشاهد للحياة المصرية تتسم بالدقة والاهتمام بالتفاصيل، كذلك يحتوى كتاب ستانلى لين «الحياة الاجتماعية للشعب المصرى (لندن ١٨٨٤)» على صور شيقة للقاهرة، وهناك الكثير جداً مما صورته السائحون عن النيل، لكن معظمها يتميز بالفتاة وعدم الدقة، أما الصور الموجودة فى كتاب أميليا إدواردز «ألف ميل بطول النيل» فقد وجدتتها مخيبة للآمال، ولكن الصور الموجودة فى مطبوعات جمعيات الكتاب المقدس (كتب وكراسات) أفادنى كثيراً مثل كتاب صمويل ماننج «أرض الفراعنة: مصر وسيناء. رسوم بالريشة والقلم (لندن ١٨٦٨)». وتتميز بمسايرتها لنصوص الكتاب المقدس والسلوكيات الأخلاقية والصور الحجرية التى سجلها السائحون الذين زاروا مصر وكثير منها نجده فى ثايبا هذا الكتاب.

التقويم والأسرات والفراعنة والأحداث الرئيسية والتطورات الثقافية فى مصر القديمة

التاريخ	الأسرات	كبار الفراعنة	الأحداث الرئيسية والتطورات الثقافية
٣١٠٠ ق.م	اتحاد النقطرين . العصر العتيق الأسراتان ٢، ١	نعرمر (مينا)	انبثاق حضارة الأسرات والمؤسسات الحكومية والدينية. تأسيس منف عاصمة مصر وإنشاء المقابر الملكية، بأبيدوس وسقارة.
٢٦٨٦ ق.م	الدولة القديمة الأسراتان ٤، ٣	زوسر، سنفر، خوفو، خفرع، منكاورع.	المقابر الفرعونية الهرمية، تشيد أهرام الجيزة. الخلود حق ملكى.
٢١٨١ ق.م	عصر الاضمحلال الأول - الأسرات ١١، ٧		انهيار الدولة - انقسامات داخلية - سيطرة طيبة - انتشار عبادتى أوزيريس وأمون رع.
٢٠٥٠ ق.م	الدولة الوسطى الأسراتان ١٢، ١١	الملوك منتوحتب، أمنمحات الأول، سنوسرت الأول والثانى	توغل نفوذ مصر فى آسيا والنوبة - ظهور آمون كإله رئيسى.
١٧٨٥ ق.م	عصر الاضمحلال الثانى الأسرات ١٣ - ١٧		حكام الهكسوس فى الوجه البحرى فى نزاع مستمر مع أمراء طيبة - ظهور الحصان والعربات فى وادى النيل

(*) يفرض الإيضاح لم تذكر بالاسم سوى أشهر الفراعنة. وقد أشرنا إلى مدد حكمهم فى ثنايا الكتاب، ويمكن فيما عدا ذلك الرجوع لى مرجع عن مضر القديمة، والتواريخ بالجدول مستخلصة من عدة مصادر، وكلها فى الحقيقة تقريبية خصوصاً فى الأسرات الأولى.

(تابع) التقويم

التاريخ	الأسرات	كبار الفراعنة	الأحداث الرئيسية والتطورات الثقافية
١٥٨٠ ق.م.	الدولة الحديثة الأسرات ١٨ - ٢٠	فراعنة عظام منهم: أحمس، تحتمس (الأول) والثاني والثالث) أمنحتب (الثاني والثالث والرابع)، الملكة حتشبسوت، سيتي الأول، رمسيس (الثاني والثالث)، توت عنخ آمون (فرعون ثانوى ذو شهرة حكم فترة قصيرة أثناء الدولة الحديثة).	ذروة عنفوان الدولة المصرية ورخائها . امتداد الإمبراطورية المصرية حتى حدود الفرات وعمق النوبة . التوسع فى بناء المعابد بالأقصر والكرنك.
١٠٨٥ ق.م.	العصر المتأخر الأسرات ٢٢ . ٣٠	كثرة تغير الفراعنة . ١٢ منهم حكموا أكثر من ٢٠ سنة.	معاناة انبساط بسبب الثورات السياسية . احتلال القرص... وغيرهم . أحياناً . للبلاد.
٥٢٥ ق.م.		غزو قمبيز لمصر.	
٣٣٢ ق.م.		غزو الإسكندر لمصر.	
٣٠٥ ق.م.		عصر البطالمة	معابد دندرة وإدفو وكوم أمبو وفيلة . سيطرة ملوك مصر اليونانيين . مكتبة الإسكندرية تكتسب أهمية كبرى.
٣٠ ق.م.		الاحتلال الرومانى لمصر.	مصر ولاية رومانية بعد موت أنطونيو وكليوباترا.

الجزء الأول

المقابر - السائحون - الكنوز

١. التخریب ینال الفراعنة

«فلنتصور مؤامرة تجرى على النحو التالى: اجتماع سرى وسط صخور الجبل والاتفاق على رشوة حراس المقابر، أو تخديرهم ثم الشروع فى نبش القبور فى الظلام والتسلل إلى حجرات الدفن والبحث عن كل ما خف حمله وغلا ثمنه فى ضوء الشموع الخافت، وأخيراً الرجوع بالغنيمة».

هذه إحدى الفقرات التى كتبها الأثرى المعروف كارتر عند اكتشافه مقبرة توت عنخ آمون العظيمة سنة ١٩٢٢ وهو يروى كيف كان اللصوص القدماء يدبرون لنهب المقابر، ويعلق كارتر على ذلك قائلاً: «مثل هذه الأمور مما يمكن تصوره، لأنه فى الواقع لا يمكن تلافئها» كان كارتر يقصد بهذا الكلام وادى الملوك المنعزل فى الصحراء غرب طيبة، وقد اختاره الفراعنة منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد، واستخدموه لمدة تزيد على أربعمئة سنة لدفن موميائات موتاهم فى أعماق الصخور لإخفائها عن الأنظار، أما معابدهم الجنائزية فقد شيدها بجوار النهر قرب طيبة، وتكفل جو طيبة الجاف بأن يحفظ لنا - وللصوص كذلك - ما خلفته الدولة الحديثة من أثاث فاخر، وكراسى عرش وتماثيل أوشابتي جنائزية عثر عليها بالآلاف مدفونة هناك، وهذا بالإضافة إلى التوابيت الحجرية والأوانى المرمرية، فإذا أضفنا إلى ذلك ما وجد من لعب الأطفال والمجوهرات وشعارات الدولة والأكفمان الكتانية، لأدركنا ما وصل إليه هؤلاء الفراعنة من ترف فى

حياتهم اليومية، وجرت العادة فى الأسرات الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين على دفن الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة فى وادى الملوك نفسه، أما باقى أعضاء الأسر الملكية فكانوا يدفنون فى التلال المجاورة والوديان القريبة، إما بحفر مقابرهم فى الصخور، وإما بتجهيزها فى أحد الكهوف فى التلال الصخرية. وقد اهتموا اهتماماً بالغاً بحفظ جثثهم فى توابيت مزخرفة زاهية الألوان، لأنهم آمنوا بفكرة الخلود الأبدى.

كلف بالعمل فى المقابر الملكية مجموعة مستديمة من العمال توارثت إنشاء المقابر الفرعونية لأجيال عديدة، أقاموا فى مكان منعزل أنشئ خصيصاً لهم نعرفه اليوم باسم «قرية دير المدينة»، لدينا عنهم - الآن - ما يكفى لأن نحكم أن مجتمعهم كان مثل غيره من المجتمعات العادية الحية، فقد كان عمال القرية يضربون عن العمل أحياناً. ورصدت لهم حالات تغيب عن العمل. وكانت بينهم نزاعات عائلية، وكان هناك عمال غير هؤلاء يقومون بالعمل فى مقابر النبلاء لا نعرف عنهم - الآن - شيئاً، ولم ييخل أحد، من هؤلاء فى الإنفاق على مقبرته، فالمصريون القدماء - بلا استثناء - كان لديهم إيمان راسخ بالخلود فى حياة أخروية؛ لذلك كانوا يزخرفون مقابرهم ويزينونها، لتكون آية من آيات الفن والعمارة.

رغم ذلك كان بعض هؤلاء العمال - يدفعهم الجشع - أول من انتهك حرمة موتاهم، لم يردعهم وازع ولا رحمة، فهم أنفسهم أول من سطوا على المقابر وخربوها، وأول من حطم مومياوات الفراعنة. وتكونت للسطو عصابات منظمة اعتادت انتهاك مقابر طيبة بصفة شبه مستمرة، وكان يعين هؤلاء بعض الكهنة معدومى الضمير، وبعض الموظفين المرتشين، ولم تكد تسلم مقبرة فى وادى الملوك من العبث والانتهاك بطريقة مخالفة للقانون. وفى أواخر الأسرة العشرين بلغ السطو والنهب درجة جعلت كثير من الكنوز الملكية تتبخر قبل أن يصل إليها المنقبون عن الكنوز فى الأزمنة الحديثة. ليكملوا عمل من سبقهم فى تبييد التراث الفرعونى، توفر الأمان النسبى للمقابر الملكية فى عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة (١٥٧٠ - ١١٨٠ ق.م)، وهو العصر الذهبى للإمبراطورية

المصرية الذى حظى بعظماء الفراعنة مثل سيتى الأول ورمسيس الثانى، وهؤلاء وفروا لمقابرهم الحماية اللازمة، وعينوا لذلك الحراس والمراقبين الحاذقين، وكانوا يراقبونهم بأنفسهم، من أجل ذلك كان السطو على المقابر فى أيامهم شيئاً نادراً وبسيطاً، فلما ضعفت قبضة الفراعنة على الحكم أثناء الأسرة العشرين أخذت حوادث السطو على المقابر الملكية تتزايد لضعف الحراسة عليها... ولقد حفظت لنا البرديات أنباء قضية سرقة المقابر الكبرى التى جرت وتأنعها فى فترة حكم، رمسيس التاسع (١١٤٢ - ١١٢٣ ق.م)، وارتبط بها رجلان من كبار الموظفين هما «باسر» محافظ طيبة الشرقية، و«باورو» محافظ طيبة الغربية.

كان باسر رجلاً لا غبار عليه، ولكنه كان فضولياً لجوجاً محباً للظهور. وكان يحسد زميله محافظ طيبة الغربية، فما أن وصلتته الوشائات حول سرقات مقابر الملوك بالبر الغربى حتى باشر التحقيق فيها بنفسه متجاوزاً اختصاصاته الرسمية، واستخدم فى ذلك كل الوسائل حتى الغير مشروعة منها مثل تعذيب المتهمين لانتزاع اعترافاتهم (التي منها):

«هناك عثرنا على مومياء الملك المبجلة... ووجدنا كثيراً من الشارات والحلى حول رقبتة، وكان على رأسه قناع ذهبى، وكانت المومياء نفسها مغطاة بالذهب بكثافة.. فنزعنا الذهب عن مومياء الملك المبجلة... كما استولينا على الشارات والحلى وكسوة التابوت».

لم يتردد باسر فى نقل الموضوع إلى خع ام واست. الوزير المحلى. وطالبه بمتابعة التحقيق فى سرقة المقابر بصورة رسمية، فشكل الوزير لذلك لجنة تفتيش رسمية، أسفر عملها عن العثور على مقبرة ملكية واحدة تم السطو عليها. وهى مقبرة الملك «سخم رع شد تاوى» بن «رع سوبك ام ساف»، بالإضافة إلى بعض مقابر الكاهنات التى عبث بمحتوياتها؛ لذلك أعيد استجواب شهود باسر، لكنهم أصروا على براءتهم وأنكروا كل أقوالهم السابقة، وكانت النتيجة وبالأعلى على باسر الذى يبدو أنه لم يقدر مواهب «باورو» حق قدرها، ولم يدرك مدى قدرته على التستر على عمليات السطو على المقابر الملكية التى نشطت فى ذلك الوقت،

وأسقط الوزير التهم بعد إنكار الشهود، ومن يدري لعله سر بذلك فقد كان هو الآخر غارقاً إلى أذنيه فى عمليات النهب.

أسعد باورو ما جرى واعتبره انتصاراً على منافسه لكنه التزم الصمت وظل ملازماً لمحافظةه يتدبر الأمر، وبعد مرور عدة أشهر جمع عدداً من العمال، ومراقبيهم، وبعض من رجال الأمن لديه، وأرسلهم إلى البر الشرقى فى مظاهرة صاخبة فى تحد ظاهر لغريمه، وتعمدت المظاهرة المرور أمام بيت باسر، وحاول باسر أن يحافظ على هيئته بتجاهل المظاهرة، لكن أعصابه لم تسعه فتوجه إلى ساقى الملك . وكان بالصدفة فى معبد بتاح المجاور . وأعاد فتح الموضوع وكرر قدرته على إثبات اتهاماته السابقة، وأثناء الكلام أفلت لسانه فهدد بالتظلم إلى الفرعون مباشرة إذا لم يحسم الأمر، وحسب التقاليد المرعية كان هذا التصرف من باسر يعتبر خطأ جسيماً؛ لأنه بذلك يريد تجاهل التدرج الوظيفى. بالإضافة إلى ما فى التهديد من اتهام ضمنى للوزير نفسه: لذلك عندما أبلغ الساقى بذلك لم يتأخر الوزير عن تعنيف باسر واتهامه بتفريق التهم وطلب منه الكف عن إثارة المشاكل.

لكن باسر اللحوح لم يسكت وظل وراء الموضوع حتى أعيد فتح التحقيق فيه بمعرفة الوزير الجديد «نب ماعت رع ناخ» تحت واستدعت المحكمة المشكلة خمساً وأربعين متهماً للاستجواب، ووقائع هذه المحاكمة سجلت على برديات، ولحسن الحظ عثر على هذه البرديات وبيعت فى سوق الآثار فى أواخر القرن التاسع عشر بطريقة غير شرعية، ويستخلص مما جاء بالبرديات أن الشهود قد جرى تحليفهم وضربهم ليعترفوا، وكانت الأدلة دامغة، وشهد حامل مبخرة معبد آمون بأن إحدى عصابات السطو فاجأته ليلاً وهو نائم، فأيقظوه وقالوا له: اخرج ودعنا نسرق؛ لأننا جوعى، «وصاحبونى فى فتح مقبرة أخرجنا منها تابوتاً من الذهب والفضة.. فحطمناه ووضعناه فى سلة خرجنا بها، ثم قسمناه إلى ستة أجزاء»، وبعد ذلك أحضر من ورد ذكرهم فى اعترافه، فضربوا حتى اعترفوا بدورهم بما قرره زميلهم، ومما جاء فى إحدى البرديات:

«ضرب كاتب الجبانة بالعصا حتى قال: «كفى سأعترف، هذه الفضة هي كل ما أخذناه، وخلاف ذلك لم أر شيئاً» ثم أعيد تعذيبه بالمد والجلد. وقال له «نسى أنمنوبى. كاتب الجبانة الآخر: إذن فالمقبرة التي اعترفت بأن الأوانى الفضية سرقت منها مقبرة أخرى، يعنى أنكم سطوتم على مقبرتين بخلاف الكنز الأصلى». فقال: «غير صحيح فالأوانى من الكنز نفسه وقد ذكرتها من قبل، لقد فتحنا مقبرة واحدة، فقط، وأعيد، تعذيبه بالعصا والجلد والمد، لكنه أصر على أقواله».

وكانت العقوبات التي وقعت على هؤلاء قاسية، فحدثت من سرقة المقابر إلى حين. وإن لم توقفها تماماً، فلم تكن هناك. فى الواقع. وسيلة فعالة يمكن بها ردع لصصوص المقابر.

حتى مقابر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة العظام، لم تسلم من العبث بها وسلبها فيما بعد، رغم جهود الكهنة والموظفين المكلفين بحمايتها، وتكررت الانتهاكات. وفى كل مرة. كانت جثث الملوك تنقل إلى توابيت ومقابر أخرى، ولما أعيت الكهنة الحيل نقلوا مومياوات الفراعنة جميعاً، وكدسوها فى مخبأين سرين. أحدهما فى وادى الملوك نفسه، والآخر فى المرتفعات المطلة على طيبة، وهناك استقرت فى سلام بعيداً عن عبث اللصوص لمدة ثلاث آلاف سنة، حتى عثر عليها بالصدفة سنة ١٨٧٠، فكانما شاءت الأقدار أن تحفظها لنا خدمة للعلم.

اشتهرت مصر فى عصر الفراعنة العظام بالثراء والاستقرار بين دول البحر المتوسط، وهؤلاء نعرفهم اليوم بأسمائهم وسماتهم، وبعض كنوزهم موجودة فى متاحفنا، فليس منا من يجهل رمسيس الثانى أو توت عنخ آمون، ورغم عمليات السطو والتخريب قديماً وحديثاً فقد بقى الكثير من آثارهم، ولدينا من النقوش والبرديات ما يصف لنا حياتهم اليومية، وقد أشرنا. آنفاً. إلى قضية السطو الكبرى وما أثارته وقتها من انفعالات، ورغم أن ما نهب كان أعظم إلا أن ما تبقى من آثار هذه المدينة القديمة. أقدم المدن عمراً. يعتبر كافياً للدارسين والمشاهدين.

لم تتقطع موجات العبث بمقابر مصر القديمة وآثارها العظيمة، ومن المؤسف أن بعض المصريين كانوا هم أنفسهم عاملاً في تدمير تلك الآثار على مر العصور سواء بدافع البحث عن الذهب أو بوازع ديني باعتبارها آثاراً وثنية^(١). وأخيراً، أتى الأثريون والسائحون بحثاً عن الآثار والعاديات وكان كل منهم له هدف، فقد قام البعض بقياس الأهرام، واشترى البعض موميאות، ونقب آخرون مقابر سقارة وتسللوا إليها، وعندما غادر نابليون مصر بعد فشل حملته المعروفة كان معه سجلاً ضخماً عن مصر القديمة أشعل حماس أوروبا نحو مصر، فلما زار الأب جيرامب مصر سنة ١٨٢٣ قال لمحمد على باشا: « لم يكن من يزور مصر يحوز الشرف إلا إذا كان يحمل مومياء في إحدى يديه، وتمساحاً في الأخرى» والواقع أنه في زمن الأب جيرامب هبت موجة عارمة من التنافس وشملت الجميع . من دبلوماسيين ونبلاء وسائحين وتجار . بهدف جمع أكبر عدد من الموميאות وغيرها من الآثار المصرية، وأصبحت الموضة . نماذج مصرية حتى في المعمار، وفي الوقت الذي كان فيه شمبليون عاكفاً على فك شفرة الأبجدية الهيروغليفية، كان السائحون غارقين إلى أذقانهم في نهب كنوز المدينة التي لا يعرفون عنها إلا أقل من القليل.

الخلاصة: أن إتلاف الآثار المصرية ونهبها لم تهدأ منذ أكثر من ألفى سنة . سواء أكانت على يد الأهالي أم الأجانب وكل له حجته مهما كانت واهية، وكانت خسارة علم الآثار فادحة، وأفدح منها ما ضاع من تاريخ مصر.

والآن، نجد ما بقي من آثار مصر مبعثراً في أرجاء المعمورة، وأجملها موجود في أماكن تبعد آلاف الأميال عن وطنها الأصلي، ومن حسن الطالع أن بعض هذا التراث أمكن إنقاذه بجهود الحكومة المصرية والأثريين الملتزمين في المائة سنة الأخيرة، ومن العسير علينا، على أي حال أن نلوم من نهبوا وخربوا الآثار المصرية، فقد كانت الأخلاقيات السائدة والحالة الثقافية في وقتهم تسمح بذلك العبث . الأهالي تحت ضغط الحاجة، والأجانب تحت إلحاح التطلع للثراء أو الحصول على الطرائف الأجنبية الغريبة، وهؤلاء لم يخل عملهم من بعض الإيجابيات، فهم الذين لفتوا أنظار العالم إلى أهمية التراث المصرى العظيم، ولم

يخل فى الوقت الحاضر أى متحف أوربى أو أمريكى من الآثار المصرية، من مومياوات ونقوش وتمائيل وغيرها، وفى عصر النفاثات أصبح من اليسير زيارة آثار مصر قد يكون سببها زيارة متحف محلى أو قراءة كتاب ممتع عن مصر القديمة.

ومن عجائب القدر أن تكون غالبية الآثار التى تعتز بها متاحف أوروبا وأمريكا قد جلبها مغامرون تملكهم الفضول، فلم يتورعوا عن استخدام وسائل مخزية كالبارود والحفارات، دون أدنى إحساس بالمسئولية، ومن مآسى التاريخ أن معظم معلوماتنا عن مصر القديمة حصلنا عليها بمثل هذه الوسائل.

هوامش

(١) من المؤسف أن البعض فى عصرنا هذا مازال يخلط خلطاً معيباً بين الاهتمام بالآثار من واقع الشغف بالمعرفة والولع بالفنون، وبين عبادة الأقدمين للأصنام. فعلم الآثار، وهو من أجل العلوم الحديثة، يهتم بدراسة تلك الآثار للتعرف على ماضى الإنسان وأحداثه التاريخية، ويؤصل الأفكار وتطور العادات والتقاليد. فضلاً عما يكشفه لنا من روائع الكنوز الفنية التى ترقى بالذوق وتهذب النفس. وعلماء الدين هم أولى الناس بالاهتمام بدراسة الآثار، لا لأنها تلقى الضوء فحسب عن الكثير من الأحداث التاريخية التى أشارت لها الكتب السماوية، والتى تثبت صحتها، بل لأن معرفة طرق وأساليب الحياة وثقافة الأقدمين وسيلة لتعميق فهم الرسالات السماوية التى ظهرت فى ذلك الحين والتى جاءت لتخاطب تلك الأقوام أو معاصريها. فضلاً عن أن علم الآثار قد أمدنا بثروة هائلة من الحكم والنصائح الأخلاقية الرفيعة التى شرعها الحكماء الأقدمون والتى تتوافق مع التعاليم الخلقية للديانات السماوية، مما يثبت أن تعاليم تلك الديانات هى مما يوافق الفطرة الإنسانية السليمة.

(المحرر)

٢. أبو التاريخ والسائحون الأوائل

منذ مائة سنة كتبت الرحالة المشهورة لوسى داف جوردون (من العصر الفيكتوري) وكانت تزور الأقصر: «هذا البلد (مصر) أشبه بقرطاس قديم دونت عليه كتابات تلوي الكتابات، فخط عليه الزمان أسفار الكتاب المقدس فوق فصول هيرودوت وفوقهما خط آيات القرآن الكريم... وتعنى العبارة أن مصر تعاقبت عليها الحضارات.

والعبارة لا شك جامعة مانعة وفقت في تلخيص ما مرت به مصر من أحداث، وفي العبارة ما يوحى بما أحدثته موجات السائحين المتتالية منذ أقدم العصور، ثم المنقبون عن الكنوز في الأزمنة الحديثة من إتلاف لتراث مصر الحضارى.

كان المصريون السدء مؤمنين بتفوق حضارتهم على غيرها، ويعتبرونها أعرق الحضارات، وأثبت التاريخ صحة هذا الاعتقاد، إذ كانت محسر الفرعونية دولة مستقرة قوية، وكانت دولة بناء البهر اليونانيون ثم الرومان بمعابدها العظيمة وأهرامها الضخمة، وآثارها المنتشرة على ضفاف النيل - وهى آثار لم ينل منها الزمن على مر العصور.

كان الإغريق يؤمنون بأن مصر أصل كل شيء: الدين، النظام، وأنحكم والعلم. وكل ما هو عجيب، ويقول المؤرخ هيرودوت (أبو التاريخ) في ذلك: «ليس هناك قطر به من العجائب ما يوجد بمصر، وليس هناك بلد فيه من الصنائع ما هو موجود بمصر». كان هيرودوت عاشقاً لمصر، عاش فيها خمس سنوات (٤٦٠ - ٤٥٥ ق.م). وجاءت زيارته في وقت كانت مصر العظمى الفرعونية قد تدهورت منذ قرون (قليلة)، فشاهد الكثير من آثارها قبل أن ينالها التخريب. وهيرودوت. كما نعرف. صاحب «التاريخ الكبير» الذي انبهر به الباحثون وعلماء الآثار لعدة قرون.

ويدل ما كتبه هيرودوت على سعة اطلاعه على أحوال زمانه، لكن مادته التاريخية كان ينقصها الدقة والتحري. وكان في زمانه العديد من الرجال المشهورين المجلين، وقد بلغ من إعجاب اليونانيين به أن طالبوه بتلاوة كتبه على الملأ. في أثينا، وتاريخ هيرودوت الكبير يحتوى على حشد من المشاهدات الواقعية، والحكايات الشعبية والخرافات والأساطير الدينية، مختلطة مع التاريخ الحقيقي في مزيج ممتع، لا يمل من يقرأه.

والظاهر أن هيرودوت كان يتساهل في تصديق ما يروى له دون تمحيص يذكر. لكنه كان دقيق الملاحظة جم النشاط دائم السياحة والترحال. من أجل ذلك رأى ما لم يره أحد غيره. ويقع تاريخ هيرودوت في تسع مجلدات، ومادته التاريخية تحتوى على مبالغاة كثيرة وتساهل في قبول الروايات مما أثر على قيمة الكتاب إلى حد ما، لكن حدسه وصدقه في أمور الأنثروبولوجيا أثبتته الدراسات الحديثة بصفة عامة.

ساح هيرودوت في صعيد مصر سياحة طويلة في النيل، وفي ذلك الوقت، كان الطريق النيلى هو شريان المواصلات الرئيسى وأكثر الطرق أمنا يسلكه المسافرين. وكانت الحكومة تستعمله، وكذلك التجارة والسياحة. وكذلك كان القرويون يرتادونه في زوارق البردى الخفيفة. أما الطرق الصحراوية فلم يألّفها السائحون لوعورتها وخلوها من المعالم التى تسترعى الانتباه.

جمع هيرودوت فى رحلته حصيلة ضخمة من المعلومات . بعضها غث وبعضها
ثمين . وضمن هذا كله الجزء الذى كتبه عن مصر، هذا الجزء هو أقدم ما كتب
فى وصف مصر وتاريخها على الإطلاق، وفيه اختلط التاريخ الصحيح
بالخرافات والأساطير بصورة تجعل من العسير التمييز بينهما، لكن جغرافية
هيرودوت كانت فوق مستوى الشبهات، ولما تحدث عن النيل وفيضانه اعترف فى
البداية بأنه لا يدري من أين يأتى: «يقول الناس أن الفيضان سببه ذوبان الثلوج»،
وقد ثبتت صحة ذلك، إلا أن هيرودوت كان يتشكك فيه .

كان هيرودوت مثل غيره من الزوار الكلاسيكيين يجل المؤسسات المصرية .
الدين والآلهة المتعددة وجمهور المؤمنين، ونظام الحكم، والثقافة .. إلخ . وظهر ذلك
فى إيمانه بأن الإغريق أنفسهم اقتبسوا بعض الآلهة المصرية وساووها بآلهة
يونانية، ومما لاحظته هيرودوت أن المصريين قدسوا بعض الحيوانات كالقطط،
واهتموا عند دفنها بإجراء طقوس واحتفالات خاصة . واهتم هيرودوت بشرح
كيفية تحنيط الجثث ومراحلها المختلفة: استخراج المخ من فتحتى الأنف بغطاف
معدنى، ثم تنظيف الجسد وحفظه بعد استخراج الأحشاء لمدة سبعين يوماً قبل
الدفن، ثم شرح كيف يتسلم أهل الميت الجثة المحنطة، ليضعوها فى تابوت
خشبى على هيئة إنسان ثم يُحْكَم إغلاقه ويوضع فى قبر الميت منتصباً ومسنوداً
إلى الحائط، وقد تأيد ما ذكره هيرودوت فى هذا الصدد، ولعله يكون قد عاين
ذلك بنفسه .

تكلم هيرودوت فى تاريخه عن الزراعة وصيد السمك والتماسيح، ووصف
السفن والزوارق، ولم يترك فى مصر شاردة ولا واردة إلا تناولها، فهو فى
الوصف لا يعلى عليه، أما عند كتابة التاريخ فنجدته قليل التروى، غير دقيق فى
سرده؛ لذلك فعندما تكلم عن الدولة المصرية أورد كل ما سمعه من أساطير دون
تمحيص قبل أن يذكر الملك مينا موحد القطرين، وادعى هيرودوت أن الكهنة
أطلعوه على قوائم مسجل فيها أسماء ٣٥٠ فرعوناً . وهى الموجودة فى تاريخ
مانيثون، وظل تاريخ هيرودوت يشوبه الاضطراب، واعترف هو نفسه بذلك،
ولسوء الحظ صدق من جاء بعده كل ما قال بدون تمحيص، وسجلوا أساطيره

ونشروها كأنها حقائق تاريخية، فرسخت في الأذهان على مر العصور، لكن ميزة هيرودوت التي لا ينازعه فيها أحدهم قرب عهده بالفراعنة العظام، كذلك اتصاله ومشافهته للكهنة وجماهير المصريين بكل ما حملوه معهم من تراث مصر وطقوس عباداتهم التي ترسخت منذ القدم، ولا شك في أن آثار مصر في عصر هيرودوت كانت أحسن حالاً منها الآن: لأنها لم تتعرض للتخريب المتعمد الذي حدث فيما بعد على أيدي المسيحيين ثم الأتريين على التعاقب، لذلك اتسم تاريخ الرجل بالحيوية والمعاصرة، والإمتاع. فقد كتبه واحد من أكبر مثقفي عصره، ومن أشد المؤمنين بحضارة مصر وعراقتها، ومن أمتع ما سجله هيرودوت وصفه الحى للمصريين ومجالس شرابهم واحتفالاتهم الدينية، وحتى سرقاتهم.

ومما يثير العجب أن هيرودوت الذى يحذرنا من أخذ ما يرويه علماء مصر من روايات كقصية مسلم بها ينسى أو يتناسى هو نفسه أن يعمل بذلك، فكانت النتيجة أنه جر المؤرخين بعده إلى هذا الشك - التصديق بلا تدقيق.

وهيرودوت من الشخصيات المثيرة للجدل ما بين معجب به وساخط عليه، فمن العلماء من أزرى به وحط من قدره مثل مرييت حين يقول: «إنى أزدري هذا السائح الجوال، فقد زار هيرودوت مصر في وقت كانت اللغة المصرية القديمة مازالت معروفة، وكان بإمكانه الحصول على حقائق تاريخية أساسية، لكنه لم يتعد قوله إن إحدى بنات خوفو بنت هرمًا من كسب البغايا.. فإذا أضفنا إلى هذا الأخطاء الفاحشة التي وقع فيها، ألم يكن من الأفضل لعلم المصريين ألا يكون هيرودوت قد وجد أصلاً؟».

وكلام مرييت فيه ظل من الحقيقة، لأن قبول هيرودوت المرويات دون تمحيص تسبب في تصديقها وتناقلها لعدة قرون، ولكن ذلك لا يعفى مرييت من التعامل عنى أبى التاريخ، وعلى أى حال هناك من قدر الرجل حق قدره فقد وصفه عالم نصريات الشهير ألان جاردنر بأنه «أبو التاريخ.. وأحد العبقریات الفذة»، ؛ حقيقة أن هيرودوت ركب الصعب وارتاد حقلاً لم يسبقه إليه أحد، فكان كمن يحضر فى الصخور؛ ولذلك لا يصح عند الحكم عليه أن نطبق مقاييس عصرنا مع أن تطور التاريخ إلى علم له أصول لم تكن معروفة فى زمنه؟».

عندما غزا الرومان مصر جعلوها ولاية ممتازة تابعة للأباطرة مباشرة يحكمها باسمه وال لا يرأسه سوى الإمبراطور، وكان أهم ما مكن الرومان من السيطرة على إمبراطوريتهم الشاسعة شبكة المواصلات السهلة السريعة؛ لذلك تطورت فى عصرهم وسائل النقل البرية والبحرية السريعة، وأصبح نقل البضائع والمسافرين آمناً ميسوراً لمدة ثلاثمائة سنة متتالية، ومع توفر الأمن والثراء وجدت طبقة من الناس لديهم من المال والفراغ ما يسمح لها بالسياحة فى ربوع الإمبراطورية بيسر وسهولة. وأخذ السائحون يتدفقون على مصر بالآلاف ينشدون العلم والثقافة والتسلية، وهذا فى حد ذاته كان سبباً فى العبث بآثار مصر وإتلافها.

كان السائح فى ذلك الوقت يسلك أحد طريقين، الأول طريق البحر من بونزوليز Ponzolez، إلى الإسكندرية مباشرة، والثانى الإبحار إلى قرطاجنة ثم التوجه إلى مصر بالطريق البرى الساحلى وكلا الطريقين كان من طرق الإمبراطورية الآمنة، وكانت الانتقالات عبر البحر المتوسط قد صارت آمنة مستقرة، وحركة السفن فيها نشطة تحمل البضائع والمسافرين إلى شتى المرافئ، وبنيت سفن تصل حمولتها إلى ألفى طن يزيد طولها على ٥٣ متراً تمخر عباب البحر المتوسط إلى الإسكندرية، ومنها كان يتيسر للسائحين الإبحار فى النيل حتى الحدود الأثيوبية بلا عوائق، ومن شاء كان يجد الطريق البرى المحاذى لمجرى النيل حتى فقط حيث يجد الطريق البريدى على المسار القديم نفسه عبر الصحراء حتى ميناترى برنيس وميوشورم Myoshormos على البحر الأحمر، وهما مركزان تجاريان لهما أهميتهما فى تجارة الجزيرة العربية والمحيط الهندى.

لم يحدث فى مصر ما حدث فى أوروبا من اقتباس شعوبها لعادات فاتحيها ومؤسساتها والتشبه بالرومان (فرنسا وإنجلترا مثلاً)، فقد تشبثت مصر بتراتها وعاداتها وتقاليدها وأساليبها فى الزراعة وكتابتها الهيروغليفية كما توارثته منذ القدم، فاستقرت أحوالها فى العصر الرومانى استقراراً فريداً، وكان السائح الرومانى يتجول فيها بحرية، ويعاين آثارها العريقة الموغلة فى القدم.

أدى انتظام السفر وأمنه . كما ذكرنا . إلى نشاط السياحة، فكانت تزد إلى مصر البعوث الدبلوماسية والسفراء والعسكريون وراغبو النزهة والتسلية وطائبو العلم والثقافة. وكان يحضر عدد من كبار الأطباء، والمصحات المشهورة وبيوت النقاها، ناهيك عن دور اللهو والترفيه، وقد اشتهر معبد بطلميوس سوتر في سيرابيس بقنط في العالم القديم بطقوسه المأجنة بعد إدماج عبادة سيرابيس بعبادتي أوزيريس وأبيس . (العجل المقدس). فأصبح من المعالم المحببة لدى السائحين.

كان سترابو الجغرافى اليونانى (٦٤ ق.م - ٢٢م) معاصراً للمؤرخ ديودور الصقلى، وحدث أنه رافق والى الرومانى على مصر، إليوس جالوس سنة ٢٥ ق.م في رحلة إلى الوجه القبلى: لذلك عندما ألف كتابه «الجغرافيا» حرص على جعله موسوعة حافلة بالمعلومات الواقعية عن العالم الرومانى في زمنه، وكتب عن مصر قدراً لا بأس به شغل الجانب الأكبر من الكتاب السابى عشر من جغرافيا. وذكر فيه أسماء المدن المصرية ومواردها (أى الجانب الاقتصادى)، وأهم معالمها الأثرية والطبيعية، فقال عن منف: تجد فيها معبد السيرابيوم في بقعة تتراكم فيها الرمال بفعل الرياح، وقد شاهدنا تحت الرمال الكثير من تماثيل أبى الهول بعضها غطاء الردم كلية وبعضها غطاء جزئياً، «هذا الوصف هو الذى مكن مربييت بعد ألفى عام من إعادة الكشف عن السيرابيوم، وأعجب الجغرافى زمرافقوه بتماثيل معبد الرمسيوم في زيارتهم لطيبة، وعانينا نقوش المسلات في الأقصر والكرنك (واحدة منها . الآن . بميدان الكونكورد ببباريس)، وذكر سترابو أنه فوق الممنونيوم (أى الرمسيوم) توجد مقابر الملوك، المنحوتة في الصخر وعددها حوالى ٤٠ مقبرة رائعة البناء وجديرة بالمشاهدة» هذه الإشارة من أقدم كتب عن وادى الملوك، الذى لم يسلم من السلب والنهب منذ دفن فيه خراطة، وفي آخر كلامه عن مصر يلقى سترابو اللوم على هيرودوت وأقرانه الذين يقولون الكثير المحتوى على فضول القول والهدر لمجرد التشويق»، وهكذا يمكن سترابو أول من زار مصر فوجد فيها الحقيقة تخالف التاريخ (أى ما كتبه المؤرخون).

كانت رحلة السائح الرومانى . عادة . تبدأ بالأهرام فى الجيزة، وكانت الكسوة الهرمية فى ذلك الوقت سليمة أغرت الكثير منهم بتسجيل أسمائهم عليها فأتلفوها . وأقدم هذه التوقيعات يرجع تاريخه إلى سنة ١٤٧٥م ولعل هناك ما هو أقدم إلا أنه نزع مع ما أزيل من الكسوة إذ يذكر الرحالة «ردولف فون سوخم» . قس زار الهرم سنة ١٣٣٦م . أن نقوشاً أقدم عهداً من وقت زيارته كانت موجودة على كسوة الأهرام .

فى ذلك الوقت كان أبو الهول الشامخ رابضاً فى مكانه بجوار الأهرام مردوماً بالرمال؛ حيث زاره بلينى Pliny الأكبر . أول من وصف الأهرام من العلماء الكبار، ومن الآثار التى كانت تجذب السائحين معبد أبيس بمنف، ومعبد أمنمحات الثالث (١٨٥٠ . ١٨٠٠ ق.م) الذى اشتهر باسم اللابيرانت (على اسم شبيهه بكريت)، ويذكر هيرودوت عن اللابيرانت أنه: «كان يحتوى على ١٢ بهواً كلها مسقوفة... وله ممرات بين الحجرات، وممرات بين الأبهاء: «وقد دهشت عندما مررت من الأبهاء إلى الحجرات، ثم من الحجرات إلى صفوف الأساطين، ثم من هذه إلى أبهاء أخرى جديدة، «وكان هيرودوت يعتقد أن اللابيرانت أعظم من الأهرام، وأن آثار القصر فاقت الجميع فى الروعة. وكانت التماسيح المقدسة تربي فى البحيرة المجاورة للقصر، ويتعدها الكهنة لجذب السائحين، وقد تلاشى . الآن . اللابيرانت تماماً . وعندما نجح بترى عندما قام بحفائره سنة ١٨٨٩ فى تحديده موقعه لم يكن قد بقى منه سوى بعض الأعمدة والأعتاب والفتات . فقد استخدم القرويون أطلال القصر فى صنع الجير لعدة قرون .

كان السائح بعد اللابيرانت يصعد فى النيل حتى الأقصر حيث يزور الكرنك ويشاهد بهو الأساطين الضخم به، ومن ثم يتوجه إلى وادى الملوك المنعزل حيث مقابر فراعنة مصر العظام، وعند وصول الرومان كانت معظم مقابر وادى الملوك قد فتحت ونهبت، وقد تسلل بعض السائحين إلى حجرات دفن الفراعنة المنحوتة فى الصخور . حباً فى المغامرة، وقد سجل بعض هؤلاء أسمائهم على جدرانها فى ضوء الشموع فانتهجوها وأتلفوها، حتى أن ديودور الصقلى أشار إلى أنه لم

يجد «سوى ما نتج عن السلب والتخريب»، فى إشارة واضحة إلى عمليات السطو السابقة على هذه المقابر.

كانت وجهة السائح بعد ذلك تمثالى ممنون العملاقين فى أرض الوادى بجوار وادى الملوك، والتمثالان جالسان، وقد شبههما اليونانيون بملك أثيوبيا الأسطوري - ابن ربة الفجر - الذى أعان أهل طروادة على أخيلوس، فأطلقوا عليها اسماً من الميثولوجيا كما فعلوا بالنسبة للأبيرانت، وهى مسميات لا علاقة بينها وبين آلهة مصر وفراعنتها. والتمثالان فى الحقيقة يصوران الملك أمنحتب الثالث حيث أقيما أمام معبده الجنازى الكبير، فزال المعبد من الوجود - على عهد الرومان - وبقي التمثالان، وظلت عوامل التعرية تؤثر عليهما حتى أتى زلزال مدمر سنة ٢٧ ق.م فخربهما تخريباً شديداً، ورغم ذلك فقد ظل تمثال ممنون الشمالى يصدر أصواتاً غامضة كل صباح، بصورة كانت تجذب السائحين ليروا التمثال «وهو يتكلم» ولكن استرابو استخف بهذا الأمر وأرجعه إلى ألعيب الكهنة، وربما كان الصوت الصادر من التمثال فيما يشبه النواح فى حقيقته ظاهرة طبيعية سببها تمدد الحجارة بالحرارة فى الصباح، ولما زار الإمبراطور هادريان هذا التمثال ظل صامتاً فى اليوم الأول لكنه «تكلم» أمام الإمبراطور والإمبراطورة فى اليوم الثانى، كانت هذه الزيارة سنة ١٣٠م وخلدتها شاعرة الإمبراطور فنقشت على التمثال شعراً فى مديح الإمبراطور مع ممنون، وفى سنة ٢٠٢م أبى التمثال أن يتكلم أمام الإمبراطور سبتيوس سيفيرس، وكى ينال رضا التمثال أمر بترميم رأسه ووسطه، فكانت النتيجة أن سكك التمثال عن الكلام إلى الأبد.

لا يمكننا تحديد ما أثلفه الرومان من آثار مصر، فليس هناك ما يدل على وجود سوق رائجة لتجارة الآثار فى ذلك الوقت، وليس هناك ما يثبت اعتقادهم بمزايا الموميאות الطبية، أما ما استهوى الرومان حقاً فهو المسلات الجرانيتية برشاقتها ونفوشها الهيروغليفية. فالمسلتان اللتان أطلق عليهما اسم سترابو ما هما إلا مسلتان من مسلات عدة استولى عليها الرومان، فقد كان قسطنطين الأكبر (٣٠٦ - ٣٣٧م) مثلاً أكبر مغتصب للمسلات فى عصره، ومن المعروف أنه

استولى على مسلة للملك تحتس الثالث كانت فى طيبة فنقلها إلى الإسكندرية. لكن نقلها إلى القسطنطينية تعطل حتى وفاته، ثم نقلت بعد ذلك إلى هناك وأقيمت بجوار مسجد أياصوفيا الحالى فى عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الأول سنة ٣٩٠م. والمسلة مازالت هناك حتى اليوم، ونقلت مسلة أخرى إلى روما ونصبت فى حلبة سيرك الإمبراطور ماكسيموس بروما ولكنها سقطت ثم أعيد نصبها مرة أخرى فى عهد البابا سيكستوس الخامس سنة ١٥٨٧م.

وحاول الرومان أن يقلدوا المسلات لكن التقليد جاء ساذجاً لا قيمة له، وحاول الرومان تصور ما ترمز إليه المسلات، فكان رأى بلىنى الأكبر (٢٣ - ٧٩م) أنها ترمز لأشعة الشمس، وأن نقوشها الهيروغليفية ملخص «العلم الطبيعى كما يراه حكماء مصر»، ومن المفيد أن نذكر أن بلىنى كان من علماء الطبيعة الأفذاذ فى عصره، لكن بلىنى لم تستهوه الأهرام ورأى فيها «إسراف زائد، واستعراض غبى للثروة قام به الفراعنة» وتوجد فى كامبوس مارتىوس مسلة ثالثة، حاول القيصر أكتافىوس أن يستخدمها كمزولة: «معبّد طريقاً طويلاً يتناسب مع ارتفاع المسلة. ومع طول أطول ظل للمسلة فى أقصر أيام السنة، وزود الطريق بحبال برونزية لقياس الظل يومياً حتى يبلغ أقصر طول له، وبعدها يأخذ فى الامتداد مرة أخرى»، وقد فشل المشروع لأن نتائجه - حسب قول بلىنى - «لم تتطابق مع القياسات التى سجلت لمدة ٣٠ سنة مع التقويم (الحقيقى)».

اهتم الرومان منذ دخولهم مصر اهتماماً حقيقياً بفاسفتها وحضارتها العريقة، لكن ذلك لم يمنع الإمبراطور هادريان، ومن جرائه من عظماء الرومان، من شراء آثار مصر لتجميل حدائقهم فى مجاورة لآثار الفن الإغريقى، أما فى طيبة فقد استمر لصوص المقابر فى السلب والنهب والتخريب بدون وازع ولا رادع، وكم من سائح رومانى أثارت أشجانه ما كان يقرأ على أحد معابد فيلة عبارة تقول: «كل من يصلى لإيزيس تأتية السعادة والفنى وينعم بالعمر الطويل».

٣. عندما أصبحت المومياوات تجارة

بعدما استولى قسطنطين الأكبر على مسلتى طيبة بنحو خمسين سنة زارت مصر راهبة غالية تدعى ليدي ايثريا، زارت الإسكندرية، ثم الأهرام وعابنت قلايا الرهبان، ثم توجهت إلى طيبة حيث شاهدت تمثالاً ممنون فقالت: لم يبق بالمكان - الآن - سوى صخرة واحدة نحت عليها تمثالان لرجلين مقدسين - ربما كانا موسى وهارون - ولعل من نحتهما بنو إسرائيل تخليداً لهما»، وواضح أنها كانت تحت تأثير التوراة وهى تقول هذا الكلام.

كان الزمن الذى زارت فيه الليدي ايثريا مصر زمن اضطرابات، بدأ فيه تدهور السلطة الرومانية بظهور المسيحية مما أثر على الأحوال الاقتصادية والدينية، وقد دخلت المسيحية مصر فى القرن الأول الميلادى، على يدى القديس مرقس كما يقال، فانتشرت بسرعة وكثر أتباعها . ولم يستغ المسيحيون مبدأ تأليه الأباطرة فرفضوه بشدة وقاوموا عبادة الإمبراطور بلا هوادة، وكان هذا سبب اضطهاد المسيحيين فى مصر واستشهاد الكثيرين منهم، وحينما أقر قسطنطين الأكبر المسيحية كإحدى العبادات الرسمية أخذت الكنيسة السكندرية فى توسيع نفوذها فى القطر المصرى كله .

كانت المسيحية فى بادئ أمرها محصورة فى المدن المصرية، فلما ترجم الكتاب المقدس إلى القبطية فى القرن الرابع الميلادى انتشرت المسيحية فى

القطر كله بواسطة الرهبان، وربما كان اعتناق عامة الشعب للمسيحية فى حقيقته حركة احتجاج صامتة على سوء أحوالهم الاقتصادية فى مقابل الترف الذى يحظى به سكان المدن.

رفض اقباط مصر كل العبادات القديمة وطقوسها واعتبروها من الهرطقة، وشد من أزرهم فى موقفهم هذا ما قام به الإمبراطور جستنيان فى القرن السادس الميلادى من إغلاق لمعبد إيزيس بفيلة ونقل تماثيله إلى القسطنطينية، بذلك أصبح مجمع الآلهة الفرعونية غير قانونى، وبناء على ذلك اعتبرت نقوش المعابد من الشرور التى تجر إلى الخطيئة، مما أدى إلى التخريب المتعمد لآثار مصر انتصاراً للديانة الجديدة، وفى سنة ٣٩٧م جرى تخريب متعمد للسيرابيوم بمنف على يدى البطريق (القائد) المتعصب سيريل وجنوده، ثم أهمل حتى غطته الرمال، فلم ير النور مرة أخرى إلا فى القرن التاسع عشر.

وهكذا أصبحت آثار مصر تنعى من بناها، والأدهى أن أحجارها الجاهزة استخدمت فى أعمال البناء باعتبارها أقل كلفة من تقطيع أحجار جديدة من المحاجر البعيدة. وهى عملية قديمة الجذور منذ العهود الفرعونية، أما الآثار التى لم يمسهما البشر فقد تكفلت الطبيعة وعوامل التعرية بدفنها أو إتلافها، ومما زاد الأمر سوءاً أن الفلاحين محافظاً منهم على كل شبر من الأرض الزراعية استخدموا المعابد التى لم تدم. مثل معبد إدفو (معبد حورس) فى السكنى وبنا فوقه أكواخاً، واستمر الوضع كذلك قروناً عديدة، والفلاحون يجهلون على أى كنز يبنون، وهكذا كانت زيارة الراهبة إيثرى إيذاناً بدخول مصر فى عصر سبات عميق انقطعت فيه صلاتها بأوروبا زمناً طويلاً.

بعد ذلك جاء العرب وهزموا البيزنطيين، ولما دخل القائد العربى عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية وصفها وصفاً شاعرياً بأنها مدينة بها «أربعة آلاف حمام، وأربعة آلاف قصر، أربعمائة مسرح، وألف ومائتى بائع خضار.. وأربعين ألف يهودى»، علماً بأن المدينة كانت قد أصبحت مجرد ظل للإسكندرية التى كانت فى عنفوانها قلعة اقتصادية، ومنارة للعلم والمعرفة، وكانت مكتبتها الشهيرة قد زالت فى الحروب الأهلية التى سبقت الفتح العربى، وانتشر الدين الإسلامى

تدريجياً فى مصر بعد الفتح العربى عن طريق من استوطنتها من الصحابة والعلماء، والقبائل العربية التى استقرت بها واختلطت بالأهالى.

اندهش الفاتحون العرب عندما شاهدوا المعابد والأهرام، ولكنهم لم يأبهوا كثيراً بثقافة مصر القديمة وتاريخها، ويبدو أن السبب فى ذلك أنها مغايرة لما ألفوه، كما أن قبط مصر بعد أن هجروا لغتهم القديمة ونسوا كتابة الهيروغليفية لم يفلحوا فى إثارة فضول الفاتحين واهتمامهم بآثار مصر؛ لذلك ادعوا أن آثار مصر العظيمة من عمل المردة والشياطين فى الماضى السحيق، وظن بعضهم أن الأهرام صوامع اختزن فيها يوسف الصديق الحبوب والغلل فى سنوات الرخاء تحوطاً من سنوات القحط التى حلت فيما بعد (حسب القصة المشهورة) (*)، والنظرية ليست جديدة فقد سبق أن نادى بها يوليوس هورونيوس فى القرن الخامس الميلادى، وشطح الخيال بالبعض فظنها تحوى كنوز الفراعين القدامى، ويقول الجغرافى العربى الكبير المسعودى إن الهرم الأكبر داخله «تمثال شيخ كبير من الحجر الأخضر، جالساً على أريكة، متدثراً بعباءة»، وأبدى المسعودى أسفه؛ لأن التمثال يستحيل تحريكه، على أى حال تسلل العرب بعد ذلك إلى الهرم بحثاً عن الكنز المزعوم، ثم استخدموا المعابد والأهرام كمحاجر باعتبارها مورداً سهلاً للحجارة المطلوبة للبناء، وحطموا بعض المعابد للبحث عن كنوز مزعومة.

وفى بناء الفسطاط استخدموا كسوة الأهرام وحجارة المعابد والمقابر القريبة، لتأسيس العاصمة الجديدة.

كان صيد الكنوز فى القرن الخامس عشر عملاً مشروعاً خاضعاً للضريبة، واستخدمت وسائل سحرية للكشف عن الكنوز، لو أفلحت لأغنت عن طرق التنقيب الحديثة. وصنفت فى ذلك كتب ذكر فى أحدها أن كنوز إحدى الجبانات فى هليوبوليس «تتكشف» للباحث إذا استخدم «البخور» فى مكان معين منها.

لكن حكماء الرجال لم ينطل عليهم ذلك. فتجد عالماً جليلاً مثل ابن خلدون (القرن الخامس عشر) يتعجب من غنلة العامة وظنهم بأن من يسعى لاستخدام السحر لإخفاء الكنوز سوف يترك دليلاً يكشف إمكانية إبطال ذلك السحر. لكن

السطو لم يتوقف حتى القرن التاسع عشر، ولم يتورع صائدو الكنوز حتى عن القتل ونهب بعضهم بعضاً، رغم فشلهم المتكرر. والمدّهُش أن مدير دار الآثار المصرية سنة ١٩٠٧ نشر أحد هذه الكتيبات (السحرية) «اسمه كتاب الدر المكمون» وبيع بسعر زهيد ساعد على انتشار مثل هذه الأباطيل(*).

بعد انتشار الإسلام في مصر لم يجد المسيحيون الأجانب ترحيباً فيها، ويقول القس برنار الحكيم سنة ١٨٠٧ بأنه اضطر هو ومن رافقه إلى رشوة قبطان السفينة ليقبل إنزالهم بالإسكندرية، وأنهم ما أن نزلوا حتى تم ترحيلهم إلى القاهرة ووضعهم المتولى (المحافظ) في المطبق (السجن) ويستطرد فيقول: «وألهما الله بعد ستة أيام أن نرشوه (ليطلقنا) فتقاضى ثلاثمائة دينار من كل منا»، وشاهد القس صوامع غلال يوسف (الأهرام) ثم رحل مباشرة إلى أورشليم (القدس)، دون أن يرى آثاراً أخرى، هذا المرور العابر كان السمة الغالبة لحجاج بيت المقدس المتأثرين بنصوص التوراة، لكن العرب كانوا أكثر تعقلاً ونضجاً، فعندما قدم الطبيب العربى المعروف عبداللطيف البغدادي إلى مصر سنة ١٢٠٠. وزار الهرم الأكبر وصعده حتى ثلثيه، شاهد بعض الباحثين عن الكنوز مع تعازيمهم وكتيباتهم السحرية، ووجد أن أكثر الممرات ارتياداً تملؤها الخفافيش وتتبعث منها روائح كريهة، ويقول طبيبنا إنه أصيب بالغثيان لكنه أعجب بالنقوش الهيروغليفية على كسوة أبى الهول الجرانيتية فقال: «هذا التمثال بديع جداً، وعلى فمه سيماء النبل والترفع، وتدل ابتسامته على السمو»، وتجول طبيبنا فى منف ووصف أطلالها الرومانية: «يسير الرجل فيها نصف يوم فى كل اتجاه حتى يحيط علماً بهذه الأطلال»، وكل ما وصفه البغدادي زال من الوجود بعده بستمئة سنة، ولم يبق منه سوى الحطام.

لم يكن المثقفون الأوروبيون منذ خمسمئة سنة يعرفون عن مصر إلا اليسير الذى يسمعون من جنود الحملات الصليبية، أو الذى يقرأونه فى كتب الجوالين. وراج فى ذلك الوقت كتاب يسمى «رحلة وعمل الفارس السير جون ماندفيل» وهو مؤلف لإرشاد الحجاج إلى بيت المقدس، وقول المؤلف إن كتابه يضم خبرته الشخصية، ولكنه حافل بالخرافات والحكايات الشعبية التى جمعها من مصادر

كلاسيكية مختلفة، مختلطة بروايات مشكوك فيها لبعض السائحين، والحقيقة أن هذا الفارس لم يكن شخصية حقيقية بل من اختلاق جين دوترموس J.d'Autermeuse منتصف الكتاب وكل ما فيه مختلق، ورغم ذلك يعد من المراجع الهامة التي لا يشك في صحتها ونقلت منه نصوص كثيرة منها قوله عن الأهرام: يقول البعض إنها قبور بعض الملوك العظام، ويقول غيرهم - وهو غير صحيح - إنها كانت صوامع غلال يوسف (الصديق)».

زار مصر في القرن السادس عشر الكاتب العظيم «ليون الأفريقي» - وهو كاثوليكي مثقف - وذلك أثناء رحلته إلى شمال أفريقيا، وسافر «ليون» في النيل من الإسكندرية إلى أسوان حتى بلغ الشلال الأول، وشاهد في رحلته مظاهر الحياة المصرية والآثار على ضفاف النيل، لكن مشاهداته كانت عابرة ليس فيها عمق، كما ألف كتابه «تاريخ ووصف أفريقيا» الذي لا تقل شهرته عن شهرة كتاب ماندفيل، جاء وصفه لآثار مصر سطحياً باهتاً. فكان وصفه للأهرام ساذجاً، ووصف منف بأنها «مدينة يبدو أنها كانت كبيرة جداً في الأيام الخالية»، وفي منفوط يقول إن هناك: «بحوار النيل مبنى حكومي يبدو أنه يمثل معبداً قديماً، يعثر فيه المواطنون - أحياناً - على عملات من الذهب والفضة والرصاص، على أحد وجهيها نقوش هيروغليفية وعلى الوجه الآخر صورة لأحد الملوك القدماء».

كانت الرحلة إلى مصر في ذلك الوقت شاقة، تستغرق أسابيع عبر المتوسط بالسفن، وفي رحلة من هذه الرحلات شكى الأخ فيكيلس فابري من تدنيس يوم الأحد (المقدس) بسكر المسافرين وصخبهم، ومن قذارة البحارة، والعمل الكريه الذي يعملونه «التفلية من القمل».

اكتشف البرتغاليون خط رأس الرجاء الصالح الملاحى سنة ١٥١٧ فتمكنوا من احتكار تجارة التوابل، وفي السنة نفسها احتل العثمانيون مصر وأبرم السلطان سليم الأول معاهدتين بينه وبين فرنسا وأسبانيا تعهد فيهما بحماية غير المسلمين في إمبراطوريته، بذلك أصبح السفر إلى مصر أكثر أماناً، وكانت النتيجة انتظام السياحة وتدفق الحجاج والتجار والدبلوماسيين إلى مصر، وكان معظم هؤلاء يتطلعون إلى التجارة؛ لذلك لم يهتموا بتسجيل أى ملاحظات علمية،

لكن البعض مثل عالم النبات الفرنسى الدكتور بيير بيلون سنة ١٥٥٣ حرص على زيارة الأهرام وأبى الهول ودخل هرم خوفو.

كان أهم ما استرعى انتباه الأوروبيين فى مصر المومياوات، إذ كانت الكتابة عن تحنيط الجثث منتشرة فى الأدبيات الكلاسيكية، فى الوقت نفسه كان الأهالى فى مصر قد اعتادوا على سرقتها من التوابيت لاستخدامها فى العلاج، وفى القرن السادس عشر كانت المومياوات ومستحضراتها تستخدم ضمن العقاقير الطبية، وأصل كلمة مومياء فارسية مشتقة من ماميا أى الزفت، وكان القار (القطران) الشرقى مشهوراً فى علاج الجروح والكدمات والغثيان والكسور وغيرها وهو فى مظهره يشبه ذلك الذى كان يستخدمه المصريون القدماء فى تحنيط الجثث، وعند شحة القطران كانوا يستخدمون ما يجدون منه داخل الجثث، ثم وجدوا أنه من الأسهل استخدام لحم الجثث نفسها للغرض نفسه.

كان استخدام المومياوات فى الطب معروفاً موقراً منذ القدم، ثم استخدمه العرب فى العلاج منذ القرن الحادى عشر، ويعد طبيبنا البغدادى - المشار إليه آنفاً - فوائد المومياوات: «المومياء (أى القطران) فى تجاوبف الجثث لا يختلف عن المومياء (أى القار) المعدنى، ويمكن اتخاذه بديلاً عنه»؛ لذلك كانت تجارة المومياوات رائجة، وتصدر إما كمومياوات كاملة (جثث محنطة) أو فتاتها بعد تعبئته ليباع فى أوروبا، وكان الأهالى ينتهكون المقابر القديمة للحصول عليها. ويقول عبداللطيف البغدادى سنة ١٢٠٣: «كان سعرها زهيداً كل ثلاثة رؤوس محشوة بمادة التحنيط بدرهم واحد... وهذا القطران فى سواد الزفت، وإذا تعرض للشمس أو الحرارة فإنه يذوب».

ويقول مؤرخ عربى آخر عن عملية السطو على المومياوات:

«قبض على من جمع كثيراً من الجثث، ومثلوا أمام العمدة، وضربوا حتى اعترفوا بأنهم تعودوا الاستيلاء على الجثث من المقابر ثم غليها فى الماء على نار حامية حتى يقطع لحمها. بعدها يجمعون الزيت الطافى (القطران) على سطح الماء ويبيعه للفرنجة الذين كانوا يدفعون ٢٥ قطعة ذهبية لكل مائة وزنة منه».

اشتغل الكثير من التجار الأجانب فى تجارة المومياوات لأنها كانت مربحة، ولقد زار الرحالة الألمانى جوهان هلفريخ J. Helfrich مصر سنة ١٥٦٥ بغرض الحصول على المومياوات لدرجة أنه نبش عدة قبور لكنه فشل، لكن جون شانديش وكيل الشركة التركية بالإسكندرية (١٥٨٥ - ١٥٨٦) كان أكثر توفيقاً، فرغم أن عمله الأساسى يتعلق بالتجارة إلا أنه كان يقضى جانباً كبيراً من وقته فى مواضع المومياوات بمنف، ثم انغمس فى تجارة المومياوات فاشتترى بحوالى ٦٠٠ جنيه من المنتجات المحنطة . لحوماً وجثثاً . لتصديرها إلى إنجلترا، ولجأ إلى الرشوة لتسهيل تهريبها، وغادر مصر ومعه بضاعة «كثير من الرؤوس والأيدى والأذرع والأقدام للمقايضة»، وكان سعر رطل المومياء فى اسكتلندا سنة ١٦١٢ حوالى ثمانية شلنات، مما حقق لساندرز ربحاً جزيراً.

بحث الطبيب الفرنسى «جى دالافونتين» - من مواطنى نافار - موضوع تجارة المومياوات سنة ١٥٦٤، فوجد الغش فاشياً فيها وكثيراً ما كانت الجثث الحديثة تباع باعتبارها مومياوات، ولم يكن التجار يتحرون مصدر المومياوات، ويستغريون إقبال الأوروبيين على لحوم المومياوات طلباً للعلاج، وكان هناك اعتقاد أن المومياء عقار مضمون لدرجة أن فرنسيس الأول ملك فرنسا كان يحرص باستمرار على حمل لفافة صغيرة من المومياء للطوارئ، لكن هناك من استهجن التكاليف على المومياء التى هجاها أحد الكتّاب فقال: «هذا النوع الحقيقى من الدواء لا يفيد المرضى، وتنتج عنه بعض أعراض ضارة مثل خفقان القلب وتقلص المعدة والتقيؤ واصطكاك الأسنان» . *

حاولت الحكومة المصرية الحد من تجارة المومياء ففرضت عليها ضريبة باهظة، وحظرت تصديرها للخارج. وكانت مراكز شحنها تتعرض للعواصف والتقلبات البحرية، وكان البحارة البسطاء يعززون ذلك لهذه «البضاعة»، ورغم ذلك استمرت تجارة المومياء رائجة، وظلت تستخدم فى الطب حتى القرن التاسع عشر، ويقول الفيلسوف سير توماس براون: «أصبحت المومياء سلعة تشفى الجروح، وصار الفرعون يباع للحصول على البلسم»، وأما مارك توين فيقول بأسلوبه الهزلى المعروف: «تستخدم القطارات (المصرية) مومياوات عمرها ثلاثة

آلاف سنة كوقود يشتري بالطن وربما بمحتويات المقابر كاملة، وقد يصيح سائق القطار: ... «رفات السوق لا تحترق ولا تساوى مليماً. ابغ لنا ملكاً»، وحتى في سبعينيات القرن العشرين (الحالي) مازالت هناك سوق منظمة للمومياء، وإن كانت محدودة، وهى تستعمل - الآن - فى السحر والشعوذة. وبعض صيدليات نيويورك يقال إنها تبيع مسحوق المومياء المصرى الأصلي بسعر أربعين دولاراً للأوقية.

هوامش

(*) كان اهتمام العرب بعلم التاريخ عظيماً، ويسبق حتى ظهور الإسلام، وقد اهتم المؤرخون العرب بدراسة تاريخ الأمم القديمة، بل ودياناتها وعاداتها وتقاليدها، وصنفوا فى ذلك الكثير من الكتب، ولم يكن اهتمامهم بمعرفة تاريخ مصر أقل من غيره، ويدل على ذلك اهتمام الخليفة المأمون نفسه، كما يروى المؤرخون. بالنقوش الهيروغليفية، مما دعاه للبحث والتتقيب عن يعرف تلك الكتابة. ولكن الكتابة الهيروغليفية كانت قد اندثرت بالفعل قبل الفتح العربى بزمان طويل. وقد كف الناس عن محاولة تعلمها خوفاً من الاتهام بالوثنية. ومن ثم، فإن نكوص المؤرخين العرب عن دراسة الآثار القديمة، ثم يكن بدافع عدم الاهتمام، فهم اهتموا، كما فعل المقرئى مثلاً، بوصف الكثير منها وتسجيلها وتدوين ما توصلوا لجمعه من معلومات عنها، ولكنه كان بدافع العجز عن قراءة الكتابة المصرية القديمة، التى لم يكشف عن سرها إلا منذ زمن قريب نسبياً (المحرر).

(*) يشير الكاتب إلى المرحوم أحمد كمال باشا الذى عنى بطبع هذا الكتاب. ومن المؤسف حقاً أن الكاتب لم يفتن إلى ما فطن إليه ذلك العالم المصرى الجليل من أهمية تلك الكتب كمصادر علمية لدراسة الآثار. فهى رغم أنها مليئة بالخرافات، إلا أن من كتبوها وصفوا آثاراً حقيقية شاهدها، وحددوا موقعها، ومنها الكثير قد زال اليوم، ولذا يجب الاهتمام بدراسة تلك الكتب من الناحية الطبوغرافية، وقد تثبت بالفعل أنها مصدر هام لتحديد مواقع تلك الآثار القديمة الإسلامية والقبطية والفرعونية (المحرر).

٤. كل يسعى وراء مجموعة أثرية

«حيث أن أجمل الآثار القديمة قد صانت نفسها من عوادي الزمن قروناً عديدة، ليتسنى لنيافتكم اختيار ما تشاءون منها لتزيين مكاتبكم أو الحفظ في خزائن نفائسكم، أتشرف بإخطاركم أنني كى أوفر لها ما تستحق من الحماية والصيانة.. فقد وزعت منشوراً فى المشرق على كل القنصليات الفرنسية ينبه إلى ضرورة اتخاذ ما يلزم لتحقيق هذا الهدف النبيل».

هذا نص الرسالة الموجهة من السفير دى هوساى بالقاهرة سنة ١٦٣٨ إلى الكردينال «ريشيليو» بفرنسا، وتظهر فيها الروح السائدة فى تلك الأيام بين ملوك فرنسا ونبلائها، ومدى تلهفهم إلى اقتناء كل ما هو طريف وغريب، وهو اتجاه ظهر حديثاً فى عصر النهضة، عندما عاد المثقفون إلى الاهتمام بجمع المخطوطات القديمة للحصول على المعرفة والثقافة من منابعها الأصلية، مما دفع الكتاب إلى معالجة المسائل والمشاكل بأسلوب عصرى.

كانت الآثار المصرية نادرة فى أوروبا فى ذلك الوقت وتكاد تقتصر على مسلتى القسطنطينية وروما، وكان لدى الأوربيين إلمام لا بأس به بعبادات الدفن لدى المصريين القدماء، كنتيجة لنشاط تجارة المومياوات فى أوروبا فى ذلك الوقت، وفى ١٦١٥، عندما عاد الرحالة الشهير بترو ديلا فالى من العراق كان فى حوزته أول ألواح مسمارية تعرفها أوروبا، بالإضافة إلى مومياوات سليمة اشتراها من

سقارة، وما لبثت هذه التحف وأمثالها أن راج سوقها وبدأت تعرض فى متاحف الأفراد والملوك.

واتخذت عملية اقتناء الآثار شكلاً أكثر جدية فى القرن السادس عشر نتيجة لاهتمام بعض الكرادلة بإيطاليا والأمير كوسيمى من آل ميديتشى بجمع التحف وكان بينها القليل من الآثار المصرية، وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر شاعت ظاهرة الرحلات الطويلة إلى بلدان البحر المتوسط بين أوساط المثقفين، وهؤلاء كانوا يعودون ومعهم تماثيل ونقوش من معابد اليونان وروما ليزينوا بها حدائقهم أو ليعرضوها فى متاحفهم الخاصة، وفى البداية لم يهتم هؤلاء بتصنيف مقتنياتهم على أسس علمية، فكانوا يكسونها بلا نظام معين، لذلك حوت خزائنهم خليطاً عجيباً من العملات والموميאות وفراء الرؤس الهندية والسلال والفئوس البولينية والبرديات... وغيرها.

وكانت بعض المجموعات غنية بالتماثيل الأجنبية، ولم يخل أصحابها على الجمهور بمشاهدتها، ومن ثم راجت تجارة الآثار وأصبح لها تجارها وعملاؤها، وكالعادة، كان هناك من يحط من قدر مثل هذه الآثار، مثل المستكشف الإسكتلندى بروس، فعندما زار القاهرة سنة ١٧٦٨ يبدو أنها لم تعجبه فقال: «لم أكره مكاناً أكثر منها.. إن فرص الثقافة والاستمتاع فيها أدنى كثيراً من غيرها، وآثارها غير مطابقة لأوصافها»، لكن أثرياء السائحين المتطلعين كان لهم رأى مخالف، وما أن انقضى القرن السادس عشر حتى بدأ هؤلاء يكونون الرعيل الأول من الأثريين، وأخذوا يسيحون فى النيل سعياً وراء الثقافة والمعرفة ودراسة الآثار، لا يشغلهم عنها شاغل.

فى عهد الاحتلال العثمانى ازدهر النشاط السياسى فى مصر، وكان بها عدد غفير من الدبلوماسيين بين مقيم وعابر، وكلهم لديه من الوقت والفراغ ما يمكنه من ترتيب رحلات فى القاهرة إلى الأهرام وسقارة ثم ارتياد أسواق القاهرة الشعبية، حيث تعرض الموميאות للفرجة أو البيع، وكان تجار العاديات يتكفلون ببيع التحف والآثار لهؤلاء الزوار الأجانب، ومن هذه الآثار التماثيل والجعارين والبرديات حتى الموميאות الكاملة، وكان الزوار يقبلون على الشراء بنهم للحصول

على هذه التحف، فمهما كان الثمن فقد كان يسهل تصريفها فى أوروبا وتحقيق مكاسب كبيرة من ورائها.

أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر كان الملوك والنبلاء الفرنسيون من أكثر أهل أوروبا اهتماماً بجمع الآثار، فكانوا أول من أرسل البعثات المتخصصة إلى بلاد البحر المتوسط للبحث عن العملات والمخطوطات وغيرها من الآثار، وكان اهتمامهم شديداً بالتفاصيل وأول مبادئ البحوث الأثرية. من ذلك أن الأب «فانسلب». من أتباع لويس الرابع عشر - تلقى من هذا العاهل المستثير تعليمات بتحقيق هدف محدد: «الحصول على أكبر عدد من المخطوطات «الجيدة»، والعملات القديمة (الأثرية) للحفظ فى متاحفنا». كما طلب منه «وصف سكان مصر وشرح طريق الدفن عند كل فصيل منهم».

كانت رحلة الأب فانسلب حافلة بالأحداث، ومن الطريف أنه كان يحمل معه برميلاً من النبيذ ويحرص على حراسته. وفى البدء حاول قياس الهرم مستخدماً أسلاكاً طويلة لكن الرمال أعاقته، وفى سقارة هبط فى بعض القبور الجماعية وحصل على بعض جثث الطيور المنحطة من أوان فخارية، وأرسلها إلى باريس مع مخطوطات «عربية» بينها واحدة ترشد إلى «الأماكن السرية، لكل الكنوز المصرية»، ثم تنكر فى زى تركى مزعماً السفر فى النيل من القاهرة إلى الصعيد . لكنه أحجم خوفاً على حياته، فقد كان الأتراك يعرفون أنه وكيل لويس الرابع عشر فارتابوا فى نواياه، وألغى فانسلب رحلته إلى أثيوبيا بدعوى عنف الأهالى وشدة الحكام الأتراك، بعد ذلك اختصر رحلته سنة ١٦٧٢ فقد كاد يفقد حياته أثناء زيارته لدير القديس مكاريوس القبطية فى الوجه البحرى، وكان السبب «رفيق سفره» برميل النبيذ، وتتلخص القصة فى أن أحد القضاة أرسل إليه رسولاً للحصول على بعض النبيذ، فأبى لأن «الخمير حرام على المسلمين»، وفى اليوم الثانى فوجئ بثلاثة من البلطجية يريدون نزع البرميل منه وإلقائه فى النيل، لكن فانسلب دافع عن «رفيقه» ببسالة، وأفلح خادمه النوبى «الرابط الجأش» فى إلقاء أحد البلطجية فى النيل، وسويت العملية فى النهاية بتغريمه عشرة قروش «لتعاطى المسكرات»، وطلب فانسلب من الكائنات أن يخصص له

حارساً، لكن الكاشف رفض وعرض أن يرافقه بنفسه حتى ينتهى من زيارة الدير ويعود لداره، وتوجس فانسلب لما عرف عن الكاشف من ضلوع فى عمليات الاغتيال. ووافاه واحد من أتباع الكاشف سبق أن أكرمه فانسلب ليحذره ويطلب منه الفرار على الفور، «فطار النوم من عينيه» وتسلسل من القرية هارباً، وأخيراً رشا ريس أحد المراكب فابتعد به عن المكان بينما كان الكاشف يحاول اللحاق به راضياً يتميز من الغيظ فى ثلاثين من خيالته، وتخوف الرجل من مخدومه ملك فرنسا فاعتكف فى القسطنطينية ليكمل كتابه «تاريخ الكنيسة بالإسكندرية»، ثم عاد إلى فرنسا سنة ١٦٧٦: وتعرض للعقوبات لعدم قيامه بالرحلة التى كلف بها إلى أثيوبيا.

كان الدبلوماسيون المقيمون أكثر الجميع حماساً فى جمع الآثار، فقد كانت أعباؤهم الوظيفية فى القاهرة والإسكندرية هينة، فكان جمع الآثار بالنسبة لهم هواية وعملاً إضافياً مريحاً معاً، وكانت الوظيفة مع العلاقات الشخصية تسهل لهم كل عسير، ومن هؤلاء قنصل فرنسا فى مصر بنوا داماي (١٦٩٢ - ١٧٠٨)، الذى زار الأهرام ودخلها أكثر من أربعين مرة، وكان يرسل علماء فرنسا، ووضع مشروعاً لاستكشاف آثار مصر الفرعونية استرشدت به حملة نابليون بعد مائة سنة. وذكر فى تقريره: «قيل لى إنه يوجد فى الصعيد معابد مازالت سقوفها الزرقاء أو المموهة محتفظة بجمالها كأنها جديدة، وهناك تماثيل عملاقة، وأساطين لا حصر لها»، وأوصى برسم خريطة دقيقة لمصر، وبتكليف شخصيات تتميز بالحكمة وحب الاستطلاع والبراعة»، لاستكشاف وادى النيل على مهل. وهو ما عملته حملة نابليون بعد ذلك بمائة سنة.

وخلف داماي القنصل مير Maire وكان مثله فى اهتمامه بالآثار، كما اهتم بها بول لوكا P. Lucas ابن أحد الصياغ حضر فى بدء أمره لشراء مجوهرات وعملات وتحف، ثم أوكله لويس الرابع عشر كى: «يحاول فتح أى هرم ويحصى ما بداخله»، لكن لوكا بدلاً من ذلك اشترى طيوراً محنطة من سقارة ثم قام برحلة بطيئة إلى الوجه القبلى حيث أعجبه «القصور الواسعة، والمعابد العجيبة، والمسلات والأساطين الكثيرة التى مازالت قائمة».

ورد ذكر أسماء كثيرة من رواد السياحة الذين زاروا مصر فى الأدبيات كلاسيكية، ممن وفدوا على مصر وزاروا القاهرة، حيث تفقدوا الأهرام وتسللوا - خلفها حتى غرف الدفن، ومعظمهم تأذى من ارتفاع الحرارة ورائحة العطن داخل الهرم، فمنهم من أغشى عليه، ومنهم من انحشر فى ممرات ضيقة لبدانته مما أزعج رفاقه وأربكهم عند تخليصه، وكانوا يستعينون بالأدلاء لتسلق الأهرام من الخارج، وقد كانوا يزورون الصعيد فى جماعات مستخدمين «الدهبيات». وهى مراكب كلاسيكية مريحة يمكنها الوصول إلى الشلال الأول، وربما أبعد، وكان المنفرد منهم يركب زورقاً عادياً لعدم وجود وسائل برية فى ذلك الوقت . نثرن الثامن عشر).

كانت أسواق القاهرة الشعبية : كاكينها تعج بالسائحين ومكدسة بالبضائع من كل أنحاء العالم العربى والغربى والأفريقى، وهذه الدكاكين لها شهرة عريقة فى بيع الآثار والتحف والمجوهرات ذات الأصل الفرعونى، كذلك كانت المومياوات وما يتصل بها متوفرة بهذه الأسواق، وكان كل سائح يعود إلى بلده حاملاً تذكاراتاً مصرياً . جعراناً أو تمثالاً صغيراً أو تميمة مثلاً، أما جمع الآثار جدياً فكان نادراً، مقصوراً على وكلاء الملوك والأغنياء القادرين، أما الطلب على المومياوات فكان كبيراً لدرجة تكفى لشغل وقت القرويين بسقارة فى فتح المقابر القديمة، واستمر تحطيم الآثار للاستيلاء على الحجارة كما كان، مما حدا بالسائح البريطانى ريتشارد بوكوك الذى زار مصر سنة ١٧٣٧ إلى التعبير عن حسرته: «إنهم يحطمون كل يوم بقايا آثار مصر الجميلة، ورأيت بعينى أعمدة (أثرية) تقطع تستخدم كأحجار رحا (طواحين)».

كانت معلومات الأوروبيين عن مصر القديمة فى القرن الثامن عشر ساذجة. تكاد تنحصر فى أن الفراعنة أعداء بنى إسرائيل. وكانت التوراة تحدثهم عن قصة خروج بنى إسرائيل بقيادة نبيهم موسى . ﷺ . فراراً من فرعون، ثم أخذ سوق الآثار المصرية ينتعش تدريجياً حتى أصبح سوقها رائجاً، وفى سنة ١٧٢٣، عرض توماس سرجنت «صندوقاً به آلهة مصرية، ورد من القاهرة حديثاً» فى اجتماع لجمعية الآثار بلندن، وشد انتباه الأعضاء «تمثال نحاسى لأوزيريس،

وآخر للإله حربوقراط، وصولجان، وتمثال فريد عار، وتمثال لإيزيس وابنها، وتمثال صغير لأحد الكهنة، وقطة، وجعران مجنح غريب الشكل ذو طلاء أزرق عليه كتابة هيروغليفية»، وزاد العرض من الإقبال على شراء الآثار فارتفعت أسعارها، ودخلت سوق شراؤها فئات جديدة جعلتها أكثر رواجاً، وتفرغ عدد من هواة الآثار لجمعها . إما لامتلاكها وإما لبيعها، كذلك أخذت الدول تهتم بتطوير متاحفها القومية التي تعرض التراث الوطنى والأجنبى، ومن أعرق هذه المتاحف المتحف البريطانى الذى قرر البرلمان الإنجليزى إنشاءه سنة ١٧٥٦، ودعم الدكتور هانز سلون . الطبيب المعروف، وأحد مؤسسى المتحف . هذا المشروع بمجموعة كبيرة من القطع الأثرية كانت بحوزته: منها آثار مصرية: مصابيح وبرديات وبعض الأدوات وآثار أخرى.

وراود بعض السائحين فكرة التنقيب عن الآثار بأنفسهم، وحصلوا من السلطات التركية على تصاريح بنقل محتويات بعض المقابر، والبحث عن الآثار والتماثيل والنقوش بالحفر حول المعابد. ونجحت بعض هذه الأعمال وأدرت على أصحابها الكثير من المومياوات والمتاع المقبرى الجليل، رغم المخاطر التى تعرضوا لها .

اعتقد العرب أن الأوروبيين يملكون وسائل سحرية ترشدتهم إلى مخابئ الكنوز والجواهر الأثرية، وأنبأنا الرحالة الإنجليزى الكبير وليام جورج برونى أن مغربياً ويونانياً قد قتلوا فى أحد المعابد بطيبة: لأن الأهالى ظنوا أن معهما تعاويذ سحرية ترشد إلى كنوز طيبة، فإذا انكشف كنز فقد كان الكل يهب مطالباً بنصيبه: الحكومة والمحليات وجامعو التحف والتجار، ولما شرع نائب القنصل الفرنسى بالإسكندرية فى شحن ثلاثة تماثيل سنة ١٧٥١، جابه معارضة شديدة، وادعت السلطات أن لها فى ذلك حقوقاً، واضطر القنصل لحل المشكلة إلى استعمال «الحيلة والصبر والرشوة»، واتسع نطاق البحث عن الآثار عندما اعتاد الأهالى التعامل بالنقد، فتوسعوا فى انتهاك المعابد والمقابر، مفتقدين للحس التاريخى، بغية الحصول على الأموال من الأجانب الذين لم يكفوا بدورهم عن الضغط عليهم للحصول على الآثار.

من السائحين من كان هدفهم أكثر نبلاً، فمنهم من أولى اهتمامه التمتع بمشاهدة الآثار المصرية القديمة، دون الالتفات لأى شىء آخر، ومنهم من اهتم بنسخ النقوش واللوحات الجصية التى على جدران المعابد، وأمضى فى ذلك أوقاتاً طويلة، واهتم ملك الدانمارك المستير كرستيان الخامس بتسجيل الآثار المصرية، وعهد إلى المهندس البحرى الفنان فردريك لويس نوردون برئاسة بعثة أرسلها لمصر لهذا الغرض، وحاولت البعثة التوغل حتى الشلال الثانى، لكنها اضطرت للعودة بعد وصولها للدر بالنوبة، وكان من مميزات نوردون الصبر وقوة الملاحظة؛ لذلك عندما عاد إلى وطنه وألف كتابه «سياحة» الذى طبع سنة ١٧٥٥، لاقى من الجمهور والمثقفين قبولاً شديداً، والكتاب هو المحاولة الأولى فى أوروبا لعرض صور ومخططات عن آثار مصر القديمة اتسمت بالدقة والحيوية.

ومن مآثر نوردون اهتمامه بالأحوال الاجتماعية وحياة الناس اليومية فى مصر القديمة، وهى طفرة كبيرة بالنسبة لما كان يحدث من تكالب الباحثين على جمع الغرائب وتدريج الأساطير، وقد أعجب صاحبنا بالنقوش التى تصور موقعة قادش الشهيرة بمعبد الأقصر للملك رمسيس الثانى، كذلك أعجبه الصور الجدارية فى المقابر، إذ ساعد جو مصر الجاف على احتفاظها بمحتوياتها كل تلك المدة ونعى على العرب اقتصارهم على الاهتمام بالكنوز الأثرية والسحر: «يجب أن يسعد ويتمتع بمشاهدة الصروح القديمة وتأملها - دون لمس أو تحريك أى شىء - ولن أنسى ما حييت الجمهور الحاشد الذى جاء ليشاهدنا ونحن نتجول فى أسوان ليروا بأعينهم السحرة الماهرين يمارسون سحرهم الأسود»، ويستطرد لينصح السائحين: «تزى بزى تركى وألصق (مثلهم) شاربين كثيفين، وتجهم للأهالى وسوف تتجح»، كذلك يحذر السائح الواعى من العاهرات وإلا وهبه تذكاراً «لا يزول بالوقت ولا بالمكان ولا بالزئيق»، بالمعنى أنهن سيصيبونه بمرض سرى.

كانت صور نوردون جميلة ودقيقة لكنها لم تضيف جديداً لتاريخ مصر القديمة، واقتصرت المعلومات على ما فهموه من مشاهدة الآثار الباقية، أو قراءاتهم لهيرودوت وأقرانه وهى كتابات عفى عليها الزمن، وكان السبب

الحقيقى وراء ذلك استغلاق الكتابة الهيروغليفية على الدارسين حتى ذلك الوقت، وجرت محاولات لاستجلاء الحروف الهيروغليفية لكنها فشلت؛ لأن الدارسين أضلهم ما ذكره اليونانيين من أن اللغة الهيروغليفية لغة تصويرية تعبر عن مفاهيم غامضة.

روى عن الهيروغليفية روايات عجيبة، منها ما قاله أحد العلماء الأفاضل وهو أن المصريين القدماء وصلوا إلى الصين وأنشأوا بها مستعمرة، ومن ثم فالهيروغليفية قد تطورت عن الحروف الصينية. أما أسقف جلوسستر الحضيف وليام واربورتون فلاحظ أن الهيروغليفية كانت مستعملة فى المعاملات الجارية، فلا يمكن أن يكون لها مغزى سحرى: ونادى بأن الهيروغليفية تطورت عن رموز سحرية لتلائم الاستخدامات الجارية، ولكن الهيروغليفية ظلت مستعصية على الفهم، رغم تعدد زيارات العلماء لمواقع الآثار ومعابنتها من الخارج والداخل، والحقيقة أن مثل هذا العمل كان فوق طاقة الأفراد، ولم تكن الحكومات قد أولت اهتماماً كبيراً بالبحوث الأثرية. واستمرت الأحوال كما هى ولم يوجه الاهتمام إلا إلى نهب الآثار، بينما وقف أجلة العلماء حائرين.

ووسط هذا الجو الكئيب نشط الفلاسفة، ومن هؤلاء الكونت دا قسطنطين فرانسوا ساسييوف فولنى F. S. Volney، الذى أمضى فى مصر وسوريا أربع سنوات، وقد عنى بدراسة النظم السياسية والاجتماعية، كما زار الأهرام وأعجب بها، إلا أنه استنكر مجبروت وإسراف من بنوا هذه الصروح العظيمة، واستعبدوا شعوبهم وسخروها: « إذا كان هواة الفنون يستنكرون اقتلاع أعمدة القصور البديعة للحصول على الحجارة. فإن الفيلسوف يعجب لتصاريف القدر التى ردت للشعب ما بناه بجهد وعرقه تحت وطأة البؤس، فالحاجة التى دفعتهم لتحطيم ما بنوه لإرضاء غرور الترف الذى لا يغنى ولا يسمن من جوع»، وعلينا أن نحاط من مثل هذه العبارات الطنانة فنظن أنفسنا أمام رجل ثورى أو أخلاقى الميول، فعلى العكس من ذلك كان كتابه برفقة كثير من القادة العسكريين، وأشهرهم نابليون بونابرت الذى أقر أسلوب السطو المنظم لآثار مصر القديمة.

٥. لغة ميتة غير مفهومة

كان النصف الثانى من القرن الثامن عشر حافلاً بالأحداث، ففيه بدأت الثورة الصناعية، وفيه قامت الثورتين الأمريكية والفرنسية، وبدأ الساسة يهتمون بطرفى المحيط الأطلسى، وفى مصر، حيث كان العثمانيون يحكمونها اسماً والماليك فعلاً، كانت أسوار العزلة تمنع أهل البلاد من متابعة الأحداث العالمية وتطوراتها، ولم تكن أوروبا فى هذا العصر تعطى مصر وزناً سياسياً، رغم أنها كانت تنظر إليها باحترام باعتبارها دولة ذات حضارة عريقة تشهد آثارها على عظمتها السابقة، ذات مؤسسات فى الحكم والاجتماع تعد أقدم ما عرفه التاريخ، ولم يكن الأوروبيون غافلين عن أهمية موقع مصر الجغرافى، التى هى مفتاح الشرق كله، من يملكها يهدد الهند درة التاج البريطانى وقمة الأهمية والنشاط الاقتصادى بالنسبة لإنجلترا.

كان بونابرت رجل الأقدار الذى جذب مصر إلى بؤرة الاهتمام على المسرح الدولى، فقد تزايد اهتمام فرنسا بمصر حتى بلغ مداه فى سبعينيات القرن الثامن عشر، ومن أسباب ذلك ضغط التجار الفرنسيين الموجودين على حكومتهم لى تتدخل لحمايتهم، وإيمان الحكومة الفرنسية بتوافر فرص الاستثمار فى مصر، وخوفهم من أن يسبقهم الإنجليز إليها، والتصور الأخير كان مبنياً على حقائق أهمها أن الإمبراطورية العثمانية اعترها الضعف والنساذ لدرجة أن

أطلق عليها لقب رجل أوروبا المريض وبدأت الدول بالفعل فى قص أطرافها، وكانت مصر التى ضعفت قبضة العثمانيين عليها ثمرة قد أينعت وحان قطافها، وكان الفرنسيون منذ فترة يخططون لأخذها لكن حالت الظروف وقلة الموارد دون ذلك، لكن الظروف تغيرت بنجاح حملة نابليون على إيطاليا، إذ تطلع بعدها إلى تحقيق مجد حربي جديد، ووجد ضالته فى مصر - وهى مبادرة خلبت لب كثيرين فيما بعد منهم دزرائيلى ونابليون الثالث، وكان هدفها البعيد الارتكاز فى مصر للاستيلاء على الهند، فهو لم ينس أن الإنجليز أبعدوا الفرنسيين عنها فى منتصف القرن الثامن عشر.

كلف نابليون فى أبريل سنة ١٧٩٨ بقيادة حملة تستهدف مالطة ومصر، وابتحرت الحملة من طولون فى ١٩ من مايو سنة ١٧٩٨، على ظهرها ٣٢٨ قطعة بحرية تحمل ٢٨ ألف جندي، ووصلت الحملة إلى الإسكندرية فى أول يوليو من السنة نفسها، وصحب نابليون ١٦٧ عالماً من مختلف التخصصات لمعاونته، وهذه المجموعة من العلماء، والحق يقال، تشكلت بمبادرة فردية من نابليون نفسه، فقد حضر القائد اجتماعاً للجمعية العلمية فى خريف ١٧٩٧، وألقى خطبة حماسية موضحاً أهمية مصر، وأهمية الاعتماد على البحث العلمى فى مواكبة الأحداث وطالب بإمداد الحملة بالعلماء المناسبين، لأنه لا نجاح للحملة بدون ذلك.

أوكل «نابليون» أمر اختيار البعثة إلى العالم الفيزيائى «لويس برتوليه»، فاختار علماء بارزين منهم جين ميشيل فنتور Venture المستشرق المعروف، وسان هيلار Hilaire عالم فى علم الحيوان له آراء فى التطور تسبق «دارون»، وجاسبار مونج Monge الكيماوى الرياضى الخبير فى صناعة البارود، وكان مونج فى ذلك الوقت يشغل وظيفة مندوب الحكومة (حكومة الإدارة) للبحث عن الأشياء الفنية والعلمية فى البلاد المفتوحة، وكان ضمن حملة نابليون الإيطالية، واختار ما يناسب من الأعمال الفنية والتحف والكتب كى تستولى عليه فرنسا حسب معاهدة الصلح، ويكفى التجول فى متحف اللوفر لنستدل على مدى توفيقه فى مهمته، ويكفى الإشارة إلى أن الموناليزا كانت من اختياره والخلاصة أن مونج كان ألم أعضاء البعثة العلمية.

وممن يستحقون التتويه دومينييك فيفان دينون، وهو فنان من طراز فريد كان أميناً لمتحف لويس الخامس عشر، ومقرباً من مدام بومبادور خلية الملك - حسب ما كان يشاع، وعمل بعض الوقت فى السفارة الفرنسية فى بطرسبرج، وكانت القيصرة كاترين العظمى معجبة به، ووسع العمل فى السلك الدبلوماسى مداركه حتى أصبح من الخبراء فى فنون القرن الثامن عشر، وكان صاحبنا متحدثاً لبقاً شغوفاً بالنساء وعضواً فى الأكاديمية الفرنسية، وعند قيام الثورة كان فى فلورنسا يتمتع بحياة البطالة والترف، فلما بلغت أنباءها عاد مسرعاً ليجد نفسه وقد صودرت أملاكه وأضيف اسمه للقائمة السوداء، وأصبح بعدها يتخبط حتى انتزعه من يؤسه الرسام الشهير لويس دافيد، إذ كلفه بعمل ثانوى فى مرسومه، ثم تمكن من الاتصال ببعض رجال الثورة ويبدو أنهم اقتنعوا بخبرته الدبلوماسية، فأعاد روبسبيرير إليه ممتلكاته بالأمر المباشر، وبعد ذلك تعرف على نابليون وجوزفين ثم اتصل بالعلماء البارزين، وكان رغم ذلك له نشاط خاص، فقد أصدر البوما يسمى «المجموعة الكاملة» يحتوى على صور وأكليسيهات متحررة أداها المحافظون وقرظها المثقفون، وهذا الرجل الموهوب قام بمعظم المهام التصويرية بالبعثة، هذا بالإضافة إلى أنه كان من هواة الآثار المصرية، وعاشقاً لكل ما هو مصرى، وذلك من حسن حظ علوم المصريين.

ورغم فشل الحملة العسكرية، نجحت البعثة العلمية نجاحاً مذهلاً، وأنجزت فى ثلاث سنوات ما يحتاج لإنجازه لعشرات من السنين، وكان تجهيز البعثة أهم مقومات نجاحها، فقد أُنِيت ومعها ما يلزم من المراجع عن وادى النيل، بالإضافة إلى الأجهزة العلمية وأدوات القياس والمسح، كذلك كان دعم نابليون لها بلا حدود، فبعد دخوله القاهرة فى ٢١ من يولييه ١٧٨٩ بادر بتأسيس «المؤسسة العلمية المصرية» وخصص لها أحد القصور الضخمة، وكان يهتم بالبعثة ويحضر الكثير من اجتماعاتها - التى كانت تعقد بانتظام.

استمر نشاط أعضاء البعثة ثلاث سنوات مثمرة، وكان بينهم ترابط وانسجام، وكان هدفهم استكشاف حضارة مصر المجهولة لهم، وفوق النشاط العلمى كان للعلماء نشاط إدارى وساهموا فى مختلف اللجان، والقومسيون الطبى، وتلبية

احتياجات نابليون وقواده، وشمل نشاطهم العلمى أحوال مصر الصناعية والزراعية والتعدينية وغيرها، وكان أهم ما شغلهم تنفيذ ما اقترحه عالم التعدين ديوديه جارتى دولوميكو: «اختيار وحفظ ونقل الآثار المصرية القديمة» - وتأمين وصولها إلى فرنسا سائلة.

أثناء أحد اجتماعات اللجنة العلمية فى ١٩ من يوليه سنة ١٧٩٩ اشتعل حماس الأعضاء لوصول رسالة من لانكريه - العالم الرياضى - تفيد باكتشاف حجر بازلتى عليه «نقوش قد يكون فى منتهى الأهمية - عثر عليها جندى مجهول أثناء تحصين قلعة رشيد. ومن محاسن الصدفة أن الكابتن بوشارد - المشرف على التحصينات - أدرك أهمية الحجر فأرسله إلى الجمعية العلمية، وهو من البازلت الناعم، وعليه نقوش من ثلاثة أنواع فى سطور: السطور العلوية بالهيروغليفية، والوسطى بالديموطيقية (المصرية الدارجة)، والسفلية باليونانية القديمة، كان من السهل ترجمة النص اليونانى، فوجد أنه مرسوم خاص بالنظام الكهنوتى المصرى تاريخه سنة ١٩٦ ق.م، وأدرك العلماء على الفور أن الحجر يحمل مفتاح حل الكتابة الهيروغليفية. وفتح الباب للكشف عن تاريخ مصر القديمة.

كان أعظم إنجازات المؤسسة العلمية فى حقلى الجغرافيا والمصريات، ورسمت خريطة تفصيلية لمصر لم تنشر إلا بعد تولية نابليون إمبراطوراً، وفى أغسطس سنة ١٨٩٨ قام الجنرال ديزية بتعقب مراد بك فى الصعيد، وكان بصحبته فيفان دينون، فقام باكتشاف وتصوير كثير من المباني الأثرية والتماثيل بدقة تحسب له، وخلاف ذلك كان مهتماً بنسخ المخطوطات ورسم المناظر الطبيعية، كما كان يواظب على حضور جلسات المؤسسة العلمية، وكان يسجل بعض خواطره فعندما شاهد الأهرام قال: «يمكن مشاهدتها عن بعد فتبدو كأنها شفافة، تعكس عليها السماء، زرقاء صافية لطيفة؛ تظهر كمال ونقاء أركانها التى لم تقسد بمضى العصور»، أما رحلته الخطرة مع ديزية فقال عنها: «أوشكت أن أظأ أرضاً غطاها قناع من الغموض منذ دهور.. فقد اكتفى السائحون منذ هيروودوت بالرحلة السريعة فى النيل، وبالكاد يبرحون سفنهم، وربما للمحة عابرة لمشاهدة الآثار القريبة من الشاطئ»، حقاً لقد وصل إلى مصر الرجل المناسب فى الوقت

المناسب، كان أداء دينون جيداً حسب المتاح، فقد كانت الحملة مضطرة للسير الحثيث لتقطع ما بين ٢٥ - ٣٥ ميلاً كل يوم، وأن تتجنب أخطار قطاع الطرق والغارات المفاجئة، لذلك لم يتسن له سوى وقت قصير في هرموبوليس رسم فيه أحد المعابد القديمة، وكان أسعد حظاً في دندرة، لأن الجيش انتشر في ربوع المعبد الجميل يوماً كاملاً ليشاهدوه، وانبهر دينون بالمكان: «أمسكت بالقلم في يدي، وتنقلت من مكان إلى مكان، لا أترك شيئاً إلا لما هو أروع، وإنى لمستاء لأن ما رسمته دون الواقع»، واستمر دينون يرسم حتى مغرب الشمس، لم يوقفه سوى حضور الجنرال بليار قائد القوة بنفسه ليصعبه ركضاً على جواديهما حتى مكان المعسكر البعيد.

واستمرت الحملة في سيرها حول النيل حتى بدا لهم معبد الأقصر والكرنك، وانبهر جنود القوة بما رأوا فهللوا، وقال أحد أفرادها «اصطف الجنود، بدون أى أوامر، ومعهم أسلحتهم بمصاحبة الطبول والموسيقى»، (يعنى أدوا التحية)، وقد سجل دينون ما رآه من آثار ولو على ضوء شمعة، وحتى في أخطر الأوقات، ووصلت حملة ديزيه حتى أسوان وهناك قام دينون بزيارة جزيرتي فيلة والفنتين. وأعمال دينون جديرة بالتبويه، لأنها أشعلت الحماس لدراسة الآثار، وكان من أشد المتحمسين مهندسو الرى بالحملة فتهاونوا في عملهم، وأقبلوا على تسجيل المعابد والمقابر والنقوش الهيروغليفية والآلهة القديمة، واستغرقوا في العمل لدرجة أنه عندما نفذت أقلامهم تحولوا إلى رصاص البنادق ليذبيوه ويرسموا به، وبذلك سجلوا للأجيال كثيراً من المعلومات النادرة، وفي هذه الأثناء كانت الآثار الصغيرة الخفيفة يجرى نقلها من المعابد والمقابر.

كان فشل حملة نابليون على مصر متوقعاً بسبب مواسلاتها البحرية المكشوفة، وتمكن أمير البحر نلسون من تحطيم معظم الأسطول الفرنسى المربط في خليج أبى قير، في أول أغسطس سنة ١٧٩٨. ورغم ذلك كسب نابليون عدة معارك برية، إلا أن الجوع والمرض فتاً في عضد الجيش الفرنسى، وفي ١٩ من أغسطس سنة ١٧٩٩ عاد نابليون إلى فرنسا على متن سفينة سريعة، وبعد فترة وجيزة استسلم الفرنسيون للجيش البريطانى، ودخلوا معهم

فى مفاوضات انتهت على أثرها الحملة، وفشل الحملة الظاهرى كان وراءه إنجاز عظيم لم يظهر على الفور، فمن جهة أيقظت الحملة الوعى القومى لدى المصريين ونبهتهم لأهميتها فى السياسة الدولية الحديثة، ومن جهة أخرى أدت عملاً جليلاً بما حققته لجنتها العلمية من إنجازات تناولت أوضاع مصر وآثارها. استقبال دينون لدى عودته بالترحيب، ثم كلف بإنشاء متحف اللوفر، فخصص به أول جناح للآثار المصرية، وظل يمدّه بالتحف والآثار حتى نهاية حكم نابليون، بعد ذلك أصدر كتابه «رحلات فى مصر السفلى والعليا» سنة ١٨٠١، فذاع أمره وترجم إلى عدة لغات.

كان من الطبيعى أن يستغرق تنسيق المعلومات التى حصلت عليها اللجنة العلمية وتبويبها عدة سنوات، وظهر أول مجلد من الموسوعة بعد ثمانى سنوات وسميت «وصف مصر» وقد صدرت فى أربعة وعشرين جزءاً بين سنتى ١٨٠٩ - ١٨١٣ فى طباعة فاخرة مزينة بالصور والرسوم التوضيحية، ونالت الموسوعة ما هى جديرة به من التقدير فى كافة أنحاء أوروبا، وأظهرت الموسوعة مدى ثراء الآثار المصرية بشكل غير مسبوق، وساعدت الطباعة ومقاييس الرسم المناسبة على إبراز التفاصيل الدقيقة، ولكى ندرك أهمية هذا الإنجاز لا يجب الحكم عليه فى ظروفنا الحالية بعد أن انفتحت آفاق الطباعة الحديثة وانكشف لنا الكثير عن تاريخ مصر القديمة، ويكفى أن «موسوعة وصف مصر» عند ظهورها أول مرة صورت حضارة مصر العريقة، وآثارها العظيمة التى صمدت فى وجه الأحداث والسنين، ولم تتل منها عوادى الزمن ولا الحروب كل تلك السنين.

ورغم روعة ما صوره دينون ورفاقه وسجلوه فى الموسوعة عن المعابد والأهرام والآثار، إلا أن عملهم هذا كان ينقصه شئ ما - فهم الكتابة الهيروغليفية وترجمتها للغات الحية، وكان أعضاء اللجنة واثقين أن مفتاح الحل فى أيديهم - إنه حجر رشيد.

كانت معروضات البعثة الأثرية (فى اللوفر) ثمينة جداً من الوجهة المتحفية، ففى ذلك الوقت لم يكن بالمتحف البريطانى سوى قطع أثرية مصرية محدودة من

الموميאות والجعارين والتحف الصغيرة، أما ما نقله أعضاء البعثة فكان وثيراً وجميلاً، لكن إنجاز اللجنة فى المجال المعرفى فاق ذلك كله، فقد لفتت الموسوعة نظر الناس إلى عظمة آثار مصر وتنوعها، فزاد اهتمامهم بمصر القديمة - تاريخها ولغتها وآثارها، وزاد الطلب على كل ما هو غريب أجنبى، فى وقت بدأت معرفة السياسيين والعسكريين بمصر تزداد توثقاً.

بدأ الإقبال على الآثار المصرية بالحملة الفرنسية ذاتها، فقد جمع علماء البعثة كثيراً من الآثار وكدسوها بالإسكندرية حيث ضرب عليهم الحصار، وبدأ الجنرال «مينو» فى التفاوض مع الفريق «هتشنسون» لتسليم المدينة، وكان من طبع مينو الجدل والمساومة، وعند إبرام معاهدة الصلح بدأ يساوم فى وضع أعضاء البعثة العلمية وما تحمله، وادعى الإنجليز الحق فى حيازة الآثار، فأعلن «مينو» أن حجر رشيد بالذات ملك شخصى له، وكان موقف علماء البعثة وعلى رأسهم عالم الحيوان «جوفرى سان هيلير»، واضحاً حازماً: «إذا سلمت الآثار سنرافقها إلى لندن»، فاضطر «مينو» للرضوخ وكتب للقائد الإنجليزى: «أبلغنى العلماء أنهم لن يتركوا ما جمعه من بذور ومعادن وطيور وفراشات وزواحف لمن تختاره لشحنها، ولا أعلم إن كانوا مصرين على مرافقتها ولكنى أؤكد لك أنهم لو أصروا فلن أمنعهم»، وبلغ من إصرار العلماء على موقفهم أن هددوا بإحراق ما معهم من نماذج إذا ما أحسوا أنهم سوف يفقدونها كما وضع سان هيلير: «بدوننا اعتبروا أن ما معنا لغة ميتة، لن تستطيعوا مع علمائكم فهماء، فإذا سولت لكم أنفسكم سلب ما معنا بهذه الطريقة الهمجية الظالمة، فسنقوم بدفنتها فى رمال ليبيا أو إغراقها فى اليم.. بل سوف نحرق ما معنا بأنفسنا.. إنكم تسعون إلى المجد والشهرة.. عظيم! لكن عليكم أن تتذكروا أن التاريخ سيذكر لكم: «أنكم أحرقتم مكتبة الإسكندرية الثانية».

لم يرغب الفريق «هتشنسن» الحضيف أن يزيد الأمر تعقيداً فترك لهم ما جمعه، إلا حجر رشيد أصر على مصادرتة، ولم يسع مينو سوى الإذعان وقال: «هيه مادمت مُصرأ خذ، فأنت أقوى الرجلين»، ولم يكن هذا أمراً ذا بال فقد كان علماء البعثة قد نسخوا من قبل صوراً شمعية للمكتوب على الحجر،

وأرسلوها إلى فرنسا حيث أخذ المختصون يدرسونها للكشف عن أسرار الكتابة الهيروغليفية، وكان أبرز هؤلاء العلامة اللامع فرنسوا شمبليون الذى يرجع إليه الفضل فى كشف غموضها بعد جهود استمرت ثلاثاً وعشرين سنة، وبذلك استعدنا تاريخ مصر القديمة الذى كان مستغلقاً حتى ذلك الوقت.

بعد الحملة الفرنسية عادت مصر ولاية عثمانية، لكن السلطان أهملها، ولم يهتم من أمرها سوى جباية الجزية منها بانتظام، لذلك اجتاحت الفوضى البلد وأصبحت فى حاجة إلى قيادة رشيدة، وحكومة قوية حازمة.

فى هذه الظروف بزغ نجم محمد على - شاب ألبانى رفعته مواهبه الشخصية ليتبوأ مركزاً قيادياً فى الجيش التركى بمصر، وبعد سلسلة من الأحداث تمكن من توطيد مركزه فى البلاد سنة ١٨٠٥، واستمر فى حكمها حتى سنة ١٨٤٩ وتمكن بقوته ودهائه وذكائه من تشكيل حكومة قوية لم تشهد مصر لها مثيلاً منذ قرون، وكان محمد على يتطلع لتوطيد مركزه الدولى، وتطوير اقتصادات مصر على النمط الغربى، وكان به ثلاثة أهداف: جيش وطنى قوى، وزراعة متطورة، وإدخال الصناعة الحديثة، لذلك استعان بكثير من الأجانب، خصوصاً فى تطوير الصناعة، ومشاريع الرى، وفشل كثير من مشاريعه لتفشى البيروقراطية والرجعية، أما آثار مصر فقد كانت فترة حكم محمد على وبالأعلى سبب السياسة.

كان الباشا يتودد للأجانب، ويحرص على إرضائهم لحاجة مصر للأموال الأجنبية لتنفيذ مشاريعه الطموحة، لذلك فتح البلد فى وجه الأوربيين - دبلوماسيين وتجار وسائحين - ولم يهتم بآثار مصر إلا فى حدود استخدامها كوسيلة لجذب انتباه الشخصيات العالمية المؤثرة، لذلك تسربت آلاف القطع الأثرية الخفيفة من مصر عن طريق هواة جمع الآثار وتجارها والسائحين، وكل من لا هم له إلا الإثراء السريع من تجارة التحف والآثار.

عندما دخل الإنجليز الإسكندرية أعجب «إيرل كافان» قائد هذه القوات بإحدى المسلات بها، وحصل على موافقة السلطات التركية بنقلها إلى لندن

كهدية تذكارية بمناسبة فشل الحملة الفرنسية، وكان جنوده فى مثل حماسه لنقل المسلة، فتبرعوا لاستئجار سفينة لنقلها، وأبدوا استعدادهم لتحميلها على ظهر السفينة، لكن لندن لم تكن بمثل حماسهم فتعطل المشروع حتى سنة ١٨٧٧، حيث نقلت إلى لندن على نفقة رجل الأعمال الثرى «أراسموس ويلسون»، والعجيب فى الأمر أن تأخير نقلها سبعين سنة كان سببه الوحيد تراخى الحكومة البريطانية، رغم إلحاح محمد على والخديو إسماعيل من بعده، والأعجب أن الذى حرك الموضوع كان اليونانى صاحب الأرض التى رقدت فيها المسلة، فقد هدد بتقطيعها واستعمال حجارتها فى البناء ما لم تنقل بسرعة، فقام ويلسون بمبادرة فردية منه بإنقاذ المسلة من التخريب، هذه المسلة تزين ميداناً شهيراً من ميادين لندن - الآن - حيث أطلق عليها اسم الشهرة: «إبرة كليوباترا».

فى ذلك الوقت، كان عدد القناصل وممثلى الدول كثيراً فى القاهرة والإسكندرية، وفى ذلك الوقت - أوائل القرن التاسع عشر، وبداية حكم محمد على - كانت أعباء السلك الدبلوماسى قليلة وهينة، ولذلك وجد القناصل والدبلوماسيين لديهم من الفراغ والراحة ما مكّنهم من الرحلة لجمع الآثار.

كان أول قنصل عام لفرنسا عقب حملة نابليون هو «برناردينو دروفيتى»، من مواليد بربريا بدمونت سنة ١٧٧٦، ثم تجنس بالجنسية الفرنسية وأدى خدمته بامتياز فى الحملة الفرنسية برتبة مقدم، وعقب الحملة مباشرة عين قنصلاً عاماً بمصر حتى سنة ١٨١٤، ثم أبعد، ثم أعيد مرة أخرى فى عهد الإصلاح من سنة ١٨٢٠ إلى سنة ١٨٢٩، بعد ذلك استقال لأسباب صحية بعد أن حقق من تجارة الآثار ثروة طائلة، وكان «دروفيتى» ذا تأثير داخل الحكومة المصرية، وعلى اتصال مع كثير من الشخصيات المصرية المرموقة، وكان اهتمامه بالآثار المصرية مبنياً على أسباب تجارية محضة، وكان يتسم بالطمع لذلك كرهه منافسوه.

أما قنصل بريطانيا - فى الفترة نفسها - فكان الكولونيل «ميسيت» الذى تقاعد لأسباب صحية سنة ١٨١٦، ولم يكن من المهتمين بالآثار، وخلفه فى منصبه «هنرى سولت Salt» الذى اهتم بالآثار اهتماماً بالغاً، لم يتلق سولت فى صغره تعليماً نظامياً، وفى سن المراهقة رحل إلى لندن ليتعلم الرسم (المناظر

الطبيعية والبورتريه)، وتكسب من ذلك بعض الوقت، لكنه أشاء عمله تعرف على بعض عليا القوم، ومنهم اللورد «فالتيا» - اللورد «مونت نوريس» فيما بعد، وهذا اللورد أرسقراطى من هواة الرحلات الطويلة إلى البلاد البعيدة. وفى سنة ١٨٠٢ قام برحلة طويلة إلى الهند والمشرق، مصطحباً معه «سولت» كسكرتير ورسام. واستغرقت الرحلة أربع سنوات ونصفاً، وتضمنت الرحلة عملية استكشافية فرعية بطول ساحل البحر الأحمر على ظهر الطراد «بانثر» من ذلك الوقت أصبح سولت مولعاً بالرحلات.

كان «سولت» قد قضى فترة من سنة ١٨٠٧ فى مصر، أهتم فيها كثيراً بالآثار، وزاده فضولاً اكتشافه لنقش يونانى فى أكسوم بأثيوبيا، ويبدو أنه منذ ذلك الوقت كان يتطلع للعودة إلى مصر، فلما علم باعترزال قنصل بريطانيا بالإسكندرية سنة ١٨١٦، أخذ يسعى للحصول على الوظيفة، فوافق وزير خارجية بريطانيا - فى ذلك الوقت - اللورد «كاسلرى»، ومنذ ذلك الحين، وهو فى سن الخامسة والثلاثين أصبح «سولت» أحد الشخصيات المؤثرة فى السياسة المصرية.

هيا العمل الدبلوماسى للسفيرين - البريطانى والفرنسى - الفرص السهلة للاتصال بالمسؤولين المصريين، وكان العمل الدبلوماسى - فى ذلك الوقت - هيناً لا يحتاج لمجهود كبير، فكانت الحكومة البريطانية تشغل وقت قنصلها بمصر بمهام أخرى إضافية، فى ذلك الوقت كان السير «جوزيف بانكس» الأكبر - من مرافقى كابتن «كوك» فى رحلته إلى تاهيتى سنة ١٧٩٦ - قد صار من العلماء وأصبح أميناً للمتحف البريطانى، ووجد «بانكس» فى وجود «سولت» فى مصر فرصة ثمينة للحصول على آثار مصرية يضمها للمتحف القومى البريطانى، وأصدر وكيل الخارجية البريطانية فى ذلك الوقت تعليمات إلى «سولت» تكلفه صراحة بجمع ما يستطيع من آثار والبحث عن حجر يضارع حجر رشيد، وأنه «مهما كانت التكاليف فسوف يجد التمويل، من شعب مثقف، متشوق للتفوق على الشعوب الأخرى فى إظهار اهتمامه بالعلوم والآداب (والثقافة)».

كان سولت يثق بنفسه ومعرفته بالمصريات، وكان من المهتمين بالهيروغليفية، لكنه كان ذا شخصية مهتزة، فتارة تراه متفائلاً سهلاً، وتارة تراه يائساً، لذلك كان أحياناً - ما يتردد في المواقف التي تحتاج للحسم، وهذه الصفات لها عيوبها في مواجهة قرينه الفرنسي دروفيتي الرئبى، أو الوالى المتقلب المزاج، لكن نفوذ الرجل في دوائر الحكومة سهل له الحصول على كثير من الحقوق والامتيازات، لذلك اشتدت المنافسة بين الطرفين: «دروفيتي» الفرنسي بحيويته وعلاقاته الحميمة بالسلطة والأهالى، و«سولت» ذى الشخصية الجادة بأمواله ونفوذته السياسى.

كان الباشا رسمياً المسيطر على الكشوف الأثرية فى مصر، وكان البحث عن الآثار يحتاج إلى تصريح أو فرمان يسمح بالتقيب عنها ونقلها للخارج، ولم يكن هذا عائقاً بالنسبة لهذين الرجلين، فما أسهل حصولهما على التصريح، وقد مشط الرجلان القطر كله من أجل «مناطق الامتياز» وتجاهلاً تاماً الأصول الدبلوماسية فى تعاملهما بهذا الصدد، أما المنافسين الآخرين فكان من السهل عليهما إزاحتهم من الطريق، وإبطال مفعول فرمانات التي تصدر لصالحهم.

على أى حال كان للقناصل الفصل فى تنشيط البحث عن الآثار، واستقر بعض الرجال المعروفين بمصر، ومن هؤلاء جان جاك ريفو، وهو فرنسى من مرسيليا أقام بالقاهرة منذ سنة ١٨٠٥ للتقيب عن الآثار والتجارة فى التحف الخفيفة، ثم انضم إلى العاملين مع دروفيتي لبضع سنين، رافق القنصل خلالها فى رحلة أثنائها سنة ١٨١٦ إلى الشلال الثانى، ومنهم التاجر الأرمنى جوفانى انستاسى، وكان والده من موردى التموين لجيش نابليون ثم أفلس بعد انتهاء الحملة، لكن الابن كافح حتى أصبح صاحب تجارة ناجحة، بعد ذلك أصبح قنصلاً عاماً للسويد والنرويج فى مصر، وواحداً من أنجح تجار الآثار وبالأخص البرديات التي اعتاد الحصول عليها من لصوص المقابر بسقارة، وفى ذلك الوقت لم تكن تجارة الآثار بحاجة إلى مؤهلات خاصة، بل تعتمد على مجرد «الشطارة» والرشوة والواسطة.. إلخ. والأهم الشد والجذب ثم التراضى بين المتنافسين. ومما قاله هوارد كارتر مكتشف مقبرة توت عنخ آمون فى ذلك: «كانت هذه الأيام

أمجد أيام الاستكشاف والبحث عن الآثار، كان كل شيء موجوداً من الجمران إلى المسلة، وإذا حدث خلاف بين الأخوة (الأعداء) من المستكشفين فقد كان يمكن للبندقية أن تحسم الأمر».

فى هذه الفترة، برزت شخصية عجيبة طاغية فى عالم النهب والتخريب، ففى ذلك الزمن العجيب، ظهر رجل غريب من مرده شياطين السيرك دخل عالم البحث عن الآثار بطريقة مريبة، هذا الرجل هو «بلزوني» العجيب، لكن ذلك له قصة طويلة.

•

الجزء الثانى

المهرب الأكبر
الذى طغى على الجميع

٦. شمشون البتاجونى

ولد «جيوفانى باتستا بلزوني» فى بادوا بإيطاليا فى ٥ من نوفمبر سنة ١٧٧٨، وهو الابن الرابع لحلاق متواضع يسمى جياكومو بلزوني، كان كل أمله أن يصبح ابنه حلاقاً مثله، لم يبرح بلزوني بلدته حتى بلغ الثالثة عشرة من عمره، ومنها تلقى تعليماً هامشياً ثم انتقل إلى روما ليبدأ مغامراته التى استغرقت كل عمره، وفى روما درس شيئاً من اللاهوت وبعض أساسيات الهيدروليكا لكنه ظل طوال عمره نصف أمدى.

وفى شبابه كانت أحوال إيطاليا السياسية غير مستقرة، فقد احتلتها جيوش نابليون باسم الجمهورية الفرنسية ودخلت روما منتصرة سنة ١٧٩٨، لذلك فر بلزوني خوفاً من الأسر متجهاً نحو الشمال وليس معه سوى حقيبة من حقائب الباعة المتجولين بها بعض المسابح والصور الدينية والقطع الأثرية.

والظاهر أن بلزوني نجح كبائع متجول، فتراه بعد ثلاث سنوات يصطحب أخاه فرانسيسكو إلى أمستردام للمتاجرة على نطاق محدود، ولفتت متانة بنيانهما إليهما الأنظار، ولا نعرف أقدماً هناك بعض الاستعراضات أم لا، لأنه تجاهل هذه الفترة عند كتابة سيرته الذاتية، وهذه كما نرى بداية متواضعة لا توحى بأن صاحبها سيكون له شأن يذكر فى التاريخ.

ظهر بلزوني للجمهور أول مرة سنة ١٨٠٣، بعد عبوره إلى لندن مع أخيه، وبصرف النظر عن سبب حضوره، فقد كان استقرار بلزوني في لندن نقطة تحول في حياة هذه الشخصية المتقلبة، وكانت لندن في ذلك الوقت عاصمة صاخبة بها كثير من المسارح «وجمهورها متعطش للترويح» لذلك كان الجو فيها مهياً لذوى المواهب في الألعاب البهلوانية والسحرية، أو في التمثيل، وكان جمهور المسرح الإنجليزي يرغب باستمرار في التغيير وتنوع العروض، فكان لابد من تلبية رغباته، لذلك لجأ المنتجون إلى تغيير البرامج والممثلين بكثرة لجذب الجمهور وكانت العروض تزداد تألقاً وتنوعاً في أشهر الصيف خاصة، والخلاصة أن التنافس بين المسارح في ذلك الوقت كان على أشده.

كان شارلز ديدن الأصغر من أهم المنتجين في مسارح لندن في أوائل القرن التاسع عشر، وفي سنة ١٨٠٣ كان يمتلك مسرح سادلر ويلز، وكان يجمع في عمله بين التأليف والإنتاج وإدارة المسرح، وكان يستعين بمجموعة من الممثلين تعمل باليومية أو بالموسم حسب الظروف.

كان المتعهد الذي يتعامل معه ديدن إيطاليا يسمى موريللي، وكان هو نفسه ممثلاً ناجحاً، وتذكر مذكرات ديدن أن: «كل ممثلي الكوميديا ولاعبى الأكروبات الإيطاليين يقصدونه لدى وصولهم إلى إنجلترا»، وعن طريقه تقدم بلزوني بطلب للعمل بمسرح ساوولر ويلز، ولا ندري على أى أساس رشح نفسه ولكن نستطيع أن نفترض أنه اكتسب بعض الخبرة المسرحية أثناء تجواله في أوروبا.

ويبدو أنه لفت نظر ديدن بمتانة بنيانه، فطوله حوالى مترين وقوته خارقة ويتميز بوسامة ظاهره (صور بلزوني المتوفرة تثبت ذلك)، وكان أن كلف ديدن بلزوني بأداء فقرات في رفع الأثقال وتمثيل بعض الأدوار الثانوية.

استهل بلزوني عمله المسرحي في ربيع سنة ١٨٠٣، وكانت أهم فقراته عنوانها «شمشون البتاجوني»، وهي فقرة مثيرة تبدأ بعرض في رفع الأثقال، وتنتهى باستعراض للقوة يحمل فيه بلزوني على كتفيه هرمًا من الآدميين، وفيه يحمل صاحب هرم العضلات الشمشونى قضيباً حديدياً ثقيلاً يزيد وزنه على ١٢٧

رطلاً فوق كتفيه، وبه ركائز يتعلق بها اثنا عشر شخصاً، ويتجول بلزوني بحمله فوق خشبة المسرح ببسر وسهولة ملوحاً للجمهور بعلمين فى يديه.

نجحت الفقرة نجاحاً باهراً واستمر عرضها ثلاثة شهور متصلة، كذلك أدى بلزوني أدواراً ثانوية وفقرات فردية بين الفصول مثل، أسطورة فيليب كورال وهى تروى قصة خيالية بطلها «رجل إنجليزى يعيش فى عزلة فى جزيرة لا يسكنها إلا القروء».

ومن الغريب أن عقد بلزوني الذى كانت مدته ثلاثة شهور قد ألقى بلا سبب ظاهر، رغم نجاح عروضه لدرجة أنها أدت إقبالاً على المسرح، وربحاً لم يتحقق له بعد ذلك لسنوات، وكان إلغاء العقد فى يولية سنة ١٨٠٣.

بعد شهرين ظهر بلزوني فى جو مخالف تماماً، فأخذ يقدم عرضاً يمثل هرمأ آدمياً فى سوق بارثولوميو السنوى الصاخب فى لندن، وكانت تقام فيه مهرجانات صاخبة تعرض على الزائرين عروضاً فى الفروسية والاستعراضات الأخرى.

وكانت الاستعراضات فى السوق تقام فى أكشاك أو خيم، وتتوع من العزف على الأرغن إلى استعراض القردة الكاتبة، وفى إحدى هذه الخيم كان بلزوني يقدم استعراضات تحت اسم «هرقل الفرنسى».

شهد جون توماس سميث - أمين الصور والمطبوعات بالمتحف البريطانى - العرض المذكور، وكان ناقدأ ومعلقأ معروفاً فى مسارح لندن، وقد زار المعرض متردداً، لأن الزوار فيه كانوا يتعرضون للنشل والسلب، لذلك جاء وصفه للعرض وصف شاهد عيان متمكن.

دخل الصديقان فشاهدا عرض بلزوني فى رفع الأوزان الثقيلة داخل خيمته، بعد ذلك طلب «هرقل الفرنسى» متطوعين من الجمهور ليحملهم فوق كتفيه على هيئة هرم بشرى، وتطوع سميث مع أربعة آخرين، وصعدوا فوق الكراسى ليتسلقوا فوق كتفى بلزوني المكتظين، ويقول سميث: «وأدى بلزوني عمله ببساطة وسهولة وثبات» وكان الحمل فوق كتفى بلزوني ثقيلاً خصوصاً وأن أحد أعضاء

الهرم كان «سميناً ثقیل الوزن، مکتنز الخدين، سمك أدرجه أكبر من عرض زقاق سوق العسل المشهور».

ظل بلزونی وجهاً معروفاً فی لندن وإنجلترا لسنوات عدة، يستعرض قوته بین أسواق الجزر البريطانية، وقد ذكرت مجلة جنتلمان أن بلزونی كان يستطيع «أن يحمل على قضيبه الثقيل - ما لم نخطئ - أكثر من ٢٠ رجلاً (وربما) ٢٢ ... يجول بهم فی سر وسهولة كأنه أحد أفيال الفرس»، ثم طور بلزونی عروضه فأدخل فیها بعض الحیل الهيدروليكية، وذاع أمر بلزونی ولقبوه بلقب «بلزونی الأكبر»، واستمر نجاحه ثمانی سنوات متصلة، أكسبته خبرة واسعة فی حمل الأثقال واستخدام الروافع وتقنيات التوازن، ویا لها من مهارات تفيد من يرغب فی السطو على المقابر.

فی هذه الفترة التقى بلزونی بسارة وسرعان ما تزوجا، وكل ما نعرفه عن سارة أنها كانت عندما التقت بزوجه فی العشرين من عمرها، وأنها إما إنجليزية أو إيرلندية، وكان زواجهما غير مستقر، غلبت علیه الأسفار والترحال المستمر فی أوروبا ومصر، فلم يستقرا فی مكان طوال مدة زواجهما الذى استمر عشرين عاما، لذلك لم تكن تربطهما رابطة أسرية قوية، لكن زواجهما على أى حال كان هائلاً سعيداً، وذلك لأن سارة كانت تتمتع أشاء بحرية كبيرة فی التصرف فكانت ترافق زوجها أو تتخلف عنه حسبما يروق لها، وكان من صفات سارة الجدية بالتتويه قوة الاحتمال للمتاعب والمشاق، وعدم الشكوى من طول الفراق، وكانت تواجه المصاعب برصانة تدعو إلى الإعجاب، ومن القليل الذى ذكره بلزونی عنها فی سيرته نستخلص أنها كانت قوية الملاحظة تحب الفكاهة والمرح والسخرية، وقد أحبها الأتراك والمصريون، وعاشت بعد بلزونی خمسين سنة، ثم ماتت فی عزلة مهيبة فی جزر القناة، بعد أن نسى الناس أمرها.

اصطحب بلزونی عروسه، وكان أمره قد اشتهر، ليقدم عروضه فی اسكتلندا وايرلندا ولندن وغيرها، وظلا يجوبان الجزر البريطانية لأن حروب نابليون عطلتهما عن السفر إلى الخارج، فلما حرر ولينتجون موانئ أسبانيا بما فیها

مدريد سنة ١٨١٢، سنحت لبلزونى فرصة السفر، ومن بطاقة سفره نجد أنه اصطحب معه تابعه الإيرلندى المخلص جيمس كيرتن بينما تغلفت سارة.

زار بلزونى فى رحلته لشبونة ويبدو أنه مثل على مسرح ساو كارلوس، ثم توجه مع تابعه إلى جبل طارق ومجالا، ثم عادا إلى لندن فى الوقت المناسب ليقدم عروضه التى سبقتها دعاية واسعة فى أكسفورد، وكانت هذه آخر العروض التى قدمها فى لندن، ونفذت العروض على مسرح البلوبور تافرن فى سانت ألديت بأكسفورد، وكان العرض يوم ٢٢ من فبراير سنة ١٨١٢ مثيراً حقاً يحتوى على: فقرة سحرية، ثم فاصل فى العزف على الزجاجات الموسيقية، ثم تشخيص لبعض أوضاع الملاكمة يحاكي فيها تماثيل مشهورة، ثم استعراض «هرقل الفرنسى»، وفى النهاية يختم العرض بفقرة اسمها الأجرسكوبيوس من عروض الخداع البصرى الجذابة.

بعد ذلك أخطر بلزونى دبدن بأنه سوف يغادر إنجلترا لتقديم استعراضاته بلشبونة، ولا نعلم أرافقه فى رحلته ممثلون آخرون أم لا؟ لكن المؤكد أن بلزونى وعائلته زاروا مدريد ولشبونة فى منتصف سنة ١٨١٣، وما لبثوا أن اتجهوا إلى صقلية حيث بعثوا برسائل إلى العائلة فى بادوا فى نوفمبر سنة ١٨١٤.

لم يعد بلزونى لوطنه، لأنه كان يخطط للذهاب إلى القسطنطينية، التى كانت من المراكز الترفيهية العالمية، وكان السلطان العثمانى يشجع المهرجانات الطويلة الفاخرة التى تمتد لعدة أسابيع، لذلك كان الطلب على السحرة والمصارعين والأكروبات وأصحاب الحيل لا يكاد ينقطع، وتخصص أهل بولونيا بإيطاليا فى عروض الألعاب النارية، والحيل الضوئية، وهم جيران بلزونى.

وكان من عادة السلطان العثمانى أن يعتمد على الأجانب فى الترفيه، ربما كان ذلك السبب الذى دفع بلزونى كى يجرب حظه فى عاصمة الإمبراطورية العثمانية، والخلاصة أن البلزونيين قرروا - بدلا من العودة للوطن - أن يعبروا ماطلة متمهلين ليتوجهوا للعاصمة التركية، ولبثوا طويلاً فى فاليتا - حوالى ستة أشهر - وربما كان السبب كثرة التجوال، وفى فاليتا قام بلزونى بالتمثيل فى

أماكن غريبة، وتشاء الصدف أن يلتقى هناك بالقبطان إسماعيل الجبلطار، وكيل الباشا محمد على والى مصر، وكانت هذه نقطة التحول فى حياة بلزونى.

حكم محمد على مصر ثلاثين عاماً حفلت بتغيرات غير عادية، وكان الكثير من إصلاحاته يعتمد عليه شخصياً، وقد قال فى إحدى المرات: «كانت مصر بدائية إلى أقصى حد.. ومازالت إلى اليوم، وأرجو أن تكون جهودى قد أسهمت فى تحسين أوضاع البلد، ولو قليلاً، وعلى العموم فليس من الغريب أن تتخلف عن أوروبا»، كان العمل الحكومى يسيطر عليه الأتراك، ولكن محمد على حرص على أن تخضع الشؤون المالية لسيطرته الشخصية، وكان منفذ سياسته المالية وموضع ثقته الوزير الأرمنى باغوص بك، وحرص محمد على على توازن الميزانية تجنباً للاقتراض من الخارج، لكنه استعان بالخبرة الأجنبية فى تطوير الزراعة والصناعة والنهوض بالاقتصاد.

ولسوء الحظ تعرقل الكثير من مشاريعه الطموحة، فقد صمم المهندس الفرنسى لينانت قناطر عبر النيل لتسهيل رى الدلتا حتى فى الفيضانات المنخفضة لكن المياه كانت تتسرب تحت الأساس لسوء التنفيذ، واستثمرت أموال كثيرة فى إنشاء محالج للقطن، ومدبغة، وفى بعض المشاريع التجارية، لكن الإهمال وسوء الإدارة كانتا سبباً فى تعطل المصانع، كذلك لم يكن الأهالى قد اعتادوا على العمل بالمصانع، فجرى تسخيرهم للعمل بها على غير رغبتهم. ومع ذلك فقد تمكن محمد على من تغيير الكثير من مظاهر الحياة فى مصر، مستعيناً بالخبراء الأجانب، وبالطبع، فإن هؤلاء كان منهم الصالح ومنهم الطالح.

كان التعاقد مع الخبراء عن طريق وكلاء الباشا، وكان من وكلائه أمير البحر إسماعيل الجبلطار، الذى كلفه الوالى بالبحث عن المهندسين، والخبراء الصالحين للمساهمة فى إدخال صناعات جديدة أو تحديث أساليب الزراعة التى لم تتغير منذ العصور الفرعونية.

التقى أمير البحر الجبلطار مع بلزونى أثناء وجود الأخير بمالطة، وتصادق الرجلان بسرعة، وفى إحدى المناسبات أخذ بلزونى يتكلم بإسهاب عن إمكان

صنع ساقية تؤدي إلى إحداث ثورة زراعية، إذ تعتمد في إدارتها على ثور واحد، بالإضافة إلى أنها سهلة التركيب وعالية الكفاءة وتكاليف صنعها زهيدة، أعجب الجبلطار بحماس بلزوني وبما عرضه عليه واقتنع بخبرته في هذا المجال، فكان أن رتب له زيارة للقاهرة كي يبنى نموذجاً تجريبياً للساقية يختص به الباشا، وغادر بلزوني وسارة وكيرتن مالطة إلى الإسكندرية بطريق البحر في ١٩ من مايو سنة ١٨١٥، فوصلوها بعد ثلاثة أسابيع، وعندما وصلوا كان وباء الطاعون منتشراً في المدينة، فلما نزل البلزونيون إلى البر ساروا بحذر في شوارع المدينة وسط أكوام النفايات حتى استقروا في بيت فرنسي، وهناك حددت إقامتهم حسب قواعد الحجر الصحي، الذي كان الوسيلة الوحيدة في ذلك الوقت لمكافحة الوباء والحد من استنحالته.

كانت هذه البداية كئيبة بالنسبة للبلزونيين، خصوصاً أنهم أصيبوا بنزلة معوية اضطروا لإخفاء أمرها عن النزلاء حتى لا يشتبهوا في إصابتهم بالوباء، كذلك ضايقهم العزل الصحي الاضطراري، مع الغربة، لكن الوباء بدأ ينحسر في يونيو فأمكن لبلزوني أن يتجول في الإسكندرية، وتمكن من الاتصال بقنصلي بريطانيا وفرنسا اللذين أولياه اهتمامهما، وكان اهتمام القنصل البريطاني الكولونيل ميسيت محدوداً؛ لأنه كان معتل الصحة وعلى وشك الاستقالة من منصبه، أما قرينه الفرنسي برناردينو دروفيتي «ذو الأصل الإيطالي» فلم يتردد في تقديم العون لبلزوني.

زود القنصل الفرنسي بلزوني بخطابات توصية لبعض ذوى الشأن في القاهرة، واهتم دروفيتي بتصميمات بلزوني الهيدروليكية لكن يبدو أن جانباً من اهتمامه كان ينطوي على بعد سياسي، إذ نما إلى علمه أن البريطانيين على وشك إهداء الباشا آلة بخارية ومضخة مائية، وعند ظهور بلزوني كانت هذه الهدية قد وصلت في رفقة خبير ميكانيكي إلى ميناء الإسكندرية، أما من جهة بلزوني فالظاهر أنه شاهد بعض التحف الأثرية التي يحتفظ بها دروفيتي، وسمع منه مباشرة حكايات عن مدى الإثارة والأرباح التي يمكن تحقيقها عن طريق الكشف الأثرية.

كان بيت ميسيت . قنصل إنجلترا . ملتقى للسائحين الذين يزورون مصر -
حتى في أوقات الوباء، وعندما زار بلزوني بيت القنصل تعرف على دبلوماسي
شاب اسمه وليم تيرنر كان يقوم برحلة بطيئة في الشرق الأدنى، انتهى - تقريباً -
من نصفها وأعجب ذلك الشاب اللطيف بالبلزونيين، وشرح لهم بإيجاز مسار
رحلة نيلية ينوي القيام بها للقاهرة ودعاهم إلى مرافقته على ظهر زورق نيلي
أجره لهذا الغرض.

وكانت تجربة الرحلة ممتعة، خصوصاً وأنها كانت أول رحلاتهم في النيل،
واستغرقت الرحلة خمسة أيام بدءاً من رشيد بحذاء الريف الغني، وبعد حر
الإسكندرية استمتع هؤلاء المسافرين بواحة رشيد، وبالنيل، وبمشاهدة مظاهر
الحياة التي ظلت على ما هي عليه منذ قرون، وفي صباح اليوم الخامس من بدء
الرحلة وصل زورقهم إلى - بولاق ميناء القاهرة الرئيسي، أما تيرنر فنزل ضيفاً
على أحد الأديرة وأما البلزونيين فتوجهوا إلى منزل هياه لهم باغوص بك.

٧. الخبير الفهامة فى الرى

بعد الرحلة النيلية الرتيبة بحذاء سهل الدلتا المنبسط، لابد للمسافر أن يحس أن القاهرة مدينة حية عظيمة، ذات قباب وماذن وترتفع لتظهر فوق الضباب الكثيف المتصاعد من مطابخ المساكن، وهى - حقاً - مدينة عالمية صاخبة، تبعد قليلاً عن بر النيل الأيمن تحت تلال المنقطم، كانت القاهرة - فى ذلك الوقت - تحيطها الحقول وأشجار النخيل، يمكن مشاهدة الأهرام منها على البعد، وعمرها - الآن - ألف عام، وقد جددت أسوارها وقلاعها مراراً على مر العصور، وممن جددتها القائد المعروف صلاح الدين الأيوبي وقد قدر تيرنر - فى أوائل القرن التاسع عشر - سكان القاهرة بحوالى ربع ميلون نسمة، وكانت المدينة أهم المدن فى الشرق الأدنى، بعد القسطنطينية، كما كانت أكبر المراكز السياسية والتجارية فى المنطقة. *

كانت القاهرة - كمركز تجارى - ملتقى للقوافل التجارية الوافدة من بلاد بعيدة فى شمال أفريقيا والشرق الأدنى، وتصل حتى تمبكتو والنيجر وحلب والهند، وغيرها من بلاد الشرق الأقصى، ولم يكن هناك - فى ذلك الوقت - من يخاطر بجتياز طرق القوافل منفرداً، فالصحراء الشاسعة كانت حاشدة بكمائى اللصوص، والجماعات السياسية المتصارعة، لدرجة أن القوافل نفسها كانت تتعطل فى سيرها لعدة أسابيع أو شهور أحياناً، وكان آلاف البشر يصحبون القوافل مع عائلاتهم للتجارة، ومنهم من أمضى عمره كله على هذه الوتيرة -

التجارة ومبادلة السلع، وكانت هذه القوافل تنعش أسواق القاهرة، فكان أصحاب السلع من قطن وكتان وحبوب.. إلخ يقفون على جانبى طرق القوافل ليقايضوها بخامات وسلع أجنبية من أفريقيا وآسيا مثل الذهب والعاج والملح والتوابل وقرن الخريت (منشط جنسى) وبيض النعام والمنسوجات الرقيقة والصينى وحتى العبيد .

كانت شوارع المدينة ضيقة وبيوتها متراكبة، تموج بالمارة والباعة المتجولين الذين ينادون على بضاعتهم بأصوات عالية، وكانت بها أحياء صناعية مشهورة بها دكاكين صغيرة ذائعة الصيت، من هذه الأحياء حى الصاغة حيث صياغ الذهب والفضة، ومنها حى الفخار وحى الجلود.. وغيرها، وكان من يشاء يستطيع شراء أى سلعة مادام قادراً على دفع الثمن، وفى المساء، كان الهدوء يسود المدينة، لأن الأحياء كانت تغلق أبوابها، والعنصر الغالب على معمار القاهرة هو جوامعها الكبرى مثل الجامع الأزهر - منار العلم الإسلامى منذ ألف عام، ومثل جامع ابن طولون أقدم جوامع القاهرة الذى بنى فى القرن التاسع الميلادى.

كانت أفخم المباني والجوامع مبنية بحجر الجرانيت المأخوذ من الأهرام والمعابد المصرية القديمة، وكانت مياه الفيضان تغرق ميدان الأزكية الكبير فى شهر أغسطس كل سنة عندما يرتفع منسوب المياه فوق مستوى الشاطئ، وكان يلى الميدان مناطق شاغرة، وعموماً، كانت معظم مناطق القاهرة متداعية فقيرة أغلب مساكنها عشش وأكواخ مبنية على مثلها أقدم منها، وكانت أكوام القمامة ملقاة فى الشوارع وفنية البيوت، ترتع فيها وتعيش عليها الحيوانات الضالة.

كان عدد الأجانب . فى مطلع القرن التاسع عشر - قليلاً معظمهم دبلوماسيون وتجار من أيام حملة نابليون ثم عدد محدود من الخبراء والسائحين، وكان هؤلاء يسكنون الحى الغربى المعزول عن باقى المدينة، وتحرسه بوابات خشبية ضخمة تغلق على السكان يومياً عند المغرب، وعند انتشار الطاعون والأوبئة وتضاقم الاضطرابات والقتال، وكان الذى لا يجد لنفسه مكاناً بالحي يلجأ إلى الإقامة فى بولاق التى تبعد عن القاهرة شمالاً ميلاً واحداً، فى ذلك الوقت كانت بولاق ضاحية جميلة هواؤها عليل وبها قصور غناء من أملاك والى مصر .

نزل آل بلزوني في بيت من بيوت بولاق وفره لهم باغوص بك، ورغم الترحيب الذي قوبلوا به كانت إقامتهم غير مريحة، فقد كانت نوافذ الدار مخلوطة وبابه الأمامي بدون قفل وسقفه هش على وشك الانهيار، وقامت سارة بتهيئة الوسائد والفرش للمبيت في أحسن بقعة وجدتھا بالدار، وكانوا يأكلون وهم جلوس على الأرض، وهكذا، أخذوا يتدبرون أمرهم حتى يأتي إليهم الفرج ويتشفرون بمقابلة الباشا.

كان في تقدير باغوص بك أن المقابلة مع الباشا سوف تتم بعد أسبوع واحد من وصولهم ولكن الأقدار شاءت أن تتعطل الزيارة، فعندما توجه بلزوني للقلعة تعرض للاعتداء من أحد الجنود الأتراك الساخطين، فأصيب في رجله إصابة بالغة اضطرته لملازمة الفراش عدة أسابيع، وبعد شفائه تمكن من مقابلة الباشا، وتميزت المقابلة بالود، وفي هذه المقابلة شرح بلزوني اختراعه وتعهده ببناء النموذج الأول للساقية التي وصفها بأنها: «ترفع كثيراً من المياه ويديرها ثور واحد، في مقابل السواقي المحلية التي تحتاج لأربعة ثيران». ويذكر بلزوني في مذكراته أن «محمد على قد سره المشروع سروراً بالغاً لأنه سوف يوفر العمال وآلاف الثيران لمصر».

تأخر صنع النموذج عن مواعده، وفي أثناء المهلة ثار المعسكر التركي على الوالي فاحتجب الوالي شهراً حتى أمكنه قمع الفتنة، وأثناء العصيان لم يسلم بلزوني من الاعتداء ومن تجريده من جواز سفره، وانتظر بلزوني حتى هدأت الأحوال ثم انتقل مع العائلة إلى بيت صغير في شبرا بجوار سراي محمد على وكان البلزونيون يعتمدون في معاشهم على معونة حكومية بسيطة، أما الساقية فقد قضى العقد على إقامتها في حديقة الباشا بجوار قصره بشبرا.

كان وليام تيرنر في هذه الأثناء مشغولاً بزيارة الشخصيات البارزة في القاهرة، وفي ترتيب رحلات مختلفة داخل المدينة وخارجها، وكان ضمن البرنامج زيارة الأهرام. ودعى بلزوني لمرافقة المجموعة، التي توجهت للجيزة على ظهر الحمير في ضوء القمر، وبعد الشروق بقليل كانوا قد اعتلوا قمة الهرم الباردة، وأخذوا ينظرون بإعجاب لمنظر القاهرة والنيل يجري من تحتهم، وبعد الإفطار

دخلوا إلى جوف الهرم الأكبر (هرم خوفو) للاستكشاف، وفي حجرة دفن الملك أطلقوا غمداراتهم، في تسلية وترجية نوقت الفراغ لابد أنها سمعت أذانهم وأزعجتهم، ويبدو أن بلزوني في هذه الرحلة كان مجرد زائر استهواه ما يستهوى غيره من اهتمام بالأهرام.

تأخر وصول الخامات اللازمة لتصنيع الساقية، فوجد بلزوني نفسه خالياً فترة طويلة، لذلك انضم إلى تيرنر في رحلة أخرى زار فيها سقارة ليشاهد المقابر الأثرية المشهورة الزاحدة بالمومياوات، وزار أعضاء الرحلة الهرم المدرج وتسلقوه وهناك تناولوا الإفطار، ولم تكن معهم معدات مناسبة للحفر والبحث عن المومياوات، كذلك طلبوا من أحد الأدلاء من الأعراب أن يبحث عن مومياء لأحد عجول أبيس المشهورة، وعاد الدليل بعد نصف ساعة حاملاً جرة ضيقة مغلقة بسداده من الطين، وأكد الدليل أن الجرة بها مومياء حقيقية لطائر أترى، فسخرها منه لأن الكثير من أمثالها وجدت فارغة قبل ذلك، وثار الأعرابي فطرح الجرة أرضاً فانكسرت وتناثر منها فتات مومياء تأكد أنها لطائر محنط، في هذه المرة كان الأعرابي صادقاً.

كانت هذه الرحلات القصيرة أشبه بالاستراحة بالنسبة لبلزوني أثناء تعطل مشروع الساقية، وكانت أسباب التأجيل متعددة، فقد مرض كبير مهندسي الوالى، كذلك لم يتوفر الخشب الجيد المناسب لصنع الساقية، ومن جهة أخرى تأخر صدور التصريح ببناء الساقية، وكان وراء ذلك بعض البيروقراطيين الرجعيين المعارضين للمشروع، فقد كانوا يقفون في وجه كل جديد، بخلاف الوالى نفسه الذى كان يقدر الأساليب الغربية في تنفيذ المشروعات.

بعد الأعطال والأعذار أمكن تصنيع الساقية في ظرف أربعة أشهر، وأخيراً استقر الرأي على تجربة الساقية في منتصف سنة ١٨١٦، وحضر بلزوني أمام الباشا وخبرائه في شئون الري ليشرف على التجربة في حدائق القصر حسب الاتفاق، وركبت الساقية بجوار ست سواق من الطراز المعتاد، وربط الثور بالساقية الجديدة وتحرك لإدارة عجلة الساقية، وسال الماء غزيراً يروى حديقة الباشا بصورة لم تستطع السواقي العادية مجاراتها، وشهد الوالى ومن معه من

الخبراء أن مضخة بلزوني ذات كفاءة تعادل كفاءة أربع من السواقي العادية،
ولسبب ما خطر للوالى أن يجرب وضع أحد الرجال مكان الثور فى ساقية
بلزوني، فتطوع لذلك بعض الأعراب المتحمسين وكيرتن الأمين تابع بلزوني، وفى
مبدأ الأمر نجحت التجربة لكن الأعراب قفزوا منها فجأة تاركين كيرتن وحده
داخل الساقية، فاختل توازن الآلة بشدة فطرحته خارجا بقوة تسببت فى كسر
ساقه، فكان القرار أن الساقية خطيرة مميتة وبذلك فشل المشروع، وتبخرت آمال
بلزوني فى مواصلة العمل كخبير فهامة فى شئون الري.

•

٨- ممنون الصغير

وصل هنرى سولت قنصل بريطانيا الجديد إلى مصر فى هذه الأيام، وكان مع القنصل نسخة من مذكرة أعدها قسم الشئون الخارجية التابع له ملتون بخصوص الآثار المصرية، وكان أهم ما يشغل بال القنصل الجديد العثور على مثيل لحجر رشيد فى أسرع وقت، وتصادف أن وصل القنصل إلى بولاق فى موسم مرض الطاعون فوضع تحت الحجر الصحى، وبالصدفة كان عزله فى البيت نفسه الذى سكنه آل بلزوني من قبل، وهنا تعرف على الشيخ إبراهيم وهو رجل طويل أصابته الشيخوخة قبل الأوان، وكان الشيخ إبراهيم يبدو غريباً فى كل تصرفاته لكنه فى واقع الأمر كان مستشرقاً سويسرياً اسمه الحقيقى يوهان لودفيج بورخارت.

وبورخارت من كبار المستشرقين ومن علماء اللغة، ومن المتخصصين فى الكيمياء، وكان فوق ذلك من هواة الرحلات، وأثناء حروب نابليون فقد عائلته مما دفعه إلى الهجرة من سويسرا إلى إنجلترا، وفى لندن درس اللغة العربية فى كامبردج.

بعد ذلك قدم نفسه للسير جوزيف بانكس رئيس الجمعية الأفريقية وكانت قد شكلت حديثاً وعرض عليه فكرة استكشاف نهر النيجر إذ كان مثار جدل الجغرافيين فى ذلك الوقت، ووافقت الجمعية على الفكرة وأعانت إعانة مالية

بسيطة كي ينفذها واشترطت عليه أن يمضى فى سوريا سنتين أولاً لإجادة اللغة العربية وبعدها يتوجه إلى وسط أفريقيا مع القافلة التى تقصدها .

وبالفعل تمكن بورخارت من اللغة العربية وحفظ القرآن وتفقه فى الشريعة الإسلامية .

وفى سنة ١٨١٢ رحل إلى القاهرة بحثاً عن قافلة عابرة للصحراء إلى فزان وغرب أفريقيا، ونظراً لندرة مثل هذه القوافل قرر أن يشغل وقته برحلة نيلية حتى دنقلة فى قلب النوبة، بعدها قام برحلة إلى البحر الأحمر، ونظراً لقربه من مكة قرر أن يزورها ويؤدى فريضة الحج ثم يزور قبر النبى ﷺ بالمدينة، بعد ذلك عاد إلى القاهرة فى الفترة نفسها، التى وصل إليها فيه تيرنر وبلزوني .

هذه نبذة مختصرة عن بورخارت المستشرق المثابر، المتعمق فى دراسة حضارة الإسلام، والخبير بوادى النيل، وقد ترك لنا بورخارت كثيراً من المذكرات والرسائل جمعت فى كتب بعد ذلك ودلت كتاباته على ولعه بوصف كل كبيرة وصغيرة، وكان بورخارت أول أوروبى فى العصر الحديث يزور معبدى أبى سنبل الرائعين .

عند أول وهلة لم يؤثر منظر أبى سنبل فى نفس بورخارت، لأنه هبط إليه من علو فشاهده من فوق الصخور، ولكنه لما ركب المركب صاعداً فى النيل مدة وجيزة انكشف له منظر تمثال من تماثيل رمسيس الأربعة التى فى واجهة المعبد، وكانت التماثيل مدفونة فى الرمل لا يظهر منها سوى الرأس الذى شاهده بورخارت، وحده بورخارت أنه «إذا أزيلت الرمال فسوف نجد معبداً كبيراً» وأعجب بورخارت بالرأس المدفون أيما إعجاب وقال: «إنها رأس رجل فى ريعان الشباب وهى نموذج يمثل الجمال الإغريقى بصورة تفوق أى تمثال فرعونى رأيت» .

جعلت رحلات بورخارت ومشاهداته من الرجل رقيقاً مسلياً ومفيداً للمغتربين فى مصر، وكان بلزوني يلجأ إليه إذا احتاج للمشورة، ومن بورخارت سمع بلزوني لأول مرة عن أبى سنبل والتماثيل المدفونة فى الرمال ولكن الذى أثار اهتمامه

أكثر - ما ذكره بورخارت - أنه شاهد أثناء تجوله فى طيبة رأس تمثال ضخيم فريد من الجرانيت اسمه « ممنون الصغير » موجود فى مكان مهجور بجوار معبد يسمى معبد ممنون على البر الغربى للنيل، والحقيقة أن أمر التمثال معروف من قبل، فالرأس لرمسيس الثانى وقد سبق أن وصفها هاملتون فى أحد كتبه عن الآثار المصرية بأنها « أجمل وأكمل قطعة أثرية فى مصر ». وتبته الفرنسيون لأهميتها وحاولوا نقلها فلم يفلحوا .

سمع بورخارت هذه الحكايات من الأهالى وخطر له - دون حماس - أن يتولى نقل التمثال، ثم آثر أن يعرض على الباشا إهداء الرأس لولى عهد إنجلترا، لكن محمد على لم ترق له الفكرة وتساءل « أى ملك هذا الذى يريد أن يقتنى قطعة حجر؟ » ويبدو أن بورخارت ذكر ذلك كله لبلزوني الذى لم يعره اهتماماً حتى حدثت كارثة الساقية فأخذ يفكر فى مجالات أخرى للعمل.

عندما تحطمت آمال بلزوني فى تنفيذ مشروع ماكينة الرى وجد نفسه صفر اليدين، هنا تذكر موضوع الرأس فاتصل ببورخارت وعرض عليه فكرة نقل الرأس، ورغم حماس بورخارت لتنفيذها إلا أنه لم يستطع تحمل مصاريف العملية والنقل إلى إنجلترا، أما سولت فإنه رحب بالفكرة وصاح: « إنها والله منحة من الرب ». وسرعان ما استصدر فرمان اللازم للعملية. وكان تكليف بلزوني بالعملية كتابيا، ومن تعليمات سولت له أن: « يجهز المعدات اللازمة للعملية فى بولاق، وأن يكون نقل التمثال بالطريق النهري ».

وضمن الخطاب توجيهات تتعلق بالعمال والبحارة وتكاليف العملية، وفى نهاية الخطاب يركز سولت على ضرورة تمييز الرأس وعدم الخطأ: « يجب عدم الخلط بين رأس ممنون وأى رأس بجواره ».

أقبل بلزوني على إعداد العملية بحماس شديد، فقام باستئجار مركب، وطاف ببولاق والقاهرة بحثاً عن الروافع المناسبة فلم يوفق فى الحصول سوى على بعض الصواري والحبال المصنوعة من ألياف النخل، ودله ذلك على أنه لا مناص فى أمر الروافع من الاعتماد على الخامات المحلية فى موقع العمل، فحزم أمره

وأبحر فى ٣٠ من يونيو سنة ١٨٢٦ مصطحباً معه سارة وتابعه الأمين وأحد المترجمين من القبط.

كانت هذه أول مرة يغادر فيها بلزونى القاهرة فى رحلة إلى الصعيد، لذلك كان يتوقف - أحياناً - ليشاهد بعض البلاد فى الطريق، ووصلت مركبتهم إلى منفلوط بعد ستة أيام، وهناك التقوا بالقائد إبراهيم باشا ابن الوالى ومعه مرافقيه، ومعهم كثير من الآثار التى جمعوها من طيبة، ورحب إبراهيم باشا ببلزونى، وكان على علم بموضوع نقل الرأس، وكان دروفيتى بصحبة القائد فحذر بلزونى من احتمال رفض الأهالى التعاون معه، لكنه دله على موضع غطاء تابوت حجرى راقد هناك، وأبدى رغبته فى التنازل عنه لبلزونى - بدون سبب مفهوم، والعجيب أن الهدية وجدت محشورة داخل مقبرة صخرية بطيبة، بشكل لا يمكن معه زحزحتها بأى حال.

فى أسيوط زار بلزونى «البك» - الحاكم المحلى - وقدم له خطاب توصية، لكن العراقيل وضعت أمامه: ليست هناك مراكب ولا خامات ولا نجارين والتمثال ردىء، والعمال ممنوع استئجارهم. ثم إن البك قال بصراحة أكثر: «إنه لا داعى للمضى فى العملية، لأنك ستواجه بما تكره، وتعرضك شتى العوائق». وهذا من عمل دروفيتى الذى كان طمع فى الاستحواذ على التمثال.. لكنه لم يتبته لعناد بلزونى وصلابته.

وفى ١٨ من يوليو كان آل بلزونى فى دندرة، فزاروا معبدها الجميل - الذى أبدع دينون - من قبل - فى وصفه، وشاهدوا فى المعبد دائرة الأبراج السماوية المرسومة على سقفه، ووجدوا السكان قد بنوا قرية كاملة فوق سطح المعبد، ويبدو أنهم لم يكتثروا بالآثار ولا قبور الموتى، واجتاحت بلزونى موجة من السعادة وهو يتجول عبر عنها بقوله: «لقد كنت أشعر بأننى فى مدينة من مدن الشياطين المردة.. تصارعوا حتى أفنى بعضهم بعضاً، وخلفوا أنقاض معابدهم كشاهد وحيد على وجودهم يوماً ما».

بادر بلزونى بمعاينة رأس ممنون والتعرف عليها، فهى هدفه الرئيسى فوجدها: «مجاورة لبقايا جسمها وكرسیها، ووجهها ينظر إلى كما لو كان يسخر

منى ومن رغبتى فى نقلها إلى لندن». وهاله الرأس عند مرآها لأول وهلة، ولم يكن معه من الأدوات سوى ١٤ صاريا (قوائم خشبية) وأربعة من الحبال المصنوع من ليف النخيل، وأربعة درافيل، ولم يكن معه روافع، كذلك لم يكن بإمكانه الحصول على الخشب لخلو المنطقة منه، وكان ذلك موقفاً يبعث على الإحباط.

ورغم ذلك أقام بلزونى معسكره بين حجارة المعبد المنهارة، وأعطى بلزونى النجار الذى يصحبه ثمانية من القوائم الخشبية الأربعة عشر التى معه، وطلب منه أن يصنع منها عربة، وفى أثناء صنع العربة كان بلزونى مشغولاً بجس النهر وقياس مستوى الماء به، فقد كان يعرف أن الفيضان سوف يصل إلى المعبد بعد شهر، وأنه إن لم ينقل الرأس قبل ذلك فقد تتأجل العملية كلها سنة كاملة، وهذا موقف حرج خصوصاً وأن هناك من يطمع فى التمثال غيره.

تبين لبلزونى أن دروفيتى كان ضالعا فى العملية، فحث العمدة التركى، الذى قابل بلزونى بكل أدب، على عدم التعاون معه، لذلك تحجج العمدة بانشغال الفلاحين بالزراعة، ثم تحجج بأنهم فى رمضان وأنه شهر الصوم، وطلب من بلزونى الانتظار حتى ينحسر الفيضان، وأخيراً، ادعى صراحة أن الفلاحين لن يتعاونوا معه، لأنهم يفضلون الموت جوعاً على القيام بهذا «العمل» المرهق، وبعد مساومات عدة استخدم بلزونى سلاح الرشوة الذى لا يخيب، وأن للعمل أن يبدأ.

أسعفت حيل «شمشعون الجبار» صاحبها بلزونى فى كل أموره، وكانت أول المشاكل التى واجهته وضع الرأس فوق العربة التى صنعها النجار، وسرعان ما وجد الحل المناسب، فأمر بوضع أربع روافع تحت الرأس الثقيل ليرفعها لأعلى ويدفع العربة تحتها، وبعد ذلك رفع العجلة من أحد طرفيها ودحرج تحتها زوجاً من الروافع، واندesh الأهلى عندما تمكنت الروافع من تحريك الرأس، وظنوا ذلك عملاً شيطانياً، فصاحوا صيحة عظيمة، وفى ذلك يقول بلزونى: «رغم أن العمل نجح بجهدهم، فقد أصروا على أن ذلك من عمل الشيطان، فلما رأونى أسجل مذكراتى ظنوا أنه «السحر» وأن «تعويذتى» هى سبب النجاح».

الخطوة التالية كانت سحب الرأس مسافة طويلة إلى شط النيل، ففى اليوم التالى لتحميل الرأس على العربة أخرجها من المعبد، اضطرته العملية لتكسير قاعدتى عمودين من أعمدة المعبد لتخليص العربة ورغم الحرارة والإجهاد أمكن السير بالعربة مسافة ٢٠٠ ياردة فى يومين، حتى وصل إلى مكان وجد فيه الأرض تحت العربة رخوة، فاضطر لتحويل مسارها مما زاد المسافة ٣٠٠ قدم أخرى.

سارت الأمور بشكل طيب حتى ٥ من أغسطس، عندئذ وصلت العربة وفوقها التمثال إلى أرض منخفضة يوشك ماء الفيضان أن يغمرها، وحضر بلزوني فى الصباح ليجد العربة والحراس، ولكن لا عمال. اتضح أن الكاشف منع العمال من خدمة «كلب» أجنبى، وقامت مشادة بين الرجلين وتماسكا وكان النصر لبلزوني مما أدهش الكاشف، ولم يجد بلزوني بدا من التهديد بالشكوى إلى الباشا، وكان لذلك التهديد أثره فاستؤنف نقل الرأس فى اليوم التالى بلا تأخير.

بعد خمسة أيام من العمل المضنى وصل الرأس إلى الشط بأمان، وكافأ بلزوني عماله بمنح كل منهم ستة بنسات فوق الأجر المتفق عليه، فسرهم ذلك سروراً بالغاً.

كان المطلوب بعد ذلك إيجاد مركب تحمل الرأس، ولكن الوالى كان يستخدم كل المراكب، وأرسل بلزوني إلى سولت ليرسل له واحدة إلى طيبة، وفى انتظار وصول المركب أقام بلزوني حاجزاً ترابياً حول العربة المحملة بالتمثال، ووفر الحراسة حول المكان.

ولم يشأ بلزوني أن يضيع وقت الانتظار بدون عمل، لذلك التفت إلى موضوع التابوت الذى أهداه له دروفيتى، كان هذا التابوت راقداً فى قلب مقبرة منقورة فى التلال التى خلف القرية. وهى من المقابر المشهورة بجودة ماتحوى من الموميאות.

واصطحب بلزوني معه دليلان أعرابيان ليرشدها إلى المكان ويحرساه، واضطر بلزوني إلى نزع ثيابه وإشعال بعض الشموع، ثم الانزلاق فى شق طويل وسط

الصخور للبحث عن التابوت وقد حاول الدليلان تضليله - سعيًا وراء مزيد من الأجر - لكن بلزوني وفق في العثور على التابوت بالصدفة فأبطل كيدهما .

وكلف بلزوني، بعض الرجال بتنظيف الممرات الموصلة للتابوت وإخلائها، لكن بلزوني فوجئ بعد ثلاثة أيام بأن الكاشف وضع هؤلاء العمال في السجن «مصفدين في الأغلال مثل اللصوص». واتضح أن ذلك كان بتحريض وكلاء دروفيتي الذين وصلوا من الإسكندرية وحسدوه على نجاحه، وأنذر الكاشف بلزوني بأن التابوت قد اشتراه دروفيتي وبذلك يعتبر الموضوع منتهياً، وفي مذكراته يذكر بلزوني أنه عند ذلك. «تظاهرت برباطة الجأش، وبدعم مبالاتي بموضوع غطاء التابوت وعدم اهتمامي بالعمال المسجونين، وبدأ الكاشف في المراوغة، ثم بدا له أن يعرض على أنه بصدد استشارة رؤسائه بالقاهرة، ثم وجه اهتمامه نحو أشياء أخرى».

•

٩. رحلة إلى النوبة

أثناء فترة الانتظار رأى بلزوني أن من المناسب أن يواصل الرحلة جنوباً حياً للاستطلاع ورغبة في شراء المزيد من التحف والآثار، وكان ذلك متيسراً لأنه كان يستطيع التنقل بالركب التي تصحبه دون زيادة في الأجر، ومن الطبيعي أن يحاول استكشاف المنطقة خلف طيبة، مادام تمثال ممنون مستقراً في مكانه على الشط، وما دامت مشكلة التابوت الحجري لم تحل.

الرحلة من الأقصر جنوباً إلى الشلالات كانت مملة، يمر فيها المسافر عبر أراض زراعية شاسعة، تتجمع قراها في المرتفعات احتياطاً من فيضانات شهر أغسطس، ولكن آل بلزوني استمتعوا بها حيث حفلت بالمشاهدات والمغامرات، و زاد من بهاء الرحلة ربهوهم نيلاً في بعض المدن الصغيرة والقرى لزيارة مشايخهم ودعوتهم للصعود إلى ظهر المركب.

وإبعاداً للضيق والملل عرجوا على كوم أمبو بأسوان وجزيرة إلفنتين لزيارة ما بها من معابد أثرية وكنائس قبطية، ولم ترق إلفنتين لبلزوني لأنها لم تكن كما صورها له خياله عندما قرأ ما كتبه غيره من السائحين عنها، ولعل جانباً به ضيقه بها كان بسبب مشاكل العبور إليها، فقد كان القارب الذي عبروا به مصنوعاً من الحصير وليف النخل، لا يزيد طوله على عشرة أقدام وعرضه لا يتعدى خمسة أقدام، وانحشر في القارب الصغير تسعة أشخاص منهم بلزوني

المعروف ببدايته، ويذكر بلزوني أن القارب حتى وهو جديد لا يساوى أكثر من اثني عشر قرشاً، وربما ستة شلنات».

ينكسر هدوء النهر عند الشلال الأول في أسوان، وقد أستأجر بلزوني قارباً آخر هناك لنقله إلى فيلة وداخل النوبة، ودخل الأغا المنطقة في مساومة مع بلزوني حول أجرة المركب، دون أن يفطن إلى أن بلزوني مساوم صلب، لذلك استطاع استئجار القارب حسب قوله: «بالأجرة نفسها التي يدفعها أى نوبى محلى»، والخلاصة أنه دفع ٢٠ دولاراً أجرة الذهاب والعودة، وكان الأغا قد طلب في البداية ١٢٠ دولاراً.

كان الوصول إلى فيلة في ٢٧ من أغسطس، ويصف بلزوني لحظة الوصول بقوله: «وقفت قبل طلوع الشمس بمدة عندمؤخرة المركب لأشاهد منظر جزيرة فيلة الجميلة عند الشروق، فلما شاهدها وجدت جمالها فوق ما يتصوره العقل». ولكنهم لم يلبثوا بها كثيراً لأن التيار كان مواتياً، فقرروا مواصلة الرحلة جنوباً وفي نيتهم أن يتوقفوا بها وقتاً أطول في رحلة العودة.

وما لبث آل بلزوني أن وجدوا أنفسهم في أرض غريبة، ليس للوالى عليها سوى سلطة رمزية، وحدث أنهم بعد مغادرة فيلة بيوم واحد تعرضوا لأحد حوادث العنف، فقد تجمع عدد من الأهالى حول المركب، وكان بعض من فيها على الشاطئ، ثم بدأ عدد من المسلحين بالحرا ب يحومون حول المركب، وكان آل بلزوني و مترجمهم وعدهم على ظهرها، فما كان منهم إلا أن حملوا الغدارات تحسباً لأى طارئ، وصاح فيهم بلزوني ليبتعدوا، «وتقدمت، وببىدى اليمنى منعت أولهم من صعود المركبة، وكانت غدارتى فى شمالى فصوبتها نحوه، وأومأت إليه أن يبارح وإلا أصبته»، وللمرة الثانية نجد أن سرعة تصرف بلزوني قد حسمت الموقف ودفعت عنهم شر.

ولعدم معرفة بلزوني بهذه البلاد اعتمد على مذكرات بورخارت، وقد واصلوا الرحلة إلى كلابشة بحثاً عن الآثار، وفى كلابشة زاروا معبداً قريباً من النهر، وعند مغادرتهم المعبد تجمعهم حولهم الأهالى للتسول، لكن بلزوني هب واقفاً

وردعهم وأفهمهم أن التهديد لا يخيفه، ومضى فى سبيله بثبات، ثم هدأت الحال فساومهم بلزونى واشترى منهم بعض الحجارة المقبرية المنقوشة بنقوش يونانية.

كانت محطتهم التالية بعد كلابشة بلدة الدر عاصمة النوبة السفلى، وهى قرية وصفها بلزونى بأنها «مجموعة بيوت مبنية بالطين والحجر»، ووجدوا فى الدر حسن الكاشف، وهو أحد ثلاثة اخوة يحكمون النوبة فيما بينهم، وحيا الكاشف متوجساً، وحذرهم من مواصلة الرحلة لوجود قلاقل بعد الدر، وكان بلزونى يعلم سلفاً أن أهالى الدر مشغوفون بالمرايا والفصوص الزجاجية، ومن حسن حظه أنه لم ينسى أن يحمل معه بعضاً منها، فلما أهدى بلزونى إحدى هذه المرايا لحسن الكاشف، أعجب بها كثيراً، وما لبث أن أعطى بلزونى خطاب توصية إلى أخيه التالى له جنوباً، ويقول بلزونى مبدئاً سروره: «لم يكف الكاشف عن المباهاة بوجهه الذى يشبه وجه الدب فى المرأة، وحتى الأهالى تسابقوا لاختلاس النظر فيها والإعجاب بصورهم السمراء».

واتجهوا إلى أبى سنبل فوصلوها بعد يومين، وهذه كانت أهم أهداف الرحلة، فقد حدثه بورخارت قبل ذلك بثلاث سنوات عن تماثيل معبد أبى سنبل الجميلة، وكان يتحين الفرصة لمشاهدة هذه التماثيل العملاقة، وكشف المعبد المردوم خلفها.

أعجب بلزونى بمنظر إفريز المعبد لكبير وتماثيل القردة الستة الضخمة عندما أشرف عليها مع بعيد، وأخذ بلزونى يتسلق المنحدر الرملى حتى ظهر له تمثال اعتقد أنه للإله حور - أختى، صاحب الرأس الصقرية وحُدس بلزونى أن التمثال فوق اسكفة باب المعبد تماماً، وقدر أن الباب موجود على عمق ٣٥ قدماً من الرمال الناعمة التى تغوص فيها الأقدام.

بعد هذه الزيارة توقف آل بلزونى عند قرية أبى سنبل القريبة، هناك كان العمدة داود الكاشف وبعض رجاله بين الأشجار، وكان داود هذا رجلاً فى الخمسينيات من عمره يلبس «عباءة زرقاء، ومعمماً بمنديل أبيض»، أخذت العمدة المفاجأة، فحيا الضيوف بجفاء، واستفسر العمدة من بلزونى عن سبب

حضوره، فأخطره برغبته فى البحث عن حجارة أثرية، وعزمه عل الكشف عن المعبد المردوم وفتحه، لما سمع العمدة ذلك انفجر ضاحكاً بسخرية، فهذه قصة مكررة سبق لأجنبى آخر أن ردها على سمعه، لكن هذا الأجنبى سطا على ذهب كثير بدلاً من ذلك.. المقصود إذا هو الذهب؟

ولجأ بلزونى إلى الصبر ليوضح للعمدة أنه يجرى وراء الاثار ومن بنوها ولا علاقة له بالذهب، وأفاده الكاشف أن الأهالى لن يعاونوه فى ذلك لأنهم لا يهتمون بالمال، الذى يظنون أنه لا ينفعهم، فأخرج بلزونى من جيبه قرشاً واحداً أعطاه لأحد الأهالى وطلب منه أن يتوجه للمركب ويطلب من الرئيس أن يبيعه به قمحاً، وعاد الرجل حاملاً غرارة قمح كاملة - تكفيهم ثلاثة أيام فلما رأى الأهالى مفعول القرش الواحد آمنوا كلهم بسحر النقود.

نجح بلزونى فى تأجير العمال بأجر يومى مقداره قرشان لكل عامل، وغمره السرور عندما علم أن غريمه دروفيتى ترك مع الكاشف ثلاثمائة قرش لفتح المقبرة لكنهم ردوها إليه لأن الأهالى لا يستعملون النقود، بعد أن رتب أموره فى أبى سنبل اتجه إلى أشكيت التى تبعد عنها يوما ونصف وذلك للاتصال بالأخ الثالث، حسين الكاشف للحصول على التصريح.

وأثناء الرحلة توقف آل بلزونى عند بعض القرى التى تقع تحت الشلال بالضبط، فوجد أهلها بدائيين لا يملكون من حطام الدنيا سوى «كانون للطهى، وحصر للنوم»، واختار بلزونى من هؤلاء اثنين يدلانه على كيفية الصعود للشلال، وكادت المركب تتحطم فى الدوامات لكن أمكن تفادى الكارثة واستقرت المركب على البر، بعد ذلك تسلقوا فوق صخرة وشاهدوا منظر الشلال الرائع، الذى عبر عنه بلزونى: «كانت نظافة الحجارة وخضرة الأشجار على الجزر، مع الماء المتدفق قد كونت مشهداً رائعاً، يستحيل وصفه ورسمه».

كان حسين الكاشف رئيساً مبعجلاً فى السبعين من عمره، وكان ينتظر بلزونى فى جمع من الحراس، ولم يبد الكاشف استغرابه عندما أخطره بلزونى برغبته فى فتح المعبد، رغم اعتقاده باستحالة ذلك، لم يجد بلزونى مشقة فى الحصول

على التصريح، بشرط حصول الكاشف على نصف الكنوز المكتشفة، ولم يبد بلزوني أى اعتراض، فقد كان واثقاً تماماً، كما حدث فعلاً، أن الكنز المزعوم ليس إلا بعض التماثيل.

أسرع بلزوني بالعودة إلى أبى سنبل، ففوجئ بعصيان الأهالى ورفضهم للعمل، وأصابه الإحباط وهدد بإلغاء المهمة ومغادرة المكان، ولما أحس الكاشف أن مصدر الكسب الضخم على وشك التبخر، عاد إلى أسلوب المساومة، واستقر الأمر على تزويد بلزوني بأربعين رجلاً فى اليوم التالى، لكن أحدا منهم لم يحضر، وحرص بلزوني الكاشف على جمعهم بالقوة، بعد ذلك استقر الحال وبدأ العمل، وجرى العمل إلى أساس ثنائى، يترافق فيه كل اثنين لتتظيف المنحدر المؤدى لواجهة المعبد باستخدام عصى طويلة تنتهى بقطع خشبية مستعرضة تسهياً لإزالة الرمال (أشبه بالمقشة) وكان نشاط العمال ملحوظاً لطمعهم فى ظهور الذهب، ثم حدثت بعد ذلك دسائس لابتزاز الزوار فتراخى العمل، فلجأ بلزوني كالعادة إلى رشوة شقيق الكاشف فوافق على استئناف العمل، نظير صرف كمية إضافية من الحبوب للعمال.

وحرص بلزوني على صنع حاجز من سعف وفسائل النخيل عند المكان الذى ظنوه مدخلاً للمعبد، حماية له من الردم بالرمال، فى اليوم التالى حضر ثمانون عاملاً قبلوا العمل بنصف الأجر المتفق عليه، وبعد انتهاء العمل تسلم أخو الكاشف أجرهم بنفسه، ولم يعطهم منه شيئاً، وتعجب بلزوني كثيراً من هذا الأسلوب.

فى هذه الأثناء وقعت حادثة مكررة، فقد صعد المركب لصان للسطو عليها، ولم يكن بها سوى سارة ومعها صبية صغيرة، وكما قال بلزوني إنهما «تحرشا بها، لكنها أشهرت غدراً فى وجهيهما، فهربا نحو التل، ولم يمكن التعرف على هذين اللصين لأنهما «يشبهان باقى الرجال السمر، الجالسين على الرمل فى انتظار العمل».

أخذ المال ينضب من بلزوني، وتأكد أن كشف باب المعبد بحاجة إلى زيارة أخرى، وكان عدم خبرة بلزوني بأثر النقود على الأهالى من أسباب نفاد ما معه،

وكانت حصيلة الرحلة الكشف عن ٢٥ قدماً من مقدمة المعبد، وتمثالين من تماثيل المعبد الضخمة، وبقيت ١٥ قدماً أخرى مدفونة - حسب حسابات بلزوني، فقام بلزوني بوضع علامات تحدد المكان، ووعد الكاشف بعدم تمكين أحد من الاقتراب منها حتى يرجع بلزوني بعد عدة أشهر، والحق أن بلزوني لم يكن واثقاً من أمر الكاشف لكنه قامر على الأهلالي لثقتة بأنهم حريصون على حماية الحدود لمصلحتهم الشخصية.

بعد ذلك بدأت رحلة العودة وسارت المركب مع التيار نحو الشمال (أى باتجاه الوادى)، ووجد بلزوني وقتاً ليزور فيلة ويشاهد معابدها الجميلة، وفى فيلة شاهد مسلة خطر على باله أنها جديدة بالعرض فى أى ميدان أو مكان مناسب فى لندن، وكان طول المسلة ٢٢ قدماً وعرضها قدمين، لذلك بدا من السهل نقلها مباشرة إلى القاهرة إذا توفرت له مركب كبيرة عند ارتفاع الماء لدى الشلال الأول، ولم يتأخر بلزوني عن مقابلة أغا أسوان، ونجح فى الحصول على موافقته بالحصول على المسلة ونقلها باسم «ممثل بريطاني، وقنصلها العام بالقاهرة».

وجد بلزوني فى معبد صغير فى الطرف الجنوبى للجزيرة مجموعة مكونة من اثنتى عشرة كتلة حجرية منحوتة ومنقوشة بعناية، بحيث إذا ضمت معاً تعطى مشهداً كاملاً يصور «الإله أوزيريس جالساً على العرش أمام مذبح، يتقبل القرابين من بعض الكهنة والنساء». وكان سمك الكتلة الواحدة ثلاثين بوصة، مما يجعلها ثقيلة لدرجة يستحيل عليه معها أن ينقلها فى مركبه، لذلك اتخذ بلزوني الإجراءات المناسبة لصيانتها وحراستها حتى تسمح الظروف فى فرصة أخرى بنقلها، بعد ذلك عاد بلزوني لمعسكره فى أسوان وأخذ يبحث عن مركب أخرى.

لم يعثر بلزوني على مراكب لأن الأغا أخفاها ليعطل السائحين حتى يمكنوا بالمدينة مزيداً من الوقت. وفكر بلزوني فى استئجار بعض الجمال، لكن الأغا يبدو أنه راجع نفسه فوافق على أن يعطيه إحدى المراكب التى أخفاها نظير أجر فادح، وكانت هذه إحدى المرات القليلة التى فشلت فيها تكتيكات بلزوني، ولم يكن بلزوني مخيراً فى ذلك، لأن الفيضان كان فى طريقه إلى الانحسار، فكان لابد من نقل ممنون الصغير قبل أن ينتهى الفيضان.

لم تكن بالأقصر . أيضاً أى مراكب، إذ كانت كلها فى خدمة الباشا، لكن الحظ حالف بلزونى حيث وصلت يوم ٧ من أغسطس مركب كبيرة تقل وكيلين من وكلاء دروفيتى فى طريقهما إلى أسوان فحجزها بلزونى لرحلة العودة، وأرسى المندوبان المركب قرب رأس ممنون، لكن الحراسة عليها كانت مشددة، وحاولا إشغال الموقف بقولهما «لو كان فيها خير لما تركها الفرنسيون، إنها لا تستحق عناء النقل».

تبع المندوبان بلزونى إلى القرنة وفى حضوره جمعوا الأهالى وحذراهم من بيع أى آثار للإنجليز، وإلا شكوا لأغا أرمنت وحثاء على ضربهم بالسياط، كذلك تهور أحد البحارة وهدد بلزونى بأن منافسيه سيقطعون رقبتة وكالعادة، لم يعبأ بلزونى بالتهديد ومضى فى برنامجه، وزاد عليه تكليف عشرين رجلاً بالحفر والبحث عن الآثار فى مكان مختار بالكرنك.

المعروف أن الكرنك فى العصور القديمة كان مركزاً سياسياً واقتصادياً له شأنه، وقد أغدق عليه الفراعنة وزودوه بكثير من التماثيل والأعمال الفنية الجميلة، وكانت أفنية معابد الكرنك أشبه بمناجم الذهب لدى الباحثين عن الآثار فى القرنين الأخيرين.

لا ندرى أين أجرى بلزونى حفائره، وبرجح أنها كانت فى فناء معبد موت، وأفلح بلزونى بعد أيام قليلة فى الكشف عن مخبأ يحتوى على تماثيل جرانيتية للربة سخمت ذات الرأس الأسدية، زوجة الإله بتاح، ومعها تماثيل أخرى نادرة، وكان الحفر بالكرنك فى ذلك الوقت مجزياً على أى حال، لذلك كان العنصر الوحيد الذى يحدد لبلزونى حجم العمل ما بحوزته من الأموال.

زاد نجاح بلزونى من غضب مندوبى دروفيتى، خصوصاً، عند فشلهما فى إيقاف نشاطه، وزاد من غيظهما عناد هذا الإيطالى وإصراره على معاودة الحفر، دون أن يتمكن من تأليب العمال عليه، وكان أهل الكرنك على عكس أهل القرنة متلهفين إلى العمل، ومن حسن حظ بلزونى أن حاكم الإقليم خليل بك الذى يمت للوالى بصلة قربى كان موجوداً فى الأقصر فى ذلك الوقت، وتسنى لبلزونى أن

يتناول الغذاء معه، وكان الطعام يتكون من لحم متبل بالفلفل والبصل والثوم، وكانت الخدمة سيئة، وأصوات الخدم عالية «كالقرقرة» واستغرب خليل بك من حرص الأوروبيين على البحث عن «الحجارة». لكن بلزوني رداً عليه إداً دبلوماسياً: «لدينا من الحجارة الكثير، لكن الحجارة المصرية أجود» وكان لهذه العبارة السحرية وقعها في نفس خليل بك، فأعطى بلزوني الفرمان الذي طلبه.

وفى فترة انتظار وصول المركب والنقود من القاهرة عبر بلزوني النيل إلى البر الغربى وزار وادى الملوك المعزول وراء القرنة، وقد أعجبهت المعابد بدير المدينة، وشاهد المقابر الملكية المفتوحة التى كان السائحون يترددون عليها منذ العصر الرومانى، وعابنها معاينة دقيقة وفحص كل المنحدرات بصورة لم يسبقه إليها أحد، وعشر فى نهاية الطرف الجنوبى على كثيب من الحجارة بينها محشوة بالرمل والحجارة، ولما جسها بعصاه لم يجد أى عائق، فعاد فى اليوم التالى ومعه بعض العمال وشرع فى الحفر، وبعد ساعتين عثر على مقبرة فاخرة، فدخلها ووجد فيها بقايا تابوت حجرى و«صوراً جدارية غريبة وجميلة» وثبت أن هذه مقبرة الملك أى، الكاهن الذى حكم مصر بعد توت عنخ آمون مباشرة، فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، واعترف بلزوني أن كشفه هذا ليس أكثر من ضربة حظ، لكنه على أية حال فتح شهية بلزوني للعودة لزيارة المكان فى فرصة أخرى، كان لها من الأهمية ما جعلها تتفوق كثيراً على هذه الزيارة.

عندما رجعت المركب التى حجزها بلزوني من أسوان لم تكن القطع الأثرية على ظهرها بل مجرد حمولة من التمر، وراوغه أصحاب المركب وطلبوا فسخ العقد وامتنعوا عن رد النقود، فعنفهم بلزوني وقال لهم: «ما يناسب فى مثل هذا الموقف»، وكان وراء الامتناع يد مندوبى دروفيتى اللذين أوهما أصحاب المركب أن تحميلها بالآثار سوف يعرضها للفرق، وازداد حرج موقف بلزوني، لأن الفيضان أخذ فى الانحسار بسرعة بينما ممتون ما زال بمكانه على الشاطئ، فى ذلك الوقت، حدث حادث طريف أدى إلى حل مشاكل بلزوني بصورة لم تكن فى الحسبان، فقد وصل على حين غفلة جندى أرسله أغا أرمنت - عدو بلزوني القديم - حاملاً لبلزوني دعوة إلى الغذاء، وهدية من الأنشوجة والزيت، ولم يكن

بلزوني يتوقع ذلك، واتضح من مناقشة حامل الهدية فى هذا التحول من جانب الأغا، وخلاصة القصة أن هذه الهدية السبب فى الأصل مهداة للأغا من القنصل الفرنسى دروفيتى، وكان الكاشف لا يحب الأنشوجة، فاعتبر الهدية نوعاً من الاستهزاء به فحولها إلى بلزوني، إذن فالأمر كما قال بلزوني إنه: «مهما اندهشنا، فالذى حدث أن بعضاً من السمك المملح الصغير، الذى أنجح عملية نقل التمثال الضخم - رأس ممنون» ويقول بلزوني إنه لم يفلت الفرصة فأسرع إلى أرمنت و«أنذر صاحب الأنشوجة والزيت (المقصود وكيل دروفيتى)» ثم شكا بلزوني للأغا، وأتحفه بما تيسر من الهدايا، فتحول الجو لصالح بلزوني وحكم الأغا لصالحه، وفى اليوم التالى مباشرة أرغم بحارة المركب على إفراغ حمولتها من التمر، مما اضطرهم لتأجير أحد مراكب الكاشف بأجر باهظ لنقل التمر للوجه البحرى، فكأن العملية كلها لم تدر عليهم ربحاً يذكر.

أسرع بلزوني إلى القرنة لشحن ممنون الصغير، ومعه تصريح من الكاشف، وبعد أن سوى بلزوني حسابه مع عماله، شق ممرأً من أعلى الضفة إلى حافة النهر؛ لأن النيل كان قد انحسر إلى مسافة مائة قدم عن قمة الضفة، وأصبح على مسافة ١٨ قدماً تحت مستوى الشط: واحتاج عمل الممر إلى جهود ١٣٠ رجلاً، وكان رغم مشقته أهون من عملية نقل وتحميل الرأس على المركب؛ لأن الرأس كانت ثقيلة جداً ولا بد من إرسائها وسط المركب تماماً حتى لا تتعرض للانزلاق.

بدأت الخطوة الأولى بتسيير المركب حتى نهاية الممر، بعد ذلك أمر بلزوني بإنشاء جسر يتكون من أربع كتل صخرية ضخمة تصل المنحدر بلقب المركب، ووضعت غرارة من الرمل فى منتصف الجسر حماية للرأس من الانزلاق أثناء النقل، وزيادة فى الاحتياط تم تبطين المركب من الداخل باللباد حتى لا تتلف الرأس، واستخدمت الحبال المتينة من ليف النخل المربوطة إلى أعمدة متينة فى عمليات النقل ووضع الرأس مكانها فى وسط المركب بالضبط، واحتاج رفع الرأس من مكانها إلى سبع روافع، والخلاصة أن العملية نجحت بشكل أراح

أصحاب المركب أنفسهم بعد أن كانوا على حافة اليأس والإحباط، ومن هذا نرى أن عمل بلزوني السابق فى استعراض القوة والأعمال البهلوانية لم يذهب سدى .

عاد بلزوني إلى سارة بالأقصر حيث تركها فى ضيافة عائلة عربية أثناء الأسابيع الستة الأخيرة، فى إقامة غير مريحة، ثم وضع ما اكتشفه فى الكرنك فى صندوقه المكتظ بالآثار، وبعد ذلك صاحبوا التمثال وبدأت رحلة العودة فى ٢١ نوفمبر، ووصلوا إلى القاهرة بعد ٢٤ يوماً، ومعهما أروع الآثار التى نقلت فى النيل . حتى ذلك الوقت - وذلك بعد رحلة شاقة لمدة خمسة أشهر ونصف الشهر .

لما وصلوا إلى القاهرة كان سولت قد سافر الى الإسكندرية مصدراً تعليماته التى تقضى بأن تنقل الآثار الخفيفة إلى دار القنصلية البريطانية بالقاهرة، وبأن تنقل رأس ممنون بصحبة بلزوني إلى الإسكندرية، ونفذ بلزوني ما طلب منه دون مناقشة رغم استغرابه، إذ كان يظن أن كل ما معه يخص المتحف البريطانى، وفى أول سنة ١٨١٧، وصل بلزوني مع الرأس إلى رشيد، ومنها شحنت إلى الإسكندرية حيث حفظت فى مخازن دولة الباشا حتى يتسنى شحنها لإنجلترا .

هكذا انتهت إحدى العمليات الأثرية المرموقة بعد جهد جهيد، ونفذ بلزوني فى وقت قياسى ما عجز عنه منافسوه، وكان عمله السابق فى المسارح وألعاب السيرك قد أكسبها الخبرة لتحقيق إنجازات لم تستطع حملة نابليون نفسها القيام به، كذلك أكسبته كفاءته الإدارية وحسمه للأمور وقدرته على المساومة والأعْيَب السياسية، القدرة على التفوق على كل المنافسين الذين كانوا حقاً منافسين أشداء، وأصبح بلزوني مشهوراً، لكن حياته أصبحت فى خطر، فقد تجرأ ودخل حلبة المنافسة ضد من سعى إلى احتكار تجارة الآثار، وأزعج الطامعين فى الثراء على حساب مصر .

١٠. أروع المعابد

استقبل بلزوني فى القنصلية البريطانية بحفاوة، وكافأه القنصل سولت بخمسين جنيهًا فوق الخمسة والعشرين التى اقترحها بورخارد وبلزوني من قبل نظير نقل الرأس، وبذلك تكون المنحة قد غطت مصاريف بلزوني. ولا ندرى أذلك كل ما تقاضاه، أم تقاضى مكافأة أخرى! لكن الذى نعلمه أن بلزوني لم يكن سعيداً بها لأنه لم ينل الشهرة ولا الريح الذى كان يتوقعه من القطع الأثرية التى أحهد نفسه واستخرجها من الأقصر والكرنك ورغم ذلك يادر بتقديم عرض للقنصل يتضمن القيام برحلة ثانية للعمل فى أبى سنبل لإنهاء استكشافه.

وكان سولت له أفكار أخرى: كان يتابع باهتمام نشاط قبطان من جنوة يسمى كافيجليا كان يجرى حفائره داخل خوفو وفى المقابر المجاورة لأبى الهول وقد نجح فى اختراق بئر الهرم الأكبر بالفعل، وتوصل إلى بعض الاستكشافات المهمة، لذلك أشار سولت على بلزوني أن يشترك مع كافيليا الزئبقى فى الاستكشاف، لكن بلزوني كان له رأى آخر، فقد كان بطبيعته ميالاً للعمل وحده، كما أن ذهنه كان منصرفاً إلى التفكير فيما كان يقوم به أعوان دروفيتى فى طيبة، لذلك عرض كيرتس على سولت مشروع رحلة إلى الصعيد والنوبة تستغرق ستة أشهر، واقتنع سولت بالمشروع بعد مراجعته فوافق على أن تغادر بولاق بعثة كشفية صغيرة على رأسها بلزوني لهذا الغرض فى ٢٠ من فبراير سنة ١٨١٧، وفى هذه

١٠. أروع المعابد

استقبل بلزوني فى القنصلية البريطانية بحفاوة، وكافأه القنصل سولت بخمسين جنيهًا فوق الخمسة والعشرين التى اقترحها بورخارد وبلزوني من قبل نظير نقل الرأس، وبذلك تكون المنحة قد غطت مصاريف بلزوني. ولا ندرى أذلك كل ما تقاضاه، أم تقاضى مكافأة أخرى! لكن الذى نعلمه أن بلزوني لم يكن سعيداً بها لأنه لم ينل الشهرة ولا الريح الذى كان يتوقعه من القطع الأثرية التى أحهد نفسه واستخرجها من الأقصر والكرك ورغم ذلك بادر بتقديم عرض للقنصل يتضمن القيام برحلة ثانية للعمل فى أبى سنبل لإنهاء استكشافه.

وكان سولت له أفكار أخرى: كان يتابع باهتمام نشاط قبطان من جنوة يسمى كافيجليا كان يجرى حفائره داخل خوفو وفى المقابر المجاورة لأبى الهول وقد نجح فى اختراق بئر الهرم الأكبر بالفعل، وتوصل إلى بعض الاستكشافات المهمة، لذلك أشار سولت على بلزوني أن يشترك مع كافيليا الزئبقى فى الاستكشاف، لكن بلزوني كان له رأى آخر، فقد كان بطبيعته ميالاً للعمل وحده، كما أن ذهنه كان منصرفاً إلى التفكير فيما كان يقوم به أعوان دروفيتى فى طيبة، لذلك عرض كيرتس على سولت مشروع رحلة إلى الصعيد والنوبة تستغرق ستة أشهر، واقتنع سولت بالمشروع بعد مراجعته فوافق على أن تغادر بولاق بعثة كشفية صغيرة على رأسها بلزوني لهذا الغرض فى ٢٠ من فبراير سنة ١٨١٧، وفى هذه

المرّة تخلفت عن مرافقته سارة ومعها التابع كيرتس، وكانت المجموعة المصاحبة لبلزوني تتكون من جندي تركي وطاهٍ واثنين من موظفي القنصلية البريطانية هما هنري وليام بيتشى والمترجم يني أثناسيو، الذي انقلب عليه . فيما بعد . وأصبح له عدوّاً لدوداً .

كانت الرحلة في بدايتها بطيئة لهبوب رياح عكسية؛ لذلك توفر لديه الوقت للتسلية شاهد خلاله رقصتين شرقيتين الأولى متواضعة المستوى لكن الثانية» كان فيها تعويض كاف عن تواضع الأولى «وقابل بلزوني القبطان قائد الأسطول النيلي وأهداه زجاجتين من الروم حتى لا يصادر المركب لصالح الولي. ثم زار فالسوماكى وهو طبيب وصيدلى كان يسعى لاكتشاف «أكسير الحياة»، وله اهتمام بجميع الآثار وتجارّتها. وفى دار هذا الطبيب كان يقيم مترجمان يعملان لحساب دروفيتى، وآثر بلزوني حيالهما الصمت وعدم إثارة المشاكل.

اتصل بلزوني فى اليوم التالى برجل يدعى مستر براين مدير لأحد مصانع السكر الحكومية فى منطقة الأشمونين، وعرف منه بلزوني أن اثنين من أعوان دروفيتى متجهان على وجه السرعة إلى الكرنك لتقديم شكوى لوقف حفائر بلزوني، والمطالبة بشراء الآثار المكتشفة بالمنطقة منذ آخر زيارة لهما، وبادر بلزوني بالتصرف، فترك بيتشى وراءه ليوافيه بعد ذلك بالطريق النهري، أما هو ويني فقد استأجر حصاناً وحماراً وانطلقا فى منتصف الليل فى رحلة مرهقة طولها ٢٨٠ ميلا، استغرقت خمسة أيام ونصف، ولم يستريحا خلالها سوى إحدى عشرة ساعة، توقفا فيها عندما صادفهم من الأديرة القبطية لالتقاط الأنفاس وتناول وجبة من الخبز والبصل.

فى أسيوط وجد بلزوني أن الدفتر دار بك غير متحمس بالمرّة لنشاطه، ذلك؛ لأن سكرتير سولت لم يقيم باللازم فى تعريفه بالموضوع وإهدائه هدية مناسبة، هذا بالإضافة إلى أن البك كان يجرى بنفسه حفائر فى المنطقة التى وجد فيها بلزوني الرعوس الأسدية، هذا فى الظاهر ولكنه من الباطن كان بصدد التنازل عن امتيازه للفرنسيين، وبيع ما جمعه لوكلاء دروفيتى على أى حال، لم يؤثر ذلك على دروفيتى كثيرا لأن حفائر البك لم تنتج سوى أربعة تماثيل فى حالة جيدة.

وعند أرممنت، وجد بلزوني أن كاشف المدينة، و صاحب قصة الأنشوجة مازال ودوداً ومرحباً بمعاونته، وبادر بلزوني بإجراء حفائر وشرع عماله فى الحفر على شاطئ النيل، وركز بلزوني اهتمامه حول تمثال ضخيم جالس بفناء معبد آمون يبلغ ارتفاعه ٣٠ قدماً تقريباً، عند قدميه تمثال أصغر ارتفاعه سبعة أقدام، كان تمثال الملك هذا مشطوراً من وسطه فرقع بلزوني النصف العلوى بسهولة، وترك العرش مكانه حتى يجد مركبا صالحة لنقله.

فى هذه الأثناء وصل أعوان دروفيتى وشرعوا فى العمل بهمة واعتمدوا على تفاضى البك فوظفوا كل العمالة المتاحة تقريباً، ولما وجد بلزوني أن العمالة التى بحوزته قليلة، نقل نشاطه إلى البر الغربى بجوار القرنة حيث الأحوال أكثر ملائمة.

أثناء انتظار بيتشى والنقود، أخذ بلزوني يتجول وحده بين أطلال معابد الكرنك الفسيحة، وأعجبه العمارة كثيراً: «وتهت فى تأملاتى لهذه الروائع.. حتى أننى أحياناً لم أعرف أكنت على الأرض أم على كوكب آخر» وغمرت النشوة بلزوني وهو يتأمل الأساطين والجدر والأقاريز «لدرجة أننى انفصلت عن عالم الأحياء، وشعرت بالسمو فوق الجميع، ونسيت كل سفاسف الحياة» وأثناء تجوله وهو مدهوش بروعه المكان تعثر فى حجر ضخيم فى الظلام وكاد يهشم أنفه، وارتطم بالأرض من شدة الألم.

وأقلق بلزوني تأخر بيتشى فى الوصول فاستأجر مركباً راجعاً يبحث عنه، ولما اجتمع الشمل وعادت المجموعة إلى طيبة ركز بلزوني جهوده فى القرنة وكان أهلها أكثر مكرماً وخداعاً من سائر الأعراب، وأكثر المصريين «إحساساً بالحرية والاستقلال» وكانوا يتفاخرون بأنهم آخر من خضع للفرنسين، وفى خضوعهم لم يتنازلوا عن أجورهم، وتوجد مخابئ كثيرة فى غرب طيبة يمكن أن يأوى إليها أهل القرنة، فيها من المومياوات والبرديات معين لا ينضب، كل ذلك كان أهل القرنة يبيعونه للقناصل والسياح وتجار الآثار بصورة غير شرعية، وبأعلى الأسعار.

ويبدو أن بلزوني استطاع أن يتعامل مع هؤلاء، وهم كما رأينا، متخصصون فى السطو على المقابر؛ لذلك نراه يولى اهتمامه للبرديات، واستطاع بلزوني دخول حجرات الدفن والكهوف الضيقة الواقعة خلف القرنة فوجدها «تثير كمية هائلة من الغبار والأتربة الدقيقة، التى تتخلل الأنوف فتزكّمها فتحدث فيها وفى الأفواه من الأذى ما يتسبب فى إجهاد الرئتين، ناهيك عن رائحة المومياوات العفنة، وفى بعض الأماكن لا يكفى الفراغ إلا لقدم واحدة، ولذلك تضطر للمرور فيها حبواً كأنك أفقى، فوق حجارة حادة مدببة، تقطع مثل الزجاج» ولنا أن نتصور بلزوني بجسده الضخم يزحف فى مثل هذه الدروب الضيقة.

بعد المعاناة فى المرور بالدروب التى يصل طول بعضها ما بين ٢٠٠، و٣٠٠ ياردة قد يعثر الأثرى على مكان ليجلس ويلتقط أنفاسه:

«لكن ياله من مكان للراحة تحيطه الجثث وأكوام من المومياوات حيثما اتجهت.. هذا بالإضافة إلى سواد الجدران وخضوت ضوء القناديل وبطاريات الإضاءة لنقص الهواء، كل ذلك أربكنى، يصعب ذلك كله منظر العربان ومعهم أدوات الإضاءة وهم عراة يغطيهم التراب مثلهم مثل المومياوات، إنه حقاً مشهد يجل عن الوصف»

قد يمكن تحمل التراب ورائحة المومياوات لمن لديه حاسة ضعيفة مثل بلزوني، ولكن حتى فى هذه الحالة «أذكركم أن المومياوات ليست طيبة المذاق» وفى مناسبة أخرى يقول:

«فتشت عن مكان استريح فيه فلما وجدته حاولت الجلوس، فوقعت فوق مومياء مصرية تكسرت تحتى كما يتكسر الصندوق الصغير، وتحسست يداى بحثاً عن مكان مناسب، فلم أجد فغطست تماماً بين المومياوات والمتفتتة والعظام والحصر والصناديق الخشبية، فكانت تتحطم تحتى مصدرة أصوات عالية، ويثر منها غبار منعنى من الحركة لمدة ربع ساعة قبل أن ينقشع».

اعترف بلزوني صراحة أنه كان يسعى «لسلب البرديات من الأهالى، ووجدت قليل منها مخبوءة حول صدورهم وتحت إباطهم وعلى ركبهم وأرجلهم.. ملفوفة بأربطة كثيرة».

كان أهل القرنة يعيشون فوق القبور التى يسلبونها، وأهملوا الزراعة لأنهم وجدوا سلب القبور أربح لهم، كان الخطأ الذى يقع فيه الزائرون فى رأى بلزونى «فرحهم بأى قطعة أثرية تعرض عليهم، فيدفعون فيها أكثر مماكان يطمع الذى عرضها، دون أن يلاحظوا ما بها من تلف، لذلك كانت الأسعار مرتفعة خصوصاً أسعار البرديات، وكان سبب ذلك ثقة المشترين بهؤلاء الناس (لصوص المقابر من أهل القرنة)، وهذا مالا يمكن إنكاره لكن النتيجة كانت الشراء بعشرة أضعاف الثمن الذى تستحقه بالفعل.

بنى أهل القرنة مساكنهم فى الممرات الموجودة بين مداخل القبور وكانوا يستخدمون القناديل الزيتية فى الإضاءة، بوضعها فى فجوات بالجدران؛ لذلك غطى الهباب الأسود هذه الجدران وكان هدير الغنم يغطى على صوت الناس، وقد استقبل بلزونى بحرارة « وكنت على يقين أنهم سيقدمون لى العشاء مكوناً من الحليب والخبز فى وعاء خشبى، ولكنهم إذا ظنوا أننى سأبيت لديهم، كانوا يذبحون لى دجاجتين، يتم شيهما على نار وقودها التوابيت الخشبية، وأحياناً عظام وأربطة الموميאות نفسها».

فى البداية تعجب بلزونى من تحمل الأهالى للعيش وسط «الأيدى والأقدام والجماجم» المتناثرة على أرضية الكهوف فقد تعودوا عليها حتى اعتبروها مثل أشلاء المواشى، ولكن بلزونى نفسه سرعان ما اعتاد عليها فلم يزعجه وجود رفات المصريين القدماء «فأصبح فى وسعى النوم فى حفرة إحدى الموميאות، كما لو كنت نائماً فى مكان نظيف» وتصرفه هذا وإظهاره عدم الاكتراث يتعارض تماماً مع عنايته وتدقيقه فى أمر الحفائر كماعودنا من قبل.

كان حرص بلزونى فى القرنة جمع أكبر كمية من الموميאות فى أقصر وقت ممكن؛ لذلك استأجر بعض الأهالى نظير أجور منتظمة، علاوة على مكافآت إضافية لهذه الغرض، وبذلك أمكنه دون أن يشعر به أحد من تحقيق مكتشفات مهمة، والواقع أن عملية اكتشاف المقابر وحجرات الدفن كانت صعبة لاختفاء معالمها، وكان الأمر يخضع لعنصر الصدفة، وكانت موميאות العامة وصغار الأشخاص توجد مرصوصة فى صفوف فى حفرة معدة لذلك، وبعضها مغطى

بمادة تشبه الملاط، وكان كثير من الجثث يوجد ملفوفاً بالكتان الغليظ دون تزيين، وكانت مثل هذه الجثث ترص فى طبقات فوق بعضها بكثافة لدرجة أنها كانت تغطى مدخل الكهف، وهذا النوع من المقابر لم يكن يغرى لصوص المقابر لقلة عدد البرديات الموجودة بين طيات الأغشية.

كان البحث يوجه عادة للعثور على مقابر الأثرياء المزخرفة، وفى مثل هذه المقابر توجد كل جثة داخل صندوق فاخر مصنوع من خشب شجر الجميز، ومحنطة جيداً داخل أربطة كثيفة، وقد وصف بلزوني بعض الجثث ولاحظ أنه كان فوق صدورها أزهار مازالت محتفظة برونقها، وكانت الأحشاء ملفوفة بعناية، و طلاء الصناديق وألوانها جميلاً وهذا ما تشتهيه المتاحف ويرغب فيه السياح لمدة تزيد على المائة عام.

من الطبيعى أن تكون العناية بجثث الموسرين كبيرة، فبالإضافة إلى العناية بوضعها فى مكانها، كانت توجد بمقابرهم غرف أخرى خلاف غرفة الدفن مزخرفة بالصور، داخل أطر تصور المراكب وأساليب الحياة اليومية، لكن بلزوني كان همه جمع الآثار الخفيفة المدفونة مع هؤلاء الأثرياء مثل الأوانى المحتوية على الأحشاء والزهريات المرمرية، والفخاريات المزخرفة والتماثيل الصغيرة والأوراق الذهبية والجعارين.

جمع بلزوني من الآثار ما يملأ سفينة كبيرة، وهو مالم يتسن له فى السنة التى قبلها، وكان ضمن الغنيمة تمثال رائع الجمال للربة حتحور مع آلهة أخرى عثر عليها فى معبد منتوحوتب الصغير والواقع بالركن الشمالى من الكرنك، وهذا التمثال تم رفعه ونقله من المعبد عبر منحدر عالٍ تحت بصر أعوان دورفيتى، وكان ضمن المجموعة - أيضاً - التابوت الحجرى السابق ذكره وهو هدية دورفيتى إليه منذ رحلته الأولى، بعد أن أمكن تخليصه من مكانه الذى كان محشوراً فيه.

أثار نشاط بلزوني ونجاحه ضيق منافسيه وحسدهم، فما كان من أعوان القنصل دروفيتى الكسالى إلا أن قدموا رشوة للبك ليصدر قراراً يمنع بموجبه

بلزوني من تأجير العمال أو اقتناء الآثار، وكانت حجتهم واهية وتتخلص في أنهم لم يستطيعوا شراء أى شىء لأن علاقة بلزوني بأهل القرنة جعلته يستحوذ على كل شىء.. وكان ذلك فى الواقع صحيحاً، وبادر بلزوني كعادته إلى مقابلة البك حيث كان موجوداً فى قرية قرب طيبة، ووجد بلزوني البك يراوغه، فكلما تحدث بلزوني عن الآثار كان البك يحول الكلام وجهة أخرى، ولم يعر البك أى التفات للفرمان الذى أعطاه الباشا محمد على بلزوني، ثم أحضر البك خيولاً وتوجه لجميع إلى القرنة. هناك أمر البك الكاشف بإحضار مومياء مغلقة خلال ساعة، تعلمه بما بين بلزوني وبين الكاشف من صداقة، وكأنه كان يريد تعجيزه، ولكن كاشف أفلح فى تنفيذ العملية، فلما رأى البك الجثة أمامه، استشاط غضباً وأمر بجلد الكاشف على الفور.

لم يستطع بلزوني رد الأذى عن الكاشف، فقد كان يعلم أنه لو فقد أعصابه نازد من تعقيد الموقف، لذلك استمر صامتاً أثناء ضرب الكاشف بضراوة أمام ناظره، حتى حملوه وهو شبه غائب عن الوعي، ولم يزد بلزوني على أن قال تنكب بهدوء إنه سيرفع شكوى للباشا بخصوص هذا الموضوع، وهنا أدرك البك سوء فعله، فصالحه بأن سمح له فى اليوم التالى باستئجار عشرين عاملاً على أن يتم العمل فى ثمانية أيام، ونجح بلزوني بصعوبة فى جمع العمال، فقاموا بتعبئة ما جمعه ثم نقلوه إلى رصيف المرسى بالأقصر وبناء سور من الطين حول حمولة.

وزاره البك فى هذا المكان، وكان أكثر ليناً ولطفاً، واحتج بلزوني لديه لسوء تعامله التى يلقاها عماله، وكذلك طلب من البك تمكينه من شراء الآثار على قدم المساواة مع غيره، ولم يمانع البك فى ذلك وأعطاه فرماناً لكاشف أسوان حيث كان بلزوني يجرى حفائره فى أبى سنبل.

فى الوقت نفسه، أخذ بلزوني يستعد لاستئناف نشاطه فى القرنة، وطمان كاشف بأنه يمكن استئناف استخراج المومياوات بلا إزعاج من البك، وبعد ذلك جمع الأهالى ليقرأ عليهم فرمان الباشا، وأصاب الدهشة بلزوني وغمره خوف، لأن قرار البك كان منع الأهالى من بيع أى آثار سوى للقفصل دروفيتى،

وهو ما لم ينتبه له بلزوني لأنه لم يحاول أن يطلب ترجمة الفرمان له عند استلامه. أكتفى بلزوني بالسكوت وتوقف عن الاسترسال، ثم أحكم الحراسة حول مقتنياته الموجودة على مرسى الأقصر، واتجه للنوبة فى ضيق مما حدث.

كانت أول وقفة طويلة لبلزوني عند فيلة الجميلة، فى انتظار ما يرسله له سولت، وقضى وقته فى التجوال بين أطلال الجزيرة الرائعة واستسناخ صور شمعية لمدخل باب إيزيس، وهو عمل مرهق فى ذلك الوقت لأن درجة حرارة المكان فى الظل تعدت ١٢٤ فهرنهايت (أكثر من ٥٠م).

ووافق بلزوني ضابطان من البحرية البريطانية هما الكابتن إيربى والكابتن مانجلز، عرف عنهما حب الرحلات والمغامرات وكانا يتجولان على مهل فى أوروبا والشرق الأدنى للمتعة والمغامرة، وعرضا على بلزوني السماح لهما بمرافقته على أن يتحملا نصف تكاليف الرحلة. وذلك لرغبتهما فى زيارة الشلال الثانى، وأسعد ذلك الجميع؛ لأن الضابطين وجدا معهما أحد الخبراء بمسالك النوبة. ووجد بلزوني ما يعزز قوة المجموعة المكونة من سبعة أفراد، وبدأ يستعد لمغادرة فيلة.

وفى ٥ يونيه حضرت سارة بصحبة التابع كيرتن، ولم يخطرنا بلزوني عن السبب لكن الذى نعلمه أن بلزوني كان قد اضطر لتركها بعد أن أعد لها مأوى مكشوقاً فوق سطح معبد إيزيس وترك معها كيرتن بعد تزويدهما ببعض الأسلحة النارية. *

فى ١٦ يونيه أقلعت المركب للرحلة، وكان طاقم السفينة مكوناً من خمسة من البحارة كانوا مصدر إزعاج مستمر، وكان «الريس» يرتدى قميصاً أزرق باستمرار، وكان دمثاً مراوفاً، فلقبه الضابطان «الشیطان الأزرق» وبعد ثلاثة عشر يوماً وصلوا إلى أبى سنبل، إلا أن الكاشف كان متعباً فتركوا له رسالة تحية وانطلقوا لزيارة الشلال الثانى، ولكن طاقم المركب رفع راية العصيان وطالب الأهالى أنفسهم بالمنح والهدايا، وزاد الموقف سوءاً رفع الأسلحة المحشوة على سبيل التهديد، وتماسك بلزوني وظل رابط الجأش متظاهراً بعدم الاكتراث، ومتحلياً

بروح الفكاهة (حتى هدأت الأحوال)، وأبدى مانجلز تعاطفة مع العصاة لأن الرحلة شاهدت الشلال فعلاً دون مقابل ولكن بلزوني كان له رأى آخر: «لقد رأنا هؤلاء دون مقابل، ونحن لهم شيء جديد، ورأينا نحن شلالهم وهو لنا شيء جديد.. إذا فتحنا وهم متعادلون.»

لما رجعوا إلى أبى سنبل فى ٥ يوليو كان الكاشف مازال متفنياً، وبعد يومين وصل رسول داود الكاشف للسؤال عن الضابطين بناء على توصيه من حسن الكاشف، ولحسن الحظ كان داود الكاشف مازال يذكر هدية العمائم التى أرسلها له بلزوني من القاهرة، فشاء بلزوني أن يتودد إليه مرة أخرى فأهداه عمامة أخرى وبندقية وبعض الهدايا الخفيفة بعد أسبوع.

بدأ الحفر بطيئاً أول الأمر، لأن العمال الخمسين الذين أجرهم بلزوني كانوا يمضون معظم الوقت فى غناء أغنية نوبية، بغية إضاعة الوقت واستنزاف النقود «الأجنبية» والأغنية، كما يقول مانجلز، ربما كانت جميلة بالنسبة لهم، أما نحن فقد ضيقنا بها» وتمت مساومة الكاشف على «فتح المعبد نظير ثلثمائة قرش» وقدر بلزوني لأنهاء العملية أربعة أيام، لكن بمرور الوقت، اكتشف بلزوني أن العملية لن تنتهى بالطريقة التى كانت تسير بها الأمور. فقد ظل الكاشفان يطالبان بالنقود، وأضاعوا يوماً فى سلب قافلة، وبدأ شهر رمضان، ولم يكف الكاشفان والبحارة عن الإلحاح فى طلب الهدايا، وزاد الطين بله نضوب ما معهم من الطعام وعدم إمكان شرائه فى هذا المكان.

لذلك قرر بلزوني القيام بالحفر بنفسه؛ لذلك تسلل مع صاحبيه الساعة الثالثة بعد ظهر الثلاثاء ١٦ من يوليو وشمروا عن سواعدهم للعمل وصدورهم مكشوفة، وبعد ساعة رأهم بعض البحارة فاستغربوا إذ رأوا الأوربيين يحفرون. ثم انضموا لهم فى الحفر، وعند المغرب كانت هذه المجموعة قد إنجزت من الحفر ما كان ينجزه ٤٠ عاملاً من الأهالى فى يوم كامل. هذا إذا تقاضينا عن بعض الخدوش التى أصابتهم.

استمر الحفر على هذا المنوال أسبوعين، وكان الحفر يبدأ من الفجر حتى الساعة التاسعة صباحاً ثم يتوقف ليعود فى الثالثة مساءً مغرب كل يوم، وأحياناً

كان البحارة يساعدونهم، وأحياناً أخرى كان الأهالى يشتركون فى الحفر، وتخلل العمل بعض المشاكل، فقد حاول الكاشفان تجريدهم من الفرمان والمعدات، وأتى اثنان من رؤساء العمال من الضفة الأخرى وهددهم، ثم عرضا المساعدة مقابل أجر يتقاضياناه ورمى الطباخ كوب ماء على رجل ألح فى طلب النقود «وهو اعتداء مثالى بالنسبة لطباخ فخرجت السيوف وكادت تنشب معركة، واستمر النقص فى الطعام وعجزوا عن شراء أطعمة أخرى، وحاول أحد رؤساء الفعلة ابتزازهم بالتلاعب فى بطاقات الأجور، وفى آخر يوليو وصل الحفر إلى ركن باب مكسور، ومع الفسق كانوا قد وسعوا فتحة تكفى لمرور رجل واحد، ثم توقف الحفر حتى اليوم التالى؛ لأنهم لم يعرفوا كمية الرمل التى تسد الباب بسبب الغبار الكثيف الناتج من الحفر.

وقبل طلوع الشمس كان بلزوني ومرافقوه عند المدخل ومعهم ما يكفى من الشموع ومواد الإضاءة، وأما البحارة فلم يشتركوا، ولكنهم بعد قليل بدأوا فى الثورة بقيادة حسن الشيطان الأزرق، وهدد البحارة بترك العمل ومبارحة المكان فوراً ما لم يعد النظر فى رفع الأجور، ولم يأبه بلزوني لكل ذلك وجاء البحارة إلى الموقع مسلحين بعصى طويلة وسيوف وغدارات صدئة، واستمرت الطلبات والإلحاح بصورة تبعث على الضحك حتى لاحظ أحدهم أن المترجم الأرمينى ميناتى قد تسلل إلى المعبد فى غفلة من الجميع أثناء هذا النزاع وفى الحال هب الجميع ليتبعوه وتوقف النزاع.

بسرعة تم بناء حاجز لحماية الباب من الحجارة المتساقطة، وتسلل ضوء الشمس الخافت فى الصباح إلى الداخل خلال الفجوة المفتوحة لأول مرة منذ مائة عام، عندها تمكن بلزوني من التطلع مبهوراً إلى كشف من أعظم الكشوف الأثرية، فقد وجد بلزوني نفسه فى قاعة فسيحة من قاعات الأعمدة بتوسطها ممر مرصوص على جانبيه ثمانية تماثيل لرمسيس الثانى فى الصورة الأوزيرية، وكانت التماثيل متواجهة وخلف كل واحد منها عمود مربع عليه نقوش جميلة تصور الفرعون فى حضرة الالهة، وكان يلى القاعة غرفة أصغر ثم غرفة انتظار ثم محراب يؤدى للخارج، وكشف ضوء الشمس على تماثيل الالهة الجالسة فى

قدس الأقداس (المحراب) وهى: آمون رع وحوور آختى وبتاح ثم رمسيس الثانى نفسه.

حديق الزوار مبهورتين فى التماثيل الجبارة وفى مشاهد المعارك المصورة على الجدران فى الغرفة الكبرى، والتى تظهر رمسيس الثانى فى انتصاره على الحيثيين فى موقعة قادش، وعائى بلزونى المكان معائنة دقيقة للبحث عن الآثار الخفيفة، فوجدها قليلة لا تتعدى «أسدين رأسيهما مثل رأس الصقر بالحجم الطبيعى، وتمثال صغير جالس، وبعض المشغولات النحاسية الساقطة من الأبواب»

وجلس ضابطا البحرية ليرسما مخططا للمعبد بمقياس رسم ١/ ٢٥ بوصة للقدم، وانشغل بلزونى وبيتشى فى جمع الآثار الخفيفة، ورسم استكشاث للصور التى شاهدها، وقد ألفت الرطوبة استكشاث بيتشى، لكن ملاحظاته المستفيضة عن مشاهد القتال والفتك بالأسرى نجت من التلف، وأما منجلز فقد كتب يقول «كان الرعب واليأس باديا فى قسماتهم (الأسرى) بشكل يجلب عن الوصف» كما أبدى إعجابه ببعض الأسرى فى الصور وبشترتهم «السوداء الداكنة».

ألقى المستكشفون نظرة إعجاب أخيرة على التماثيل، ثم قاموا بعمل دعائم للحاجز الذى بنوه لحماية باب المعبد، وبعد ذلك حملوا ما شاءوا من آثار خفيفة ووضعوها فى المركب رغم احتجاجات النوتى حسن وفى ٤ أغسطس سنة ١٨١٤ أقلعت المركب عائدة أدراجها، ولم يعلم العالم الخارجى عن هذا الكشف شيئاً ثمانية عشر شهراً كاملة، كانوا فيها قد فرغوا من تسجيله وأعدوا لحملتهم الإعلامية، وبقى فى أبى سنبل كل من بانكس وبيتشى ولينان (رسام فرنسى اشتهر فيما بعد) لنسخ النقوش البارزة واللوحات المرسومة، وتظيف تماثيل فى النهاية الجنوبية لواجهة المعبد، واستفرقت منهم هذه الأعمال عدة أسابيع، وبذلك انفتح الطريق أمام السياح فى المستقبل لزيارة أكبر معابد رمسيس الثانى فى صورة متكاملة، ونظراً لأهمية هذا المعبد، نقل بكامل محتوياته فى ستينيات

القرن العشرين إلى مكان مرتفع حتى لا تغمره مياه بحيرة ناصر، فتخفيه إلى الأبد.

كانت رحلة العودة إلى فيلة عادية، فيما عدا محاولة قام بها رئيس طاقم البحارة لطعن بلزوني أثناء مناقشة حادة مع البحارة، وأثناء العراك جرح إيربي يديه، وكانت سارة تنتظره بفارغ الصبر، لكنه وجد التماثيل التي جمعها في العام السابق وبذل جهده في المحافظة عليها قد تحطمت وصارت فتاتا بفعل فاعل، وكان ذلك واضحاً لأن من أتلف النقوش سجل بدلها عبارة «ألغيت العملية»، ومكتوبة بالفحم، وغضب بلزوني وظن أن هذا من عمل دروفيتي، ولكن ماذا يجدى الغضب والتخريب قد حدث بالفعل؛ لذلك أشاح بلزوني بوجهه وأثر أن يولى اهتمامه مشاريع أخرى.

١١. أثر فريد جميل لا يقدر بثمن

كان بلزوني متحمساً للعمل في منطقة طيبة. لكنه وجد أن اثنين من أعوان دروفيتي عدوه النذود بدءا العمل في القرنة أثناء غيبته، وأخذوا «يحفران في جميع الاتجاهات» وعثرا على موميאות كثيرة، كان أحدهما هو روزينالدو البدمونتي الذي هدد بلزوني من قبل بقطع رقبتة، كذلك أثر بلزوني الابتعاد فنقل حفائره إلى وادي الملوك، لأن نتائج الجس الأول الذي أجراه هناك منذ شهور كانت مشجعة.

وادي الملوك - كما هو معروف - تفصله عن القرنة سلسلة من التلال الصخرية، وكان الفراعنة يدفنون هناك منذ العصر الكلاسيكي (أي أثناء الدولة الوسطى). قد علم بلزوني أن به ثمانى عشرة مقبرة أو أكثر نجح علماء حملة نابليون في اكتشاف وتسجيل إحدى عشرة مقبرة منها، كما عثروا على الثانية عشرة قبل انسحابهم من مصر مباشرة، وقد عثر بلزوني نفسه - كما أشرنا من قبل - على مقبرة الملك منذ سنة مضت وقد أشيع بأن الوادي به أربعون مقبرة ولما كان بلزوني قد تطورت عنده حاسة الاستكشاف فقد كان لديه موهبة اختيار المواقع المبشرة لإجراء حفائر، لذلك اعتزل في وادي الملوك يفكر ويقطب الأمر في ذهنه حتى قرر أن يقوم بالحفر في المنطقة الغربية من الوادي.

كلف بلزوني عشرين رجلا على بعد ١٠٠ ياردة من مقبرة الملك آى، فوجدوا تحت سطح الأرض بقليل احجارا ضخمة تدل على انها مدخل لممر صخرى، وفى اليوم التالى، صمم بلزوني مدكا خشبياً من جذع نخل حاول استخدامه فى تفسير الحجارة، لكن «الجدران قاومت ذك الأعراب مدة لأنهم لم يكونوا رومانين ولأن رأس المدك لم يكن صلباً» وبعد جهد أمكن عمل فتحة فظهر درج فى أسفله ثمانية مومياءات داخل توابيت منقوشة مغطاة بالأقمشة بكثافة.

لم يرض بلزوني بهذا الاكتشاف البسيط، وصمم على اكتشاف مقبرة ملكية، لذلك كلف ستة من العمال فى ٦ أكتوبر بالحفر فى عدة أماكن فى وقت واحد. واستمر الحفر ثلاثة أيام فأنكشف لهم مدخل مقبرة عظيمة خالية من الرياش، وبها «مناظر ملونة هى أروع ما وقعت عليه عيني من مشاهد مصرية أصلية».

أمكن فيما بعد التعرف على المقبرة، فإذا هى مقبرة الأمير منتوحرخبش إف الابن الأكبر لأحد الرعامسة المتأخرين، وكذلك ظهرت مقبرة أخرى فى نفس اليوم (٩/ أكتوبر) بدون زخرفة، على بعد حوالى ١٠٠ ياردة من سابقتها، بدا من حالها أنها قدسلبت منذ زمن طويل، ووجد بالمقبرة جثتان لامرأتين عاريتين شعرهما طويل «يسهل فصله عن فروة الرأس إذا جذب برفق».

عقب اكتشاف هذه المقبرة التى لم يعرف صاحبها، أوقف بلزوني نشاطه مؤقتاً كى يرافق ثلاثة من كبار الزوار الإنجليز فى جولة لزيارة معابد طيبة وابتهج الزوار بالجولة، وبلغت أقصاها عندما تم فى وجودهم اكتشاف مقبرة رمسيس، ووجدوا فى حجرة الدفن تابوتا حجرياً من الجرانيت الأحمر، وموميائين ليس بينهما مومياء الفرعون، وكان فى صدر الغرفة تمثال خشبى ضخم لفرعون نفسه، هذا التمثال أحد تماثيل توأم وظيفتهما حراسة تابوت الملك، العجيب أن هذه المقبرة تبعد عن مقبرة توت عنخ آمون التى أخطأها بلزوني لحسن الحظ ٦٠ متراً فقط.

عاد بلزوني للعمل يوم ١٦/ أكتوبر، ورأى أن يجرب الحفر فى مكان معين وسط منحدر كشفه ماء المطر، ولم يحدد لنا بلزوني كيف اختار المكان، لكن

نستطيع أن نقول إن عماله المدربين كان لهم يد فى ذلك، كانت ثقتهم كبيرة فى أنهم وضعوا أيديهم على «الأوزة التى تبيض الذهب». وفى أواخر اليوم الثانى من الحفر ظهر قطع صناعى فى الصخر، فتأكد بلزونى أن توقعاته كانت صائبة. لما وصل الحفر إلى عمق ١٨ قدمًا ظهر مدخل المقبرة مسدوداً بأحجار ضخمة مع المياه المترسبة من المنحدر العلوى، فأحدث بلزونى فتحة فى المدخل لمرور رجل واحد، فوجد ممراً مسدوداً جزئياً من الخلف طوله ٢٦ قدمًا سقفه وجدرانها مزخرفة بنقوش ملونة جميلة. وكان فى نهاية الممر سلم يودى إلى ردهة طويلة ذات زخارف رائعة. وكانت الردهتان منحدرتان لتسهيل صرف ماء المطر إلى بئر عمقه ٣٠ قدمًا، وعرضه عند نهايته ١٤ قدمًا، وقد حال البئر دون مزيد من التقدم. وقد وجدت بالمكان آثار أدوات وحيال وأخشاب تدل على عبور متسللين منذ زمن مضى لهذا البئر، كى يصلوا إلى الجدار الملون المزخرف على الجانب الآخر للفجوة.

فى اليوم التالى حضر بلزونى وبيتش ومعهما قضبان قوية صنعها منها جسرًا فوق البئر لفحص الفجوة الموجودة فى الجانب البعيد. كانت الفجوة من صنع المتسللين الذين لم يخدمهم الجدار الوهمى، تسلل بلزونى من الفجوة فألقى نفسه فى قاعة جميلة معمدة بأربعة أعمدة فيها «تماثيل للفرعون تحتضنه الآلهة»، وفيها سلم من ثلاث درجات يودى إلى غرفة مزخرفة ذات صور ناقصة، وهى حيلة معروفة توحى للمتسللين بأن المقبرة لم تكتمل، بعد ذلك نقب الباحثان جدران الحجرة فظهر بلب سرى يودى إلى ممر منخفض، مزخرف بصور للآلهة، أكثر إتقانًا من الصور السالفة الذكر، وفى نهاية الممر وجد بلزونى قاعة أكبر وأرحب معمدة بستة أعمدة ذات زخارف كثيرة، وسقفها أزرق داكن يبدو أن طلاءه كان حديثًا.

فى القاعة الأخيرة وجد بلزونى وبيتش تابوتا حجريًا من المرمر الشفاف طوله أكثر من تسعة أقدام وسماك الواحه المرمرية بوصتان فقط، وكانت زخارف التابوت لطيفة تشلألًا من الداخل فى ضوء الشموع، وحجمه مناسب لجثة الفرعون وتواجه معًا، والتابوت مزخرف من الخارج بمئات من الصور المتنوعة.

ووجد بأسفل التابوت نقش يصور الربة نيت عارية الصدر، وهى تنتظر الملك الميت. لكن التابوت كان فارغاً لأن اللصوص سرقوا الجثة مع غطاء التابوت، وقد عثر بلزونى على أجزاء متفتتة من الغطاء فى الأنقاض الموجودة بجوار مدخل المقبرة.

كانت هناك خمس غرف مفتوحة على قاعة الدفن، أكبرها به عجل محنط وكثير من الأوشابتي، وتمثيل خشبية كثيرة بها «تجاويف أسطوانية تصلح لإخفاء البرديات، يرجح أنهم استخدموها». وكان التابوت يخفى نفقا سفليا له جدار طوله ٣٠٠ ياردة بعمق الجبل فى أعلى الوادى.

هذه المقبرة هى مقبرة سيتى الأول والد رمسيس الثانى، الذى مات سنة ١٣٠٠ ق.م تقريباً وقد ارتاد الكهنة المقبرة مرتين بعد وفاته: الأولى عند دفن رمسيس الثانى، والثانية عند نقل جثتى الملكين إلى مقبرة الملكة حتشبسوت مع جثث باقى الملوك فى حملتهم المشهورة التى اخفوا فيها تلك الجثث عن أعين اللصوص وقد عثر على الجثتين هناك فى الكشوف الأثرية الحديثة.

وقد نهب اللصوص المقبرة ولم يتركوا بها سوى القليل من الآثار الخفيفة، التى استولى عليها بلزونى مع الأوشابتي والتابوت المرمرى أما المناظر والنقوش فقد تركت بالمقبرة كما هى. وما زالت محتفظة برونقها كما لو كانت جديدة.

فى زمن بلزونى لم يكن هناك من يستطيع تفسير تلك الآلاف من الرموز الهيرغليفية التى تزخر بها الجدران، لكنهم كانوا يستطيعون النظر بإعجاب إلى مشاهد الفرعون عندما تحتضنه الآلهة، والنسور المحلقة فى الفضاء مرسومة على سقف المقبرة الأزرق، وتمثال الملك الآلهة حتحور فى أفخر الثياب. وما يحسب لبرزونى أنه أدرك أهمية تسجيل هذه الأعمال العظيمة المعبرة إذ كان مقتنعاً أن المقبرة هى أهم مكتشفاته وأروعها، وأنها يمكن أن تلى من شأنه وترفع من ذكره بين الأثريين، ولو صاحبته الدعاية المناسبة.

ذاع خبر اكتشاف المقبرة كالنارفى الهشيم، وسرعان ما انتشر فى الوادى فيض من حملة البنادق من كتيبة من الفرسان الأتراك من قنا بقيادة حامد أغا،

الذى أسرع بعد سماعه باكتشاف أحد الكنوز للحصول على حصة منه، فقطع فى ستة وثلاثين ساعة ما يقطع عادة فى يومين كاملين، أصاب بلزوني شيئاً من الخوف وانزعج من هذه الحملة الكثيفة، لكن الأغا كان يبتسم، ونظر الأغا وجنوده للصور فى لحظة سريعة وسرعان ما أخذوا يفتشون فى كل ركن «مثل كلاب الصيد» وبعد أن أعياهم البحث عاد الأغا ليسأل بلزوني عن مكان الكنز الذى أخفاه وهو «ديك ذهبى محشو بالدرر واللآلى».

كاد بلزوني ينفجر ضاحكا لكنه تمالك نفسه، وطلب من الأغا أن يتأمل المناظر الرائعة المنقوشة على جدران المقبرة الخالية، ونظر الأغا إليها نظرة سريعة وقال «هذا مكان قد يصلح للحريم، فعلى الأقل سوف تجد النسوة شيئاً ينظرون إليه». بعد ذلك عاد الأغا أدراجه وهو «يتميز غيظاً» على حد قول بلزوني.

كان عبء العمل فى الأسابيع الثلاثة التالية شديداً، لأن المقبرة كانت فى حاجة إلى تأمينها وعمليات الحفر يجب الحد منها بالتدريج، وأثناء انشغال بلزوني فى عمله، وصلت ثلاث سفن كبيرة فخمة إلى طيبة وعلى ظهرها سياح بريطانيون. وكان قائد الرحلة القنصل البريطانى نفسه وفى صحبته أحد النبلاء الإنجليز واللورد بلمور وقرينته وعائلته وبعض أتباعه ومرافقيه، ومنهم قسيسه الخاص. كانت الرحلة متجهة للشلال الثانى، وكان جناب اللورد يطمع فى تكوين مجموعة أثرية خاصة أثناء سياحته، انبهر الزوار بمراى النقوش، ثم قاد بلزوني هذه المجموعة المتميزة فى جولة شملت طيبة ووادى الملوك، واستطاع اللورد بلمور بمعاونة بلزوني واتصالاته شراء مجموعة وفيرة من البرديات والموميאות وبعض الآثار الأخرى سرعان ما وجدت طريقها إلى إنجلترا. وكان تأثر هنرى سولت بمقبرة سیتی عميقا لدرجة أنه قرر أن يجرى حفائر لحسابه الخاص بحثا عن مقبرة ملكية، ولكن جهوده فشلت فى الكشف عن أى مقبرة من المقابر الكبرى.

وجاء زائر آخر من فرنسا هو «إدوارد دى مونتوليه» الذى كان فى رحلة بالصعيد، فلبث فى القرنة واستبشع ما يقوم به لصوص المقابر من تخريب وأدان

تجارتهم البشعة، ومع ذلك اشترى منهم «مومياء سيدة، مغلفة بقماش كتانى عريض، داخل صندوق مزدوج مازالت نقوشه محتفظة برونقها»، ثم زار بلزوني فى وادى الملوك وتجول معه فى المقبرة ووجد النقوش البديعة، ولكن يبدو أن الرجل أزعجه ما حدث فى المقبرة من سلب وتخريب، ومن أسلوب بلزوني العنيف فى الحفر، وقد كتب دى مونتولييه بعد ذلك «إذا كانت هناك مقابر مازات سليمة فإننى أتمنى ألا يكتشفها الأثريون الفضليون، لأن أصحابها سوف يتعرضون للتهديد . كما فى عهد قمبيز . فالتوابيت الحجرية ومن فيها سوف تشحن إلى لندن أو باريس، وقد أبدى أسفه لعدم وجود متحف قومى مصرى لحفظ ما يستولى عليه القناصل، وفى هذا كان سابقا لعصره فى التفكير .

أحس بلزوني كما لو كان يركب موجة فقد اكتشف ما يزيد على أربع مقابر فى وادى الملوك فى خلال اثنى عشر يوما، بعد فشل استمرار سنوات . كان التابوت الحجرى فى حد ذاته رمزاً لنجاح بلزوني، لكن التقدير الأدبى والمادى كان أمراً مشكوكاً فيه . وكان مصدر متاعبه آن علاقات العمل بينه وبين القنصل البريطانى كانت دائماً مطاوعة . كان المفروض أن يقتصر عمله على نقل ممنون الصغير إلى القاهرة، وجمع بعض الآثار لسولت، لكنه لم يكن يعمل بأجر ثابت، كما أن القنصل لم يعوضه عن رحلته الأخيرة، فيما عدا مصاريف الأكل والشحن .

أخذت العلاقات بين الرجلين تتوتر بسرعة، رغم وعود سولت بإعطاء بلزوني ألف قرش شهرياً نظير خدماته بدءاً من وقت مغادرته الإسكندرية منذ عشرة شهور، ولم يكن بلزوني قادراً على فهم السبب الذى من أجله يتعب ويشقى ثم يعود الفضل لغيره، لكن بلزوني الذى لا يهدأ أبداً حمل كنزه الثمين فى سفينته حتى أوصله إلى القاهرة فى ٢١ / ديسمبر ١٨١٧ . عموماً فقد بقى له فى النهاية شئ يحسب له: فقد تصادف أن التقى اللورد بلمور بدروفيتى قنصل فرنسا عند زيارتهم الثانية لطيبة فى رحلة العودة، فأخذوه ليزور مقبرة سيتى وهناك «لم يتمالك نفسه من شدة الإعجاب فتخلّى عن وقاره وهو يشاهد مدى الروعة والفخامة التى تأخذ بالألباب، ووقف مبهوراً مدهوشاً . هذه المرة لم يكن دروفيتى صاحب الكلمة الأخيرة .

١٢. العقول الهرمية

كان بلزوني شديد الرغبة فى العودة إلى وادى الملوك، لكنه كان خالى الوفاض فلم يستطع مبارحة القاهرة، أما سارة فقد ضاقت من تكرار الرحلة فى النيل فقررت بدلاً من ذلك أن تحج إلى القدس، لذلك سافرت بعد عيد الميلاد المجيد بأسابيع لزيارة القدس، فى صحبة كيرتن والمترجم جيوفانى فيناتى الذى كان يقصد عكا ليلتحق بوليام جون بانكس، واتفق معهم بلزوني على أن يلحقهم فى القدس عقب فراغه من موضوع المقبرة.

وفى القاهرة أصابهم الأسف والأسى لوفاة الصديق بورخارت متأثراً بالدوسنتاريا قبل أن يحقق حلمه بالرحلة إلى غرب أفريقيا وشعر بلزوني بالارتياح عندما علم بعشجن ممنون إلى إنجلترا، لكنه شعر بالمصاب الفادح لفقد شخصية لها وزنها فى الدوائر المؤثرة فى وقت حساس بالنسبة له، وأخذ بلزوني يفكر فى مصدر لتمويل حفائره، فلم يجد لديه سوى الآثار القليلة التى تخطى له سولت عنها. هذه كان بينها تمثالان للربة سخمت رأسيهما رأسى أسد، فباعهما للكونت دى فوربين مدير الآثار الملكية الفرنسية بثمن بخس سبعة آلاف قرش!

كانت إقامة بلزوني فى ذلك الوقت فى القنصلية البريطانية، وكان يقضى الوقت فى مقابلات ومسامرات مع الزوار الأوروبيين الموجودين بالقاهرة، وكانت المجموعة الأثرية التى جمعها للقنصل سولت مثار اهتمام هؤلاء الزوار واشتهر

أمر مكتشفات بلزوني فى الخارج وكانت مثار جدل ساخن فى صحافة فرنسا وإنجلترا، وكان من المتشككين فى أمرها الناقد اللامع جومار - محرر موسوعة «وصف مصر»، وقال ببساطة أنه لا يصدق وصف بلزوني لتابوت سبتى الحجرى، لكن بورخارت وسولت امتدحاه فى عدة دوريات منها النشرة، وربع السنوية المعروفة (كوارترلى ريفيو)، وأشاد بمواهبه الكشفية الميكانيكية، ومما قاله عنه سولت إن مواهبه «مكنته من النجاح فى طبية دون معاونة، فاكشف الكثير من الآثار النادرة القديمة، مما أدهش جهابذة الباحثين» وسواء أسخط ذلك الفرنسيين أم أرضاهم فقد توطد مركز بلزوني كمنقب عبقرى عن الآثار.

وورد على خاطر بلزوني أن يقيم معرضاً لمقبرة سبتى فى إحدى العواصم الأوروبية وفكر أن مثل هذا المعرض سوف يحقق مطامعه فى الشهرة وتوطيد مكانته الاجتماعية وتحقيق العوائد المادية، لذلك استغل بلزوني ربحه من بيع تمثالى سخمت فى توظيف طبيب إيطالى شاب يجيد الرسم ونسخ الكتابة الهيروغليفية اسمه اليساندرو ريكى، واهتم بلزوني بعمل صور شمعية للنقوش البارزة وكذلك المجوهرات لعمل نموذج مكمل لمقبرة سبتى للعرض فى لندن لذلك جعل ريكى يسبقه إلى طبية على أن يوافيه هو بعد شراء أدوات النسخ وتوفير التمويل اللازم للعملية.

فى هذه الأثناء تعرف بلزوني على الميجور إدوارد مور الذى كان فى طريقه من الهند إلى لندن حاملاً رسائل رسمية، وكان مور عضواً بجمعية الآثار بلندن، وكانت ذات أهمية كبيرة فى ذلك الوقت، ولكن الرياح المعاكسة عطلت سفره إلى الأسكندرية، فانتهاز الفرصة ورافق بلزوني لزيارة الأهرام، ودار بينهما بالصدفة نقاش حول فتح الهرم الثانى - هرم خضرع - الذى لم يكن قد فتح بعد، وكان هناك كلام كثير حول إمكانية فتحه يثار فى إنجلترا وفرنسا.

كان الكابتن كافيليا - تعرف عليه بلزوني من قبل - آخر من قام بالحفر عند الهرم، لكنه كان قد غادر مصر، ولما كان دروفيتى وسولت كلاهما يزوران الصعيد، فقد وجد بلزوني أن الجو قد خلا له، وبدا له وهو يزور الهرم مرة ثانية مع بعض الأوربيين أن فتح الهرم الثانى ليس أمراً مستعصياً؛ لذلك ترك رفاقه

عند الهرم الأكبر وأخذ يتجول وحده ثم جلس فى ظل حجر يحدث نفسه « هذا (هو) البناء الشامخ، الذى حار فيه المتقدمون والمتأخرون «بعد ذلك أخذ يدور حول الهرم باحثاً عن خيط يدل على مدخل الهرم، بعين فاحصة تدربت على الملاحظة من أيام العمل فى القرنة ووادى الملوك.

لفت نظر بلزونى فى جانب الهرم الشمالى أن الردم من الرمل والزلط مرتفع عن قاعدة الهرم بشكل ملحوظ، لدرجة أن مستواه بلغ حداً جعله يعلو عضادات الأبواب، هنا قادت بلزونى غريزته الكشفية المدربة فحدس أن الردم يخفى تحته باباً أو مدخلاً سرّياً تحت الأرض.

عاد بلزونى إلى القاهرة ولم يحدث بخوابه أحداً، وكان هناك ما يبرر حذره إذ فشا الكلام فى أوروبا عن طرح اكتتاب لتمويل فتح الهرم، دون استخدام نتفجرات ما أمكن، وطرح اسم دروفيتى كمدير تنفيذى للعملية، ومن جهة أخرى كان بلزونى يخشى أن يحبط المسئولون المصريون خطته. لكن الحظ حالف بلزونى فتمكن - عن طريق الباب الخلفى - من الحصول على تصريح من محمد على

زود بلزونى نفسه بخيمة صغيرة وبعض الطعام وبارح القاهرة متعللاً بأنه سيقوم معسكرًا فى جبل المقطم، ولم يكن فى جيب بلزونى سوى مائتى جنيه، وكان أشد ما يخشاه أن يتمكن منافسوه الفرنسيون من عرقلة جهوده أو فضحه علناً. المهم أن بلزونى قام بتأجير ثمانين عاملاً دفعة واحدة للحفر فى موقعين: لأول شمال الهرم، والثانى شرق الهرم حيث توجد أطلال معبد خفرع الجنازى نواجه للهرم، وكانت ظاهرة للعيان.

بدأ الحفر بطيئاً فى الموقع الشمالى؛ لأن الأرض والمونة كانتا من الصلابة حيث تسببا فى التواء فتوس الرجال، أما عند المعبد فكان الحفر سهلاً أدى إلى كشف طريق دائرى تحت الأرض بحوالى أربعين قدماً يلف حول الهرم، وبعد ستة عشر يوماً من الحفر والتنظيف ظهرت فجوة بين صخرتين. وبالجس بواسطة عصا طويلة اتضح أن الفجوة طويلة اتضح أن الفجوة خالية لأن العصا

اخترقتها بلا عائق مسافة ستة أقدام، فى اليوم التالى رفعت الصخرة المخلخلة (واحدة من الصخرتين) فأنكشف تحتها باب كاذب صغير لم يوصل لشيء؛ لذلك صرف بلزوى العمال باقى اليوم، وظل يحوم حول الهرم مفكراً فى حل لفزه المحير.

هنا تنبّهت حواس بلزوى نحو الماضى فحزم أمره على التجربة، ترك بلزوى مكانه واتجه إلى هرم خوفو عله يلهمه فى إزالة الغموض، وأثناء المعاينة لاحظ أن مدخل الهرم ليس فى وسطه تماماً ولكنه متزحزح نحو الجنوب الشرقى لقاعدته، فقام بلزوى مسافة الزحزحة عن مركز الهرم ثم أسرع إلى هرم خفرغ وقاس المسافة نفسها من مركزه، فوجد خلعة فى البناء وتقعرًا فى السطح، فراود بلزوى الأمل وحدث نفسه ها هو الأمل يعود، ليثبت عقليتي الهرمية»

استؤنف الحفر ببطء فى اليوم التالى لصلابة الأرض، واستمر الحفر حتى ظهرت مجموعة مكونة من ثلاث صخور «اثنان متوازيان والثالثة فوقهما» وكانت مجموعة الصخور هذه مائلة نحو مركز الهرم، وباستمرار الحفر استطاع بلزوى لأول مرة أن يرى باب الهرم، وكان الممر المائل المؤدى إلى داخل الهرم مبنياً بكتل جرانيتية ضخمة بارتفاع أربعة أقدام، واحتاج الأمر ليومين آخرين من الحفر لتنظيف الممر، فعثر بلزوى على الممر المستوى تعترضه كتلة ضخمة تسد الفجوات بالجدران.

ولحسن الحظ، عثر على فجوة صغيرة عند القاعدة تقع بين كتلة حجرية وأخدود أرضى، فأمكن لبلزوى أن يقيس سمك الحجر الاعتراضى، كان سمك الحجر ١٥ بوصة، وبالجس وجد أن هناك فراغاً فى السقف سمكه يسمح بتعشيق الحجر فيه عند اللزوم، واستخدمت روافع لرفع الحجر بصعوبة وتعشيقه فى السقف ودفع بلزوى بفلام من الأعراب إلى الداخل ومعه شمعة للاستكشاف، لكن الفتى وجد الممر خالياً، وبعد محاولة أخرى أمكن رفع الحجر مسافة أكبر مما سمح لبلزوى الضخم بالمرور.

بعد بدء العمل بشهر أمكن لبلزوني أن يلج إلى داخل حجرة الدفن، وكانت أرضيتها منحدرية نحو ممر ضيق أسفل الممر العلوى اتجاها معاكس لاتجاه الممر العلوى إذ يتجه نحو الواجهة الشمالية للهرم، وكانت على جدران الممر طبقة ملحية، وفي نهايته حجرة دفن واسعة للغاية طولها ٤٦ قدماً وعرضها ١٦ قدماً وارتفاعها ٢٣ قدماً والحجرة منحوتة فى الصخر الصلب، وكان هناك تابوت حجري على أرضية الغرفة، لكن يبدو أنه فتح من قبل، وكان مملوءاً حتى منتصفه بالنفايات. وكان على التابوت كتابة عربية ترجمها أحد القبط تدل على أن هناك من سبقوا بلزوني فى دخول الغرفة.

بعد ذلك قام بلزوني بتنظيف الممر السفلى المتجه نحو واجهة الهرم الشمالية، فعثر على حجرة دفن أخرى وحاجز آخر، فأيقن بلزوني أن مدخل الهرم الحقيقى من الخارج، أثناء ذلك كان أحد مرافقى بلزوني يعيث بالنفايات التى بالتابوت الحجرى فعثر على كسرة من العظام، وقد تحمس بلزوني لمنظر الكسرة فبادر بإرسالها إلى أمين متحف هنترن للتشريح بجلاسجو، فأفتى بأنها عظمة عجل، وأريك ذلك بلزوني وأثار الاستهزاء فى بعض الدوائر ممن وصفهم بلزوني بأن «حاسة التذوق الفنى عندهم ضعيفة».

فى هذه الأثناء، كان سولت قد فشل فى تحقيق أى نجاح فى حفائره بوادى الملوك، وأرسل إخطاراً بأنه سيعود للقاهرة، وعقب وصوله بقليل وصل زائر آخر هو الكولونيل فيتز كلارنس، وهو ضابط أرستقراطى كان بحوزته البريد الرسمى المرسل من اللورد هاستنجز حاكم الهند العام إلى إنجلترا، وكان قد وصل لتوه بعد عبور البحر الأحمر، فوصل وهو فى قمة الإرهاق والتعب إلى دار القنصلية بعد حلول الليل، وما أن وصل حتى فوجئ وأدهشه كما قال «التمائيل الغربية المسندة إلى الجدران حولى وتصور أنه داخل المقابر «لولا أنني تذكرت أنني فى قدس الأقداس الخاص بواحد من الملع وأنجح هواة الآثار» كان سولت يتناول عشاءه عند وصول الكولونيل، ولكن ذلك كله غطى عليه ظهور بلزوني فى زى تركى، وقد وصفه الزائر بأنه «أكثر من رأيت من الرجال وسامة»

بعد يومين رافق الرجلان . فيتز كلارنس وسولت . المستكشف الإيطالى (بلزونى) فى رحلة إلى الهرم الأوسط. وتأثر فيتز كلارنس بإنجازات بلزونى، وكتب يقول «لقد تحدثت معه طويلاً... وكان يرى أن الإثارة الحقيقية تأتى من شهرة المستكشف فى الأوساط الأثرية الأوروبية.. وقد قال إنه يعتبر زيارتى لمصر مناسبة سارة ثم خولنى مسئولية التنويه عنه فى إنجلترا، وإظهاراً لفضله (أى بلزونى) لدى الشعب (الإنجليزى) الذى يخلص له «وما لبث فيتز كلارنس أن تولى نشر عجالة كان يعدها بلزونى عن كيفية دخول الهرم الأوسط.

لم تكن العلاقات الشخصية بين سولت وبلزونى جيدة: لذلك عندما عرض سولت على بلزونى استعداده لتمويل استكشاف الهرم التى وصلت تكاليفه إلى ٢٥٠ جنيهًا ساور بلزونى الشك فى مقاصده فرفض العرض ولم يكتف بذلك بل عزز الحراسة على هذا الاكتشاف حتى لا يقترب منه سولت، ويمكن تلخيص الوضع بينهما كما يلى:

كان سولت قد ملأ دار القنصلية بالتمائيل الرائعة الفريدة، وبآلاف من الآثار بعضها نادر جداً، وكان نصيب بلزونى من كل ذلك ما وصله من نقود عن عملية ممنون الصغير، والتمثالان اللذان باعهما للفرنسيين.

استمرت المفاوضات العقيمة بين الرجلين مدة: لأن التفاهم بين الرجلين كان شبه مستحيل لتوتر العلاقات بينهما. وبعد قد امكن التوصل لاتفاق يمكن تلخيصه فيما يلى:

يتقاضى بلزونى ٥٠٠ جنيه أثناء السنة التالية، نصف المبلغ نظير التابوت المرمى «بعد بيعه»، ونصفها الآخر ينقب بها عن آثار يستأثر بها وحده (أى بلزونى) ويتعهد بلزونى فى المقابل بمساعدة القنصل فى نقل توابيت أخرى مازالت فى طيبة، ومساعدة معاون القنصل وهناك وهو بيتشى بكل الوسائل المتاحة.

وقد تحرر بذلك عقد وقع عليه بتاريخ ٢٠ أبريل سنة ١٨١٨، وافترق الرجلان متفاهمان، وعلى هذا الأساس توجه بلزونى إلى طيبة فى رحلته الثالثة التى قدر لها أن تكون آخر رحلاته النيلية.

مر بلزوني عى الدفتر دار بك . الذى سبب له المتاعب من قبل . لمجرد تجديد
الفرمان ثم وافى الساندرو ريتشى فى وادى الملوك حيث كان الأخير عاكفاً على
العمل فى مقبرة سيتى منذ أكثر من شهرين، وكانت أعمال النسخ تسير بصورة
جيدة.. وبدأ بلزوني بنفسه فى عمل نسخ شمعية لأهم النقوش البارزة المنخفضة،
وأقام الاثنان . بلزوني وريتشى . فى المقبرة معظم فصل الصيف، حيث الجو
اللطيف من لظى وادى الملوك، ولكنه مازال من السخونة بحيث يجعل من
الاستساخ بالشمع عملية فى منتهى الصعوبة، وكان الشمع ذائباً فعلاً فى ذلك
الوقت فكان لابد من مزجه بالغراء والغبار الناعم حتى يمكن استخدامه، وكان
أصعب أجزاء العملية استساخ النقوش بدون إتلافها كذلك كان المطلوب نسخ
منها كثيرة جداً .

كان تقدير ما يحويه المعبد كما قال بلزوني: «تماثيل أكبر من الحجم الطبيعى
١٨٢ تماثيل صغيرة ارتفاعها بين قدم واحد وثلاثة لم أحصها (لكثرتها) لكنى
قدرت عددها بثمانمائة على الأقل . نقوش هيروغليفية حوالى ٥٠٠» لذلك كان
استساخ الصور عملية مضيئة تحتاج للصبر والخبرة ظل هذه الظروف الصعبة .

انشغل بلزوني بمقبرة سيتى طوال صيف ١٨١٨، بعد تركيب باب خشبى متين
لحمايتها، ولم يدع له العمل بها وقتاً تقريباً لعمل حفائر جديدة رغم أن التصريح
الذى يحمله يسمح له بذلك على شطى النهر بالقرنة، وكان من أسباب زهد
بلزوني فى الحفر أنه ومجد الشطين كليهما يملؤهما أعوان دروفيتى وسولت
الذين استوليا على حقوق الكشف فى كل الأراضى المناسبة هناك أثناء رحلتهما
(التي سبق ذكرها)، ورتبا أمورهما قبل العودة إلى القاهرة، ومن ثم أثر بلزوني
تجنب المواجهة مع مندوبى الرجلين والآنزواء «فى مقبرته» ووجه الغرابة فى ذلك
أن هذه كانت المرة الأولى التى يمكنه الحفر فيها بنفسه لنفسه لا لغيره، ومع ذلك
يجد نفسه عاجزاً عن ذلك، وقد عبر بلزوني عن هذا الوضع بمرارة فقال: «كنت
إذا حددت أى موقع فى أى مكان مهما كان فقد كان بإمكان أى من الطرفين .
وأعنى هنا أعوان السيد دروفيتى والسيد سولت بأنه مبشر وأنهم حجزوه من قبل

وأستطيع أن أؤكد أنني لو حددت أحد الشطرين نفسه أو حتى الصخور الصلدة لأدعيا أنهما بصدد هدمها فى اليوم التالى..» (منتهى اليأس).

كان منافسا بلزونى حريصين على عرقلة وتجميد نشاط هذا الأثرى الناجح ولكن بلزونى بعد محاولات فاشلة فى الحفر فى أماكن سبق له أن وجدها غير مجدية، تحدى اعتراضات بيتشى باسم سولت وأخذ يجرى حفائر فى موقع اختاره خلف التمثالين العملاقين على السهل النيلى وهو من مواقع امتياز سولت وكان دروفيتى - أيضا - قد حفر هناك ولم يستخرج سوى بعض التماثيل المحطمة، ولكن بلزونى المحظوظ - دائما - يشاء له حظه أن ينجح فيما فشل فيه غيره، ففى ثانى أيام الحفر ظهر له تمثال جالس للملك أمنحتب الثالث من الجرانيت الأسود - كامل تقريبا - وبشبات يدعو للإعجاب نقل ملكية التمثال لهنرى سولت واكتفى بحفر توقيعه على التمثال.. هذا التمثال الجميل موجود - الآن - بالمتحف البريطانى.

بعد هذا الاكتشاف الذى يعزى إلى الصدفة البحتة، توقف بلزونى عن إجراء أية حفائر وركز على عمله فى المقبرة، ولكنه انتهر الفرصة كى يكون لنفسه مجموعة أثرية وصفها بأنها «مجموعتى الثرية الخصوصية الصغيرة، التى أفخر باحتوائها على بعض الآثار الصغيرة الممتازة، كالخطوطات،... إلخ.» ويرجع جزء كبير من نجاحه فى ذلك إلى أصدقائه فى القرنة، فقد كانوا يؤثرونه بأئمن ما لديهم من الآثار التى يسلبونها من المقابر، وكانت هذه الصداقة الوطيدة بينه وبينهم سببها أن بلزونى هو الوحيد من بين المستكشفين الأثرى ن فى كل العصور، الذى عمل مخلصا على فهمهم فى مجتمعهم وفهم أسلوب حياتهم، وأدخل ذلك ضمن اهتماماته الشخصية.

١٣. البحث عن برنيس القديمة

كان نسخ حجرة دفن سیتی الأول على وشك الانتهاء عندما حدث لقاء عابر بين بلزونی وأحد الزوار كان نتيجة قيام بلزونی برحلة جديدة مثيرة. (وتبدأ القصة) عندما يقوم اثنان من القبط بعبور الصحراء من البحر الأحمر إلى وادی النيل فی رحلة مرهقة لمقابلة الباشا، وأخطر الرجلان الباشا بأنهما شاهدا بعض مناجم الكبريت القديمة فی الجبال المطلة على البحر الأحمر قرب القصیر.. وكان الباشا فی حاجة إلى خبیر أوروبی رحالة يصلح لمعاينتهما فرشح له دروفیتی خبیراً فرنسیاً فی الآثار والتعجیم اسمه فردريك كايو «كان فی مصر قبل بلزونی وعمل مع دروفیتی فی مناسبات عديدة، ووافق الباشا على تكليفه بالمهمة.

بادر كايو بتنفيذ المهمة تصحبه تجريدة عسكرية، وقرر كايو أن المناجم لا خير فيها، لكنه زار جبل زيارا الذى اشتهرت مناجمه فی العصور الكلاسيكية بوفرة الزمرد . كما ذكر المؤرخون، ثم أهمل شأنها فی العصور الحديثة، مكث خبیر المناجم . كايو . شهرين فی هذه الرحلة عاد بعدها ومعه تقارير وردية عن ترسيبات الزمرد، سال لها لعاب الباشا فأرسل معه تجريدة أخرى ومجموعة من السوريين المدربين على العمل فی المناجم (لاستغلالها).

عاد كايو بعد عدة أشهر ومعه عشرة أرطال من الزمرد الخام، حكى كايو حكاية منمقة عن مدينة مخربة بها ثمانمائة بيت وبعض المعابد بجوار مناجم

الزمرد ورغم أن الأطلال كانت تبعد عن البحر لأكثر من ثمانية أميال، إلا أن خبراء الآثار «من مكاتبهم» بالقاهرة سارعوا بإعلان أن الأطلال بقايا مدينة برنيس، أما برنيس هذه فقد كانت في العصر القديم الميناء الرئيسى على البحر الأحمر فترة طويلة، ويذكر أنها كانت أيام البطالمة مركزاً تجارياً مزدهراً، تجتمع فيه التجارة مع البلاد العربية والهند والخليج الفارسي، وعلى هذا فهي تصلح ثمرة ناضجة لأول مستكشف للآثار يوجه اهتمامه إليها، ومن هنا راودت الأحلام خبراء الآثار المصريين فظنوا أنهم عثروا على «بومبى» جديدة وكان السبب في ذلك كله أن كايو قد هول من أمرها في تقاريره قبل أن ينسل في هدوء وينفض يديه من موضوع المناجم.

ما سبق ذكره يلخص الوضع الذى وصل إليه الموضوع قبل علم بلرونى به، وبالصدفة بعد أمرت عدة أشهر من هذه الأحداث مرض أحد المنجمين السوريين أثناء زيارته لوادى النيل لشراء مواد تموينية، ولما علم بوجود طبيب مسيحي في وادى الملوك اتصل ببلزونى وريتشى للتوسط لديه كى يعالجه من مرضه، ووجدها بلزونى فرصة مناسبة لكى يستفسر من الرجل عن استكشافات كايو، ولم يكتف الرجل بمجرد الحديث عنها بل أبدى استعداداه. أيضاً. لمرافقة بلزونى إلى هناك، وكان العمل فى مقبرة سيتى شبه منته، والحفر فى طيبة شبه متوقف.. فتحمس بلزونى للمفكرة رغبة منه فى القيام بمغامرة جديدة، ولم يضع بلزونى وقتاً فأعد قافلة صغيرة على عجل بازحت وادى الملوك فى ١٦ سبتمبر، وكان قوام القافلة ثمانية أفراد من بينهم المنجم السوري وريتشى (الرسام) وبيتشى والبقية أتباع وخدم.

أعدت القافلة قارناً ينقلهم إلى أدفو جهة الجنوب، على أن يخترقوا الصحراء من هناك إلى البحر الأحمر، وكان الوقت وقت فيضان. وكان فيضانا عالياً جداً، زاد فيه ارتفاع مستوى النهر ثلاثة أقدام ونصف أكثر من سابقة (أى فوق المعتاد بثلاثة أقدام)، وغرق فى الفيضان عدة قرى ومئات من الأهالي، ولذلك جندت كل السفن لإنقاذ محصول الحبوب ونقله للأماكن العالية، ومرت المركب اثنتى بها قافلة بلزونى ورفاقه على قرية تحت مستوى النهر بأربعة أقدام وكانت الوسيلة

الوحيدة لإنقاذ أهلها نقلهم لأحد السدود أو لمكان مرتفع، لأن القرية لم يكن بها مراكب ولا نخل يتسلقونه إذا انهارت السدود، وكان وضع القرى التي تبعد عنها جنوباً أسوأ حالاً فبعض هذه القرى اختفى بالكامل، وتجمع ساكنها مع مواشيهم وغلالهم فى الأماكن العالية، وكان الخوف من حدوث مجاعة وارداً؛ لأن انحسار الفيضان لم يكن متوقعاً قبل أسبوعين، أما المراكب فكانت أندر من أن تسعف فى هذا الوقت، وقد نجا بعض الأهالى بطرق عجيبة أشبه بالمغامرات، فمنهم من ركب فوق ظهور أفراس النهر ومنهم من تعلق بحزم الأسل (السمار) أو غير ذلك من الوسائل غير المعتادة، ولم يمكن لبلزوني أن يتوقف ليعين هؤلاء لأنه كان يدرك أنه لو فعل فسوف تندفع الجموع إلى المركب فيغرق الجميع، لكنه لما وصل إلى أرميت الواقعة جنوب هذا المكان أمضى معظم نهاره فى إغاثة الأهالى ونقلهم عبر النهر لأماكن أكثر أمناً. فقام بتنظيم أربع نقلات خصص الأخيرة منها لنقل النساء» وهن أقل ما لدى (الرجال) أهمية.

فى إسنا زاروا حاكمها إبراهيم بك، فاستقبلهم ببشاشة أو أعطاهم التصريح الذى طلبوه بشرط عدم التقيب عن الزمرد بتاتاً، وهذا الموقف معروف عن الأتراك لأنهم لم يفهموا السبب فى اهتمام أى شخص بالأطلال أو الحجارة (الأثار) فلديهم الريح وحده وهو الهدف وكانت الشكوك نفسها تساور كبير المنجمين محمد أغا الذى كان فى إدفو عندما وصل إليها بلزوني، وتولى كاشف إدفو أمر تدبير جمال القافلة والجمالين مع شيخ قبيلة عبيدة البدوية، القبيلة التى تمر عليها القوافل فى طريقها للمناجم. وكان الأجر الذى استقر عليه الاتفاق مناسباً لبلزوني تماماً، فقد قبل الشيخ بتأجير الجمال نظير قرش فى اليوم (لم يوضح المؤلف أكان القرش للجمل الواحد أم للمجموعة كلها) على أن يدفع للجمالين أجراً زهيداً. لكن الشيخ حاول فى اليوم التالى التخلّى عن تعهدهات وطالب بلزوني بالتريث حتى ينهى الشيخ بعض أعماله ويصحبه فى الرحلة، وأيقن بلزوني أن كبير المنجمين أثار عليه الشيخ، لكن حزم بلزوني حسم الموقف فقد أصر على السفر فى اليوم نفسه، وبذلك يبطل كيد شيخ القبيلة ومن أثاره، وبذلك تحركت القافلة فى عصر يوم ٢٢ سبتمبر فى طريق مههد مطروق

منذ عدة قرون، وكان قوام القافلة ستة عشر جملاً، خصصت منها ستة جمال لحمل المؤن.

تأسست برنيس فى القرن الثالث الميلادى، وقد أسسها بطليموس الثانى لتكون ميناء؛ لأنها تقع فى قلب خليج آمن من العواصف التى تهب من الشمال، وقد وجدها ربانية السفن مناسبة كمرفأً لتجارة البحر الأحمر رغم بعدها عن النيل بأكثر من ٢٥٠ ميلاً. وكان هناك طريقان يصلان الوادى ببرنيس: الأول أنشأه بطليموس ويصل برنيس بقطف، والثانى طريق صحراوى جنوبى يصل إلى النيل عند إدفو، واختار بلزونى الطريق الصحراوى لأنه الطريق الحكومى، لذلك كان آمناً وبه الاستراحات وآبار المياه الصالحة للشرب؛ وكانت تجارة القوافل من الشرق وصحراء مصر الشرقية تمر به حاملة للمعادن النفيسة والأحجار الكريمة والتوابل لتصل إلى وادى النيل.

سارت القافلة فى البداية فى أرض ممهدة تتناثر فيها أشجار الجميز العجفاء وبها كثبان من عظام الجمال، وأثناء السير اهتدت القافلة إلى آثار تدل على وجود مدينة قديمة، فقد عثرت على محطات مهجورة مما كانت تستخدمه القوافل والمسافرون فى العهود القديمة، كانت بقايا جدرانها مازالت قائمة وبها بعض الأبار الملوئة بالمياه، واستمروا فى السير حتى آخر اليوم الثانى، ثم أقاموا مخيمهم فى مدخل وادى الحياة، المجاور لأحد المعابد الصخرية، وكان بجواره أطلال نقطة حراسة وحظيرة جمال ونزل للمسافرين.

استؤنفت الرحلة قبل طلوع شمس يوم ٢٥ سبتمبر، حتى وصلت إلى منطقة شديدة التصحر ليس فيها زرع، وفى مساء اليوم نفسه أصابت الدكتور ويتشى حمى شديدة، فرأوا إعادته لوادى النيل حتى لا تتفاقم حالته؛ لذلك قسموا القافلة ثلاثة أقسام (غير متساوية): القسم الأول يحمل المؤن والأمتعة الثقيلة ويسير فى الطريق الرئيسى ويتجه نحو الشرق، والثانى يضم بلزونى وبيتشى اللذان اتخذوا طريقاً جانبياً لمعاينة منطقة بها أطلال دلهم عليها بعض الأهالى، اتضح من معاينتها أنها مخازن مياه، (الثالث لم يذكره المؤلف ويمكن استنتاج أنه يتكون من ريكي المريض ومن رافقه إلى مصر).

انبهر بلزوني بالقبائل الصحراوية المتناثرة فى قرى صغيرة منتشرة فى الصحراء الشرقية الشاسعة، وأعجبه فى العباددة - رغم بداوتهم - عشقهم للحرية وتحللهم من أى تعهد للحكومة، وبعض هؤلاء البدو كان يقوم بتربية وبيع الجمال، لكن الغالبية كانت تمشى فى قناعة على مستوى الكفاف، وبشترتهم السمراء وشعورهم المجمدة تجعلهم أشبه شئ بالنوبيين الذين عاشهم بلزوني فى أبى سنبل، والغريب أن معظم العباددة يعيشون عراة، لكنهم يعتنون بشعورهم ويرجلونها ويضمخونها بالشحم الحيوانى - إلا إذا كانوا صلغاً، وكان هذا الدهن يذوب فى حرارة الشمس وتبعث منه «رائحة نفاذة لذوى الأنوف الحساسة» ولكن بلزوني وجدهم لطيفي المعشر، ودودين، لم يمانعوا فى بيع بعض خرافهم القليلة التى عصفت بها قحط استمر مدة طويلة، واستلفت نظر بلزوني قوة تحمل هؤلاء البدو، فقد كان يمكنهم تحمل العطش أكثر من ٢٤ ساعة مهما اشتدت حرارة الجو.

وحوالى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٢٩ سبتمبر، وكان قد انقضى على الرحلة سبعة أيام تراءت لهم مياه البحر الأحمر الزرقاء على مسافة بعيدة، وفى اليوم التالى وصلوا إلى معسكر التجيم عند سفح جبل زيارا، وكانت أحوال المعسكر سيئة للغاية، فالمؤن التى ترد إليهم من وادى النيل كانت دائماً تتأخر عن موعدها، وكان خطر الموت جوعاً أو بأيدى العباددة قائماً، فالعباددة قد ضاقوا بهم وبتحرشهم بنسائهم أما الزمرد فلم يجدوه فى المناجم القديمة، وكان تنظيف الآبار الموجودة لاستخدامها يمثل خطورة بالغة، وكان التنازع بينهم من الأمور المعتادة لدرجة أن اثنين من العمال قتلوا أثناء عصيان ضد الرؤساء.

أراد بلزوني أن يبتعد عن المشاكل، وكان متشوقاً لإكمال الرحلة؛ لذلك ما أن تفقد المناجم واستعلم عنها من العمال، حتى أسرع بمبارحة المكان، مصطحباً معه دليلاً من الأهالى ليقودهم إلى المدينة الأثرية التى ذكرها كايو.

كان السفر مضيقاً تلك الليلة وأصابهم العطش، فقد كان الدليل يسير بهم فى وديان ضيقة ومنحدرات غير ممهدة أجهدت الجمال، ولم يظهر أثر لبرنيس وهم يتطلعون ويفحصون المكان من علو. وكان كلام كايو المبالغ فيه قد أدخل فى روع بلزوني أنه سيرى «أساطين فخمة ومعماراً لصرح كبير».

وثبت بسرعة عدم صدق كايو، فقد وصلوا بعد التعب إلى مجمع به بعض البيوت والجدران المنهارة، وأصر الدليل الذي يصحبهم على أن هذه بعينها هي أطلال المدينة التي نوه عنها كايو، ولم يصدق بلزوني عينيه واشتد الجدل الحاد لأن بلزوني أصر على مواصلة الرحلة نحو الساحل، وركب بلزوني جملة فشد به الجمل تبرمًا لأنه «كان يفضل البقاء حيث هو بدلاً من السير للبحث عن برنيس» وتبع الجميع بلزوني على مضض وكان قد دفع للنزول إلى وادٍ مواجه جنوبًا. وفي الوادي تجولوا أربع ساعات لكن أطلال برنيس لم يظهر لها أثر، وعاقهم الظلام فمسكروا تحت صخرة ضخمة وأخذ بلزوني يقلب الأمر في رأسه ويفكر، أما الماء فقد نفذ وأرسلت الجمال للبحث عنه وأما الزاد فلم يبق منه سوى بعض البسكويت يكفى لثلاثة أسابيع. وأكل بلزوني ومن رافقه من الأوروبيين من هذا البسكويت ومن لحم مخزون منذ ثلاثة أيام مما جعل يحمد الله لأن حاسة الشم مما لديه ضعيفة.

في صباح اليوم التالي صعد بلزوني وبيتشي فوق التل وأخذا في السير حتى ابتعدا عن المعسكر خمسة أميال، وأخذا يستكشفان الأرض تحتهما من ذلك العلو، لكن لم يظهر لهما شيء. لا مدينة ولا حتى البحر الأحمر؛ لذلك أيقن بلزوني أن كلام كايو كان بعيداً عن الدقة فقال «إنه لشيء يبعث على الضيق، أن نقوم برحلة كهذه على أساس بيانات مضللة» ثم قال ساخراً «إن (هذه البلدة) مثل بلد العجائب التي ذكرها البطل لامانشا، ولكنها لم تظهر قط».

وعلميا كان يمكن القول إن الرحلة قد ضلّت طريقها، فلم يكن مع القافلة سوى خريطة قديمة للبحر الأحمر رسمها دانفيل سنة ١٦٧٧ بمقياس رسم صغير جداً ولم يتوخ فيها الدقة، ولاحظ بلزوني أن مسالك الوادي كلها تتجه جنوباً فحدس بذلك أن البحر الأحمر لابد أن يكون في هذا الاتجاه؛ فما أن عادت الجمال من رحلة البحث المتعبة عن الماء، حتى أمر بلزوني بالتحرك فوراً نحو الجنوب، وبالطبع حدث هرج ومرج ومعارضات كثيرة لم يوقفها سوى حزم وكياسة بلزوني بالوعد تارة وبالوعد تارة أخرى حتى استقام الأمر، لكن المسار الذي اتخذته القافلة بالفعل كان مساراً شمالياً شرقياً، أوصلهم إلى وادٍ شديد

الانحدار فيه كهف ضيق بين الصخور اسمه «خرم الجمل» ترجمه بلزوني «أجرة الجمل» لخطأ في فهم المعنى، هنا نصبت القافلة معسكرها عند الغروب، وتابعوا الرحلة في اليوم التالي فتراءت لهم مياه البحر الأحمر، وما أن وصلوا إليها حتى رموا أنفسهم فيها «كأنهم تماسيح النيل».

أصبح ما بحوزة بلزوني من الطعام لا يكفي لأكثر من سبعة عشر يوماً، وكان قد حول خط سيره إلى الغرب بجوار الساحل بحثاً عن الميناء المراوغ، واحتج الجمالون، ولكن احتجاجهم ذهب سدى أمام تصميم بلزوني وعزيمته؛ لذلك رويت الجمال من أحد الآبار وسارت القافلة بحذاء الشاطئ الرملى الصخرى، وبعد فترة قصيرة التقوا بنفر من الصيادين أتخفوهم بوجبة من السمك المشوى، وبعض المحار المستخرج من بين الصخور، الذى استمتع بلزوني به كثيراً، ولكن الوجبة الشهية سببت لهم العطش.

وهنا انقسمت القافلة إلى قسمين: القسم الأول وبه العتاد ومعظم الجمال توجه إلى شعب قريبه في الجبال، والثاني ويتكون من بلزوني وبيتشى وخمسة من الجمالين واثنين من الصبية على ظهر خمسة جمال،، وهؤلاء اتجهوا للجنوب حاملين أكبر كمية من المياه استطاعوا توفيرها، وسار بلزوني وصاحبه لمدة يومين فتراءى لهم كوخ منعزل لبعض الصيادين، فلما اتجهوا إليه خاف منهم الأهالى فهربوا ورفضوا العودة، فاسترضاهم بلزوني وطلب منهم إعداد وجبة سمك للرحلة ودفع ثمنها وهو مكره. وقد شبعوا من الطعام لكن أصابهم الظمأ، وفى سبعة من أكتوبر وصلوه إلى رأس بناس ونصبوا مخيمهم بجوار الشاطئ، وكان ما معهم من الماء قليلاً لدرجة لاتكاد تشفى غليلاً، فى اليوم الثانى بلغوا مشارف مدينة مهجورة ظاهرة للعيان، ويقول بلزوني: «فدخلناها فرأينا بها مواقع للمبانى ذات نظام معين، وشوارع وطرق مرصوفة، وفى وسط المدينة وجدنا معبدًا صغيرًا مصرى الطراز، كادت الرمال تردمه...» وتقع هذه المدينة وسط مدرج من الجبال ويحجبها من الشمال جبل رأس بناس، وأخذ بلزوني قياسات للمدينة فوجد طولها حوالى ألفى قدم وعرضها حوالى ألف وستمائة قدم، واستنتج بذلك أن هذه هى ضالته برنيس (البائدة)، وقد ثبت أن استنتاج بلزوني كان فى محله،

ووجد أن هذه المدينة صغيرة، وأنها لا تستحق كل ما أثير حولها من ضجة ودعاية.

لم يكن لدى القافلة متسع من الوقت، وكان الموقف التمويني حرجاً فالماء شحيح للغاية وكل طعامهم من البسكويت الشديد الجفاف، وكان آخر طعام طازج تناولوه أكلة السمك منذ أيام (وكانت سبباً في ازدياد العطش)، وخوفاً من تدمير الأدلاء الجوعى العطشى، صرح بلزوني بأن القافلة سوف تغادر المكان في اليوم التالي، ومن حسن الحظ أن القمر كان مكتملاً في هذه الليلة، فنشر البدر ضياءه فسهل عليهم التتقيب والرسم، وأمر بلزوني أحد الصبية بإزاحة الرمال عن المعبد، ولما كانوا قد نسوا إحضار جاروف معهم فقد استخدموا صدفه كبيرة بدلاً منه، وتمكن الصبى بهذه الطريقة من إحداث فجوة بعمق أربعة أقدام فظهر تحتها نقش ضئيل البروز، بالإضافة إلى لوح من البريشيا الحمراء المنقوش أيضاً، فأخذوا هذا اللوح «تذكيراً لزيارة معبد مصرى على شاطئ البحر الأحمر وهذا المعبد - كما عرفنا فيما بعد - كان مكرساً لسير أبيس وهى عبادة أبيس/ أوزير التى كانت منتشرة فى مصر فى العصر الرومانى.

أثناء قيام الصبى بتنظيف المعبد وإزاحة الأتربة عنه، كان بلزوني وبيتشى يفتشان فى المدينة فلاحظا أن البيوت متقاربة للغاية، وكانت مساحة أكبر البيوت ٤٠ قدماً فى ٢٠ قدماً، وأكثرها أصغر حجماً من ذلك، وقدر بلزوني عدد بيوت القرية فى أوج ازدهارها بألفى بيت، بعد ذلك قام بقياس المعبد فوجد أبعاده ١٣٠ قدماً طولاً و٤٣ قدماً عرضاً، ووصف بلزوني المدينة بأنها دراماتيكية ولكنها مخيبة للآمال، وقدر عدد سكانها فى أوج ازدهارها بنحو عشرة آلاف نسمة.

لحسن حظ القافلة عثرت على الماء فى منتصف الليلة التالية فى بئر «أحترتيت» فى التلال التى خلف برنيس، وكم أسعدهم أن يروا قطيعاً من الغنم، لكن سعادتهم لم تتم لأن الراعيتين «ابتعدتا عن الطريق بحزم» وأرسل بلزوني بعض جمالته ليعقبوهما فتمكنوا من إيقاف الفتاتين قبل أن تتمكن من تخبئة القطيع، «وأغدقنا عليهما لنحصل على بعض الحمالان، لكننا كنا نوجه عنايتنا للقطيع نفسه ككل فى المقام الأول»، «كما قال بلزوني. وكانت هذه أول مرة منذ

أيام يذوقون فيها لهماً متوسط الشواء . لكنه كان يابساً، وبعد انقضاء يومين النحقوا بباقي الرفاق عند منحني «أميوز»، وهناك وجدوا الماء متوفراً، و رأوا طريق القوافل القديمة الذي كان يربط بين برنيس و وادي النيل .

تأكد بلزوني أن المدينة البائدة التي رآها هي برنيس، أما كايو . في رأى بلزوني . فلم ير سوى أحد معسكرات التجيم فيه بيوت متناثرة على أرض جرداء جبلية تلفحها الشمس مثل الأتون، الحياة فيها صعبة ومنعزلة، ولعل هذا هو الذي أشعل خيال كايو، وكان بلزوني قد تجول في المدينة كثيراً، ولعله قد أصابه الإحباط مما جعله أن يقول «لقد زرت ولعنت مدينة يجعلها المسافرون الآن، كانت من ألفى سنة مأهولة بالسكان، ولم يبق منها سوى أطلالها» المهم أن كايو ذكر أنه وجد بها خميسة بيت لكن بلزوني لم يجد بها سوى ثمانين .

وأن أوان العودة إلى مصر، فتوجهت القافلة نحو الوطن، وكانت رحلة العودة مرهقة أصابهم فيها العطش، وعندما وصلت الجمال إلى الجبال القريبة من النيل كانت من الإرهاق بحيث أنها بالكاد استطاعت أن تبرك ومات من الجمال في الطريق أربعة، وأثر على حال المجموعة العطش والماء الرديء، وعندما وصلوا إلى معبد وادي الحياة بعد خمسة أيام، كان قد بلغ بهم العطش حدا جعلهم يستسيغون ماء آخر بئر وكانوا في رحلة الذهاب قد وجدوه مرأ لكنه كما يقول بلزوني «بدا لنا حلو الطعم في العودة» .

استغرقت هذه الرحلة شهراً كاملاً؛ عاد بعدها بلزوني وبيتشي إلى المركب التي استأجراها، وكان ذلك يوم ٢٣ من أكتوبر، ودفعاً للجمالة المرهقين أجورهم وأهديا بعض المسدسات للكاشف تقديراً منهما لمساعدته، وكان الفيضان قد انحسر وغاضت المياه «وجفت الأرض التي أغرقها الفيضان، ويجرى (الآن) زراعتها، وأعيد إصلاح حال القرى التي أغرقها الفيضان، وفتحت السدود، وذهب الفلاحون للعمل في الحقول... وتغير وجه الحياة» .

والحقيقة أن بلزوني عندما عاد كان راضياً عما حققه؛ والحقيقة أن من حقه أن يسعد، لقد كلف نفسه مشقة رحلة مرهقة في الصحراء في ظروف صعبة . كما رأينا . وعاد ومن معه سالمين، ثم أنه تمكن من إزالة الغموض والالتباس

الذين أحاطا ببرئيس البائدة، ووضع الحقائق حول ادعاءات كايو، بذلك أصبح
بلزوني شغوفا إلى العودة لاهتماماته الأثرية بعد أن علا شأنه وذاع صيته
لكشوفه المثيرة . وهذا ما أسعد بلزوني أكثر من أى شئ آخر .

١٤. مسلة فيلة

مناخ الصحراء أمره عجيب، فمن هواة الرحلات من ينجذب إليه، ومنهم من ينفر منه، ويحدثنا التاريخ عن كثير ممن أمضوا معظم حياتهم فى رحلات صحراوية متنقلين فى القوافل البدوية التى تجوب الصحارى. ومن هذه الفئة بورخارد صديق بلزونى، أما بلزونى فقد صبر على المناخ الصحراوى شهراً وهو يستكشف المدينة البائدة . برنيس، ويبدو أن الصحراء جذبتة لأنه ما أن وطأت قدماه أرض الوادى حتى أخذ يفكر فى ترتيب رحلة صحراوية أخرى إما إلى برنيس مرة أخرى أو إلى الواحات الخارجة غرب طيبة، وجدير بالذكر أن صديقه اللدود كايو قد زار واحة الخارجة أيضا.

لما وصل بلزونى إلى القرنة وجد بها سولت قنصل بريطانيا مع بعض السياح الأثرياء، وكان من بين هؤلاء البارون ساك . من نبلاء بروسيا ومن علماء الطبيعة، ومن خبراء المناطق الاستوائية، وكان قد شاخ وأصبح مسنناً. كذلك كان بصحبته وليام جون بانكس شاب يهوى الرحلات ويحب المجادلات وهو من المهتمين بالآثار ومما يذكر أن بانكس كان زميلاً للشاعر المعروف بايرون فى الجامعة ويشاطره بعض أذواقه وقيمه، كانت رحلة هذه الجماعة محاطة بالفخامة والفخفة، وكانوا يزعمون زيارة الشلال فى رحلة بطيئة، وكذلك كانوا يفكرون فى إيجاد وسيلة لنقل المسلة الراقدة باسم سولت وهى كما نعرف المسلة التى أعجبت بلزونى فى رحلته الأولى وأهداها للقنصل سولت.

تنازل سولت عن حقوقه فى المسلة لصالح بانكس الذى سعد كثيرا عندما قبل بلزونى أن يتولى بنفسه شحن المسلة إلى القاهرة، وكان من أسباب سعادة بلزونى أن يرافق هؤلاء فى رحلتهم ويستمتع بهذا الجو الفاخر بعد معاناته خلال الفترة الماضية، وكانت السفينة التى يستقلها القنصل البريطانى كبيرة مريحة، وكان يصحبها سفينتان أصغر حجماً، استقل إحدهما البارون والأخرى بانكس وفى المؤخرة كانت تسير شاحنة مليئة «بالقنم والماعز والطيور والأوز والبط والحمام والديكة الرومية... والحمير التى لم تكف عن النهيق» وسئم بلزونى مظاهر الترف التى لم تكتمل: «كانت المائدة خالية من الثلج حتى يمكننا أن نتبرد ونحن نتناول الغداء الدسم والفاكهة ونوعين من النبيذ، كذلك كان التعب ومخاطر الرحلة يسببان لنا القلق»

كان تواجد سولت وبلزونى معاً فى القرنة من الأمور التى سهلت من لقاءهما وتفاهمهما، وأمكن لبلزونى أن يبيث شكواه للقنصل سولت؛ لأنه لم يتمكن بعد من جمع مجموعة أثرية شخصية لنفسه، ووافق القنصل على أن يسهل له الأمر، واتفق الرجلان على أن يتولى بلزونى الحفر على نفقة القنصلية فى مناطق امتياز إنجلترا على ضفتى النيل ثلاث مرات، تكون حصيلة أعمال الحفر الثالث ملكاً خالصاً له، أرضى هذا الاتفاق بلزونى، لكن الذى يدهشنا أنهما لم يوفقا فى الاهتمام إليه من قبل، وعموماً فإن الظروف فى ذلك الوقت توحى بأن هذا الاتفاق خير ما يمكن التوصل إليه آنذاك.

بعد قليل وصل القنصل الفرنسى إلى طيبة وعرض على القنصل البريطانى شراء التابوت المرمى، لكن طلبه رفض على الفور، ولم يمنع هذا أن يقوم سولت وبلزونى بمرافقة السيد دروفيتى فى جولة يمر فيها على مناطق الامتياز الأثرية البريطانية فى منطقة الكرنك، لكن جو المقابلة كان يتسم بالبرود والتوتر، وكانت المناقشات يسودها الجفاف، وفى إحدى حالات الانبساط أخذ دروفيتى يعكى عن رجل شبيه ببلزونى فى ملبسه، وجدوه مختبئاً فى الأطلال يحاول الاعتداء على دروفيتى نفسه، وأنه اتصل بعمدة البلد للفت نظره إلى ذلك، وأضحكت الحكاية سولت، لكنها أقلقّت بلزونى «لأنه لوتصادف وتجولت بين الأطلال كما

تعودت أن أفعل باستمرار، فقد يرسلون من يصطادني ثم يدعون أن الحادث جاء نتيجة الخلط بيننا» كان ذلك سبباً في اتخاذ بلزوني أسباب الحيطة وذلك من حسن الحظ.

بعد انقضاء الجولة دعاهم دروفيتي إلى زيارة خيمته بين الأطلال، واحتفى بهم فقدم لهم الشرابات والليمون، وتحديثاً عن برنيس والآثار، حتى أعلن بلزوني عرضاً عن عزمه على نقل مسلة فيلة رغم تأخر الوقت بالنسبة للفيضان، واستغرب لذلك دروفيتي لأنه كما زعم تلقى من ذوى الوجوه الحمر (الأتراك) في أسوان وعوداً في مناسبات عديدة أنهم سينقلون المسلة لحسابه هو، فهم بذلك قد خدعوه، لكن بلزوني أوضح أن المسلة ملكه منذ أول رحلة له، وأنه أهداها للقنصل سولت، وأنه الذي دفع تكاليف حراستها كل ذلك الوقت، وبعد ذلك أوضح للقنصل الفرنسي أن سولت نفسه تنازل عن المسلة للسيد بانكس، وعلى ذلك فسوف ينقلها بلزوني بنفسه لحساب السيد بانكس إلى الإسكندرية، ولم يمانع في ذلك دروفيتي، كما حدث وأهدى بلزوني التابوت من قبل. في قصة سبق لنا ذكرها، ولعله لم يبد اعتراضاً لأنه كان على يقين أن المسلة لم تنقل من مكانها أبداً ومع ذلك كان حريصاً على معرفة موعد مغادرة الفوج الإنجليزي للمدينة.

بعد يومين - في ١٦ نوفمبر - اتجهت القافلة البحرية الكبيرة إلى الشلال الأول، وبعد ستة أيام وصل الفوج إلى معبد إدفو الجميل فصادفوا أعوان دروفيتي يعملون هناك، كذلك علموا أن واحداً من هؤلاء مضى مسرعاً إلى فيلة على إثر رسالة وصلت من بحرى - أى من دورفيتي - ولما أبحروا جنوباً شاهدوا الوكيل البدمونتي إنطونيو ليبولو في زورق صغير وهو في عجلة من أمره، ولما حاولوا إيقافه لم يعرهم التفاتاً، واستمر في سيره؛ لذلك انفصل بلزوني عن المجموعة عند كوم أمبو واستأجر زورقاً إلى أسوان على جناح السرعة.

كانت المشاكل في انتظار بلزوني في أسوان، فقد سبقه إليها ليبولو وأخذ يحرض الأهالي على منع بلزوني من أخذ المسلة، ولكن الأغا الذي لم ينس بلزوني هداياه صرح بأن المسلة يملكها الإنجليز ويدفعون أجور حراستها منذ

ثلاث سنوات، فلجأ لليبولو إلى المرافعة، فعبر إلى فيلة وتظاهر بأنه يقرأ المكتوب عليها بالهيروغليفية وأمام المواطنين السذج ادعى ان النصوص تقول إن المسلة ملك لأسلاف دروفيتي.. (إذاً فهو وارثها!). ثم رفع الأمر إلى القاضى المحلى وقدم له رشوة فحقق مأربه واختفى فوراً.

عندما وصل بلزوني وجد الأمر قد قضى، لكنه اتصل بالأغا لإقناعه بمشروعية دعواه وكان الوقت ضيقاً للغاية فالمسلة يجب أن تنقل فوراً وإلا أدى انخفاض منسوب المياه - فى حالة التأخير - إلى استحالة نقلها عبر الشلال؛ لذلك قرر بلزوني تجاهل كل ما فعله أعوان دروفيتي اعتماداً على أن وضع اليد سوف يضع الجميع أمام الأمر الواقع، وكان لحسن علاقته بالمواطنين أثره فى نجاح خطته، بعكس وكلاء دروفيتي المرورين، وأهدى بلزوني الأغا ساعة، كما دفع لريس المركب نصف الأجر مقدماً فقبل نقل المسلة فى الشلال، ومن المفارقات الطريفة أن يفلح بلزوني فى التعامل مع الرئيس، مع أن هذا الرئيس نفسه رفض عمل الشيء نفسه لدروفيتي قبل شهرين تحت زعم أن المياه قد انحسرت بالفعل - ولا يمكن نقل المسلة.

ولم يضع بلزوني وقتاً، فبدأ بجذب المركب إلى الشط القريب من المسلة ورغم ندرة الخشب تدبر بلزوني الأمر حتى تمكن بصعوبة من عمل السقالات اللازمة لتحريك المسلة إلى الشط، وحركت المسلة كما حدث من قبل مع تمثال ممنون الصغير، وحضر الأغا عند بدء عملية النقل ومعه رسالة من دروفيتي تطلب من الأغا عدم السماح بنقل المسلة إلا لصالح دروفيتي وحده، فتدخل القنصل سولت وطلب من الأغا إبلاغ أطيب أمانية إلى دروفيتي، وإخطاره أن الإنجليز قد أخذوها وقضى الأمر.

ومهد طريق يصل بين المسلة والشط، وذهب بلزوني يفحص الشط محاولاً إيجاد مجرى صالح للمركب، وهنا حدث ما لم يكن فى الحسبان، فأتاء دفع المسلة على الطريق الصناعى غاصت الأحجار الدعامية فى الوحل فأنزقت القطعة الأثرية الثمينة ببطء حتى استقرت فى النهر، وأصاب الذعر بلزوني عندما وجد المسلة وسط دوامة من المياه لا يبدو منها سوى طرفها.

هنا تركت مجموعة السياح بلزوني غارقاً فى مشاكله واتجهت إلى النوبة، وبعد أن استرجع بلزوني رباطة جأشة قام بمعاينة المسلة فوجد أن أمر انتشارها ليس مستعصياً ولكنه يحتاج لثلاثة أيام، وقد أخرجه من ورطته هذه عمال فيلة الذين عاونوه وآزروه، فكانوا حقاً على مستوى الموقف.

بدأت عملية الإنقاذ بتسوية أرض الشط بمزيد من الحجارة الدعامية، بعد ذلك دفع بلزوني بدعامات أخرى حركها تحت الماء وأحكم وضعها خلف المسلة تماماً، بعد ذلك أعدت روافع قوية تم وضعها بإحكام تحت المسلة، بعد ذلك بدأت عملية الرفع بحرص شديد حتى أمكن إرساء المسلة على الأرض الجافة، ثم عمل طريق صناعى بالحجارة أمامها ليسهل دحرجتها إلى الشط، وفى ظرف يومين كانت المسلة على الشط منتصبة فوق الأرض.

كل ذلك تم رغم أنف وكيل دروفيتى واحتجاجاته، ومحاولاته لتهيج الأهالى وحض الأغا على إيقاف نقل المسلة، ولكن الجميع - الأغا والأهالى - لم يكونوا متحمسين للوقوف فى وجه بلزوني، فالموضوع عندهم سيان - مجرد سوء تفاهم بين الإنجليز والفرنسيين؛ لذلك استمرت العملية دون عوائق تذكر، ونقلت المسلة على كوبرى من جذوع النخل إلى ظهر المركب كما حدث مع تمثال ممنون الصغير.

فى اليوم التالى، دفعت السفينة بالحبال من الشط إلى أعماق نقطة فى الشلال، وأصبح نجاح العملية يتوقف على طاقم بحارة المركب ومهارتهم، وقام البحارة بربط حبل متين فى جذع شجرة مواجه للتيار ومرروا طرفه السائب إلى قلب السفينة حيث وقف خمسة ليتمكنوا من التحكم فى انطلاق المركب، ووقف عدد آخر من الرجال على الصخور من الجانبين ومعهم الحبال التى ربط طرفها الآخر فى المركب - لمنع انزلاق المركب عند تحريكها، رغم ذلك كان ريس المركب قلقاً متوجساً، لدرجة أن أعصابه انهارت ورجا بلزوني باكيا أن يوقف العملية، ولما لم تجد توسلاته انكفاً على الأرض باكياً وغطى وجهه فى الرمل ليتجنب مشهد تحطيم أعز ما يملكه - أى المركب.

بعد إتمام الإجراءات ووقوف كل فرد من الطاقم فى مكانه واطمئنان بلزونى على سلامة الإجراءات، أعطى الإشارة برفع الحبال والبدء فى تسيير المركب:

«كان مشهداً لم أر له مثيلاً، بدأت المركب تسير بسرعة ١٢ عقدة فى الساعة تقريباً، وأخذ العمال على الشط يرخون الحبال، وبعد مائة ياردة تقريباً دخلت المركب فى دوامة ترتطم بإحدى الصخور فترتد لتعرقل تحرك المركب، وقام اصحاب الحبال على جانبي الشط بجذب المركب بعيداً عن الدوامة والصخرة، فاستقرت فى سيرها، وأخذت سرعتها تقل بالتدريج حتى وصلت إلى قاع الشلال، وغمرتني السعادة وأنا أراها تتجو من الخطر»

فرح البحارة . أيضاً . بسلامة المركب: «جاءنى الرئيس والبشر يطفح من وجهه وهذا هو ما توقعته على أى حال».

مرت السفينة بعد ذلك بعائتين وربما ثلاثة أمكن تفاديهن، ثم واصلت سيرها حتى وصلت الشحنة إلى أسوان فى اليوم نفسه سالمة، بذلك انتهت إحدى مغامرات بلزونى الناجحة، وحرص بلزونى فى أسوان على مكافأة الأغا والأهالى وإرضائهم، بعد ذلك أراد التوجه إلى طيبة لكن الرياح عطلت المركب، فانطلق وحده بالطريق البرى إلى معسكره هناك، وإذا بسارة فى انتظاره.

كانت رحلة سارة فى فلسطين على درجة من الخطورة تقارن بمغامرات بلزونى نفسه، فقد توجهت فى صحبة جيمس كيرتن وجيوفانى إلى القدس ووصلوا مع عيد الفصح، وبعد ذلك أدت الشعائر فاغتسلت فى نهر الأردن وزارت الناصرة، وكانت ترتدى زى فتى مملوكى، وكانت فى واقع الأمر كأنها وحدها، ولنا أن ننصور سيدة شابة تسافر وحدها، وتتجول فى فلسطين وحدها فى القرن التاسع عشر، لقد كانت فى الحق رحلة خطيرة، ولما تأكدت سارة من استحالة حضور بلزونى إليها قررت العودة إلى الأسكندرية، وكانت السفينة التى أقلتها سفينة شحن عفنة الرائحة، وكان فى القمرة التى حجزتها فى السفينة شحنة من البطيخ، أما ظهر السفينة حاشداً بالعساكر الألبان وراى من معاناتها إصابتها بحمى فى المعدة، وقد عبرت عن ذلك فى أسى: «لم أصادف فى رحلتى بالمحيط

ما صادفته فى هذه الرحلة من المعاناة «وقد استغرقت رحلة هذه ثلاثة عشر يوماً . من يافا إلى الإسكندرية .

سافرت سارة من الإسكندرية إلى طيبة على ظهر مركب وكان برفقتها مملوك شاب، ولم تكن الرحلة أقل مشقة من سابقتها . وحدث أن نزل مطر شديد على المركب فأغرق فراشها وأمتعتها، والجدير بالذكر أن هذه العاصفة نفسها دفعت الطين إلى داخل مقبرة سيتى، كذلك أدت الرطوبة إلى تصدع بعض الجدران؛ لذلك عندما وصلت سارة وعائنت الوضع أمرت بتنظيف المكان ومكثت تنتظر أوبة زوجها، وعاد بلزونى يوم ٢٣ من ديسمبر ليفاجأ بهذه المناسبة السعيدة . عودة زوجته، وأمضيا معا عيد ميلاد هادئ سعيد «فى هذه الطرقات، بعيداً عن الناس وصخبهم «كان لقاء سعيداً، وأجازة عيد ميلاد هنيئة .

فى اليوم التالى لعيد الميلاد توجه بلزونى ومترجمه اليونانى على حمارين يصحبهما تابعان إلى الكرنك حيث وجدوا المسلة قد وصلت بسلام فى ليلة عيد الميلاد، وجد أن ريس المركب يبدو أنه قادها بطريقة استفزازية أمام بصر دورفيتى وأعوانه . وكانوا موجودين بالكرنك، ويبدو كما قال بلزونى «أن ذلك آثارهم» فاشتعل شجار عنيف يعتقد بلزونى أن الفرنسيين دبروا له .

وفى طريقه إلى الكرنك التقى بلزونى بأحد الأعراب، وحذره العربى من الاقتراب من الأوروبيين هناك، لكن بلزونى تجاهل التحذير واستمر فى طريقه حتى وصل إلى موقع من مواقع امتيازات سولت به عدد من العمال، مرة أخرى حذره المترجم من التقدم، لكنه ضرب بالتحذير عرض الحائط فقد كان يعرف هدفهم من هذا التهويش، وعبر بلزونى الكرنك وكان دورفيتى وأعوانه مقيمين فيه فتجاهلهم وراح يفتش على بعض امتيازات سولت هناك، بعد ذلك عاد إلى الأقصر وأثناء مروره برواق معبد الكرنك الكبير شاهد أحد الأعراب يأتيه مهرولاً يشكو إليه أنه تعرض لضرب لأنه يعمل لدى الإنجليز، ووجد بلزونى أن الأمر يطول لو اهتم به فتجاهل هذه الشكوى أيضاً .

وبعد فترة قصيرة فوجئ بلزوني بكل من أنطونيو ليبولو وجيسبي روزينانو ومعهما ثلاثون رجلاً مسرعين نحوه. وفي لحظة طوقوه هو ورفاقه ثم سألوه ليبول عن أسباب نقله لمسله يملكها دروفيتي. وحتى إن لم يعترف بذلك فهي ليست ملكه بأي حال، وأثناء الحديث أمسك بلجام حمار بلزوني بإحدى يديه وباليده الأخرى أمسك بصدريته، وفي الوقت نفسه قام الأعراب المرافقين له بتجريد مرافقي بلزوني من السلاح وأوزعوههم ضرباً، وصوب رودينانو غدارة ذات ماسورتين نحو صدر بلزوني في غضب قائلاً له إن الوقت قد حان ليدفع ثمن أفعاله. وقع بلزوني في حيرة عبر عنها بالآتي: «لم أكن في موقف أحسد عليه... وفكرت أنني لو طاوعتهم ونزلت لطرحوني أرضاً - هؤلاء الجبناء - ثم يدعون أنني الذي بدأت بالعدوان وأنهم ما فعلوا إلا دفاعاً عن النفس» وظل بلزوني ثابتاً فوق حمارة مبدئياً احتقاره، فلم يزد هم ذلك إلا ثورة فوق ثورتهم.

ثم أتى فيتي في جمع آخر ليؤازروا أعوانهم. وسأل القنصل بلزوني عن السبب في منعه عماله من الحفر، وأمره بالنزول من فوق ظهر الدابة. ورد بلزوني على ذلك بأنه يجهل ما يقول، ثم احتج على هذه المعاملة المهينة، ويقول بلزوني إنه «في هذه اللحظة انطلق من خلفي طلق ناري، لم أدر من أطلقه، ورأيت من الحكمة أن أتجمل بالصبر. حتى لا تقوم معركة تستخدم فيها الأيدي من هؤلاء الناس الذين لم يربأوا بأنفسهم عن مهاجمتي على هذا النحو وهم في عدد وعدة، لكن طليقة الغدارة خلفي جعلتني أفكر بأن العمر ليس رخيصاً إلى هذا الحد» والنتيجة أن بلزوني حمل نفسه على النزول من فوق ظهر حمارة مبدئياً استياءه وغضبه.

عند هذا الحد أفاق دروفيتي لنفسه وأدرك أنه يتماذى أكثر من اللازم فآخذ في تهدئة الأمور، وفي هذه الأثناء ظهر جمع من العريان أتوا لنجدة بلزوني فأحاطوا برودينانو مهددين، وانتهت العملية، ولكن بلزوني قدم احتجاجاً يشوبه المرارة لدروفيتي فقال له «إنني قاومت شتى أنواع التهجم من قبل أعوانك قبل ذلك لكنني لم أتوقع أن ينزلقوا إلى هذا الدرك؛ لذلك سأترك لكم القطر كله

وأسافر «ورجع بلزوني إلى وادى الملوك خاتفاً يترقب، وزاد من همه أن وجد سارة قد أصابتها حمى صفراء حادة».

استغرق تغليف الصور الشمعية شهراً، أما التابوت الممرى الهش فقد دحرج من مكانه باحتياط مسافة ثلاث أميال فوق الأسطوانات حتى وصل إلى المركب، وأصلح بلزوني بعض تلفيات المقبرة التي أحدثها الفيضان. وفي ٢٧ من يناير سنة ١٨١٩ ودع بلزوني طيبة الوداع الأخير، «أعرف أنني لم آسف قط على مكان أصبح مألوفاً جداً لدى».

نقل بلزوني الشحنة الثمينة إلى الإسكندرية على أمل مبارحة مصر إلى أوروبا على الفور. ولكن شاءت الظروف أن يتعطل سفره، فقد وصلت رسالة من سولت فحواها أن القنصل اتخذ الإجراءات القانونية لمحاسبة الذين اعتدوا على بلزوني. وفعلاً كان السيد لى ممثل قنصل إنجلترا قد اتصل بالسلطات المصرية والقنصلية الفرنسية، وكان دروفيتى قد سبق بلزوني إلى الإسكندرية فدافع عن معاونيه، وتقرر تأجيل الفصل فى الموضوع لحين عودة سولت من الصعيد، ولم يكن بلزوني على أية حال يرغب فى تصعيد الموضوع حتى يصل إلى ساحة القضاء لأن دروفيتى كان له ثقل سياسى فى الدوائر المصرية، كذلك كان الشاهد الوحيد على الاعتداء رجل إيطالى ساعد بلزوني أثناء المشاجرة، لكنه رجع محملاً بهدايا من أعوان دروفيتى على أمل أن تدر عليه ربحاً فى أوروبا، فأصبح بلزوني يشك فى حيده، لم يكن لبلزوني أى خيار سوى الانتظار. ولذلك أسكن سارة فى بيت وفرة له تلجأ إنجليزى مقيم فى الإسكندرية، أما هو فأخذ يفكر فى ميدان يوجه إليه نشاطه ليمتص طاقته التى لاتهدأ، هل ينقب فى الوجه البحرى عن الآثار؟ إنه قريب جداً من أنوف منافسينا «لأبد من الرحلة بعيداً، وكان القرار القيام بمغامرة فريدة فى الصحراء الغربية للبحث عن معبد جوبيتر آمون.

معبد جوبيتر آمون موجود فى واحة سيوة النائية فى الصحراء الغربية. واكتسب المعبد سمعة سيئة عندما روى بلوتارخ أن كهنته خاطبوا الإسكندر بوصفه «ابن زيوس»، فزاد من كبريائه وطمعه فى غزو العالم، واستولت عليه

الرغبة فى تأليه نفسه، مما يذكر أن قمبيز ملك الفرس فقد جيشاً فى هذه الصحراء وهو يطارد الآمونييين، ويقول هيرودوت إن عدة هذا الجيش كانت خمسين ألف مقاتل أعدهم لعبور الصحراء، لكن لم يعد منهم أحد: «الفرس... وصلوا إلى منتصف المسافة... وبينما هم يتناولون الطعام فى الظهيرة، هبت ريح من جهة الجنوب... كانت هذه الرياح قوية مميتة، تحمل دوامة رملية غزيرة عاتية... ردمت الرياح كل فيالق الجيش ولم يتبق منهم أحد... اختفى الجيش تحت الرمال وكان يتعقب الآمونييين «لعل هذا الذى حث بلزوني على القيام بمغامرته - البحث عن جوبيتر آمون الرديء السمعة».

سبق بلزوني فى ارتياد منطقة الرحالة الإنجليزي جورج براون سنة ١٩٧٢، فقد كان فى رحلته يعبر واحة سيوة فلاحظ وجود أطلال على مساحة واسعة هناك، ولكنه لم يستطع الربط بينها وبين معبد جوبيتر آمون (أى أن براون شاهد أطلال المعبد ولكنه لم يتعرف عليه)، وأثارت مشاهداته الحيرة والجدل، حتى بلزوني نفسه التبس عليه الأمر فظن أن معبد جوبيتر آمون موجود بالفيوم؛ لذلك لم يقترب من واحة سيوة أو معبد جوبيتر آمون نفسه وظل بعيداً عنه أكثر من مائة ميل، لكن المغامرة فى حدا ذاتها كانت ممتعة.

تختلف هذه الرحلة - التى كانت آخر رحلة له بمصر - عن كل ما سبقها بأنها كانت شخصية بحتة أثر فيها الانعزال عن الناس، كذلك كان هدفه منها كشفياً صرفاً وهو إزالة ما يكتنف معبد جوبيتر آمون من الغموض والظنون، ولم يحاول إنشاءها أن يبحث عن أى آثار أخرى ليضيفها إلى مجموعته، والحقيقة أن حادث الاعتداء عليه جعله ينظر للأمور نظرة أخرى، ألا يكفى ما عمله من اكتشافات فى الهرم ووادي الملوك ورحلة برنيس؟ لقد أصبح معروفاً فى أوساط الأثريين، فلماذا لا يشتهر ذكره باعتباره من الرحالة المغامرين أيضاً؟ لذلك قام بهذه المغامرة علها تلى قدره، وأصبح العنصر الكشفى عن المعابد القديمة أهم ما لديه من جمع الآثار.

بدأ بلزوني رحلته فى قافلة صغيرة تتكون من: بلزوني - خادم صقلى - مرافق مراكشى عائد لتوّه من الحج (أفادهم كثيراً كما يقول بلزوني)، وكانت

رحلتهم النيلية على ظهر مركب أقلتهم من بنى سويف إلى الفيوم فى ٢٩ من إبريل سنة ١٨١٩، وفى الفيوم استأجروا عدداً من الحمير للتجول داخل الفيوم نفسها، وأوصلتهم الرحلة إلى المنخفض الضخم (منخفض الفيوم) خلال «سهل خصب واسع على طريق قناة قديمة تنقل الماء للفيوم» وفى الليل خيموا بجوار هرم سنوسرت الثانى من الطوب اللبن (٢٠٠ ق.م)، وأحكموا على المخيم الحراسة، واستخدم بلزونى فى النوم مرتبته الخصوصية «وهى من الرقة بحيث إذا فردت تصلح كسرج، وإذا طويت على الأرض فهى سرير جواله مريح».

فى صباح اليوم التالى ارتقى بلزونى الهرم وتطلع حوله من علو بحثاً عن أرسنوس القديمة وقصر التيه (اللابيرانت) العتيق، وقد وصف هيرودوت اللابيرانت، وكان مما قاله عنه إنه معجزة أشد إعجازاً من الأهرام. ولم يعثر بلزونى على اللابيرانت رغم إنه وجد ما يدل على وجود مدينة قديمة بجوار الهوارة، وظل الأمر مبهما سبعين سنة حتى جاء بيتري وحدد مكان اللابيرانت، لكن القصر كان قد أصبح أثراً بعد عين، لم يتبق منه سوى حطام من الحجر الجيرى.

واصلت قافلة بلزونى السير حتى أتوا إلى أرض معروفة بمائها الوردى، هنا حصل بلزونى على تصريح واستأجر بعض الأدلاء، وقد أثر بلزونى الحصول على التصريح هنا بدلاً من القاهرة ليكون بعيداً عن أعين من يترصدونه، تجاوز بلزونى فى سيره أطلال أرسنوس وفى نيته أن يزورها فى عودته، ثم اتجه شمالاً نحو بحيرة قارون، وهذه بحيرة عكرة مستواها تحت البحر بمائة وعشرين قدماً، ولم يجدوا عند وصولهم زورقاً ينقلهم إلى جانب البحيرة الغربى، وما لبث أن أتى زورق ذعر بلزونى لمراه: «لم يكن له شكل مطلقاً، هيكله من الخشب الخام، ولم يثبت بمسامير، اللهم إلا فى قطع خشبية عرضية تضم الهيكل وتمسكه والقطع الأربعة المتصالبة معها هى ظهر الزورق، ولم تكن مدهونة بالقطران أو أى دهان آخر يقى الزورق، وكانت التقوية الوحيدة هى بعض الحشائش الرطبة حشرت حشراً فى مفصلات الزورق».

كان بلزوني يظن أنه سيعثر على اللابيرانت عند البحيرة (يخلط المؤلف بين أرسنوس واللابيرانت بصورة مربكة أحياناً)، وكانت رحلتهم رحلة ممتعة أشبه بالخيال، لقد خيموا عند شاطئ مهجور وتعشوا سمكاً طازجاً، يقول بلزوني «المنظر هنا جميل... ويرسل القمر أشعته على سطح البحيرة الراكدة فى سكون الليل، ونحن فى مكان منعزل نرى فيه زورقنا والصيادين... ذكرنى ذلك ببحيرة أشرون والقارب بارس والمراكبى العجوز فى ستيكس، كانت ليلة قال عنها بلزوني إنها من أسعد لياليه.

فى الركن الجنوبي الشرقي للبحيرة نزلوا وعابنوا كتلة من الأطلال ومعبد يعرف - حالياً - باسم قصر قارون، ولم يجدوا ما يستحق الذكر. لكن بلزوني أصابه الذعر عندما فوجئ بضبع يطلع عليه من أحد المعابد ويندفع نحوه، ولم يكن بلزوني مسلحاً لكن لحسن الحظ هرب الضبع، المهم أنه لم يظهر أى أثر لقصر اللابيرانت بعد يومين من الحفر والتنقيب عند شطآن بركة قارون الشمالية، وكان مع بلزوني خرائط وبيانات غير دقيقة عن البحيرة، وعلى هدى هذه البيانات رأى بلزوني أن الجبال التى تلى البحيرة قد يكون فيها ما يفيد، وبعد ميلين صادفوا أطلال مدينة أخرى تتكون من «بيوت كثيرة، وجدار عالٍ من الطوب الأحمر يحيط بأطلال معبد» ووجد بلزوني مع الصيادين بعض الجوارف استخدمها فى استكشاف بيتين أو ثلاثة، ووجد بالبيوت نفايات كثيرة تحت الأسقف المتداعية، وكانت هناك مدفأة بأحد البيوت، لكن هذه - أيضاً - لم تكن اللابيرانت، والآن نحن نعرف أن ما عثر عليه بلزوني هنا أطلال مدينة بطلمية اسمها نسوس سوكونبايو Nesos / Sokonopaiou.

لما أعياهم البحث عن اللابيرانت عبروا إلى الضفة الشرقية من البحيرة، وأرابت بلزوني شحة العلامات التى يميز بها اللابيرانت، فالمكان تتأثر فيه كسر الأساطين والحجارة من المباني القديمة التى أعاد العريان استعمالها فى بناء بيوتهم، واستخلص بلزوني مما شاهده أنه «بتتبع مصدر هذا الحطام سنعثر على مكان اللابيرانت، الذى سنجده ولاشك فائق الروعة - رغم ما أصابه من التلف

والتخريب «وكان الشئ الوحيد الإيجابي بعد هذا الفشل أن بلزوني استمتع بوجبة من لحم البجع وصفها بأنها «كانت عموماً لذيذة المذاق طيبة الطعم».

بعد ذلك عاد بلزوني مرة أخرى إلى الفيوم والمياه الوردية، وأثناء عودته مر ببلدة قدميين الحناسيس فروى له أهلها أسطورة الكنائس الثلاثمائة التي كانت بالبلدة، ويشيع أهلها أن الكنائس مدفونة تحت أرض البلدة، ولكن بلزوني بحث الأمر فلم يجد شيئاً، فقال «تمر قناة بوسط البلد.. وقد نقت فيها فلم تظهر لى كنائس.. وكان يجب أن تظهر لو أن زعم ردم ٣٠٠ كنيسة هناك صحيح».

وصل بلزوني إلى مدينة الفيوم فى اليوم التالى وزار أرسنوى المجاورة. وأعجبه فيها «تماثيل جيدة حالتها حسنة» وقام بلزوني بالتنقيب فى حشو خزان أثرى وسط المدينة (يبدو أنه لم يعثر فيه على شئ!)، لكنه كان يبغى زيارة الواحة الواقعة غرب بحيرة موريس، وكان من الصعب وجود أدلاء يقودونه إلى حيث يريد لأن المنطقة تكاد تكون مجهولة إلا للبدو هناك، ولحسن حظه وجد صديقه خليل بك إذ كان قد نقل حديثاً من إسنا إلى بنى سويف فأعطاه التصريح اللازم ورشح له دليلاً اسمه الشيخ جرجار وصفه بلزوني بأنه «رجل طويل عريض، طوله حوالى ستة أقدام وثلاث بوصات، قسماته تتسم بالحزم، وبدل مظهره على الجشع والطمع فى تحقيق الربح».

بدأت الرحلة من خيمة الدليل جرجار فى ١٩ من مايو. وكانت القافلة مكونة من ست جمال. وكان بلزوني قد قضى فى خيمة الدليل ستة أيام كانت من أسوأ ما يكون لأنه لم يستطع أن يذوق طعم النوم من وخز البراغيث، اتجهت القافلة نحو الجنوب، فمروا عبر الصحراء ثم عبر منطقة بها كثبان من القبور توحى بأن المنطقة كانت عامرة فيما مضى. ونسب بلزوني المنطقة إلى جيش قمبيز (مجرد حدس)، وبعد ستة أيام وصلوا إلى وادى البحرية (أى الواحة) فأمكنهم الارتواء وإرواء الإبل والاتصال بالأهالى. وطلع على بلزوني قزم حاملاً بندقية يهدده بها لكن الشيخ جرجار تدارك الأمر حيث كان يعرف لغتهم، وقدم لهم بلزوني التبغ

والبن، وهما سلعتان نادرتان في الصحراء، ففتحت له الأبواب، حيث وافق شيخ البلد على أن يرافق بلزوني في زيارة يطلع فيها على الأطلال القريبة من البلدتين الموجودتين بالمنطقة.

كانت الأطلال حول الواحة كثيبة المنظر، بها مقابر جماعية وتوابيت فخارية أغطيها محلاة برؤوس بارزة، وكسر بلزوني بعض هذه التوابيت واستولى على الرؤوس التي صادفته لنفسه، وفي القرية الثانية كان أبو القاضى تاجر تمر ثرياً، وكان الأهالي يعتقدون أنه يخبئ ثروته في الأطلال المجاورة ولم يستطع بلزوني التوغل داخل المعبد لأكثر من خمسين ياردة، لكن بلزوني كان يحمل تليسكوباً لفحص نقوش الجدران، وكانت قرب القرية عين ماء اغتسل فيها بلزوني أكثر من مرة، وكانت عين الماء تارة دافئة وتارة باردة، وعلل بلزوني ذلك بتغير حرارة الجو واعتقد بلزوني أن هذه نافورة جوبيتر آمون - معلوم أمرها من كتاب كلاسيكيين؛ لذلك فقد أضلت بلزوني ظنونه فاعتقد أن الذي عثر عليه هو نفسه معبد جوبيتر آمون علماً بأن المعبد في واحة سيوة جنوباً.

كان بلزوني يريد فعلاً التوجه إلى سيوة التي اكتشف فيها براونى من قبل أطلال المعبد الذي ثبت فيما بعد أنه معبد جوبيتر آمون العتيد بحق، لكن الشيخ جرجار رفض رفضاً باتاً أن يكون دليله إلى واحة سيوة، وعرف بلزوني فيما بعد أن الشيخ له شهرة في سيوة بشن الغارات الشديدة البأس، فلو كان وحده لربما أكرموه وداروه، والنتيجة أن بلزوني تحول إلى واحة الفرافرة، وهى على بعد ثلاثة أيام جنوب كوخ الشيخ جرجار، لم يجد بلزوني في الواحة ما يستحق المشاهدة سوى كنيسة محطمة، ووجد الأهالي ماكرين فتوجس خيفة من غدرهم؛ لذلك تسلل من الواحة ليلاً حتى لا يحس به الأهالي، خوفاً من هجومهم عليه.

عند هذا الحد قرر بلزوني إنهاء الرحلة والعودة إلى الوادى، فلما وصل بلزوني إلى الواحات البحرية استدعاه القاضى وأخبره أن أباه وشيخ الواحات قررا إدخال بلزوني في الدين الإسلامى وحجزه في الواحات، ووعدوه بإعطائه

أرضاً يزرعها ويزوجوه أربعة من بناتهم، وبذلك يجعلونى سعيداً غير محتاج للجرى وراء الأحجار، «وخرج بلزونى من المأزق بأن أبدى بهجته بالعرض ووعدهم بالعودة بعد تسوية شئونه بالقاهرة.

بذلك استأنف بلزونى رحلة الإياب، وكانت فى مجملها عادية لولا حادثة الجمل التى وقعت لبلزونى، وتتلخص الحادثة فى أن الجمل الذى يركبه بلزونى ارتطم بصخرة فتدحرج على منحدر عميق لمسافة عشرين قدماً، رمت ببلزونى على الأرض بشدة فأصيب بكسور عدة - وربما تكون بعض ضلوعه قد تكسرت، وتحامل بلزونى على نفسه حتى وصل إلى دار شيخ قبيلة اسمها قبيلة «زوبة»، فأعد له الشيخ فراشا فى ممر مجاور لداره، لم يكف الأهالى عن ارتياده طول الوقت، ووصف بلزونى الوضع كما يلى: «كان - الممر - يعج بالأبقار والجاموس والحمير والخراف والماعز والكلاب، وكان المارة يصيرون رأسى من غير قصد، وعند مرور الحيوانات كان يتأبى الخوف لوجودى هكذا بهذا المكان». وأثناء تريضه مرت فى الممر جنازة أقلقته كثيراً وحرمت عينه من النوم، حتى زوجة المتوفى أزعجته وطلبت منه «ورقتان سحريتان» مما يحمله منها، حتى تستطيع أن تجد زوجاً غيره، وتقية من الموت، وحاول بلزونى إقناعها أنه ليس ساحراً ولا دجالاً «وطرأت على ذهنى فكرة أننى لو كنت دجالاً يمكنه تديير الأزواج للزوجات، لكانت لى فى أوروبا حرفة مريحة فأريح نفسى من السفر إلى بلاد غربية سعيّاً وراء الرزق» الخلاصة أن الضيافة كانت غير مريحة بالمرّة.

بعد ثلاثة أيام تمكن بلزونى من التحامل على نفسه واستأنف السفر (يلاحظ أن بلزونى يهول من الإصابة، فواضح أنها مجرد خدوش ورضوض خفيفة، وإلا لما أمكنه مجرد السير بعد أيام ثلاثة من الإصابة). وكانت الرحلة متعبة ويبدو أنه أصابهم العطش واضطروا لشرب ماء به شئ من الملوحة، فازدادوا عطشاً على عطش، حتى أن الأملاح ظهرت على شفتى بلزونى قرب نهاية الرحلة، وبعد عناء وصلت القافلة إلى النيل يوم ١٤ من مايو بسلام، وفى اليوم التالى اتخذ بلزونى طريقه إلى القاهرة فى زورق نيلى.

كان سولت فى ذلك الوقت قد عاد من رحلته بالصعيد، والتقى ببلزونى ليلاً، وسويا أمورهما فيما عدا موضوع الكرنك الذى ظل عالقاً، وعموماً أفترق الرجلان على وفاق، أما فى الإسكندرية فكان موضوع النزاع القضائى ما زال قائماً ومعقداً وكان دورفيتى قد مارس نفوذه على القنصل الفرنسى بها وهو السيد فوسيل الذى حل محله منذ سنين، لكن هذا القنصل استدعى إلى فرنسا فحل محله نائب القنصل، وكان على بلزونى دفع ١٢٠٠ دولاراً مقدماً لتغطية مصاريف سفر المحامى إلى طيبة وعندما علم ليبولو وروزينيانو بذلك وهما فى الإسكندرية أظهرتا الغبطة والشماتة، وفى النهاية أغلق ملف القضية، فقد حكم نائب القنصل بأن المتهمين فيها من بيدمونتس، فهما ليسا فرنسيين، إذاً فمحكمة تورين هى المختصة بالقضية.

كان بلزونى ما زال متأثراً من الإصابة فى حادثة زوبة، وكان على يقين بأن تصرفات دروفيتى معه كان مبعثها الغيرة مع اللؤم، فلما سوى كل أموره كان الضيق قد بلغ به كل مبلغ فأثر النجاة بنفسه؛ لذلك أبحر إلى أوروبا هو وسارة غير آسف على ترك هذا البلد بالمرة، «بل إن هناك ما يدعونى لأن أقر بأفضاله... ولكن لأن بعض الأوروبيين الذين أقاموا فيه كان سلوكهم ونمط تفكيرهم -- للأسف - وصمة فى جبين الجنس البشرى».

•

١٥. عجائب وغرائب أخرى

غادر جيوفانى بلزوني الديار المصرية فى وقت وصل فيه اهتمام أوروبا بالآثار المصرية إلى الذروة، فقد كانت موسوعة «وصف مصر» فى الطريق إلى الظهور، وكان المثقفون والأثريون والموسرون الأوروبيون فى انتظار صدورها على أحر من الجمر، وفى مصر كان محمد على باشا يعامل الأوروبيين معاملة تتسم بالود، لذلك زاد نفوذ قنصلى بريطانيا وفرنسا عند الباشا، وكانت النتيجة أن أصبحت رحلات السياح أكثر سهولة فازداد عددها، خصوصاً بين الأثرياء، ونشطت السياحة فى وادى النيل بعد أن كانت وقفاً على عدد محدود من الدبلوماسيين والمغامرين، أما المغامرون فقد بهرهم جميعاً المارد الإيطالى بلزوني، فقد استطاع هذا المغامر الفذ أن يحقق فى ثلاث سنوات عجاف ما أذهل الجميع، وفى تلك المدة البسيطة استطاع أن يكتشف مقبرة سيتى ويستكشف أبى سنبل ويفتح الهرم الثانى - هرم خفرع - وينقل رأس أحد تمثالى ممنون (ممنون الصغير فى النص) وكذلك مسلة فيلة، كما أمكنه أن يستحوذ على كمية لا بأس بها من الآثار الخفيفة بعضها لحساب القنصل البريطانى - سولت - وبعضها لنفسه.

توقف بلزوني فى روما أولاً، لكنه لم يمكث بها طويلاً ثم سافر إلى لندن. كان وصوله إلى لندن فى آخر مارس سنة ١٨٢٠، وعند وصوله أعلنت النبأ جريدة لندن تايمز: «عاد الرحالة الشهير السيد بلزوني إلى أوروبا بعد غياب استمر

عشر سنوات أمضى منها خمسة فى الكشف الأثرية بمصر والنوبة» ثم نوهت بأن «بلزونى بصدد إقامة معرض للقبر الجميل الذى اكتشفه، وذلك حالما تتيسر صالة مناسبة للعرض».

استقبل بلزونى فى لندن بحفاوة، ونوهت الدورية ربع السنوية المشهورة Quarterly Review بمكتشفاته، ووجدتها بلزونى فرصة مناسبة لإصدار كتاب يعرض فيه إنجازاته، واستقر رأى على أن يعهد بالنشر إلى السيد جون موراي أكبر الناشرين الإنجليز فى القرن التاسع عشر، وكان واحداً من المتخصصين فى نشر أدب الرحلات فى ذلك الوقت، كان تمثال ممنون قد وصل إلى المتحف البريطانى واتخذ مكانه للعرض على الجمهور؛ لذلك كان بلزونى يتعجل إصدار الكتاب قبل أن يفتر الحماس، خصوصاً وأن الجمهور أصبح متشوقاً لمعرفة شئ عن مصر وآثارها، ولم تكد سنة ١٨٢٠ تنتهى حتى ظهر كتاب بلزونى فى جزئين.

صدر الكتاب تحت عنوان طويل جداً هو: «حكايات عن الأعمال والاستكشافات الجديدة فى الأهرام والمعابد والمقابر، والحفائر فى مصر والنوبة، ورحلة إلى ساحل البحر الأحمر للبحث عن برنيس القديمة، ورحلة أخرى إلى جوبيتر آمون» وقد نجح الكتاب على الفور (أى وجد إقبالا من الجمهور)، ولكن أسلوبه لم يكن مشوقاً، كما أنه لم يسلم من الخطأ فى التعبير. وربما أدرك بلزونى ذلك النقص فقال فى الافتتاحية «سوف يربح الجمهور صدق الروايات، بما يعوضه عن النقص فى الأسلوب» كانت بعض حكاياته مثيرة للجدل، وكان فى هجومه على منافسيه عنيفاً - خصوصاً القنصل دورفيتى، لكن السرد العام للموضوعات كان لا غبار عليه، ولكن به هفوات قد يتغاضى عنها القارئ المتعاطف معه، المقدر لمجهوده وعمق تجربته، وكان يرافق الكتاب ملف يحتوى على اللوحات والصور - وكانت فى ذلك الوقت باهظة التكاليف، والملف - حالياً - نادر الوجود، وعموماً فقد استقبل النقاد الكتاب بقبول حسن، وقد اطلع الشاعر المعروف اللورد بيرون على الكتاب فقال «إن بلزونى رحالة عظيم، لكن إنجليزيتة غير سليمة» أما الدورية ربع السنوية «كوارترلى ريفيو» فقد أسهبت فى مناقشة الكتاب، وكان تعليق المجلة فى ثلاثين صفحة كاملة واستخلصت أن

«بلزوني وإن كان ليس معدوداً من العلماء، إلا أنه من الإنصاف أن نضعه في مصاف الرواد وأكثرهم مهارة وفائدة في حقل الكشف الأثري، فقد فتح الطريق وسهل من مهمة من يرغب في السفر». وقد ترجم الكتاب فوراً إلى اللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية، ثم طبع بسرعة طبعة إنجليزية ثانية بأمر الناشر.

افتتح معرض بلزوني في القاعة المصرية في بيكاديللي في أول مايو سنة ١٨٢١، ونجح المعرض بشكل هوري، إذ زاره يوم الافتتاح وحده ١٩٠٠ شخصاً، ومن أجل الدعاية للمعرض دعا بلزوني قبل الافتتاح مباشرة بعض الأطباء - بأسلوب مسرحي - إلى شهود فك اللغاف عن مومياء مصرية لشاب فرعوني «كانت جيدة وأجزاؤها كلها سليمة».

سيطر على مكان العرض نموذجان بالحجم الطبيعي لأجل غرفتين بمقبرة سيتي: قاعة الأعمدة ، والغرفة التي تحوى التماثيل الخمسة البشرية، وكان بلزوني قد نسخ نماذج متقنة باستخدام الجص الباريسي (المشهور بجودته) مستخدماً الصور الشمعية التي استنسخها في المقبرة، وكانت الألوان دقيقة بفضل دقة ملاحظة ريكي؛ لذلك كان زائر المعرض يشعر كأنه في قلب مقبرة ملكية فاخرة، وكان بالقاعة ضمن المعروضات - أيضاً - عدة آلهة مصرية أهمها حورس وأنوبيس، مع مشاهد من العالم السفلي المخيف - عالم الأموات، وكان ضمن العرض نموذج لأبى سنبل، وقطاع متقن لهرم خفرع، وتماثيل لسخمت ذات رأس الأسد، وأخيراً مومياوات وبرديات أطلقت عليها التايمز «مجموعة التحف المتنوعة المكلمة».

وضع المعرض بلزوني على رأس الجوالين في عصره، وكان السبب الرئيسي في ذلك أنه عرض مكتشفاته في أوروبا بعيداً عن موطنها الأصلي بالآلاف الأميال، وكان نجاح المعرض الساحق سبباً في جعل بلزوني يفكر في نقله للعرض في باريس ثم في سان بطرسبرج في روسيا، واستمر معرض لندن حتى سنة ١٨٢٢، وبعد ذلك عرضت محتوياته للبيع بالكامل في المزاد ليشترها من يشاء من هواة الآثار، وكان الإقبال على المزاد كبيراً، ويذكر أن أحد المزايدين دفع ٤٩٠ جنيهها ثمناً للصور المنسوخة ونماذج أخرى.

وحدثت مشادات بين بلزوني والمتحف البريطاني بخصوص التابوت الحجري المرمري العتيق، وكان حتى ذلك الوقت لم يصل بعد إلى لندن، ووما زاد الموضوع تعقيداً مواقف هنرى سولت، فقد عرض القنصل مقتنياته الأثرية الثمينة أثناء سنتي ١٨٢٠، ١٨٢١ على المتحف البريطاني، وكان يطمع فى بيعها له، وقد شجعه على ذلك السير وليام هاملتون والسير جوزيف بانكس - وكان أحد أمناء المتحف فى ذلك الوقت، ولكن سولت لم يجد تجاوباً من المتحف، واشتعل غضب الأمناء من السعر الذى حدده سولت وهو ثمانية آلاف جنيه، ومن الواضح حتى للشخص العادى أن سولت كان يبنى تحقيق ربح مجزٍ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

كان أمناء المتحف قد فرغوا لتوهم من تسديد ٣٥ ألفاً ثمن صفقة اشترؤا فيها مرمريات الجن التى جمعها من البارثينون، وكانت صفقة مدوية أغضبت بعض الدوائر، وهذا سبب إحجامهم عن صرف الأموال فى شراء آثار أجنبية، لما وصل التابوت أخيراً إلى لندن على ظهر الباخرة ديانا عاد الموضوع للظهور بقوة، فتحرك بلزوني دفاعاً عن حقوقه، فأوضح أن من حقه حسب اتفاقه مع سولت أن يحصل على نصف زيادة فى سعر التابوت عن ثمنه الأساسى وهو ألفى جنيه استرلينى، لكن مجلس الأمناء قام بتعويم الموقف فلم يبت فى الموضوع عدة شهور، اشتعل الغضب فى نفس بلزوني وسولت وكان غضب سولت أشد لأنه كان فى أمس الحاجة للمال لاستئناف جمع الآثار، فقد كان شغل سولت الشاغل الاستفادة من نشاطه الأثرى فى تغطية مصاريفه مع تحقيق فائض يمكنه من التقاعد فى الوقت المناسب: «وإلا» كما كتب لوليام هاملتون، «سوف يديننى الناس بالتمسك بالوظيفة إلى الأبد، وهذا وضع بالطبع لا يرضيكم».

أمضى سولت باقى المدة التى أمضاها فى السلك السياسى فى جمع الآثار وبيعها بثمن مريح، مهماً لواجبات وظيفته القنصلية، فى النهاية اضطر لبيع مجموعته الأثرية الأولى للمتحف البريطانى نظير ألفى جنيه استرلينى، أما التابوت فقد رفض الأمناء شراءه بكل إصرار متحججين ببعض الصعوبات القانونية ثم ارتفاع السعر المطلوب، ولم تجد اعتراضات بلزوني وسولت فى صدد السعر، وتأكيدهما للأمناء أنه قد عرض عليهما سعر أكبر من القنصل الفرنسى

دورفيتى وغيره، وأخيراً انتهى أمر التابوت إلى أن اشتراه المهندس المعماري المشهور بلندن جون سوني، ودفع فيه ألفى جنيه استرليني، واستولى سولت على المبلغ كله لنفسه ولم يعط بلزوني منه شيئاً (منتهى الالتزام بالتعاقد!).

عرض المهندس هذا التابوت في قاعة أعدها له بمنزله، فتحتها للعرض على الجمهور ثلاثة أيام متوالية، وزار القاعة «علية القوم وأصحاب المواهب بإنجلترا»، وكان التابوت يتلألأ في ضوء الشموع الخافتة التي وضعت بداخله، وحضرت سارة هذا المعرض واستقبلت «بكل ترحيب من الضيوف» لكنها كانت وحدها؛ لأنها كانت قد ترملت، فقد توفى بلزوني قبل مدة قليلة وهو يستهل آخر رحلاته وأكثرها طموحاً وقلبه ملئ بالمرارة.

أدى القلق الذي انتاب جيوفاني بلزوني إلى نقله حاسمة في تطلعاته ومصيره، وكان تبرمه بالمتحف البريطاني وضيقة بحياة المدينة وحتى بالشهرة قد وصل إلى الحد الذي جعله يسعى للتغيير، وفي وقت ما خلال سنة ١٨٢١ سافر إلى غرب إفريقيا ليستكشف منابع نهر النيجر، كانت مشكلة نهر النيجر في ذلك الوقت مازالت ساخنة ومبعثاً لإثارة الجدل بين مستكشفي القارة الإفريقية؛ لذلك لم تكن بالنسبة لبلزوني مجرد رحلة عابرة لتزجية وقت الفراغ، فكثير من المستكشفين هناك سرقوا أو لقوا مصرعهم أثناء الاستكشاف؛ لذلك قررت الحكومة حظر الرحلات الفردية فكان على أي مستكشف وحيد أن يلتحق بإحدى القوافل عابرة الصحارى.

خطط بلزوني لعبور الصحراء من مراكش، لكن النزاعات السياسية حرمته من الحصول على التصريح اللازم في آخر لحظة؛ لذلك حول وجهة سفره إلى غرب إفريقيا، وواتته الفرصة في ركوب السفينة الحربية سنجر إلى ساحل الذهب، فوصل إليه في ١٥ من أكتوبر سنة ١٨٢٢، وبعد شهر كان قد وصل إلى مصب نهر بنين، ومن هناك اصطحب تاجراً يسمى هوستن في رحلة إلى بنين نفسها، فلما وصلها استقبلا بكل ترحيب، لكن بلزوني ما لبث أن فاجأته دوستريا حادة، لم تمهله سوى أسبوع واحد قضت على حياته، وهكذا مات رجالنا الجري.

دفن بلزوني تحت شجرة ضخمة، ووضع على قبره شاهد خشبي سجل عليه تاريخ الوفاة وظروفها مع رجاء مهذب بالمحافظة على المكان نظيفاً ومسوراً، وفيما بعد زار المنطقة الرحالة المعروف السير ريتشارد وحاول العثور على القبر لكنه فشل، لكنه وجد الأهالي مازالوا يذكرون هذا الجوال المارد الذي مات بينهم، وهكذا مات الرجل، وأسدل الستار على حياة رجل فذ حقق بالخبرة والإقدام ما لم يحققه سواه في فترة العشرين عاماً التي قضاهما في الاستكشاف، وانتهت بذلك حلقة في الكشف عن آثار مصر بأسلوب مفعج.

كان ما قام به بلزوني في مصر محل تقدير وتقريظ علماء الآثار، أما قنصلا بريطانيا وفرنسا فإن علماء الآثار لم يستسيغوا قط جشعهما واحتكارهما لحقوق الآثار المكتشفة، على أي حال استمر سولت يوالى جمع الآثار لنفسه وكتب إلى أحد أصدقائه يقول إنه قضى معظم وقته في «السطو على المقابر ودراسة النقوش البارزة وحل الكتابة التصويرية (المونوجرامات) التي تؤكد لك أنني بلغت فيها غاية الخبرة» ولم يفتر حقد سولت على بلزوني أبداً، فقد كان يشعر أن هذا الإيطالي خطف منه الأضواء والشهرة، في حين أن ما اكتشفه لم يتم إلا بتمويل من سولت نفسه، وزاد من أسفه فظاظة المتحف البريطاني في التعامل معه، ولم يتوقف شريط أحزانه، فقد ماتت زوجته بالحمى القرمزية في ريعان شبابها، ثم أصابه ضعف عام في صحته، وعبر عن أحزانه ومرارته في رسالة أرسلها لوكيله في لندن منها: «ليس لي سوى رغبة واحدة.. ألا يقرن اسمي باسمه (بلزوني) أبداً».

في الفترة الأخيرة تعاقد سولت مع البريطاني «ينى أثناسيو» لجمع الآثار لحسابه. وكان ينى كما نعرف ممن عمل مع بلزوني، لكنه انقلب عليه وصار من أكبر أعدائه، وفي هذه الفترة تمكن سولت من تكوين مجموعتين أثريتين أخريين، وقد جمع أولى المجموعتين في الفترة من ١٨١٩ إلى ١٨٢٤، وهذه المجموعة اشتراها منه ملك فرنسا مقابل عشرة آلاف جنيه استرليني بتزكية من الأثرى الضليع فرانسوا شمبليون شخصياً، وكان سولت يرفع شمبليون فوق جميع علماء الآثار، أما المجموعة الثانية. وكانت أكبر حجماً من الأولى فقد بيعت بصاله

سوبتى الشهيرة بلندن فى المزد العلى بعد ثمانية سنوات من موته، وقسمت المجموعة إلى أكثر من ١٠٨٣ من الأنصب (لوط) حققت سبعة آلاف جنيه. أى أن سولت خلال عمله القنصلى الذى استغرق أحد عشر عاماً، استغل فيها مركزه ونفوذه فى الإتجار بالآثار، قد حقق ربحاً صافياً يربوا على عشرين ألفاً من الجنيهات (الإسترلينية)، لكن سولت لم يعيش ليها بما حققه من مكاسب، فقد مات بمرض معوى فى أكتوبر سنة ١٨٢٧، وكان مازال قنصلاً لم يتقاعد بعد، فلا حقق ما كان يصبوا إليه من معاش مريح، ولا نال تقدير الأوساط العلمية، رغم أن ذلك كان أملة طوال عمله الدبلوماسى.

عاش دروفيتى حياة أطول من سول بعدة سنوات، وأعيد تعيينه قنصلاً لفرنسا فى مصر سنة ١٨٢١، واستمر فى العمل حتى اضطر للاستقالة لأسباب صحية سنة ١٨٢٩، فتكون فترة نشاطه سبعة وعشرين عاماً اتجر فيها بالآثار كيفما شاء، بعد ذلك كون لنفسه مجموعة آثار شخصية كان لها قيمتها، وحاول دروفيتى بيع المجموعة إلى الحكومة الفرنسية لكن الإخفاق كان نصيبه، والسبب فى ذلك أن الحكومة الفرنسية ظلت تماطله، وذلك مداراة للتعصب الكنىسى الذى ثار فى وجهها، وكان رأى الكنيسة أن مجموعة دروفيتى إذا عرضت ستثبت للناس أن مصر كانت موجودة مزدهرة قبل سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد، ولكن هذه السنة هى السنة التى بدأ فيها الخلق تبعاً لحسابات كبير الأساقفة جيمس أسشار التى استخرجها من نصوص الكتاب المقدس فى القرن السابع عشر، وأضيفت إلى العقائد اللاهوتية، وأتله التسويف والجدل العقيم فوجئ الجميع بأن دروفيتى باع المجموعة إلى ملك سردينيا نظير ثلاثة عشر ألفاً من الجنيهات وخلاف هذه المجموعة جمع دروفيتى مجموعتين أثريتين أخريين، وقد اشترى الأولى منها الملك شارل الخامس ملك فرنسا بمبلغ ربع مليون فرنك -وهى الآن زينة متحف اللوفر، أما الثانية فقد اشتراها الباحث الألمانى ريتشارد ليسيوس لحساب متحف برلين.

انتهى المطاف بدروفيتى إلى إصابته بخلل فى قواه العقلية، فأدخل إلى مصحة للأمراض العقلية حيث مات سنة ١٨٥٢، ولم يعترف أحد قط بهذا

الرجل رائدا ولا خبيراً فى الآثار المصرية، وكانت وسائله هو وأعوانه فى جمع الآثار والتتقيب عنها عنيفة ومخرية، وقد جعله أسلوبه الوصولى وجشعه فى التعامل مع العرب والأوروبيين من الشخصيات البغيضة، رغم ذلك كان ما نقله هو وغيره من الدبلوماسيين من آثار مصر إلى متاحف أوروبا من العوامل المؤثرة فى توجيه المنقبين الأوروبيين نحو مصر، والاهتمام بتاريخها القديم وآثارها الفريدة.

من عجائب القدر أن التنافس بين الثلاثى اللدود، دورفيتى وسولت وبلزوني، فى جمع الآثار كان نتيجة التنافس على نبش قبور طيبة وانتهاكها وتخريبها، واستمر ذلك فترة طويلة، والأغرب أن كلا منهم أثرى المتاحف المنافسة لمتاحف وطنه الأصلى، فبلزوني الإيطالى صاحب الجناح بالمتحف البريطانى. ودورفيتى كانت مجموعته هى التى قام عليها متحف تورين الإيطالى، ومقتنيات سولت كثير منها - حالياً - موجود بمتحف اللوفر، جميعهم جروا وراء الشهرة والربح وذيوع الصيت، وكلهم حقق ولو بعض ما كان يصبو إليه، فكلهم خرج رابحاً بشكل أو بآخر، لكن الخاسر الوحيد كان علم المصریات.

الجزء الثالث

تخريب الآثار

١٦. رغبة جارفة

بلزونى هو الذى فتح الباب للسطو على آثار مصر، وسرعان ما تبعه الباقون، لقد بدأ مع منافسيه فى الاندفاع نحو حيازة الآثار، وسرعان ما تحولت هذه الرغبة إلى غارة شديدة الوطأة، وبعد عشرين سنة من رحيل بلزونى عن مصر زارها الآلاف من جامعى التحف والأثريين الهواة والجوالين الفضوليين، وبعض هؤلاء قنع بمجرد المشاهدة والمتعة، لكن غيرهم كان هدفه النهب والاستيلاء على الكنوز أو الريح، ومعظم الآثار المفتصبة تحمل اسم من نهبوها، وقد عرفنا بعضها من المعروضات التى تحمل أسماءهم فى شتى المتاحف العالمية، وعرفنا بعضها الآخر من كتالوجات صالات المزادات، أو من المجموعات الخاصة، وكثير من الشخصيات لها وزنها فى تجارة الآثار المسجلة فى النشرة المتخصصة الرائعة الموسومة بدليل تجار الآثار Who is Who in Egyptology، وهى نشرة جامعة مانعة، لم تترك صالحاً ولا طالحاً من تجار الآثار إلا ذكرته.

فى هذه الفترة كان من أشهر تجار الآثار رجل إنجليزى الجنسية يقطن الإسكندرية يسمى شارلز هاريس، هذا الرجل كان يتجر بالآثار من كل نوع خصوصاً البرديات، وقد ضمت مجموعة هاريس للمتحف البريطانى سنة ١٨٧٢ إلى بقية المجموعات الشبيهة، وقد استغرق جمع هذه المجموعات جميعاً مدة ثمانين عاماً منذ رحيل بلزونى عن مصر إلى نهاية القرن التاسع عشر، فى هذه

الفترة بلغ تهريب الآثار المصرية مداه، من برديات إى موميאות إلى جعلان وغيرها، لدرجة أنه هربت إلى أوروبا أحياناً معابد صغيرة كاملة، وكان وراء ذلك بالطبع أشخاصاً أرادوا تحقيق أرباح سريعة أو إشباع هواية ونزوات عملائهم، ولقد أصبحت هواية جمع الآثار وتجاريتها هوساً أشبه بالمرض حينذاك حتى لقد وصفها عالم فرنسى بأنها «رغبة جارفة لا تختلف عن الحب أو الطموح إلا فى كونها أكثر خسة لتفاهة أهدافها».

وقد تفاقمت المشكلة فى ذلك الوقت لتقاعس حكومة محمد على فى إصدار التشريعات المنظمة للبحث عن الآثار وحيازتها، ولم يكن لدى حكام مصر الأتراك الإحساس الكافى بخطورة هذه المشكلة؛ وذلك لأنهم لم يعيروا ماضى مصر وتاريخها القديم أهمية تذكر، وكثيراً ما كانت الآثار فى ذلك الوقت تستخدم كوسيلة من وسائل التأثير السياسى، أما الأهالى فقد درجوا على استغلال الآثار أسوأ استغلال، وكانوا يستغلونها كمصدر للحجارة لبناء قراهم فوق مستوى الفيضان.

أما متاحف أوروبا فلم تتورع بدورها عن استغلال الموقف، وحثت التجار على شحن غرف وأفاريز ومقابر أثرية كاملة - أحياناً - للعرض فى صالاتها وكان للفيلسوف الفرنسى الشهير إرنست رينان رأى فى الموضوع عبر عنه بأنه: «أصبح متعهدوا بيع الآثار للمتاحف يتجولون فى البلد بشكل همجى، يلهثون وراء شطر من رأس أو كسرة من نقش، بل كثيراً ما حطموا الآثار القيمة ليحولوها إلى كسرات، هؤلاء الطماعون المخربون كانوا يعيشون فى مصر كأنها ملك خاص لهم، وكان أشد هؤلاء فتكا بالآثار المصرية السياح من الإنجليز والأمريكيين، (والمؤسف) أن هؤلاء الأغبياء سيذكرون من جيل إلى جيل لأنهم سجلوا أسماءهم على أشهر الآثار المصرية فأ تلفوها وطمسوا نقوشها الجميلة».

وفى سنة ١٨٥٩، زار مصر فرنسى اسمه «فيفيان دى سان مارتين» فأصابته الحسرة: «لقد نزعوا من الفتنتين معبدها الجميل، وتنازعتة السماصرة، وأجمل شطرى بوابته استخدمها مصنع أرمئت لإنتاج السكر، وضاعت إلى الأبد المعابد الصغيرة فى إسنا والكاب، وتيفونية إدفو Typhonium of Edfu وكذلك مقبرة

«ونفزع» بسقارة، ونصف سرداب ليكوبوليس» فى ذلك الوقت كانت الأبجدية الهيروغليفية قد حلت طلاسماها، فأصبح بالإمكان قراءة النقوش الهيروغليفية، وأمكن للعقلاء تقدير مدى فداحة التخريب الذى حدث، لكن بعد فوات الأوان، كان الموقف يقتضى تدخل الحكومة المصرية بإصدار التشريعات اللازمة للسيطرة على الموقف، لكن لم يحدث حتى بعد صدور موسوعة «وصف مصر».

من القضايا المدوية فى مجال نهب الآثار فضيحة مشهورة كان بطلها -أيضاً- فرنسى من محترفى جمع الآثار اسمه «سياستيان لويس سولينيه»، قام هو ووكيلة جين بابتيست ليلوريان بنزع النقش البارز المشهور الذى يمثل دائرة الأبراج السماوية بكامله من سقف معبد دندرة، والنقش يصور القبة السماوية بأبراجها ويرجع تاريخه إلى أواخر العصر البطلمى . وربما بعده بقليل، وأهمية النقش تتلخص فى أنه تصوير «لمصر السماوية» التى آمن المصريون القدماء أنها صورة طبق الأصل فى السماء لمصر الأرضية بما فيها من أقاليم وتفاصيل أخرى.

كان سولينيه وليلوريان قد قررا (هكذا!) أن القبة المذكورة قد اكتشفها الجنرال ديزيه أثناء الحملة الفرنسية، ومن ثم «أصبحت على نحو ما أثراً قومياً (فرنسياً)»، ومن ثم يتعين نقلها من دندرة إلى باريس، لذلك حضر ليلوريان إلى الإسكندرية فى أكتوبر سنة ١٨٢٠ لعمل على شحن القبة (إلى باريس) بأى طريقة، ولإخفاء غرضه الحقيقى، أعلن أنه ينوى الحفر فى طيبة، ورغم حرصه عثر على جاسوس لسوءت على المركب نفسه يقوم برصد تحركاته - زرعه سولت بنفسه - فقام ليلوريان بطرده.

كان بعض السياح الإنجليز يقومون بأخذ بعض الاستكشافات فى دندرة عندما كان ليلوريان يشاهد القبة للمرة الأولى، وللتمويه توجه ليلوريان إلى طيبة (جنوب دندرة) واشترى بعض المومياوات والآثار الأخرى، ولما عاد ذلك الفرنسى (المباكر) إلى دندرة كان السياح قد غادروها، وأصبح الجو خالياً له ليبدأ فى تنفيذ مخططاته، كانت قبة البروج مركبة فى سقف الغرفة الوسطى من الغرف الثلاثة الموجودة فى مبنى صغير مجاور للمعبد الرائع الذى خلب لب عساكر نابليون،

وكان تخليص القبة من السقف عملاً خطيراً؛ لأن القبة منقوشة على حجرين فى منتهى الضخامة والسمك، إذا كان سمك كل منهما ثلاثة أقدام، بينما لم يكن معه من الأدوات سوى الأزاميل والمناشير؛ لذلك لجأ ليلوريان إلى استخدام البارود لإحداث فتحات فى سقف المعبد (أى المبنى الصغير)، ومن حسن الحظ أنه كان ماهراً فى استخدام البارود فتمت العملية دون أن ينهار السقف، بعد ذلك ثبتت المناشير فى الأسافين الناتجة وعهد إلى عربان أشداء بموالة النشر فى الجرانيت الصلب بلا انقطاع.

تم نزع القبة السماوية بعد ثلاثة أسابيع، وبعد ذلك وضعت على قمة المنحدر الترابى بالمعبد، ووضعت تحتها اسطوانات خشبية تمهيداً لنقلها إلى المركب الراسية على بعد أربعة أميال، لكن الاسطوانات لم تتحمل ثقل الحمل فانكسرت؛ لذلك استعاض عنها بالروافع مع القوة البدنية لتحريك «البضاعة» حتى شط النيل، وبعد مجهود ضخم تمكن العمال العرب من وضع البلاطتين الثمينتين فى قلب المركب بأمان، لكن الماء كان يتسرب داخل المركب بشدة، وبسرعة عملت الجلفطة اللازمة (أى سد الخروم)، ولولاها لفشلت العملية والسبب فى نجاح ذلك كله كانت حصافة ليلوريان وبعد نظره فقد كان سخياً مع عماله فى الأجور، فكانوا لا يدخرون وسعاً فى العمل للخروج من المأزق فى سلام، رغبة فى إنجاح نقل القبة.

لكن الرئيس رفض الإبحار؛ والسبب أن سائحاً أمريكياً تصادف أن رأى ليلوريان ينزع القبة فأخطر سولت بما رآه، وعلى الفور قام سولت برشوة الرئيس، ولم يتأخر ليلوريان فى المقابل من نفع الرئيس «ألفى» قرش كبقشيش فأمر بالإبحار، وفى منتصف المسافة إلى القاهرة أوقفهما أوروبى من أعوان سولت وسلمهما أمراً من كبير وزراء الباشا (محمد على) يمنع ليلوريان من نقل القبة، فما كان من ليلوريان إلا أن رفع الرايات الفرنسية وبجراًة تحدى الإنجليز ومنعهم من مهاجمة سفينته، ونجحت خطته الجريئة، فابتعد الوكيل وهو يتميز غيظاً، واستشاط سولت غضباً لأنه كان يريد أن يفتصب القبة لنفسه، كما أهدى مسلة من قبل لوليام بانكس؛ لذلك تعقب ليلوريان إلى الإسكندرية، ثم توسط لدى

الباشا بزعم أنه بدأ حفائر فى دندرة قبل أن يسمع الفرنسى حتى بأن هناك مكان بهذا الاسم، ومن ثم فهو صاحب القبة، لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح.

فى النهاية، وصلت القبة السماوية إلى باريس وكان استقبال وصولها حاشداً، وريح سولونية ولبوريان من ورائها ١٥٠ ألف فرنك دفعها فيها الملك لويس الثامن عشر، والقبة - الآن - فى اللوفر، أما زوار معبد دندرة فعليهم أن يقنعوا بمجرد صورة منسوخة منها.

هذه الخدعة التى كان يقوم بها أمثال لبوريان وسولت ببساطة وتبجح كانت شيئاً طبيعياً مقبولاً بين الأثريين فى ذلك الوقت، حيث كان البعض مثل يولونيه ودروفيتى وأثناسيوس يميزون بالفضول والطمع والنظرة القومية الضيقة، وكانت المشكلة تكمن فى عدم فهم أى منهم لما يرونه أو ينقلونه لأن قراءة الهيروغليفية كانت فى ذلك الوقت مستحيلة، فى ذلك الوقت كان حجر رشيد الثلاثى النصوص (يونانى - ديموطيقى - هيروغليفى) أمل العلماء فى حل مشكلة الهيروغليفية، ونسخت من النصوص نسخ عديدة عكف على دراستها كثير من علماء اللغات القديمة فى أوروبا، وقد ترجم النص اليونانى بسهولة وبسرعة، وكان المأمول أن يؤدى ذلك إلى حل للمشكلة، لكن «العلامات التصويرية» ظلت مستغلة على أفهامهم، فظل الأمر معلقاً، والغريب أن الذى شاع عنها أنها تمثل أفكاراً لا أصواتاً، أما الديموطيقية فكانت أقل صعوبة، ولم يصعب على العلماء إدراك أنها حروف أبجدية مستمدة من اللغة المصرية القديمة.

كانت الخطوة التالية تتبع وتحديد أصل الخط الديموطيقى، وفى هذا المجال تصدى من الباحثين المبرزين سلفستر دى ساسى (فرنسى مشهور فى اللغات الشرقية) وجين دافيد أكربلاد السويدى للتعرف على الأبجدية الديموطيقية، لكن نتائج بحوثهما لم تتطابق، وأصاب الجميع الإحباط عندما ظهرت آراء توماس يونج، وهو شخصية متعددة المواهب إذ كان طبيباً باطنياً ومن علماء الفلسفة الطبيعية ومن علماء الرياضيات واللغات، هذا الرجل «الموسوعة» أهدى إليه أحد أصدقائه بردية كانت السبب فى تحول اهتمامه إلى اللغة المصرية القديمة؛ لذلك حصل هلى نسخة من نقوش حجر رشيد وشرع فى المقارنة بين

الخطين اليونانى والديموطيقى، واعتماداً على الحدس والإلهام توصل إلى أن الديموطيقية شكل انسيابى متشابك (متصل الحروف) من النقوش الهيروغليفية؛ ونص كلامه أنها «كتابة جارية» لأنه لاحظ قرب شبهها من الهيروغليفية بمقدار بعدها عن الكتابات الرمزية (المعروفة).

لكن الفضل الأكبر فى حسم موضوع حل لغز النقش الهيروغليفى يعود إلى العالم الفرنسى الفذ جان فرانسوا شمبليون، ولد شمبليون فى ٢٣ من ديسمبر سنة ١٧٩٠ فى مدينة فيجيا الفرنسية، لأب غير ميسور الحال يعمل فى بيع الكتب، وفى سن الخامسة تعلم القراءة، وفى سن الحادية عشرة صحبه أبوه لزيارة العالم الرياضى جان بابتيست فورييه، وهو من علماء بعثة نابليون، ويبدو أن فورييه أشعل حماس الفتى شمبليون وغذى رغبته فى حل ألغاز الهيروغليفية، وفى سن السابعة عشرة كان شمبليون قد أتم تعلم لغات شرقية منها العبرية والعربية والسنسكريتية والفارسية، وكان فى الوقت نفسه ملماً باللغات الإنجليزية والألمانية والإيطالية، وهده ذكاؤه إلى تعلم القبطية ليضيفها إلى هذه الذخيرة اللغوية المتميزة، وكان شمبليون يؤمن أن القبطية الامتداد الطبيعى للهيروغليفية فى صورتها الدارجة.

رحل شمبليون إلى باريس وتحمل شظف العيش ليدرس على يدى المستشرق «ساسى» ثم أخذ فى دراسة نصوص حجر رشيد عدة أشهر لكن يبدو أنها استعصت عليه، على أى حال لم ييأس عالمنا من مواصلة البحث سبع سنين دأباً، ثم أصدر مجلدين ضمنهما أسماء بعض المواقع الجغرافية القديمة، وفى فورة من الحماس أعلن أنه قد سيطر على الديموطيقية ويستطيع قراءتها على حجر رشيد، والحقيقة أن حماس شمبليون واندفاعه كان مبنياً فى الواقع على أساس سليم، فتقريره منذ البداية أن القبطية أقرب اللغات - حالياً - للهيروغليفية كان استنتاجاً فى محله تماماً.

فى سنة ١٨١٩ ظهر مقال طويل فى دائرة المعارف البريطانية بقلم توماس يونج عن مصر القديمة، احتوى على ملخص لمحاولاته فى قراءة الهيروغليفية، ورغم أن شمبليون فى حينها رفض التسليم بأن الهيروغليفية ما هى إلا أبجدية،

إلا أنه بعد سنتين كان فى طريقه إلى الاهتداء لحل المشكلة، ويبدو أن إسراره فى التوصل إلى حل كان بسبب أخذه أخيراً بوجهة نظر يونج، وفى سنة ١٨٢٢ اكتشف خرطوشة (ختم الملك) من أبى سنبل استطاع أن يميز فيها اسم فرعون مصرى رمسيس، ولاحظ أن أسماء الفراعنة تكتب منطوقة، وبلغ به الانفعال - لهذا النجاح - حدا جعله يخرج مندفعاً من شقته الصغيرة باحثاً عن أخيه ليقول له منفعلاً «لقد وجدتها»، ثم يخبر مغشياً عليه، بعد ذلك تقدم ببحث عنوانه «الأبجدية الهيروغليفية المنطوقة»، قدم إلى أكاديمية الآداب الفرنسية ونشر فى ٢٧ من سبتمبر سنة ١٨٢٢، إعلاناً عن اكتشافه، وفى مبدأ الأمر قوبلت أفكاره بالفرض والاستهجان حسب رؤية كل باحث، لكن البحوث المستقلة بعد ذلك أكدت وجهة نظره وأثبتت إن الباحث الشاب قد توصل لحل لغز الهيروغليفية بدون شك، وفى ظرف سنتين أتم شمبليون بحثه المعروف باسم «الوجيز فى النظام الهيروغلىفى» أثبت فيه أن الهيروغليفية فى حقيقتها مزيج بين الكتابة الرمزية والحروف المنطوقة: أى أنها أبجدية رمزية هجائية معاً.

سرعان ما أصبح شمبليون من المشهورين، ثم عين أميناً بمتحف اللوفر، وفى سنة ١٨٢٨ منحت له الفرصة لزيارة مصر، مكافأة له على جهوده، وكانت الرحلة ناجحة بكل المقاييس، سافر شمبليون إلى مصر على رأس مجموعة مكونة من أربعة عشر عضواً من الفنانين والمهندسين منهم تلميذه نيكولو روسيليني، وكانت الرحلة فوق نجاحها بمثابة تجربة مثيرة لهم، فللمرة الأولى يزور المعابد الكبرى من استطع أن يقرأ نقوشها، ويفهم ويدرك قيمتها الحقيقية، كذلك أثبتت بحوثهم الميدانية أن نظريات شمبليون صحيحة وسهلة التطبيق عملياً، ومن ثم أصبح شمبليون - الباحث الفذ - أول رواد قراءة الهيروغليفية على آثار مصرية حقيقية.

واستأجرت البعثة سفينتين أقلت أفرادها إلى النوبة وتوغلت فيها، ونسخت ما استطاعت أن تتسخره من نقوش وصور فى عدة مواقع فيها، وبعد الفراغ من مهمة النسخ ارتدت البعثة إلى طيبة، وفى طيبة نصبوا أسرتهم فى قلب مقبرة رمسيس السادس، واستراحوا بين الآثار ولم يرعوا لها حرمة، وفى دندرة بهروا

بمعبدها الجميل وفاضت مشاعرهم، تماماً كما فعل جنود حملة نابليون قبل سنة ١٧٩٩ عندما لم يتمالكوا أنفسهم فاصطفوا تلقائياً ليحيوه ويعظموه.

اندفع شامبليون وصحبه من السفينتين نحو الشاطئ فى ليلة كانت مقمرة مضيئة، وهم فى ثورة عارمة، وعبر شامبليون عما يجيش فى صدره قائلاً: «لنا أن نعذر المصرى إذا عدنا بالنسبة له أجلاً» وفى مسيرة صاخبة واصلوا السير نحو المعبد حتى وصلوا إليه بعد ساعتين، وكان يغمره ضوء القمر، «وهى صورة أسكرتنا من شدة الإعجاب» كما كتب واحد منهم، «وفى الطريق أخذنا نغنى تصبراً، ولكن هنا أمام صحن المعبد المغمور بالنور - نور القمر - غمر قلوبنا سلام حقيقى؛ وأحسنا بسحر غامض نحن تحت هذا الصحن المعبد بأساطين ضخمة... وفى الخارج كان القمر ساكناً! ويا لها من مفارقة عجيبة» وعلى مدى ساعتين من ساعات العمر التى لا تعوض فحصى أفراد البعثة المعبد وتجوّلوا فيه فى جو مفعم بالحماس والانفعال.

استغرقت رحلة شامبليون سبعة عشر شهراً شهدت أروع إنجازاته، ولم يكن برنامجه يتضمن إجراء حفائر أو اكتشاف أية آثار، وكان هو نفسه معنياً أكثر بالمشاهدات والبحث، ومحاولة تصنيف الآثار حسب تسلسلها التاريخى، ونجح شامبليون بضربة واحدة فى توسيع حدود التاريخ ألفى سنة أو تزيد فظهرت لنا أصول الحضارة المصرية القديمة فى أزمنة كانت مجهولة حتى ذلك الوقت.

كانت إمكانات البحث العلمى فى الآثار هائلة آنذاك، لكن غطى عليها لدى شامبليون فداحة ما وقعت عليه عيناه من تخريب ودمار، ذلك رغم أنه هو نفسه لم يسلم من الشبهات، فقد تقدم باقتراح لنقل إحدى المسلات من الأقصر إلى باريس فى ذكرى حملة نابليون، وقد وافق محمد على باشا على طلبه رغم أنه سبق أن أهدى مسلات الأقصر إلى الإنجليز، وبالفعل نقلت إحدى المسلتين الضخمتين من مكانها أمام معبد الأقصر إلى باريس سنة ١٨٣٠ بتكاليف باهظة، وتم نقل المسلة على ظهر السفينة درومادير وفى أكتوبر سنة ١٨٣٦ تم وضع

المسلة فى مكانها الحالى بميدان الكونكورد الشهير بباريس فى حضور ملك فرنسا وسط جمع حاشد وصل إلى مائتى ألف مشاهد .

لكن شامبليون لم يتهاون فى كتابة مذكرة رفعها إلى الحكومة المصرية يشجب فيها التخريب النواسع النطاق الذى كانت تتعرض له المواقع الأثرية، كما تناول فى تقريره ما تسببه تجارة الآثار من سلبات بهذا الصدد، وأشار فى تقريره إلى أن أهم عوامل جذب السياح إلى مصر آثار وعجائب ماضيها، وأشار أن السياحة مصدر دخل للبلد يحقق على المدى البعيد ربما يفوق كثيراً ما ينتج عن تدمير الآثار ونهبها للتجارة فيها، وفى النهاية أوصى بأن تخضع أعمال التنقيب عن الآثار للسيطرة الحكومية، كما أوصى بمنع تفكيك حجارة المعبد والاستيلاء عليها، وأخيراً نصح بضرورة تنظيم تصدير الآثار تنظيماً دقيقاً صارماً .

وقد كتب لنصائح شامبليون النجاح، واستجاب لها محمد على باشا، وصدر قانون نشر فى ١٥ من أغسطس ١٨٣٥، وهو قانون يعد فى زمنه طفرة حقيقية فى هذا المجال، وقد أشار القانون فى ديباجته إلى أن المتاحف وهواة الآثار أصابتهم حمى اقتنائها لدرجة يخشى معها أن تتسرب إلى الخارج آثار الحضارة المدنية الفرعونية وتسلب من مهدها الأصل، فيحرم منها بينما تظهر فى البلاد الأجنبية وتترى متاحفها، ويحظر القانون قيام الأفراد بالبحث والتنقيب عن الآثار المصرية؛ ثم ينص على إنشاء دار للآثار تعرض فيها الآثار التى تملكها الدولة وما تكتشفه منها بمعرفتها، ونص القانون على تجريم تحطيم الآثار وتخريبها كما نص على ضرورة المحافظة عليها وصيانتها، على إثر ذلك عين محمد على باشا موظفاً مختصاً بالتفتيش على أهم المواقع الأثرية بالصعيد .

كان القانون نقله هامة فى الاتجاه الصحيح رغم أنه لم يكن ملزماً، ورغم بدايته المهزوزة لأن الوالى نفسه وخلفائه من بعده لم يلتزموا به، والحقيقة أن الحفائر الفردية لم تتوقف، لكن أصبح من حق الدولة مصادرة المكتشفات الأثرية، وأصبح تصدير الآثار أكثر صعوبة عن ذى قبل، وكان لحل مشكلة الهيروغليفية أثر إيجابى فى هذا الصدد، إذ أدى فهمها إلى زيادة الوعى بأهمية الآثار كأحد مصادر المعلومات التاريخية، ومن ثم زاد الاهتمام بالمحافظة عليها،

لكن شامبليون لم يحظ بمشاهدة ذلك كله ولم يعيش ليسعد بنجاح جهوده فقد أصيب في باريس بسكتة دماغية مات على إثرها في ٤ من مارس سنة ١٨٣٢، وكان عاكفا على إعداد تقرير للنشر متضمنا أنباء رحلته في مصر.

♦

١٧. هناك واحد أقوى منى

فتح شامبليون بجهوده - وحل مشكلة الهيروغليفية - الباب أمام الدراسات الأثرية والمصرية عموماً، ومنذ ذلك الوقت أخذ الاهتمام يتزايد للحصول على المدونات الأصلية، وأخذ الباحثون يهتمون بالتحليلات الدقيقة؛ لذلك أخذ دور التخريب والسطو على الماضى يتراجع منذ رحيل بلزوني.. وأصبح يفد إلى مصر باحثون جادون وإن لم يتقطع ورود المتلصصين، من هؤلاء الدارسين الجادين نذكر «جون جاردنر ويلكنسون»، أحد رواد علوم المصريين فى إنجلترا فيما بعد، الذى زار مصر أول مرة سنة ١٨١٢، وأقام فيما اثنى عشر عاماً اهتم فيها بتسجيل الآثار ودراسة العربية والقبطية، وما لبث أن اهتم بدراسة الهيروغليفية وتصحيح نتائج بحوث شامبليون، وأنهى زيارته الأولى سنة ١٨٣٣ بعد أن فرغ من أول مسح أسلوبى منظم لأهم المواقع الأثرية فى مصر والنوبة.

كان ويلكنسون يعمل منفرداً، وأفلح فى قراءة عشرات النصوص والخراطيش الملكية بطريقة صحيحة لأول مرة، وهو الذى قام بأول محاولة لتصحيح ترتيب الأسرات الملكية الفرعونية، كذلك قام بنسخ المناظر المقبرية فى بنى حسن بوضوح ودقة ولم يكن شامبليون ونيكولو روسيليني قد زاراها بعد، ومن إنجازاته اكتشاف الموقع الصحيح لقصر اللابيرانت المنيف بهوارة وكانت له مذكرات أكثر تطوراً من بقية معاصريه، وكانت معظم ملاحظاته وتسجيلاته دقيقة، ويعتبر ما

قام به ويلكنسون شبه إعجاز، علماً بأنه لم يتلق أى دعم من حكومته بعكس شامبليون الذى كانت تشجعه الحكومة الفرنسية وتدعمه.

رغم ذلك كله ظل ويلكنسون من رجال الظل ولم ينل ما يستحق من التقدير، فالجانب الأكبر من بحوثه لم ينشر، ولم يقم أحد بكتابة سيرته رغم تأثيره العميق على علوم المصريات فى القرن التاسع عشر، لكن الأوساط المثقفة - بصفة عامة - كانت تعرف ويلكنسون عن طريق كتابه الذى يحمل عنوان «طبائع وعادات المصريين القدماء»، الذى ظهر سنة ١٨٣٧ فى ثلاثة أجزاء، والكتاب أول محاولة للبحث المستفيض عن حياة المصريين القدماء، عالج فيه المؤلف موضوعه بطريقة تشعر القارئ أنه يقرأ عن شعب من الشعوب الحية المعاصرة، وحرص المؤلف على إلقاء الضوء على الديانة والثقافة والحياة اليومية الجارية للشعب أكثر من حرصه على معالجة الأمور السياسية، وهذا الكتاب أول كتاب منذ قرون يتجاوز فى موضوعاته ما كتبه هيرودوت والأساطير الموروثة ويحاول بحث الإنسان المصرى القديم نفسه، لقد كان جاردنر ويلكنسن فى الحقيقة أحد الأفذاذ من الباحثين، وكان له وزنه رغم عدم إيفاء البعض حقه، وكان ذا جلد على البحث والاستقصاء، مع مزج البحث العميق بالكتابة المشرقة الجميلة التى تتقل بسلاسة للجمهور العادى أكثر المواضيع جدية.

لكن ويلكنسن لم يكن فارس الميدان وحده، كان هناك مثلاً روبرت هاى أير اسكتلندى من هواة السياحة، زار مصر لأول مرة سنة ١٨٢٤ عقب مقابلة مع الفنان الشهير «فردريك كاتروود» وهو فنان تحققت له شهرة عظيمة بعد ذلك عن لوحاته التى صورها للمعابد المفقودة لحضارة المايا Maya فى أمريكا الوسطى، وكان له موارده المستقلة وكان من عشاق مصر، وظل الرجل لمدة تزيد على عشر سنوات (١٨٢٨ - ١٨٣٩) يقوم بتسجيل الأطلال الأثرية فى وادى النيل. وقد استعان فى عمله بعدد من الفنانين العظام منهم المصور الفذ «فردريك كاتروود» نفسه و«جوزيف بونومى» الذى صار من خبراء نسخ النقوش الهيروغليفية؛ و«أوين براونى كارتر» المهندس المعروف - وكانت مهمته رسم المساقط التخطيطية للمواقع، وبدأت المجموعة نشاطها فى منف والجيزة ببطاء،

فتمكنت من جمع كم هائل من المعلومات لم ينشر معظمها فى أوراق هاى بمتحف برلين، والآن، تعتبر الصور والوصف المسجل بواسطة هذه المجموعة المصدر الأساسى عن آثار هذه المنطقة التى أصابها التخريب بشدة منذ زارها هاى.

قبل ما كتبه شامبليون وتلميذه روسيليني عن مصر بحماس شديد، وشرعت حكومات أوروبا فى الاهتمام بجدية البحوث وتسجيل النقوش الهيروغليفية. ومما يذكر أن ملك بروسيا بدأ يولى مصر اهتمامه منذ سنة ١٨٤٢، متأثراً ببلاغة الرحالة العلمى المشهور «ألكسندر فون هامبولدت» واختار الملك عالماً شاباً فى الثلاثينات من عمرة كان يعمل محاضراً فى جامعة برلين يسمى كارل ريتشارد ليسيوس ليرأس بعثة كشفية إلى وادى النيل مدتها ثلاث سنوات، وافق هؤلاء العلماء البروسيين كلا من الفنان بونومى والمهندس المعمارى الإنجليزى «جيمس وايلد»، وقامت البعثة بعمل مسح شامل مستفيض للمواقع الأثرية الكبرى.

كان نجاح هذه البعثة باهراً حقاً؛ وذلك لأن التحضير لها كان جيداً، فقبل مغادرة أوروبا كان ليسيوس قد تفقد أشهر الجامعات الأثرية فى أوروبا، كما درس أجرومية شامبليون الهيروغليفية، وتعلم الطباعة الحجرية والحفر على النحاس، ورغم أن مهمته كانت أساساً البحث عن الآثار واقتنائها، إلا أنه تجاوز هذا الهدف فقام بإجراء حفائر فى مواقع اللايرانت فى الفيوم ورسم تخطيطاً (قطاعاً) متقناً لطبقات الحفر بالموقع، وهذه فكرة جديدة لم يهتد إليها أحد قبله.

حمل ليسيوس وزملاؤه عند مغادرة مصر خمسة عشر ألف قطعة ما بين قوالب (نماذج تماثيل منسوخة) وآثار (أصلية) مصرية، كانت نواة المتحف المصرى فى برلين، وصدر عن البعثة مطبوعات فاخرة فى اثنى عشر ألبوما تضم ٨٩٤ لوحة - ربما كانت أعظم إنتاج من نوعه، ثم نشرت بعد ذلك خمسة مجلدات أخرى تحتوى نصوصاً وصفية، بعد وفاة ليسيوس سنة ١٨٨٤، ومجموع ذلك كله يمثل حصيلة جهود بعثة ليسيوس، وقد أصبحت منبعاً لا ينضب عن آثار مصر القديمة، لن تبلى جودته أبداً.

قبل أن يهل منتصف القرن التاسع عشر كانت معظم آثار الوجه القبلى قد رصدت ولو من باب الفضول، لكن الوجه البحرى والدلتا كانتا شبه مجهولة من الناحية الأثرية؛ لأن أحداً لم يحاول الحفر فى السهول العميقة فى تلك المناطق، وبالجمله لم يكن الحفر العلمى المنظم قد بدأ فى مصر كلها بعد، وكان الإنجاز الوحيد تقريباً هذه المخططات والمساقط التى عملها السيد «وليام هوارد فيز» للأهرام؛ وهو سيد مهذب من العسكريين يحمل فى قلبه إيماناً عميقاً بالكتاب المقدس ومن الخبراء فى البارود، وكان ينوى عمل تفجيرات لكشف مدخل هرم منكاورع، أما غالبية علماء المصريين فقد انصب اهتمامهم على النقوش الأثرية وعلى متابعة التسلسل التاريخى للأحداث؛ لأن معظم الجدل الأكاديمى انحصر فى تحديد زمن بدء الحضارة المصرية، أو فى تفسير النقوش الهيروغليفية.

استمرت سيطرت لصووس المقابر وتجار الآثار على الحفائر الأثرية، وكانت أعمالهم واسعة النطاق ونتيجتها التخريب المأساوى للآثار الثمينة، وكان الوقوف فى وجه هذه الظاهرة متميعاً لا يكاد يسمع له صوت؛ لأن المتاحف الأوروبية والقنصليات الأجنبية كانت ضالعة فى البحث المحموم عن الآثار الجديدة، ولم يخل الأمر من أصوات عاقلة أخذت تندد بهذا العمل، من هؤلاء السيد «جورج روينز جليدون» أمريكى سبق له العمل كنائب للقنصل الأمريكى بالإسكندرية وبعدها ذاع صيته كمؤلف ومحاضر عن مصر القديمة حملته أسفاره بعيداً حتى سان لويس بأقصى الغرب، فى سنة ١٨٤٩ كتب جليدون نداء توجه به لأصحاب الوعى الأثرى، وكان فى صورة مذكرة غامضة إلى حد ما، لم يلتفت لها كثير من الناس عنوانها «التماس إلى الأثريين الأوروبيين حول تخريب آثار مصر» وقد حدث تجاهل شبه تام لهذا الالتماس.

كان نداء جليدون طويلاً رناناً سجل فيه التخريب الذى نال الآثار المصرية منذ حروب نابليون، سواء على أيدى اللصوص أو الأثريين، لكنه خص بالتنويه دور محمد على باشا وحكومته بهذا الخصوص، وأشار إلى أن معبد فيلة لم ينقذه من التدمير سوى دوامات الشلال الأول، وأبدى عميق أسفه على انتزاع سلالم مقياس النيل لبناء أحد القصور، ثم بين أن طيبة استمر تخريبها منذ بدء

استكشافات ويلكنسون بها سنة ١٨٣٦، واستخدم البارود داخل معابد الكرنك، وكانت أى رشوة مهما قل مقدارها كفيلة بحصول من يقدمها على أساطين تمثالية من بهو الأساطين، حتى باب مقبرة سيى الخشبى الذى أعاده بلزوى بكفاءة إلى حالته الأصلية، استولى عليه الجنود الألبان بعد وفاة سولت، وربع معبد دندرة استخدمت حجارتها فى بناء مصنع للسجاد سنة ١٨٣٥، ولم يوقف التخريب سوى احتجاجات القنصل الفرنسى، ويبدى جليدون أسفه قائلاً: «من المجيب أن الأساطين التى أقامها هادريان للعبادة تستخدم - الآن - فى مصنع لتكرير الروم».

عندما ظهرت عجالة جليدون كانت بعض الأصوات قد علت وأصبح رأى العام مؤيداً لاتخاذ إجراءات لحماية الآثار. فقد سبق أن احتج شمبليون سنة ١٨٢٩، واحتج القنصل الفرنسى «جين فرانسو ميمو» سنة ١٨٣٩ عندما نقل من مصر، وقد تحمس قبل ذلك بسنتين اللورد «الجيرنون بيرسى» للتعليق على حجم التدمير الواقع على آثار مصر، وفى الفترة بين سنتى ١٨٣٩، ١٨٤٠ أعدت الحكومة البريطانية بياناً عن عمليات التدمير والتخريب رفعتها لمحمد على باشا، لكن رؤى تأجيل رأى العام وإثارته حتى يكون لدى الحكومة المصرية مهلة تتمكن فيها من معالجة الوضع، هذا التقرير تم إعداده بعد الرجوع إلى تقرير مهم يدور حول الأنشطة الدبلوماسية والتجارية للقناصل، أعده «لورد» «بورينج»، ينتقد فيه بشدة تجار الآثار، وعندما درس التقرير سنة ١٨٤٢ استخرج منه الأجزاء الخاصة بأنشطة القناصل فى مجال الآثار - رغم أن الدبلوماسيين منذ الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لم يكن عملهم يدع لهم فرصة للبحث الأثرى - وكان قانون الآثار الذى أصدره الباشا سنة ١٨٣٥ قد ظهر - على الورق على أقل تقرير.

يبدو أن نداءات جليدون المدوية كان تأثيرها ضئيلاً جداً على ضمائر السياح وصائدى الكنوز، فكم ندد بمن نعتة «السيد الأنجلو هندي» الذى لا يتورع عن استخدام المعاول والمناشير فى قطع النقوش الفائرة من جدران مقبرة أمنحبت الثالث ليسهل حملها إلى سفينته، وعندما ينتهى الفنان من عمله يلقي بالأصل فى النهر، (هذا هو نص كلام المؤلف، ويفهم من السياق أن النقوش المنزوعة كان

يمكن نسخها داخل المعبد، لكن الكسل والاستهتار جعل الفنان ينزعها ثم يتخلص منها بعد النسخ، فتكون الجريمة أفدح)، وحتى عندما كان لبسيوس ومن معه من مصورين موجودين بالصعيد، تسلل فنان فرنسى منحرف الأطوار من هواة السياحة اسمه «أخيل كونسات تيودور إميل بريس دافن» إلى معبد الكرنك واستولى على قائمة الملوك الموجودة بها - وهى مجموعة حجرية محفور عليها صور الوجوه والخراطيش لكثير من الفراعنة، وللعلم لم يكن لدى دافن أى تصريح يخول له هذا، وفى ذلك تحدٍ صريح لقانون الآثار.

كان بريس يعمل فى الليل بهمة حتى أفلح فى تعبئة الأحجار فى ثمانية عشر صندوقاً قبل الإبلاغ عنه لحاكم إسنا، وقرر الحاكم فرض الحراسة على خيمة بريس، وبعد شهر رشا بريس الحاكم نفسه فسهل له نقل الصناديق إلى مركبه أثناء الليل، وفى رحلة العودة التقى بلبسيوس الذى كان فى طريقه إلى الكرنك، وقام بما يلزم من إكرام العالم الكبير الذى جلس على أحد صناديق الحجارة الثمينة يتناول القهوة، حتى القنصل الفرنسى نفسه تقاعس عن اتخاذ أى إجراء ضد بريس؛ لأن الشحنة الثمينة استقرت فى النهاية فى اللوفر.

إلى حد ما لم يكن هناك لوم على أمناء المتاحف والأثريين إن كانوا قد نظروا إلى صائدى الكنوز نظرة تنطوى على التسامح، فقد كانوا أينما قلبوا وجوههم يشاهدون تفتيت وتدمير المعابد والأهرام للحصول على حجارة للبناء، وكان التجار يلحون على السياح لشراء الآثار؛ لذلك أفتنعوا أنفسهم أنه من الأفضل ترك العلماء والتجار ينقلون ما استطاعوا نقله من الآثار القيمة التى يجدونها إلى أوروبا، حيث تتوفر الحماية ضد النهب والضياع، وحيث أنه لم يكن فى مصر دار للآثار فإن هذا الإجراء يكون إجراءً وقائياً فعلاً، وربما كان هذا خير حل بعد هدم متحف القاهرة الذى كان بحديقة الأزبكية؛ لذلك كانت اللفتة على النسخ والتسجيل بالإضافة إلى التصدير لصيانة المكتشفات الأثرية ظاهرة متفشية بين العلماء والثقاق فى ذلك الوقت.

وقد طرحت أو أحرقت آلاف النقوش والبرديات، أو تحطمت وتلفت أثناء الحفر المحموم للبحث عن الآثار الضخمة، وكانت الآثار الضخمة بفية متاحف

أوروبا مع البرديات الجميلة والمخطوطات القيمة، لكن لا أحد من هؤلاء كان يولى أدنى اهتمام لتحسين وسائل استكشاف الآثار فى مواقعها .

كانت المخطوطات التى أغرت شاباً فرنسياً لزيارة مصر، وكان له اهتمام بالغ بالآثار المصرية، هذا الشاب هو أوجست مرييت من مواليد بولونيا بفرنسا، وكان مولده فى ١١ من فبراير سنة ١٨٢١، وكانت طفولته عادية ولكن يبدو أنها كانت سعيدة، وفى سن الثامنة عشرة سافر إلى إنجلترا لتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة خاصة هى «سترا تفورد - ابن - أفون» واستمر فى التدريس سنة واحدة وهى على أى حال مغامرة قصيرة المدة، بعد ذلك عاد مرييت إلى بولونيا واشتغل مدرساً فى كليتها المحلية التى تلقى فيها تعليمه من قبل، ثم اكتشف فى نفسه موهبة الكتابة فبدأ يكتب مقالات فى أوقات فراغه يعالج فيها شتى الموضوعات لتشر فى الصحف والمجلات، وحتى سن الثامنة والعشرين لم يكن لمرييت صلة بمصر أو بعلوم المصريات، وفى سنة ١٨٤٢ توفى شخص يدعى نستور لوط الذى كان ضمن البعثة العلمية فى حملة نابليون على مصر، وكانت وفاته أثناء رحلة صحراوية، هذا الرجل انتقل أبوه للإقامة فى بولونيا، وقد ترك الابن وراءه بعد وفاته كمّاً ضخماً من الأبحاث والمدونات كانت فى أمس الحاجة للتظيم والنشر، وكان أبو لوط هذا من رجال الجمرك، ومن أقارب عائلة مرييت، فطلب من مرييت فحص هذه الأوراق، وسرعان ما وجد مرييت نفسه مفتوناً بذلك العالم الجديد الذى انفتح أمام ناظره، وأصبح مستغرقاً تماماً فى الاهتمام بالنقوش الهيرغليفية المعقدة ومحاولة قراءتها .

سرعان ما استغرقت هويته الجديدة لدرجة أنه كتب مقالاً عن الآثار القليلة الموجودة فى متحف بولونيا، ونظراً لقوة المقال تمكن من كسب تأييد مدينته ومساندتها فى مطالبة الجهات الرسمية بإرساله لبعثة كشفية فى مصر، فلما رفض طلبه استقال من وظيفته ونفض يديه من الارتباط بكتابة المقالات وسافر إلى باريس، وفى باريس تردد على اللوفر ودرس قائمة الملوك التى استقرت هناك بعد أن كانت فى الكرنك: ثم إنه كتب مقالاً مستفيضاً يقع فى سبعين صفحة تحدث فيه عن نقوشها . ولفت المقال نظر عالم المصريات شارل لينورمان بكلية

باريس فتوسط للشباب النشيط لدى إدارة اللوفر حتى أسندت إلى مرييت وظيفة صغيرة بالمتحف الشهير، وكان مرييت يقضى نهاره فى تبويب البرديات، ومساءه فى قراءة المصريات بنهم، أو فى التدريب على إتقان قراءة النصوص الهيروغليفية حتى أصبح فيها من المحترفين.

حانت فرصة مرييت الكبرى سنة ١٨٥٠، فقد استمر تعزيد لينورمان له، وتحولت تزكية العالم الكبير إلى تكليف يتعين بموجبه على مرييت أن يحصل على مخطوطات قبطية من مصر، وسافر مرييت إلى الإسكندرية يملؤه الحماس، ثم اتصل ببطريك القبط فى القاهرة، ليفاجأ بأن الرجل كان موغر الصدر حنقا على جامعى الوثائق الأجانب، واتضح أنه منذ سنوات اتصل اثنان من الإنجليز ببعض القساوسة ونادموهم حتى سكروا، فلما غاب القساوسة عن الوعى هرب الإنجليزيان بمكتبة كاملة من الوثائق؛ لذلك كان يعارض بشدة تسرب مزيد من الوثائق من بين يدى الكنيسة.

أسقط فى يدى مرييت لأنه أيقن بأن حصوله على مخطوطات قبطية فى حكم المستحيل؛ لذلك فكر فى توجيه نشاطه إلى مجال الكشوف الأثرية، معتمداً على نص إضافى فى أمر التكليف يخول له الحفر فى المواقع الأثرية لجمع ما يثرى به المجموعة الموجودة فى اللوفر، وفى آخر أكتوبر سنة ١٨٥٠ كان مرييت قد أعد للأمر عدته واتخذ لنفسه معسكراً وسط جبانة سقارة، لم يكن لدى مرييت تصريح بالحفر من الباشا، ولم يكن معه من المال إلا قليلاً، وكانت السلطة المخولة له من المتحف محدودة للغاية، لكن كانت هناك إحدى رؤس أبى الهول ظاهرة بين الرمال تشبه ما رآه منها من قبل فى القاهرة والإسكندرية وهى من المنطقة نفسها. هذه الرأس أشعلت حماسه، فأخذ يفكر فى أمرها وأمر نظائرها، وأسعفته سعة اطلاعه فاسترجع فى خاطره ملحوظة قرأها فى كتابات استرابو فحوها أن هناك سيرايوم فى منف، فى مكان رملى فيه ممر على جانبيه تماثيل أبى الهول يؤدى إلى مقبرة عجول أبيس حيث كان يجرى دفنها فى الرمال. واستولت على مرييت روح المغامرة فقامر على كشف المقبرة؛ لذلك جمع ثلاثين عاملاً عند رأس أبى الهول وأمرهم بالحفر بحثاً عن المقبرة.

كان نجاح مرييت فوراً، وسرعان ما أخذت تماثيل أبى الهول تظهر الواحد تلو الآخر محددة للطريق، وظهرت مع الحفر آثار أخرى: مقابر وتماثيل جالسة، وتمثال خصوبة، ومعبدان لعبادة أبيس أحدهما يونانى والآخر مصرى، وكان بالمعبد المصرى أحد تماثيل أبيس الرائعة، فى ذلك الوقت كانت ميزانية الحكومة الفرنسية على وشك النفاذ، لكن القنصل الفرنسى أرنو لومين أعجب بنشاط ذلك الشاب المتحمس فأعانه بالمال ليستأنف نشاطه، وفى الوقت نفسه تقدم مرييت بطلب إلى رؤسائه ليمدوه بالمال، ويبدو أن مرييت كسب الرهان، فقد كانت المعونات المالية فى طريقها للوصول إليه.

فى غضون أسابيع قليلة من الأزمة المالية كان مرييت يحفر لكشف مخبأ يحتوى على تماثيل برونزية لأوزيريس وأبيس وآلهة مصرية أخرى تحت أرضية المعبد أوقدت الفيرة والحماس فى قلوب المصريين والأجانب معاً، واستثيرت مصر كلها، وركب الحسد تجار الآثار، وتدخل الخديو عباس بن محمد على لمصادرة الآثار، لكن القنصل الفرنسى أمكنه تلطيف الجو ونجح فى السماح باستحواذ فرنسا على المكتشفات الأثرية فى المستقبل، وقد أثار التصريح انزعاجاً كبيراً فى فرنسا؛ لأن الحكومة الفرنسية كانت قد فرغت للتو من الموافقة على تخصيص ثلاثين ألف فرنك للاستكشافات الأثرية المقبلة.

لم ينزعج مرييت للشروط واستمر فى حفائره بهدوء، وفى نوفمبر سنة ١٨٥١ وفق فى الحصول على مقبرة عجول أبيس بعينها، وكان يسدها باب رائع منحوت من كتلة صخرية واحدة، وسرعان ما كان مرييت بنفسه داخل المقبرة فاندesh إذ وجد كثيراً من توابيت العجول المقدسة الحجرية قد نزعَت أغطيتها وتناثرت بفعل لصوص المقابر، لكن الذى بقى أكثر مما نهب، وحسب الفرمان يذهب كل ما اكتشفه إلى الخديو فكل ما احتفظ به فى متحفه أهداه لمن شاء من ذوى النفوذ الأجانب لأغراض سياسة، واستقر رأى مرييت على اتباع خطة معينة، فقد وضع ما شاء أن يستولى عليه فى صناديق أخفاها فى قاع هوة عميقة فى أرضيتها باب سرى يفتح على المقابر التى تحته، وبذلك ذهب ما ذهب إلى متحف اللوفر

بينما كان مرييت يتلاعب بالمسؤولين المصريين ويطلعهم على المقابر المكتشفة فارغة.

أمضى مرييت عدة شهور يستكشف مدققاً حتى أعرق السرايب وأبعدها. وكانت مكافأة كده وصبره عثوره على مومياء لأحد عجول أبيس سليماً تماماً، يرجع تاريخه إلى عصر رمسيس الثانى، حتى آثار أقدام العمال الذين دفنوا العجل كانت واضحة على تراب المقبرة، وكان التابوت الذى فيه الجثة - أيضاً - سليماً، كما كان العجل نفسه محاطاً بالذهب والمجوهرات بكثافة، ابتهج الفرنسيون وانفعلوا عند مشاهدة مكتشفات السيرابيوم معروضة فى متحف اللوفر، فكان ذلك من أسباب شهرة مرييت وذيع اسمه فى أنحاء العالم، ومكافأة له على جهوده رقى إلى درجة أمين مساعد بمتحف اللوفر، وأسرع مرييت فى إصدار ألبوم به لوحات للسيرابيوم تحت عنوان «المختار من آثار مصر» يمكن النظر إليه على أنه إرهاب من أجل فخر غزير المادة عن هذه المكتشفات.

كان مرييت إنساناً قلقاً يتميز بالحيوية ولا يحب حياة الاستقرار. كذلك كان معروفاً بميوله الاجتماعية، فلما أصبح معروفاً بين علماء المصريات اتصل ببعضهم وأصبح من أعز أصدقاء عالم المصريات الألمانى إميل بروجش الخبير فى الخط الديموطيقى، فقد تصادف أن زار بروجش السيرابيوم زيارة عابرة لكنها أدت إلى نشوء صداقة بين الرجلين استمرت العمر كله، وكان الرجلان ذوى ميول متشابهة وهجبان حياة المتعة والتتعم، ورغم أن مرييت لم يكشف لنا النقاب عن حياته الشخصية، فإن بروجش قد كشف لنا جانباً منها، فتكلم عن بيت مرييت الفلاحى (مبنى بالطوب النئى) وسط السيرابيوم، وكان - دائماً - ممتلئاً بالعمال والنساء والأطفال... والقردة. وكان أثنائه «إسبرطيا» - أى رخيصاً، وشكا بروجش أن «الخفافيش تطير فى مخدعى... فأحكمت الناموسية تحت الفراش وفوضت أمري لله - بينما كانت أبناء آوى والذئب والضباع تقوى فى الخارج».

أدى نشاط مرييت وطموحه إلى لفت نظر المهندس الدبلوماسى الشهير «فردناند دى ليسيبس» صاحب مشروع قناة السويس، واستمع دى ليسيبس لآراء

مرييت ومقترحاته بخصوص إنقاذ آثار مصر، فى ذلك الوقت كان والى الجديد سعيد باشا الذى شغل المنصب سنة ١٨٥٤ فى أعقاب اغتيال والى السابق عباس الذى يعرفه مرييت، وتكلم دى ليسيبس مع والى الجديد فى شأن مرييت (لكن يبدو أن الموضوع وقف عند هذا الحد)، ثم حدث أنه بعد ثلاث سنوات وجه سعيد باشا الدعوة عن طريق الحكومة الفرنسية إلى مرييت للحضور إلى مصر بمناسبة الإعداد لزيارة الأمير نابليون للأراضى المصرية، فلما حضر كلفوه بالتقريب عن بعض التحف الأثرية الجميلة لإهدائها للزائر الملكى، ولم يتردد مرييت فى تنفيذ ما طلب منه، وكان يعمل هذه المرة مدعوماً بالمال، وتحت يده رفاص حكومى لتتقلاته، بدأ مرييت حفائره فى سقارة، وسرعان ما نقل نشاطه إلى طيبة وأبيدوس حيث وافاه صديقه بروجش ليشركه فى العمل، وكانت نتائج الحفر سخية، لكن لسبب ما ألغيت زيارة الأمير، فانتهز دى ليسيبس الفرصة فاقترح على الباشا تعيين مرييت مفتشاً عاماً للآثار المصرية، كما طلب من الباشا تأسيس متحف جديد للآثار يكون مرييت - أيضاً - أميناً له، وقد كانت هذه الاقتراحات من قبل مثار اعتراض مستمر وشجب من جانب تجار الآثار والدبلوماسيين الغارقين لأذانهم فى تجارة الآثار بطرق ملتوية غير مشروعة.

رغم التوصيات كان وضع مرييت مهزوزاً، فقد كان أمر تمويل مشاريعه يخضع تماماً لإرادة الباشا وحسن نواياه، وكانت نواة دار الآثار تتكون من «مسجد صغير مهجور، وسقائف فقيرة، وبيت للسكن تملؤه الهوام» والأخير طبعاً مخصص لإقامة مرييت، لكن مرييت كان سعيداً جداً بذلك، وجمع حوله عائلته ومستشاريه وشمروا جميعاً للعمل والاستكشاف بكل همة ونشاط، كانت العمالة رخيصة ومتوفرة، ولم تكن لديه صعوبة فى استئجار رجال قرية بأسرها إذا شاء، وكان الرجل يجرى الحفائر بأسلوب فج متهور لا يوافقه عليه أحد، لكنه مثمر، وكان يعمل تحت إمرته فى وقت واحد مجموعات عمالية تحفر فى سبعة وثلاثين موقعاً مختلفاً تغطى مصر كلها من الدلتا حتى الشلال الأول.

كانت مكتشفات مرييت غزيرة وعظيمة، لكن وفرة الإنتاج صاحبه إهمال جسيم واتباع أساليب متخلفة فى الحفر، كان مرييت بطبيعته يسعى للحصول على آثار مظهرية تعجب المشاهد لمعرضه، ويقدرها الوالى، ومن مساوئ أسلوبه أنه لم يتورع عن استخدام الديناميت، ومن الناحية الفنية ضرب صفحاً عن تسجيل المكتشفات ولم يهتم بتدوين أى ملاحظات، كان كل همه الحصول على قطع أثرية، لقد كان اهتمامه بالأشياء أكثر من اهتمامه بالمضمون، ومما يذكر أنه استولى على محتويات ثلثمائة مقبرة فى منطقتى الجيزة وسقارة وحدهما وجردها من كل ما فيها، لكن يحسب له أنه هو الذى أجلى السكان وأخلى سطح معبد إدفو، فأظهر المقبرة العظيمة للعيان لأول مرة منذ قرون، وفى طيبة نجح عماله فى تنظيف وإظهار معبد حتشبسوت بالدير البحرى، وفى هذه الأثناء حدث احتكاك، كاد يتطور إلى عراك، بينه وبين مركيس دوفرين وآفا الذى كان يقوم سرأً بالاستيلاء على كمية كبيرة من الشقفات الأثرية المنقوشة من معبد منتوحتب فى المنطقة نفسها، كذلك استعاد مرييت معبد حتجور الكبير ومعبد آمون بالكرنك وأكثر من خمسة عشر ألفاً من الآثار الخفيفة.

كانت صيانة الآثار فى ذلك الوقت شيئاً جديداً، وكانوا يفهمونها على أنها مجرد حظر تفكيك وتفتيت المنشآت الأثرية للحصول على حجارة للأغراض الإنشائية الجارية، أو مصادرة الآثار المنهوبة لصالح الحكومة، وحاول مرييت تطوير مفهوم الصيانة وجعله يعنى السيطرة الحكومية عليها بالكامل وقصر حقوق الاكتشافات على مندوبيها، وهذا ما يعنى عملياً وضعها بالكامل تحت سيطرة مرييت الشخصية، لكن ذلك كان أبعد مما يتصور، فالوالى نفسه لم يكن يهمنه من أمر مرييت شيئاً، كان استخدامه مجرد عمل سياسى من جانب الوالى استجابة لإلحاح دى ليسيس والأمير نابليون، والواقع أن الباشا كان بيده أن يقطع الاعتمادات المالية المخصصة للمتحف بدون إخطار سابق، ولم يكن يبالى بتجريد المتحف من أى قطعة أثرية يريد إهداءها لأى زائر مقرب، ووجد مرييت أنه ليس أمامه من حل سوى استشارة اهتمام الوالى شخصياً بالآثار، فلم يكن

أمامه سوى مولاة إغراق المتحف بالآثار الجديدة المظهرية المبهرة. وكان هذا السبب فى الجرى المسعور وراء مكتشفات أثرية جديد، دون مراعاة لما تقتضيه قواعد التخطيط المنظم للكشوف الأثرية، وهذا الإهمال المتعمد لاحظته وأشار إليه بعض علماء الآثار واعتبروه من سلبيات الرجل.

فى سنة ١٨٥٩، وصل إلى علم مرييت فى القاهرة أن التابوت الحجرى المزخرف بالذهب والخاص بالملكة «إعح حتب» أم الفرعون أحمس قد وجد سليماً فى طيبة، وعلم أن حاكم طيبة استولى على التابوت ثم جرده من الزخارف وأرسلها كمجوهرات ثمينة إلى الباشا كهدية سياسية عالية المستوى، هذا الخبر أفقد مرييت شعوره فركب رفصاً حكومياً وتوجه فوراً للصعيد ومعه أمر رسمى يخول له إيقاف أى سفينة يشك فى أنها تحمل آثاراً، والتقت السفينتان فكان لا مناص من نشأة عراك عنيف، وحدث نزاع حاد بخصوص الذهب استمر لأكثر من نصف ساعة، بعدها أمسك مرييت بين يديه نسخة الأمر الذى يخوله حق المصادرة وأخذ يلوح به بضراوة، وكاد أحد الرجال يسقط فى النهر، ولوح آخر بالضرب فى الملبان، ولكن الأمر انتهى بتسليم الذهب والجواهر إلى مرييت، وأسرع مرييت لمقابلة الباشا وأهداه جُعلأً ثميناً وقلادة لإحدى زوجاته وبذلك حول المكسب السياسى إلى نفسه، وأظهر الباشا سروراً بالغاً بالمكتشفات - ربما كان جزء منه شماعة فى حاكم طيبة، وفى فورة سروره أصدر أوامر ببناء متحف جديد كى تعرض فيه آثار الملكة (أم أحمس)، ونفذ المشروع بسرعة وأصبح لدى مرييت متحفاً أثرياً جديداً سرعان ما حشده بالكنوز الفرعونية.

ونظراً لطول مقام مرييت عهدت إليه حكومته بالاتصال بسعيد باشا وإقناعه بزيارة فرنسا بمناسبة توقيع أحد قروضه المالية، وكان مرييت بطبعه يكره المهام الدبلوماسية، لكن وساطته نجحت، وصحب الباشا فى رحلته إلى فرنسا، وهناك زارا مسقط رأس مرييت فى بولونيا حيث استقبل الباشا بحفاوة، ووصل اغتباط سعيد باشا بالزيارة درجة جعلته ينعم على مرييت برتبة الباكوية ويخصص له معاشاً ثابتاً. لكن هذه الصداقة التى توطدت أواصرها انقطعت فجأة بموت سعيد باشا بعد ستة أشهر، فى ذلك الوقت كان متحف بولاق قد تحول إلى

معرض، لذلك زادت الأعباء على كاهل مرييت (بك) لاضطراره لمرافقة كبار الزوار في جولاتهم، وضرورة مداومة اتصاله بأقرانه في أوروبا، ولطول مقامه توطدت علاقاته في مصر مع موظفي الحكومة وتجار الآثار والأهالي جميعاً، وقد سهل ذلك كثيراً من سعيه للمحافظة على الآثار الثمينة التي جمعها، وكان مرييت شغلة من النشاط لا يكف عن التواجد إما بمكتبه أو بأحد ميادين الحفر والاستكشاف، وكان يخرج للعمل كل يوم مع الفجر، وكان يقضى وقت راحته في منزله حيث يتغذى مع زوجته اليانورا، وكانت هذه السيدة قد حولت البيت إلى مضيفة تعج - دائماً - بالأصدقاء والزائرين، هذه الزوجة الوفية قدر لها أن تموت بالطاعون سنة ١٨٦٥، فلم يصبح لمرييت سلوى إلا بمزيد من العمل، وانتشلت من همومه مهمة كلفه بها الخديو إذ أرسله إلى باريس لمدة سنة ليشرف بنفسه على إعداد الجناح المصرى في معرض باريس الذى أقيم سنة ١٨٦٧.

انبهرت باريس بمعروضات مرييت التى أحيت أمام أعينهم الحياة المصرية القديمة، وكان مرييت قد عرض فيه بذكاء أجمل ما خف حمله وغلا ثمنه من مقتنيات متحف بولاق، وكانت تتصدر المعروضات مجوهرات الملكة إمح حتب، وأخذت المجوهرات بالباب الفرنسيين وعلى رأسهم الإمبراطورة أوجينى، وأرادت أوجينى أن تستولى على المجوهرات فخاطبت الخديو مباشرة أن يهديها إياها بعد انتهاء المعرض، كانت اللحظة حرجة وحاسمة بالنسبة لمستقبل الآثار المصرية، لكن الخديو قال لها بحصافة «هناك - فى بولاق - واحد أقوى منى: يجب عليك أن تقدمى طلبك إليه» وكان مرييت رجلاً لا تؤثر فيه الرشاوى ولا التهديدات لا يتهاون ولا يحيد عن موقفه مهما أغضب شخصية لها وزنها مثل الإمبراطورة القوية أو الخديو المتكبر؛ لذلك (رفض الطلب) فعادت المجوهرات سليمة إلى مصر.

شغلت مسألة صيانة الآثار بال مرييت فى سنواته الأخيرة، وقد صرح بأنه «يجب علينا أن نصور آثار مصر ونعنى بها... وأن نعمل على تمكين العلماء حتى بعد خمسمائة سنة من دراسة الآثار ومشاهدة آثار مصر الموجودة فى وقتنا الحالى»، لقد كان استهتار السياح كالشوكة فى جنب مرييت، ومن الأمثلة

الصارخة على عبث بعض السياح ما يحكى عن سائح أمريكى أراد إثبات وجوده فى مصر سنة ١٨٧٠، فلم يجد وسيلة ترضيه سوى طوافه حاملاً «فرشاة ودواة مملوءة بالقطران. ثم أخذ كلما مر على معبد لطمحه بالإعلان عن زيارته المستهجنة».

كانت مشكلة التخريب لا تقل فداحة عن مشكلة الصيانة، ومما أشار إليه مرييت أن مقبرة «تى» بسقارة على سبيل المثال «لحقها من التخريب على أيدي السياح فى عشر سنوات أضعاف ما لحقها خلال الستة آلاف سنة الماضية». وقد تعثرنا الدهشة إذا عرفنا أن هدف مرييت من تكثيف حفائره كان العمل على إنقاذ آثار مصر لتراها الأجيال القادمة، ومما وصل إلينا من معلومات عرفنا أن مرييت قد استخدم خلال مدة عمله الوظيفة أكثر من ٢٧٨٠ عاملاً وهو عدد لا يتيسر لأى فرد أن يحكم سيطرته عليه بمفرده، لكن مرييت بنى الورش فى إدفو وطيبة وأبيدوس ومنف، لاستقبال الآثار المكتشفة وترميمها، وهى فكرة جديدة لم تعرف من قبل فى الشرق الأدنى.

كان مرييت رجلاً متعدد المواهب ولم يقصر اهتمامه على الآثار، فقد شارك مشاركة فعالة فى حفلات افتتاح قناة السويس فى نوفمبر سنة ١٨٦٩، ففى ذلك اليوم افتتحت غريمته القديمة الإمبراطورة أوجيني هذا المجرى المائى على ظهر اليخت الإمبراطورى أيجل Aigle وأسعد مرييت أن يكون ضمن بعثة الشرف المرافقة لسموها. وأراد الخديو أن يستغل مواهب مرييت فى مجال آخر فطرح عليه فكرة طريفة وكلفه بتنفيذها بنفسه، وكان طلب الخديو قيام مرييت بنفسه بكتابة نص أوبرالى (أوبرا عايدة) لكى يلحنها الملحن الإيطالى الكبير فيردى احتفالاً بالمناسبة، وبالفعل كتب مرييت النص بمعاونة مواطن فرنسى اسمه دى لود.

فى أواخر حياته الوظيفية الحافلة أحاطت بالمأسى الشخصية والوظيفة بمرييت من كل جانب، فحفائره تعثرت لنقص الاعتمادات المالية بسبب ديون مصر الخارجية - التى أطاحت فى النهاية بالخديو نفسه، وخلفه غيره فى سنة ١٨٧٩، وقبل ذلك بسنة أغرق الفيضان متحف بولاق فضاع بسببه كثير من الآثار

ومعظم كتبه ومذكراته القيمة عن السيرابيوم، وفى الوقت الذى أخذ صيته يعلو على المستوى الدولى، ومع أن أكاديمية الفنون كرمته، إلا أنه فقد أبناءه الأعزاء الواحد تلو الآخر فأصبح وحيداً لا يجد للحياة معنى.

وصف أحد النبلاء الفرنسيين سنة ١٨٧٢ مرييت بأنه عندما رآه وجده «رجلاً ضخماً - طويلاً عريضاً - وكان مسناً لكنه ليس عجوزاً.. متين البنيان كأحد تماثيله العملاقة.. وجهه محدد المعالم.. نظرتة حاملة تتسم بالكأبة.. لكنه اعتاد الجلوس على شط النيل يتحدث ويعبر عن حبه لمصر العجيبة ونيلها وصفاء سمائها».

بعد تولى الإنجليز والفرنسيين الإشراف المالى على مصر، أخذت الأمور تستقر، وانتظم صرف مرتب مرييت، لكن صحة الرجل أخذت فى التدهور بسبب البول السكرى، وعاد من أوروبا إلى مصر رغم ضعفه، حيث مات فى سلام فى بيته المجاور للمتحف الذى أسسه وأحبه، وكانت وفاته فى يناير سنة ١٨٨١، قبل أن يظهر كتابه عن السيرابيوم فى الأسواق، لكن الأحوال عموماً قد تبدلت، فقد تأسست دار آثار جديدة مستديمة حوت كافة أشكال آثار مصر القديمة، وتغير الحال فأصبحت الحكومة مسيطرة على قطاع الآثار، وصار نهب آثار مصر وتهريبها عملية صعبة للغاية، والحقيقة أن مصر عرفت لمرييت قدره، وقدرت أفضاله وإخلاصه، فدفتته بما يستحق من الاحترام عند باب متحفه البولاقى.

•

١٨. فى المتحف البريطانى وضع فى الحفظ والصون

تزامن موت أوجست مريبت مع تغير فى أوضاع مصر السياسية، سببها سلبية الخديو فى مواجهة المشاكل، ثم الثورة الشعبية التى قامت ضده فى القاهرة. واهتمت بريطانيا وفرنسا بالموضوع خوفاً من تأثر الأوضاع بقناة السويس ولحماية الاستثمارات الصناعية الأجنبية فى مصر، وهددت الدولتان بالتدخل العسكرى وإرسال أساطيلها إلى الأسكندرية عند ظهور أى بوادر تدل على عدم استقرار الأوضاع، وهذه إشارة واضحة إلى الأتراك بأن الأمور فى مصر أخذت تتحول.

أدت ثورة الجيش فى سبتمبر سنة ١٨٨١ إلى تأليف حكومة شعبية لم تستمر فى الحكم سوى عام واحد، كانت هذه الحكومة يرأسها الخديو توفيق إسماعيل، والضابط الشاب أحمد عرابى فعلاً، وطالبت بريطانيا باستقالة الحكومة بحجة تدهور الموقف الأمنى وقتل الأوروبيين فى شوارع الأسكندرية علناً، ولم تلبث بريطانيا أن أرسلت أسطولها فى البحر المتوسط وعليه قوة عسكرية إلى مصر، وفى وقت قصير تغلب الجيش الإنجليزى بقيادة الجنرال السير جارنيت ولسلى على مقاومة الجيش المصرى، فى أثرها دخلت القوات البريطانية القاهرة وأقرت الأمن والنظام فيها، وانتقلت مقاليد الحكم الفعلية إلى أيدى القنصل البريطانى

العام (السير إيفلين بارنج - لورد كرومر فيما بعد)، بينما ظل الخديو حاكماً إسمياً بلا سلطات تقريباً، واستمر إشرافه على شئون الحكم في مصر عشرين عاماً، كانت كلمته فيها هي العليا، وسياساته مملاة من مدن لندن، وكان الرجل من خبراء الاقتصاد لذلك كان معظم نشاطه موجهاً لإصلاح اقتصاد مصر المثقل بالديون، وعمت إصلاحاته كل المصالح الحكومية ومنها بالطبع مصلحة الآثار. وسيطر على إدارة الدفاع، وأحوال الشرطة، والشئون الأجنبية، والمالية والأشغال العامة خبراء بريطانيون. لكن التعليم والآثار والفنون ظلت بأيدي الفرنسيين.

عندما اعتلت صحة مرييت اهتمت الحكومة الفرنسية بالأمر اهتماماً بالغاً؛ لأنها كانت حريصة على دعم نفوذها في قطاع الآثار المصرية، من أجل ذلك اختارت أحد العلماء الشبان وإسمه ماسبيرو وأرسلته إلى مصر قبيل وفاة مرييت، وكان ماسبيرو ضليعاً في علوم المصريات وخبيراً في الهيروغليفية، وعلى معرفة وثيقة بمرييت منذ سنة ١٨٦٧ وهو طالب، ولد ماسبيرو في باريس سنة ١٨٤٦، وكان أبوه مهاجراً إيطالياً من ميلانو، ومنذ الصغر شغف ماسبيرو بالمصريات فأصبحت مناط اهتمامه، لذلك اجتهد حتى أتقن الهيروغليفية في وقت قصير، ولم يتح لماسبيرو زيارة مصر إلا في سن الرابعة والثلاثين عندما أرسلته حكومته ليعد نفسه لخلافة مرييت في إدارة متحف بولاق.

كان ماسبيرو من الأفذاذ الذين لا يشق لهم غبار في علوم المصريات حتى أنه فلق أستاذه مرييت نفسه في هذا المجال، هذا بالإضافة إلى صغر سنه وحيويته وذكاؤه المتوقد، ولم يدخر ماسبيرو جهداً في الإحاطة الشاملة بالمصريات فغطت جهوده كافة جوانبها من حفر وتنقيب إلى كتابة وقراءة الهيروغليفية، هذا بالإضافة إلى نشاطه في التأليف، وكانت لماسبيرو مؤلفات رائجة في زمنه تناولت المصريات وغيرها من الموضوعات، وكان له جمهور غفير من القراء في أوروبا وأمريكا، وكان لكتابه أثر في زيادة وعي الناس بالآثار المصرية فأخذ يظهر اتجاه عام يتعامل مع مصر القديمة بروح تتسم بالاهتمام والمسئولية.

تحت إدارة ماسبيرو تم ترتيب وتنظيم المجموعة الأثرية الضخمة بالمتحف، وسهل اللورد كرومر لماسبيرو تأسيس مصلحة الآثار المصرية وتطويرها حتى

أصبحت مؤسسة قوية تضم خمس مراكز تفتيشية لتنظيم ومراقبة الحفائر الأثرية فى ربوع مصر، وألزم النقبون الأجانب بإجراء حفائرهم تحت رقابة مفتشى المصلحة، وهذا الإجراء وإن حد من الأعمال غير الشرعية، إلا أنه لم يوقفها تماماً، فقد استمرت عمليات التهرب لأن المتاحف وجامعى التحف ووكلائهم كانت لهم طرقهم الملتوية فى تنفيذ مخططاتهم.

كان لدى تجار الصعيد - دائماً - بضاعة حاضرة من الآثار. فلما نشطت السياحة منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأخذت وفود السياح تتزايد، زاد الإقبال على شراء الآثار، فحقق أهل القرنة من وراء ذلك مكاسب ضخمة، وكان معين المعروض من الآثار والموميאות لا يكاد ينضب، ونخص بالذكر الأخوين أحمد ومحمد عبدالرسول، اللذين اعتادا على تهريب الآثار داخل لفائف من القماش أو فى سلال الخضروات، هذان الأخوان كان بدء اشتغالهما بتجارة الآثار بطريق الصدفة البحتة، فقد ضلت للأخوين معزاه (من قطيع الماعز) فسعى وراءها أحمد ليجث عنها، وأثناء بحثه عثر بالصدفة على مخبأ به موميאות وأثاث جنائزى فى قاع صخرى عميق، ومنذ ذلك الوقت أخذ الإخوان فى سلب الكنز الموجود تدريجياً وبمقادير محدودة، واستمرا على هذا الحال عشر سنين متوالية، وقد هدأ هذا كآؤهما الفطرى إلى هذا الأسلوب خشية أن يؤدى إغراق السوق بالآثار إلى هبوط حاد فى أسعار بيعها، وكان السياح الإنجليز والأمريكيون على وجه الخصوص تهافتون على الآثار الصغيرة الثمينة، خصوصاً ما كان يحمل منها شعارات ملكية، ونما إلى علم ماسبيرو نبأ هذه التجارة المربية، فأدرك على الفور أنها تعتمد على اكتشاف سرى كبير فى وادى الملوك، وقد بنى ماسبيرو شكوكه على أساس أن بعض القطع المتداولة منها كانت فريدة فى نوعها، ليس هذا فقط وإنما كان بعضها يحمل الشعارات الملكية، كما أن بعض الموميאות المعروضة للبيع كانت موميאות فراعنة حقيقيين.

تصرف ماسبيرو بحذر لأن تفتيش آثار الأقصر لم تكن أموره قد انتظمت بعد، لذلك سارع بإرسال برقية إلى شرطة الأقصر طالباً تشديد الرقابة على تجار الآثار من أهاليها، ثم أرسل مبعوثاً خاصاً إلى هناك متظاهراً بأنه سائح

ثرى مستعد للصرف ببذخ، وبادر المبعوث بشراء بعض القطع الأثرية المختارة لكسب ثقة التجار، وكانت النتيجة أن التجار بدأوا ينظرون إليه باعتباره (عميل فوق العادة) وأصبحوا يعرضون عليه أنفس ما لديهم، وفي إحدى المرات عرض عليه تمثال جنازى صغير من عهد الأسرة الحادية والعشرين، أيقن المندوب أنه لابد قد سرق من مقبرة ملكية، واشترى الرجل التمثال بعد مساومة عنيدة، أمكنه خلالها أن يتعرف على أحمد عبد الرسول، واتجهت شبهات المبعوث وشرطة المدينة إلى عائلة عبد الرسول، وتأكد أن العائلة كانت تؤثر شخصاً تركياً بعينه على غيره من العملاء، هذا العميل إسمه مصطفى أغا آيات يعمل وكيلاً لقنصليات بلجيكا وفرنسا وروسيا، فكان يتجر فى الآثار ويقتنيها مستظلاً بالحصانة الدبلوماسية.

طبقاً للقانون كان أغا آيات فوق المساءلة القانونية، لكن الأخوين عبدالرسول كانا تحت طائلة القانون لذلك اعتقلتهما الشرطة فى أبريل سنة ١٨٨١ وأرسلا فى أصفادهما إلى محافظ قنا لاستجوابهما، ودافع الأخوان بفصاحة عن نفسيهما ونفيا التهمة، واعتمدا فى دفاعهما على أنه لم يعثر على أى آثار فى بيتهما (هما طبعاً ليسا من السذاجة ليحتفظا بدليل الإدانة)، بالإضافة إلى ذلك حشدا جمعاً من الأهالى شهدوا لهما بنظافة اليد والبعد عن الشبهات، ولم يُجدِ معهما التهريب ولا الترغيب؛ لذلك أطلق المحافظ داوود باشا سراحهما لعدم كفاية الأدلة - وهناك شك كبير فى أن داوود باشا نفسه كان على صلة بهما، وعاد الرجلان مُنصرين سعيدين كل منهما إلى داره، وهذأت الأحوال بعض الوقت، ثم نشب نزاع عائلى حاد داخل أسرة عبد الرسول نفسها بسبب قسمة غنائم المخبأ الأثرى، حيث طالب أحمد بنصيب أكبر لتعرضه للتعذيب والاعتقال، وانتشرت أنباء هذا النزاع بسرعة فى طيبة، فانتهزت مصلحة الآثار الفرصة وفتحت باب التحقيق فى الموضوع مرة أخرى، وبعد تضيق الخناق عليه لم يجد محمد مفرأً من الاعتراف التفصيلى بكل شئ حتى ينجو بنفسه، وبعد ثلاثة أشهر أعيد إلى قنا ومثل أمام داوود باشا المحافظ واعترف اعترافاً رسمياً وطلب اعتباره شاهد ملك. وبعد أيام أرشدهم إلى مكان المخبأ، كان ماسبيرو فى

هذه الأثناء متواجداً بالخارج؛ لذلك عهدت الحكومة إلى إميل بروجش بتمثيلها فى هذا الموضوع، ومن ثم فقد كان على رأس القوة التى صحبت عبد الرسول إلى المخبأ، كان بروجش فى حالة عصبية أثناء اعتلائه التل الصخرى المنحدر ثم نزوله فى القبر العميق حيث يوجد الكنز الأثرى، والحق أننا يجب أن نعذره فى ذلك فقد كان يخشى غدر الأهالى به، لذلك تسلح تسليحاً كثيفاً قبل أن يدلوهُ فى البئر بواسطة حبل متين ومعه ما يكفى من الشمع لإضاءة القبو، ولم تكد تمضى بضع دقائق حتى فوجئ بمنظر لم يخطر له على بال وقد فصل وصف هذا المنظر ماسبييرو فيما بعد بأسلوب درامى من واقع تقدير بروجش، فقد كان بروجش واقعاً تحت تأثير أحمد الذى أفهمه أن المقبرة خاصة ببعض كبار الموظفين، لكن:

«ما اكتشفه العريان كان قبواً كاملاً للفراعنة.. وأى فراعنة! أعظم الفراعنة فى تاريخ مصر! تحتمس الثالث، وسيتى الأول، وأحمس المحرر، ورمسيس الثانى الفاتح، هذا ما عاينه السيد إميل بروجش وهؤلاء زمرة جعلته يسبح فى الأحلام، وأنا مثله أظن نفسى فى حلم وأنا أرى وأمس أجساد هذه الشخصيات الفريدة، التى ما كنا نظن أننا سنعرف عنهم سوى أسماءهم».

ووجد بالقبو - أيضاً - جرار من النبيذ القريانى، وأوانى كانوبية، ثم توابيت ملكات مصر الشامخات مكومة فى صفوف.

بعدما أفاق بروجش من دهشته بدأ يرتب أمور نقل الموجودات، وعلى الفور استأجر ثلاثمائة عامل للقيام بأعمال تنظيف القبو ونقل المحتويات تحت إشراف موظفى مصلحة الآثار الموجودين، وكلف الرفاص الحكومى المسمى المنشية بنقل الشحنة إلى القاهرة، وفى ظرف يومين (٤٨ ساعة) كانت الدفعة لأولى من الفراعنة الأربعين مع كثير من الآثار الثمينة قد حملت فوق الرفاص الذى توجه بها إلى القاهرة، ويحدثنا ماسبييرو بأن النساء من الأهالى تبعن الرفاص وقد علا عويلهن، بينما أطلق رجالهم أعيرة نارية على شرف ملوكهم القديما - وبعض الشامتين يقول إن العويل كن بسبب ضياع مورد رزق سهل لهن، وفيما بعد فكت

أربطة بعض المومياوات ليتمكن علماء الآثار من دراسة ملامح أشهر فراعنة مصر، وكانت رأس سیتی الأول أحسن الرؤوس حالاً،

«رأس ملك حقیقی رائعة وكانت على شفתיه ابتسامة رقيقة لا تخطئها العين، وكانت عيناه نصف مغلقتين، تشعان من تحت الجفون، وشفاهتین ثابتتین فی محجریهما كما كانا منذ تحنيط الجثة» وربما شهد بلزونی ذلك لأسعده إلى أقصى درجة أن يرى هذا الملك . الذی كان اكتشاف مقبرته أهم إنجازات بلزونی . قد وجدت جثته لتشاهدها الأجيال القادمة .

اضطر ماسبيرو بعد استلام جثث الفراعنة إلى مضاعفة الاحتياطات: لذلك عزز الحراسة على المتحف ووضع ضوابط لمنع تهريب الآثار والإتجار فيها أو بيعها لمدوبی المتاحف الأجنبية، لكن ذلك لم یكف لردع أمناء المتاحف الأوروبية والأمريكية عن البحث عن قطع أثرية مزيدة لعرضها فی أروقة المتاحف؛ لذلك انقشعت السوق السوداء لتجارة الآثار إشباعاً لرغبة العملاء .

كان «والیس بادج» واحداً من أشد مسئولی جمع الآثار المتخفية جشعاً فی القرن التاسع عشر، هذا الرجل بدأ حياته الوظيفية الطويلة مساعداً لأمين جناح الآثار المصرية بالمتحف البريطاني، وكان دائم السفر إلى مصر والسودان والعراق لشراء آثار المتحف البريطاني، كذلك كان من مكشفي الآثار والكتاب النابهين، وكانت وسائله فی جمع الآثار فجّة غير مستساغة، وكان ذلك مما أسخط عليه كرومر وماسبيرو، وكذلك الإنجليز والفرنسيين من موظفی الحكومتين . وهذه قائمة طويلة تمثل النظرة التطورية المتعلقة إلى الآثار المصرية، لكن بادج لم یعبأ بذلك كله بدعوى ولائه للمتحف البريطاني وأهدافه الكبيرة، هذا السائح العنيد زار مصر للمرة الأولى سنة ١٨٨٦ فی رحلة هدفها جمع آثار لمتحفه، واستعد للرحلة بجمع معلومات عن الآثار المصرية وأسعارها السوقية، استقها من «صمويل بيرش» كبير أمناء الآثار الشرقية بالمتحف البريطاني، وكان بيرش قد اكتسب شهرة كبيرة فی المصريات رغم أنه لم یزر مصر قط، تسلح بادج بالمعلومات التي حصل عليها وحمل معه خمسين جنيهاً استرلينياً وحضر إلى

مصر لأداء المهمة ، لكن السير إيفيلين بارنج (لورد كرومر) استقبله بفتور لأنه كان ضيق الصدر بسبب عدم رضاه عن أساليب الأثريين الإنجليز في جمعها، لكن بادج العنيد لم يهتز وصمم على تحقيق أغراضه بأى طريقة ولو عن طريق مهربي الآثار.

أنشأ بادج لنفسه علاقات وطيدة ومفيدة فى الأوساط الرسمية ومع الأهالى بسرعة، فى كل من القاهرة وطيبة، ففتحت له المقابر، وكانت نصف محتوياتها قد نهبت بالفعل، ووجد الرجل أن كثيراً من آثارها الجميلة «اختفى بطريقة غامضة»، لكنه رغم ذلك وفق فى الحصول على بعض القطع الأثرية النادرة، والتحق به فى أسوان للتشجيع والمعاونة مجموعة من كبار رجال القوات المسلحة البريطانية، وكانت الشركات الهندسية الملكية قد جندت للمساهمة فى الحفائر ونقل المكتشفات وبالأخص التماثيل الضخمة، وضمن ما جمعه بادج ثمانمائة جمجمة على فترات لكى يرسلها إلى طبيب فى كمبريدج تخصص فى فحص الجماجم الأثرية، فكوّمها فى أحد أركان كوخه حتى يتسنى له تغليفها، وحدث أن بنات عرس كانت تتسلل وتهاجم هذا الركن، وأفلحت بالفعل فى سرقة عشرات منها، ولم يجد بادج وسيلة للإفلات من الجمر ك إلا بادعاء أنها «فتات عظام للتسميد». ويقول بادج «عندما تعاملت مع الجمارك، وجدت مساومتهم سهلة باستخدام هذه التسمية».

علا قدر بادج بين جامعى التحف عندما حذر مفتش الأهالى المقيم منه الأهالى باعتباره عميلاً ثرياً ذا أساليب ملتوية (فكأنه أفاده من حيث أراد أن يجد نشاطه)، أدى هذا التحذير طبعاً إلى نتيجة عكسية فأصبح بادج قبلة التجار المحليين يعرضون عليه الآثار من كل لون سراً فى كوخه عندما يأتى المساء، والطريف أن المتحف البريطانى نفسه قد علا فى أنظارهم لدرجة أنهم أبدوا استعدادهم لتسليم التحف وتأجيل الدفع حتى يعود المندوب إلى لندن فيرسل لهم الثمن من هناك، وكثير من الآثار الجميلة التى حصل عليها توصل إليها بمعاونة القنصلية البريطانية فى طيبة التى عرفته على عائلة عبد الرسول. وكانت مكافأته على التعارف تزويده بالخرائط التى استخدمها المختصون من

قبل فى استخراج كنز الدير البحرى الذى سبق الإشارة إليه، وعندما أنهى رحلته كان قد جمع أربعة وعشرين صندوقاً حاوية لمختلف التحف الأثرية، كل هذه التحف شحنها إلى إنجلترا رغم اعتراض اللورد كرومر وأمناء المتحف المصرى، وقد نجح فى تحديهم بهذا الشكل لأنه وضع الشحنة تحت رعاية البحرية البريطانية، وكان رأى رجال البحرية نفسه رأى بادج الذى ينظر إلى تجارة الأهالى فى الآثار باعتبارها عملاً مبرراً ومعقولاً لكسب العيش، واستحق بادج بذلك التقريظ الذى حظى به من المتحف سنة ١٨٨٧ مكافأة له على «نشاطه».

قام بادج بزيارة مصر مرة ثانية، وهذه المرة طلبت مصلحة الآثار وضعه تحت رقابة الأمن العام، لكن ذلك لم يؤثر فى بادج فقد كان يتقن أساليب الإفلات من الرقابة، ومما يحكى فى هذا الصدد أن صاحبنا اشترى من رجل فرنسى فى أخميم قبطية، وتمت الصفقة بهدوء (تحت سمع وبصر الرقابة)، ذلك بأن الفرنسى أولم وليمة للرقباء أنفسهم، تحين الرجلان أثناءهما فرصة فانفردا معاً وأتما الصفقة.

صادفت بادج فى الأقصر بعض المشاكل، فقد صاحبه بعض التجار فى ظلام الليل إلى مقبرة فى البر الغربى وجدها تحتوى على برديات مهمة، منها واحدة هائلة طولها ٧٨ قدماً فيها النص الكامل لكتاب الموتى، ووجد أنها تخص الرجل المرموق «أنى: كاتب الملك والمشرف على قرابين كل الآلهة وخازن غلال آلهة أبيدوس وكاتب قرابين آلهة طيبة» سجل بادج بعناية ما هو موجود على ختم البردية ثم فك جزءاً صغيراً من البردية باحتراس فوجد ما بهره لدرجة أنه كتب يقول «لقد ذهلت لروعة الصور البشرية والحيوانية المصورة وجمال ألوانها حتى بدت لى كأنها حية» وكانت معها (كما ذكرنا) برديات أخرى من المقبرة نفسها فتحفظ بادج على ذلك كله وقام بتعبئته فى صناديق أخفاها فى مكان أمين.

بعد عودته بساعات جلس مع التاجر الذى صاحبه لمخبا البرديات وشرعا فى تناول القهوة، وفجأة داهمتها الشرطة ووجد بادج نفسه رهن الاعتقال، كانت الشرطة قد رصدت عيوناً على بيوت تجار الأقصر جميعاً، بإيعاز من «يوجن جريبو» مدير الآثار الذى خلف ماسبيرو، والمخ جاسوس جريبو الذى أتى بنبا

الاعتقال إلى أن سفينته قد جنحت على الشاطئ الرملى بعيداً عن قنا بنحو إثنى عشر ميلاً، وأحاط بادج علماً بأن ريس هذه المركب تصادف أن كان عرس ابنته فى اليوم نفسه، ومن ثم فإن المركب لن تعوم مرة أخرى (قبل انقضاء العرس)، وحاول جريبو أن يعثر على ركوبة ثقلة إلى الأقصر فلم يجد حميراً، إذ كان الأهالى قد قاموا بتهريبها إلى الحقول لعدم رغبتهم فى تأجيرها.

لم يمض على ذلك إلا قليلاً حتى بلغهم خبر تعويم السفينة وأن السيد جريبو ينتظر أن يصل بين لحظة وأخرى، فقام مدير شرطة المدينة بإغلاق بيوت التجار كافة حتى البيت المرتكز على جدار فندق الأقصر، وكان البيت مخبأً لمقتنيات بادج الأثرية، وأراد التجار أن يبعدوا الحراس فدعوهم للسمر وشرب البراندى المسكر، لكن الحراس رفضوا بحزم ترك مواقعهم، ترك التجار الحراس وما هم فيه وتحولوا إلى أسلوب آخر، وكانت الخطة تتلخص فى إرسالهم فريقاً من العمال بادعاء أنهم أتوا لفلاحة الحديقة فدخلوها عند المغرب، ولما كان الجدار المرتكز عليه البيت سميكاً - حوالى قدمين - فقد قاموا بحفر سرداب تحته أوصلهم إلى بדרوم البيت المخزون فيه التحف، وأعجب بادج بأدائهم فقال «لما راقيت عملهم أيقنت أن هؤلاء الجناينىة محترفو السطو على البيوت، وأن لهم باعاً طويلاً».

تمت العملية كلها فى تكتم دون إزعاج الحراس المتخذين أماكنهم فوق سطح البيت، ذلك لأن التجار أولموا للحراس وليمة دسمة، فى الوقت الذى كان يجرى فيه تهريب الآثار عن طريق السرداب، ويفتخر بادج بذلك: «بهذه الوسيلة أنقذنا بردية آنى، وباقى ما اشتريته من آثار، أنقذناه من برائن موظفى مصلحة الآثار، وعمت الأقصر الأفراح» لا يمكننا التشهير بما فعله بادج ولا توجيه اللوم إليه لأنه لجأ لهذه الوسيلة، ولالحق فقد كان الموظفون تحت إمرة جريبو أنفسهم يبيعون ما يجمعهم رئيسهم وهم على ظهر الرفاص للمشتريين المحليين ويشاطرونهم الشراب، بينما رئيسهم يتناول عشاء غافلاً عما يفعلون، وفى القاهرة وبمنتهى الثبات والبرود طلب بادج من جهاز الشرطة نفسه معاونته فى نقل المقتنيات (لأنهم طبعاً

يجهلون ما تحتويه الصناديق!)، وفى اليوم نفسه كانت الرسالة الأثرية (برديات وألواح وخلافها) قد شحنت إلى إنجلترا ضمن الحمولات الحربية الرسمية.

لم يخرج بادج فى تصرفاته عن روح العصر الذى يعيش فيه، فقد كان كل موظفو المتاحف مثله، وكان شديد الاحتقار لهيئة الآثار والعاملين بها، ورغم أنه كان على علاقة لا بأس بها بماسبيرو، ورغم تعاونه - أحياناً - مع متحف الآثار، فقد آمن أن تعاونه مع التجار كان أجدى عليه وقد انتقدته مجلة Egyptian Gazette لأنه «معروف بطرقه الملتوية فى الحصول على الآثار لمتحفه (المتحف البريطانى)» وكان التكتيك الذى التزم به عدم بخس السعر (أى أن يشتري بسعر معقول)؛ وكان كثير الانفاق على الشراء وكان يحرض التجار المحليين على الإغارة على الجبانات الخاصة بالفترة قبل التاريخية مرة أخرى بعد انتهاء الحفائر العلمية هناك، ويقول أنه حصل على المخطوطات القبطية «بعد مداولات كثيرة أثناء تناول القهوة أو المسكرات» وكان سبباً فى ثراء المتحف البريطانى بالتراث القبطى بشكل يحسده عليه باقى متاحف أوروبا.

فى الوقت الذى كانت فيه مصلحة الآثار المثلثة للشرعية تحاول فيه أن تثبت أقدامها وتشب عن الطوق، كان بادج يمثل عدم الشرعية والالتواء والخداع وكل التكتيكات المنفرة للحصول على الآثار، وكان بادج يهوى نزح المكتشفات بالجملة لأنه كان موقناً أن تصريفها سهل: لقد كان يحاول حماية مصر القديمة! وقد كان ضمن ما كتبه: «كان جبار لصوص المقابر ومحطمو المومياوات المصريون أنفسهم، والهجمة على هواة الآثار تصرف طائش، وما يوجه لهم من لوم لا محل له... إذا رفض أحد الأثريين الشراء فغيره سوف يشتري، فإن لم يجد الأهالى مشترين البتة فسوف يحطمون المومياوات ويستخدمونها وقوداً».

ومن مقولات بادج المنطقية الطلية: «مهما وجه اللاثمون اللوم لمن يخرج أثراً من مصر، فإن العقلاء لابد أن يعترفوا بأن المومياة فى المتحف البريطانى ستكون فرصتها من العناية والصيانة أضعاف فرصتها فيما لو تركت فى مقبرتها ملكية كانت أو عادية.

وبعد وصف مستفيض للمصير الرهيب الذى ينتظر المومياوات يعود فيقول: «كان المصرى يبتهل - دائماً - لإبعاد الشر عن نفسه، كما يستقى مما هو مكتوب على التماثيل التى يدفنونها معهم، وفى المتحف البريطانى فسوف يحفظ بعيداً عن الشرور» ليس هذا فقط ، وإنما يدعى بادج أن «المرحوم» صاحب الموميااء سوف يعلو ذكره ويشتهر أمره حيث ستتوفر له الحراسة، وبطاقات التعريف، وسيسهل تصويره، وإصدار بطاقات بريدية عليها صورته، كان بادج يفاخر بأنه يدعم المصريين القدماء أنفسهم، ويباهى بنفسه مدعياً أن القانون الأخلاقى فى صفه وأن نهب مواقع الآثار المصرية عمل مشروع تماماً وحضارى... بشرط ترك بعض الآثار للمصريين للمشاهدة والفرجة أو للبحث.

١٩. السفينة النيلية وما بها من آثار

ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر، كانت مصر قد تبوأَت مكانها بين المشاتي العالمية، فقد أصبح ميسوراً لطبقة الأثرياء ومحدودي الدخل على السواء أن يسافروا إليها بعد تطور السفن البخارية، وكان هناك خط منتظم للملاحة بين إيطاليا والإسكندرية يقطع المسافة في ثلاثة أيام ونصف، وكانت أيام الرومان تقطع المسافة في ستة أيام على الأقل، ومنذ سنة ١٨٧٢ صار السفر من الإسكندرية إلى القاهرة ميسوراً بالقطار، ومنها كان يسهل تأجير رفاص أو سفينة بخارية صغيرة إلى فيلة وأسوان وبالعكس،، فأصبح بالإمكان تغطية زيارة لأهم الآثار والمعالم السياحية في مصر في مدة تقع بين ثلاثة أسابيع والشهر على أكثر تقدير، علماً بأن الذهبيات التي كانت شائعة قبل ذلك كانت تؤدي الرحلة نفسها في ثلاثة أشهر ولا تتناسب - عادة - إلا مع الفنانين ومن في حكمهم ممن يحتاجون لوقت كاف للتوقف عند كل أثر هام للتصوير أو للدراسة، وأصبح من الممكن للمرفهين الاتصال بشركات الرحلات مثل شركة كوك للتوكيلات الملاحية لتنظيم رحلة مريحة لهم إلى مصر، وكانت هذه الشركات قد وصلت إلى مستوى يمكنها من تنظيم رحلات آمنة إلى أقصى أجزاء المعمورة.

رغم ذلك ظل هناك من يعتبر زيارة مصر هي «ركوب حمار، وركوب زورق وكلها مشقة وتعب» حسب ما قال عالم الآثار «جين أمبير» بسخريته اللاذعة، لذلك كان البعض ما زال عند حسن ظنه بالدهبيات من أجل الراحة والتسلية والتثقيف، ومنهم من كان يفضل المراكب الكبيرة، وقد علمنا من قبل أن بلزوني منذ خمسين سنة مضت سحب صديقه اللورد بلمور في رحلة بحرية على شكل قافلة، مثل هؤلاء كان يمكنهم إذا تيسر لهم الوقت أن يتوغلوا جنوباً حتى أبى سمبل، وأغرى مناخ مصر الجاف بعض الناس بالإقامة الطويلة في مصر، أو التردد عليها باستمرار في فصل الشتاء، خصوصاً من كانت صحته تتأثر بالرطوبة أو يشعر بالآلام في الرئتين، وكثيرون كانوا ينتهزون الفرصة للعيش فترة في الصحراء.

من الذين زاروا مصر وأقاموا فيها فترة طويلة سيدة فاضلة قوية العزيمة أسمها الليدى «دوف جوردن» هذه السيدة أقامت في مصر سبع سنوات متتالية (١٨٦٣. ١٨٦٩) واختارت لسكنها مدينة الأقصر حيث أقامت في دار متواضعة في بيت فوق سطح معبد أثري مجاور للنيل اشتهر باسم «البيت الفرنسى»، وكانت هذه السيدة ترتاد باستمرار المناطق المجاورة وتتباسط مع الجميع غنياً كان أم فقيراً، أوجيهاً كان أم وضيعاً، لذلك أحبها الجميع، وقد أمكنها أن تتأقلم مع طباع الأهالى لدرجة أدهشت معاصريها وطوال مدة إقامتها في مصر كان طوفان رسائلها إلى عائلتها بانجلترا لا ينقطع، وقد جمعت هذه الرسائل ونشرت في مجلدين لقيا رواجاً كبيراً، وكان أسلوب السيدة في الكتابة يمتاز بالرشاقة والحيوية، رغم ما فيه من قسوة في مهاجمة بعض أحوال المجتمع الذى تعيش فيه، وقد عبرت الليدى في رسائلها عن شجبها لحكومة الوالى بسبب سوء معاملتها للأهالى، واتباعها لأساليب القمع والترهيب معهم، مما كان يؤدى إلى إثارتهم وتبرمهم في كثير من الأحوال، لكن أسلوبها كان أكثر تشويقاً عندما نتحدث عن عادات الأهالى في أمورهم الجارية مثل الزراعة والحصاد أو الأزمات التى تصيبهم.. أو عن السياح الذين استرعوا انتباهها.

كانت كتابات السيدة الفاضلة عن الأهالى في البيئة المصرية التى لم يعتدها الأوروبيون تسبب الاندهاش لقرائها، وكانت تنظر للآثار باعتبارها جزءاً لا

يفصل عن معالم البيئة المصرية، وتذكر السيدة أنها التقت بأحد رؤساء العمال المسنين الذين اشتغلوا مع بلزوني، وزارت (ربما معه؟) مقبرة سيى الأول بوادى الملوك، وفى إحدى الرسائل التى أرسلتها لزوجها - وشكرها فيما بعد على هديتها له - ذكرت له أنها تهديه تمثال سبع أثرى واعترفت فى الرسالة: «لقد سرقتك من أحد المعابد لأجلك، فقد وجدتهم يستخدمونه موطناً لأقدامهم كى يعتلوا ظهور حميرهم... وقد سرق فلاح لأجلى خاتماً فضياً جميلاً التقطه من بين أنقاض الحفائر وقال لى «لا تخطرى به مرييت، أنت أولى به من مرييت لأنه (إذا أخذه) سيبيعه للفرنسيين، ويستولى على ثمنه، ولو لم أسرقه أنا لسرقه هو. لذلك أخذت الخاتم لنفسى بكل هدوء».

سجلت القنصلية الأمريكية سنة ١٨٧٠ أسماء ثلاثمائة سائح ويبدو أن الذى أغراههم كى يزوروا مصر كتاب ظهر فى ذلك الوقت للكاتب ذائع الصيت مارك توين بعنوان «الأبرياء فى الخارج Innocents Abroad» كتب فيه طرفاً عن رحلاته بالخارج بأسلوبه الممتع الساخر المعروف، وقد زار مصر زيارة سريعة لم تتح له سوى زيارة الأهرام وأبى الهول عاد على أثرها إلى بلاده، وأعجبه فى مصر خصوصيتها «والأرض المنبسطة الممتدة بلا نهاية، ولون الخضرة التى تكسوها لانتشار محاصيل الغلال على مدى البصر» وفى نهاية زيارته للأهرام حاول واحد من مرافقيه كسر شظية من وجه أبى الهول كتذكارة. لكن مارك توين لم يفعل، فقد اهتم بما رآه من العبث بالموميאות، ووجه اللوم للمصريين لإهمالهم شأنها حتى أنه شاهدهم يوقدون بها قزانات القطارات، وقبل ذلك بسبعة عشر عاماً زار مصر الروائى الفرنسى المعروف جوستاف فلوبيير الذى وصل فى رحلته إلى الصعيد، لكنه كان أشد قسوة فى نقده لأهالى إدفو لأنه رآهم قد حولوا المعبد إلى مبولة، كما لم ينس أن يثبت شكواه لكثرة القمل.

أحدث افتتاح قناة السويس تغييراً نوعياً فى معلومات الإنجليز وعلاقتهم بمصر، فقد أصبحت مصر بعد تشغيل القناة محطة رئيسية يتوقف فيها موظفو الإمبراطورية البريطانية المتوجهين للعمل فى الهند - لقضاء بعض الوقت قبل استئناف السفر، وكانت قبلة هؤلاء الإقامة فى فندق شبرد المعروف، هذا الفندق

نزل فيه مارك توين ووصفه وصفاً لاذعاً فقال «إنه أسوأ فندق على وجه الأرض، فيما عدا واحد آخر اضطررتني الظروف أن أنزل فيه في أمريكا» وكان الفندق يرتب رحلات للنزلاء لزيارة الأهرام ويوفر للسياح وسائل الترف الممكنة . رغم تعليقات مارك توين اللاذعة، وكان نزلاء الفندق تقريباً من موظفي الحكومة البريطانية المتجهة للهند، والنصف الباقي إما من الوافدين لقضاء فصل الشتاء بمصر وإما من السياح العابرين.

كانت أميليا إدواردز من ذلك النوع الذي قلما نجده . الآن . من الروائيين الرومنطقيين من أصحاب الإنتاج الغزير السيل . تعويضاً عن عدم وجود راديو أو تليفزيون في ذلك الوقت، وخلال فترة حياتها التي استمرت واحداً وستين عاماً كتبت السيدة أميليا عدداً لا يحصى من المقالات والكتب والمذكرات والتعليقات والمحاضرات، هذه السيدة كان أبوها طبيباً، ممن رافقوا ولنجتون في حملته القارية (إشارة إلى موقعة واترلو)، وقد ظهرت مواهبها منذ الطفولة . وقد بدأت موهبتها الشعرية تظهر في السابعة من عمرها، وعندما شبت عن الطوق احترفت الصحافة، وكانت ترسل بعض الصحف الدورية مثل Chamber's Saturday Review و Journal، وألفت السيدة الفاضلة فيما بين سنتي ١٨٥٥ . ١٨٨٥ ثمانى روايات، وبعض الكتب الشعبية التي لاقت رواجاً كبيراً في الفن والتاريخ، ولقد كانت أعمالها هذه تدر عليها ربحاً وفيراً يسمح لها بحياة مترفة وسهلت لها وفرة مواردها المالية سبل القيام بحلات ترفيهية متأنية للمتعة ولتجد مادة صالحة للكتابة، وكان ذلك مما يعتبره الجمهور في ذلك الوقت (منذ قرن مضى) حقاً خالصاً للمؤلف الناجح.

كان اهتمام السيدة إدواردز بالتاريخ والمدنيات القديمة ما دفعها لزيارة سوريا ومصر زيارة طويلة (١٨٧٣ . ١٨٧٤)، وكانت النتيجة حدوث تحول في حياتها أدى بها إلى تأليف أجمل كتبها المنشورة وهو كتاب «ألف ميل في أعالي النيل A Thousand Miles up the Nile» نشر بعد انتهاء زيارتها للمنطقة بثلاث سنوات، وفيه تظهر خصائص أسلوبها الحار بكل وضوح، وكانت رحلتها في النيل رحلة مترفة نموذجية بالنسبة لأغنياء ذلك العصر، كانت رحلتها ضمن جماعة

سياحية إستأجرت ذهبيتين لتقلهم فى رحلة بطيئة حتى الشلال الثانى، إحداهما كان فيها خمسة رجال والثانية خصصت للسيدتين المرافقتين ومنهما السيدة إدواردز. ووصفت الكاتبة الفوج بأنه نموذج «لعابرى النيل صغاراً وكباراً، مهذبين وغير مهذبين، مثقفين وغير مثقفين» (أى أنهم أثرياء لكن غير متجانسين)، لكن الجميع كانوا كأقرانهم فى ذلك العصر . العصر الفيكتورى . يشعرون بتفوق حضارة مجتمعهم الإنجليزى على غيره من المجتمعات فى سلوكياته وقيمه وعقائده.. ولم تشذ نظرتهم للمصريين عن ذلك، استغلت السيدة إدواردز رحلتها أحسن استغلال فى تأليف كتابها هذا، فجاء الكتاب فى كثير من الأحيان أجزائه معبراً مفعماً بالإحساسات، وقد نقلت فيه للقراء صورة حية لمشهد النيل الممتد الذى لا يكاد يتغير ووصفت الحياة السياحية منذ قرن مضى وصفاً ممتعاً. وكتاب الألف ميل هذا كتاب تثقيفى بالدرجة الأولى، لكنه كان بعيداً كل البعد عن الجفاف الذى يميز مثل هذا النوع من الكتب عادة، لقد كان دقيقاً فى سرد الحقائق، وقد راجع ذلك بيرش الموظف بالمتحف البريطانى (سبق ذكره) كما راجعه صاحبنا بادج (كان يرتاب فى صدقها)، لكن الكتاب جاء مسلياً، بثت فيه عواطفها الجياشة وإحساساتها براعة، من الأمثلة على ذلك وصفها ليهو الكرنك الكبير، فهى عندما شاهدته تدفق منها النثر الفنى فى أجمل صوره، واستخدمت تشبيهات بليغة خصوصاً عندما أحست بوجه الشبه بين الأساطين والنخل: ... الأشجار الضخمة تحتاج لكى تزدهر إلى ثلاثة آلاف سنة، لكنها فى دأبها هذا لا تثير فينا شفقة وتعمل فى طياتها غموضاً مثل العمال (تقصد بناء الأساطين) فمنذ ستة آلاف سنة لم يكسر بها جذر (الأشجار)، ولم ترو بدماء الملايين ودموعهم (تلميح لتسخير العمال)، وأوراقها لا تعرف من الأصوات إلا تغريد الطيور، ويختلخلها فى الليل صفير الريح وهو يعصف على جبال كلاديوس! لكن.. الأنفاس التى تردد فى أبهاء الكرنك المزخرفة ما هى إلا صدى لأنفاس من ماتوا فى الحجر أو خلف المجدف أو تحت عجالات الطغاة.

وعندما شاهدت معابد فيلة الجميلة من فوق الذهبية عبرت عن إحساسها بما تراه، وانطباعها لمراها:

«روعة الاقتراب من النهر نحو الجزيرة لا تعادله روعة أخرى، إنها تبدو من فوق المركب كما لو كانت أشجارها وصفوف أعمدتها وبواباتها البرجية تخرج من البحر كالأطياف، الجزيرة تحيط بها الصخور من جانبيها، والجبال الأرجوانية تسد الطريق، وكلما زادت السفينة قرباً كلما زادت البروج علواً حتى تكاد تصل إلى السماء، إنها لا تهرم ولا تتداعى، ولكن تظل متماسكة صلبة كاملة. وهنا يحس الإنسان بألا شئ، يتغير، فلو أن صوت أغنية فرعونية انطلق في هذا السكون، أو لو موكباً من مواكب الكهنة فى عباداتهم البيضاء سار رافعاً زورق الإله آمون يطوفون به بين النخيل والأبراج... لما شعرنا بالعجب».

ثم استؤنفت الرحلة النيلية حتى معبد أبى سنبل حسب البرنامج. ومكت الفوج فيها ثمانية عشر عاماً زاروا خلالها الشلال الثانى، تسلقوا جبل أبى صير كما فعل بلزونى من قبل، وشاهدوا أسماء من سبقوهم محفورة على قمته . ومنهم بلزونى نفسه، أما المجموعة فاحتفت بالمناسبة بطريقتها الخاصة، فقد شربوا «عصير الليمون المثلج» المعبأ فى قرية من جلد الماعز .

لكن الذى أسرهم وبهرهم كان أبو سنبل نفسه، فكانت أميليا تصحو كل صباح لتشهد منظر شروق الشمس ومعجزة نور الصباح يشمل المعبد. فهى تصحوا مبكرة: «كل صباح أرى إخوتنا يُبعثون أحياء، ثم ينقلبون تماثيل... وشعرت أنه سيأتى وقت تشرق فيه الشمس، فينكف سحر التعاويذ، فيبعث هؤلاء المردة ويتكلمون».

وبدا لهم أن يفتحوا مقبرة صغيرة فكلفوا بذلك خمسين عاملاً من الأهالى، واستولوا على ما وجدوه فيها، واستمتعوا بتجربة الكشف الأثرى بصورة مباشرة بما فيها من توتر وانفعالات، وفحصوا الصور الجدارية التى ظلت مخفية منذ أحقاب، وساموا الكاشف على أجر فتح المقبرة حتى قبل أن يحصل هو ورجاله على «سته جنيهات»، وقدرين من المربى. وصندوقين من السردين، وزجاجة عطر، وصندوق كرات لعب الجولف، ونصف جنيه ذهبي.

كانت زيارة إدواردز لأبى سنبل فى وقت نشاط حركة السياحة فكان يعج بالزائرين، ورصدت فى مكان واحد ما لا يقل عن ثلاث خيام أصحابها منهمكون

فى رسم وتصوير المعبد، وكان سرب من الذهبيات مرصوصاً على الساحل وعلى طول النهر انتشر الزوار وتزاحموا عند المعابد والآثار الكبرى، وكانت بطيبة مراكب كثيرة «تنتشر عليها الألوان الإنجليزية والأمريكية» (تقصد أن غالبية الزوار إنجليز وأمريكيون)، وكان هناك جنسيات أخرى: ألمان وفرنسيون، وتجار الآثار بالأقصر يسارعون ببضاعتهم إلى كل مركب ترسو فى المكان، وكانوا: «يطاردونا وتعقبونا أينما سرنا، وكان بين الأهالى بعض الرجال العبوسين يلبسون عباءات طويلة وعمائم كبيرة.. هؤلاء اعتلوا سطح السفينة فاحتلوه وأقاموا فيه.. كل الأسبوعين.. وظلوا هكذا وعليهم سيماء الوقار والصبر، حتى إذا رأونا هبوا واقفين لتحيتنا.. ثم يخرجون من مناطقهم وفى جعبتهم أكياساً صغيرة بها جعارين وتمائيل صغيرة.. هؤلاء السادة كانوا خليطاً من العريان والقبط... وكلهم مهذبون مجاملون...».

مما أدهش السيدة إدواردز ما لمستته من تغير سلوك الزوار حتى هى نفسها عند رؤية «الأنتيكات»، واستبشعت مظاهر العبث والتخريب الذى رآته فى المقابر فى سقارة، بعد زوال الصدمة كتبت تقول:

«سرعان ما تماسكنا بعد رؤية هذه المناظر» (تقصد آثار التخريب) «وتعودنا عليها، ثم اندمجنا فى التنقيب. والبحث بين التماثيل التى يعلوها التراب دون أن نشعر بأى حرج، حتى صرنا مثل محترفى السطو على المقابر الذين احترقوا الاستيلاء على الجثث المحنطة، هذه هى التجربة التى مررنا بها.. ومن يدرى لعلنا عندما نستعرضها فيما بعد يصيبنا العجب وربما الندم.. وهذه الخشونة من الزوار وجدناها متفشية على مستوى العالم (تقصد أن كل الجنسيات كذلك).. كان المسيطر على نفوس الجميع السطو على الآثار والاستحواذ عليها.. تملكنى هذا الإحساس لدرجة أننى أعتقد أنه لو تكررت الظروف نفسها فسوف أتصرف بالطريقة نفسها».

كانت تجارة الآثار فى طيبة تدر على الأهالى ربحاً جزياً. سواء أكانت أصلية أم مقلدة؟ وكانت أحسن «الأنتيكات» (تحب المؤلفه هذه الكلمة وتستعملها بكثرة. المترجم) يدخرها التجار لبيعوها للسياح الأثرياء أو لمدوبى المتاحف، لكن الآثار

المقلدة كانت رائجة . أيضاً . ولها سوق كبير، وكانت هناك ورش تخصصت في تقليد الآثار لا يعجزها إنتاج أى شئ من لوحات منقوشة إلى تماثيل مرمرية صغيرة إلى جعارين، وكانت الجعارين تعطى مظهراً يبدو أثرياً بتأكيلاها بكثرة للديكة الرومية فتتزل مع نواتج الهضم «ولها مظهر وقور (أى للمشتري» ولكن التجارة كان لها منفصاتها لدى الأهالى، فكان الذين يحفرون بدون تراخيص عرضه لبطش المحافظ، ومع ذلك لم يكفوا عن الحفر كما كان يفعل أسلافهم منذ القدم، كذلك كما كانوا أيام بلزوني يسكنون بين المقابر - يسوقون الحمير وينقلون المياه صباحاً، ويحفرون القبور ليلاً، كل مصرى بالمدينة كان معه «أنتيكات» جاهزة للبيع يستوى فى ذلك الموظف الوقور المعمم أو المواطن الفقير، راجت الآثار فى الأقصر إذ نشط العمل فى الحفر والتهريب أو فى التزييف فأصبحت مثل خلية النحل فى تجارة الآثار.

كان تجار الآثار المقلدة لا يخشون إلا السائحين الذين قد يكتشفون التزييف، وتحديثا السيدة إدواردز أنها مع إحدى رفيقاتها ألفيا نفسيهما بالصدفة فى إحدى ورش التزييف، دخلت ظناً منها أنها دار القنصلية البريطانية هناك، فلما دخلت وجدت نفسها فى غرفة عادية بها ثلاث مناضد، عليها كل ما يخطر على البال من آثار خفيفة (مقلدة): جعران وتماثيل وجنائزة صغيرة... وكانت فى مراحل مختلفة من التشطيب، وكانت أدوات العمل متناثرة حول القطع كما كان هناك صندوق تابوت (أثرى) لحفظ الخشب، ودخل عليها عربي مهتم وطلب إليهما تأثراً أن يغادرا فوراً، وأن القنصلية انتقلت إلى مكان آخر، وتقول السيدة إدواردز: «لقد رأيت هذا العربى المهتم نفسه بعد يومين، لكنه زاغ منى فوراً واختفى فى مكان ما».

فى ذلك الوقت كان هناك نشاط لمدوبى مصلحة الآثار فى الحفر والتقيب ولكن على نطاق محدود، وكانت المومياوات التى يكشف عنها ترسل فى صناديقها مغلقة إلى متحف بولاق، وقد حظيت مسز إدواردز ذات مرة بمشاهدة عملية كشف إحدى المومياوات، فتقص علينا أنه توجهت مع مجموعتها فى وقت مبكر من أحد الأيام إلى الرمسيوم فقد عبروا النهر فى زوارق ثم امتطوا ظهور الحمير

وساروا فى السهل انملى نحو المعبد، وكان إفطارهم فوق ظهور الحمير حتى وصلوا إلى بغيتهم، وتقول السيدة إن صباحهم كان مشرقاً جميلاً، وكان منظر الشعير يغطى الوادى بالخضرة على مدى أميال مبهراً، وكان تمثالاً ممنون الفارهان يتوهجان تحت أشعة الشمس المشرقة، والزهور البرية تتراءى وسط الشعير فتعطى مظهراً خلاباً، باختصار كانت الرحلة رائعة لا يمكن إن تنسى، وكان أكثر الأشياء إثارة فى هذه الرحلة إكتشاف تابوت حجرى منقوش فى نفس لحظة وصولهم أنفسهم، وقد وجدت هذه المومياء سليمة فى قاع عميق جدرانه مبنية بالطوب، ووجدوا المحافظ بنفسه هناك يتفقد أعمال الحفر. فلما رأى السيدة إدواردز دعاها لتناول الغذاء معه فى مقبرة قريبة، يستخدمونها كمخزن مؤقت لجمع نواتج الحفر، وتكونت الوجبة من لبن رايب (لبن حامض معروف بالصعيد . المترجم) ثم «صينية بها كعك لا يمكن أن يكون هناك أردأ منه» فأكلوا مع رائحة وعفار الأسمدة (القصد عفار الحفر).

أحسبت السيدة إدواردز بالعطش والرغبة فى تناول المرطبات، والحق أن المجموعة أمتعت نفسها بوجبة أرستقراطية داخل الرمسيوم، حيث فرشت لهم الحصر بين أساطين المعبد، وأخذ الخدم يروحون عليهم ويغدون، بينما كانت بالقرب منهم جاموسة تحلب لهم لبناً شهياً سائغاً شرابه، تفوح منه رائحة زكية وكان «العربان السمر فى الخرق البالية» يطوفون عليهم ببضاعتهم المزجاة: جعلان مقلدة وكسرات من توابيت الموتى وتمائيل مزيفة، وكانوا كالعهد بهم طوال الرحلة مؤدبون (إلى حد ما)، وكانوا دائمي التحية والمديح لمن يرونهم رسل المدينة الذين كانوا حريصين على الظهور بالمستوى اللائق رغم اغترابهم عن أوطانهم.

كان وصف حياة السياح منذ قرن ينساب فى صفحات كتاب السيدة إدواردز تتكلم عن سياحتها، والقارئ للكتاب يجد نفسه هائماً بين البهجة والثقافة والتنوير والندشة، وما أن وطأت قدمها أرض الوطن (إنجلترا) حتى بدأت تتشكك نشاطاً غير معتاد، فأخذت تلقى المحاضرات فى النوادى والجمعيات، وتكتب المقال تلو المقال عن تجربتها السياحية فى مصر، وشجبت السيدة إدواردز ما شاهدته من نهب وتهريب للآثار، وتخريب للمعابد والمقابر الفرعونية، وأبدت

أسفها واستنكارها للفوضى التي تسود عمليات الكشف عن الآثار. ونعت على المستكشفين التزامهم بالتقنيات السليمة في الحفر والتنقيب، وكان أسفها شديداً لقيام الأهالي بتخريب وتفكيك المعابد الأثرية للاستيلاء على حجارتها.

رغم أن قلم أميليا إدواردز كان سلاحاً فعالاً في تشكيل رأي عام يقدر مصر القديمة إلا أن الاهتمام بما يتعلق بمصر كان قد أخذ فعلاً في التبلور بين أوساط المتقبيين، فقد أقبل الناس حتى في الأرياف على شراء أحدث وأهم المونوجرافات عن طيبة، وبيعت عشرات الآلاف من نسخ الروايات التاريخية التي تتكلم عن الفراعنة، وكانت الكتب التي تربط بين مصر القديمة والكتاب المقدس، من أروج الهدايا بين الناس في أعياد الميلاد وعيد الكريسماس، وانتابت الناس حمى الاهتمام بالفترة قبل التاريخية، ويعود الفضل في ذلك إلى كل من: «هنريش شليمان» الذي أجرى استكشافاته في طروادة و«أوستن هنري لايار» وأقرانه الذين أجروا استكشافاتهم في وادي النهرين (العراق)، وكان التعليم الكلاسيكي ما زال يميز الشخص المثقف، وكذلك كانت المعلومات الدقيقة عن الكتاب المقدس في منتهى الأهمية، وكان لمصر في كل ذلك مكان ملحوظ، وكان كل مثقف ينبهر بالأهرام والمومياء والأشكال الهيروغليفية، فقبل زمن أميليا إدواردز بكثير، كانت المصريات قد بدأت تسيطر على الجماهير الأوروبية فاهتموا: بالمعمار المصري والموضات، وبدرجة أقل بالأدب الجاد، ويعود الفضل في ذلك إلى رجال مثل ويلكنسن ولبسيوس من المثقفين بالإضافة إلى آلاف المؤلفين ذوي الاهتمامات الدينية، لكن للأسف كان كثير من هذا الإنتاج الأدبي مضللاً بدرجة كبيرة، والسبب أن من المستحيل على أي كاتب من العصر الفيكتوري له نظرتة الخاصة الضيقة ومبادئه الثقافية (أي القاطعة كالسيف) أن يتفهم البيئة المصرية المعاصرة له بسهولة.. فما بالك بمصر القديمة؟!

على أي حال تحمست أميليا إدواردز للدعوة لاتباع الأساليب العلمية في الكشف الأثرية، ولم تكل عن النشاط في هذا المجال منذ رجوعها إلى إنجلترا حتى وفاتها سنة ١٨٩٢، واستمر فيض مقالاتها على نفس الوتيرة نفسها: «لن يقف تهريب آثار مصر وتخريبها إلا باتباع التقنيات العلمية في الحفر والتنقيب

والبحث» وشغلها الموضوع لدرجة أنها كرست له كل جهودها وكفت عن الكتابة فى أى موضوع آخر .

كان علماء المصريات المتخصصين فى بريطانيا معنيين كثيراً بما يجرى فى مصر (فى مجال الآثار)، وقد طرحت من قبل سنة ١٨٨٠ فكرة تأسيس جمعية لحماية المباني القديمة (الأثرية)، لكنها لم تؤد إلى نتيجة، لذلك قامت أميليا إدواردز فى مارس سنة ١٨٨٢ بتبنى مشروع يرمى إلى تأسيس «صندوق الآثار المصرية» يكون هدفه الإشراف على الكشف الأثرية على أسس علمية، وسعت لعقد اجتماع تأسيسى يضم شخصيات لها ثقلها فى المصريات منها المستشرق المعروف «ريجيناى ستيوارت بول» والطبيب السير «أرازموس ويلسون» الجراح المشهور . الذى مول نقل المسلة التى اشتهرت باسم إبرة كليو باترا من الاسكندرية إلى لندن، وقد بلغت تكاليف نقل المسلة عشرة آلاف جنيه . وهو مبلغ طائل بمقاييس ذلك العصر، واجتمعت الجمعية التأسيسية للمشروع فى المتحف البريطانى وأسفر عن تأسيس «صندوق دعم الاستكشافات (الأثرية) المصرية» برئاسة الراعى الأكبر للمشروع . الطبيب ويلسون، وسكرتارية كل من السيدة إدواردز والسيد بول، وأعلن عن تأسيس الصندوق فى كل الصحف المهمة، واحتوى الإعلان على طلب التبرعات لتمويل الصندوق، مع بيان تفصيلى عن الموقع المزمع استكشافها، وحددت أهداف الصندوق كما يلى: «تنظيم البعثات الكشفية فى مصر، مع العناية ببحث تاريخ وفنون مصر القديمة، وتوضيح ما جاء فى قصص التوراة عن مصر والمصريين» وكان صندوق الكشف المصرية من أوائل الهيئات التى تقدمت للحصول على تصاريح رسمية بالحفر والتنقيب عن الآثار، وكانت تولى عناية كبيرة للبحوث الجادة، وبهذه الصورة أصبح الصندوق منظمة علمية كشفية قانونية، له الحق فى إصدار مطبوعات عن الآثار، ومبرراً من شبهة النهب والتخريب، والجرى وراء الآثار المظاهرة .

كانت الحفائر الأثرية فى ثمانينيات القرن التاسع عشر ما زالت تجرى بطريقة عشوائية بعيدة عن الأسلوب العلمى؛ لذلك كان الحفر يؤدى فى كثير من الأحوال إلى تخريب قد يكون واسع المدى، ولم يكن يسبق أعمال الحفر دراسة

ولا تخطيط، وكان الهدف من الكشف - دائماً - الحصول على «أكبر كمية فى أقصر وقت» وكانت تقنيات الحفر نفسها متخلفة تؤدى إلى مزيد من الخسائر، وكانت أساليب مرييت وماسبيرو ومن على شاكلتهم ذات أثر مدمر، وقد انتقد «بترى» الإنجليزى هذه الأساليب فى وقت تهيأت فيه رياح التغيير، وعاون على زيادة الوعى بأهمية تغيير أساليب جهود باحثين فى أماكن أخرى، مثل «لابار» فى العراق، و«شيلمان» فى طرواده، وطرح «بسيوس» تقنيات جديدة أخذ بها العلماء الألمان فى الحضر والتسجيل، وأدى ذلك إلى تطور فى مفهوم التنقيب الحقلى فى المواقع الأثرية، وأصبح علماً حقيقياً له قواعده وأصوله، وأصبح له أهداف نبيلة، لا مجرد اصطياد للكنوز الأثرية، بذلك نشأ علم الحفائر الحديث،

نود أن نشير من بين رواد المصريات الذين تبنا أساليب حديثة إلى المحامى الاسكتلندى الشاب «إسكندر هنرى ريند» ذى الطبع الهادئ الوديع، هذا الرجل كان يعانى من متاعب صحية فحضر إلى مصر فى شتاء سنة ١٨٨٥ للعلاج، وفى الشتاء التالى حضر إلى مصر وفى نيته التسلى بالبحث الأثرى، وأمضى موسمين باحثاً عن مقبرة سليمة كى يعاينها ويسجلها بأسلوب منظم لأنه حسب قوله كانت «عناية المستكشفين تتجه - دائماً - إلى الاستحواذ على الآثار، فلم يعبؤوا بذكر الظروف التى اكتشفت فيها الآثار» (أى بالتسجيل)، ثم يذكر أن ما قام به دروفيتى وسولت من حفائر فى طيبة عشوائى عنيف غير مسئول أدى إلى كثير من التخريب، ولم يترك لغيرهما سوى فرصة ضئيلة للعثور على مقبرة سليمة، وبعد طول عناء وجد ويند مقبرة مناسبة لأن آخر من دفنوا بها لم يقربهم أحد» ورصد «ريند» الموقع بدقة، وسجل خطوات الحفر أولاً بأول، وسجل محتويات المقبرة، وموضع كل شئ وجده فيها، وسجل ما لاحظته من الانتهاك المتكرر للمقبرة. وكشف الغطاء عن آخر من دفن فيها، وحدد أسماءهم التى وجدها مسجلة على البرديات المصاحبة لجثثهم، وأصدر فى النهاية كتاباً عنها تحت عنوان «طيبة: مقابرها وسكانها» وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢.

مما يؤسف له أن ريند مات فى ريعان شبابه فى الثلاثين من عمره أثناء عودته من رحلته الثالثة إلى مصر، ورغم أنه لم يكن أول من كشف عن مقبرة

سليمة إلا أنه يكاد يكون أول من اعتنى بالتسجيل والحفر السليم، ولا نشك أنه لو عاش أكثر لأفاد المصريين كثيراً؛ لأنه كان يتسم فى عمله بالصبر والدقة.

اختار صندوق دعم الكشوف أثرياً سويسرياً كأول وكلائها فى مصر، عقب الغزو البريطانى، هذا العالم هو «هنرى نافيل» أحد تلاميذ لبيسيوس النابغين، وأجرى نافيل أول حفائره فى تل المسخوطة بجوار قناة السويس فى منطقة الدلتا، وكان ذلك بناء على تعليمات مشددة من الصندوق بالبعد عن الصعيد وتركيز النشاط الكشفى فى الوجه البحرى والدلتا لأنها منطقة بكر تحوى آثاراً مهمة.

أثارت حفائر نافيل فى المسخوطة اهتماماً شعبياً كبيراً، ذلك لأنه منذ سنوات ترسخ لدى العلماء اعتقاداً خاطئاً بوجود مدينتين بناهما الإسرائيليون لرمسيس الثانى، هما «بر رمسيس» و«بيثوم»، وكان هدف نافيل فى الموسم الأول التوصل إلى خيط يربط المدينة بالنصوص التوراتية، وأسفر الحفر عن ظهور أطلال أحد المعابد، وأحد أحياء مدينة قديمة ومجموعة تحصينات ومعسكر حربى، وقدر نافيل أن المدينة بنيت ما بين ١٤٠٠ - ١٥٠٠ ق.م. وكان ما وجده من آثار مكرساً للإله آتوم لذلك استنتج نافيل أن المدينة نفسها بيثوم أى مدينة آتوم التى تقرأ أحياناً . بر آتوم (يعنى رآيه أن بى آتوم وبيثوم شىء واحد)، وهلل أمناء الصندوق ونوهوا بالكشف وعملوا له دعاية واسعة لجمع المعونات للاستكشافات، ورغم أن الكثير من علماء المصريين شككوا فى آراء نافيل إلا أن الجمهور أصبح مؤمناً بأن الحفائر الحديثة قد أيدت النصوص التوراتية بدرجة كافية.

كان نافيل مثل الكثيرين من رواد المصريين يمتلك قدرة لا حد لها على العمل الشاق الدؤوب، وكان يفضل (مثلهم) اكتشاف الآثار العظيمة والمعابد، وكان ما زال متأثراً بأفكار مرييت وماسبيرو اللذين تدرّب معهما، فلم يستطع التخلص تماماً . من السعى وراء المظاهرات، ورغم هذه السلبيات كان له إيجابياته . فقد كان يتميز بذكاء حاد وأفكار بناءة؛ لذلك أمكنه أن يرفع من شأن صندوق دعم الآثار المصرية حتى احتل مكاناً بين المنظمات المهمة بالبحوث الأثرية، وكانت

حفائره التى أجراها فى وادى الطميلات سنتى ١٨٨٥، ١٨٨٦ ثم فى تل بسطة من سنة ١٨٨٦ إلى ١٨٨٩ مثار اهتمام كثير من الأثريين.

استمر هذا الأثرى الشهير فى العمل لحساب الصندوق حتى سنة ١٩١٣، وكان بينه وبين الأثريين الألمان خصام شديد، ويمكن تلخيص السبب فى أن نافيل ذلك الرجل الضخم اللطيف وتلميذ لبسيوس كان ييغض الطرق التوتونية (أى الألمانية) التى تلتزم بالأسلوبية المدرسية التى تصر على الوصف التفصيلى والتسجيل على بطاقات التعريف.

ولكن المدرسة الألمانية المتزمتة فى أساليبها الأكاديمية، كان لها أفضال على المصريين فى أواخر القرن التاسع عشر، وتلاميذ هذه المدرسة ليسوا جميعاً من تلاميذ لبسيوس بل من تتلمذ على يد جورج مورتيز إبيرس G.M. Ebers، أستاذ المصريين فى ليبزج، وكان إبيرس الكاتب العظيم فى علوم المصريين، من أعظم المدرسين أيضاً، لكن أهم إنجازاته كان سلسلة من الروايات التاريخية ذات القيمة (النبرة أو الحس) المصرية القديمة، وأشهر كتب هذه السلسلة كتاب «الأميرة المصرية» الصادر سنة ١٨٦٤، وقد ترجمت القصة إلى ست عشرة لغة، وبيعت منها أربعمئة ألف نسخة حتى سنة ١٩٢٢، وتحكى القصة حكاية أميرة مصرية أيام الغزو الفارسى، هذه الأميرة يراودها الفاتح قمبيز عن نفسها: لأن جمالها كان باهراً، وكانت حساسة شامخة لكنها فوق كل شئ «إنسانة»، وهذه الشخصية تكاد تصف الأميرات العصريات المجهورات، ولا شك أن بطلة القصة وكانت «ذات دم أزرق (ملكى) يزيد بها جمالاً على جمال» عصابة رأسها تتلألأ فوق جسدها الرشيق، فتزيدها طولاً. كانت تخب لب القارئ، لكن إبيرز يوظف النص فيضمه أوصافاً تفصيلية للصناعات المصرية والعادات والألوان، وكانت مثل هذه الروايات الرومانسية يقبل عليها بنهم سيدات عصره المتعطشات إلى الحب.

من أهم رواد المدرسة الألمانية العالم الفذ أدولف إيرمان Erman مدير الآثار المصرية بمتحف برلين، وقد دخل إسمه فى الموسوعة المعروفة Who is Who التى عرفته بأنه «إعصار، وهو الأعظم بعد شمبليون». كان إيرمان من المهتمين

باليهروغليفية وبحوثه فيها مهمة جداً، ومن أهم إنجازاته أنه أثبت العلاقة بين الهيروغليفية واللغات السامية، وإيرمان طرح فكرة تقسيم التاريخ القديم في مصر إلى العصور الثلاثة: العصر القديم والعصر المتوسط ثم العصر المتأخر، كذلك كان إيرمان من الرواد في ترجمة وتفسير النصوص الهيرغليفية، وكان إيرمان من النوع الموسوعي سواء في الفكر أو في النشاط، فقد اهتم بمجالات كثيرة أهمها الآثار التاريخ واللغة، وإيرمان له كتاب مشهور إسمه «الحياة اليومية في مصر القديمة»، وهو كتاب مبتكر في موضوعه يصف المصريين القدماء في حياتهم العادية، اعتمد فيه على مصادر فرعونية بحتة؛ لذلك خرج الكتاب في شكل رائع لا تزول جديته، والكتاب حتى يومنا هذا من الكتب المتدولة المعروفة الفريدة في بابها.

تضافرت ظروف وأحداث عديدة على إيصال علم الآثار المصرى إلى أعتاب مرحلة جديدة، أدت إلى تغيير جذرى إلى الأفضل. فقد أصبح لعلماء المصريات الألمان والفرنسيين تأثير كبير وارتفعت أصواتهم وكلماتهم البليغة والمؤثرة، وزاد من تأثيرهم تحسن الاتصالات، وتدفق المعلومات عن المصريين القدماء، وكلها تشير إلى ضرورة توفر المعلومات الموثقة المسجلة الدقيقة، كانت روايات إبير يقبل عليها القراء بنهم، كما كانت كتب السيدة أميليا إدواردز ومقالاتها ذات صفة تنويرية لقطاع كبير من المثقفين لم يكن موجوداً من قبل، وكانت الأمور في مصر قد أصبحت مستقرة تحت علم الإمبراطورية البريطانية، مما هيأ الجو سياسياً لمواصلة الحفائر الأثرية على الأسس العلمية (اللائقة).

قامت السيدة أميليا إدواردز برحلة إلى الولايات المتحدة في ١٨٨٩ / ١٨٩٠ للدعاية لصندوق دعم الآثار، ودعوة الأمريكيين للتبرع له من أجل الاستكشافات الأثرية واستمرارها، وكانت رحلتها ناجحة للغاية، ومحاضراتها تلقى ترحيباً كبيراً، كانت السيدة قد كتبت قبل ذلك منذ سنة ١٨٨٣ «قام الفرنسيون في الوجه القبلى والإنجليز في الوجه البحرى ببذل الجهود المضنية للكشف عن الكتوز المدفونة لأعرق شعوب الأرض» ثم تستطرد في ثقة «قدماء المصريين المدفونين في ثرى مصر أكثر من كل الرجال والنساء الذين يعيشون فوق ثراها» وقبل ذلك

بست سنوات استأجر الصندوق (صندوق دعم الكشوف المصرية) شاباً إنجليزياً
ليقوم لحساب الصندوق بإجراء حفائر في الدلتا، واستمرت العلاقة بين الفتى
والصندوق ثلاثة سنوات فقط، هذا الفتى اسمه فلندرز بترى F.Petrie، كتب له أن
يكون واحداً من الرموز البارزة في الاستكشافات الأثرية في وادي النيل.

٢٠. نقوش وأدوات وأماكن واحتمالات

ولد فلندز بيتري Petrie سنة ١٨٥٣ فى أسرة معروفة بحب الأسفار والاهتمام بالبحث العلمى أحياناً. ولم ينل بيتري تعليماً نظامياً يذكر، لكنه تلقى على يدي أبيه تدريباً جيداً فى المساحة والهندسة، واعتاد بيتري التجول فى الريف ومعه بعض أدوات أبيه مثل مقياس الارتفاعات والتلسكوب لرصد بعض المواقع عند الحفائر الأثرية: وكان حسب قوله «يصرف خمسة ونصف على الطعام كل أ، ببوع، وضعفها على المبيت». ويقول بيتري: «لقد درست الأرض والناس فى جنوب إنجلترا كله، وكنت أبيت فى أحد الأكواخ». ويعتبر هذا تدريباً جيداً سوف يساعد بيتري فيما بعد فى عمله فى الصحراء بالإضافة إلى اهتمامه بدراسة العملات والاطلاع على الكتب فى المتحف البريطانى.

وكان بيتري وأبوه يوليان اهتماماً كبيراً بالأهرامات المصرية منذ فترة طويلة. وأحد أسباب هذا الاهتمام اطلاعهما على كتاب للفلكى «بيازى سميث» عنوانه «ميراثنا من الهرم الأكبر»، وهو كتاب تأملى ليس له أهمية تذكر اشتراه بيتري مصادفة وهو فى الثالثة عشرة من عمره. وأزمع الأب وابنه على القيام برحلة لإجراء مسح شامل للهرم الأكبر، يكون أكثر دقة من محاولات مسحه السابقة.

لذلك اتصلا «بستونهنج» سنة ١٨٧٢ ثم شرعاً فى وضع خطة مناسبة للمسح استغرق إعدادها عدة سنوات. وفى نوفمبر سنة ١٨٨٠ سبق بيترى أباه فى السفر إلى مصر ليبدأ حياة جديدة، وكان آنذاك فى السابعة والعشرين من عمره. وتأثر بيترى عندما علم أن أباه صرف النظر عن اللحاق به فى مصر وأثر البقاء فى وطنه. المهم أن بيترى وصل إلى الإسكندرية بعد رحلة عاصفة استغرقت شهراً كاملاً. ولم يمض أسبوع على وصوله حتى كان قد استقر فى هدوء داخل مقبرة عند الهرم فى الجيزة، بعد أن حصل بسهولة على التصريح اللازم لأنه لم يكن يسعى لإجراء أى حفائر يمكن لمرييت أو لمصلحة الآثار أن تعترض عليها.

كان مسح بيترى للهرم مبتكراً حسب المقاييس المعاصرة فى ذلك الوقت، فقد أمضى عدة أسابيع فى اختيار نقط الرصد ودراسة تركيب الأهرام، وقد توفر لديه وقت كاف ليراقب أسلوب مرييت ومعاونيه فى الحفر، فوجده منفراً متخلفاً.

كان مرييت لا يبالي بنسف كل الحجارة الجرانيتية الساقطة من المعبد ترافقه كتيبة ضخمة من العسكر، ولا يبالي برفع الحجارة ونقلها باستخدام الروافع... لم يكن العمل يجرى بنظام وانسجام، ولم تكن هناك خطة (للتفويض)، وما أن يبدأ العمل فى مكان حتى يترك دون إكمال. ولم يكن هناك أى اعتبار للمستقبل فى مجال الاستكشاف، كما لم تتبع أساليب متحضرة أو وسائل مناسبة لحماية العمال. إنه لشيء مؤلم أن نرى المدى الضخم لتخريب كل شيء.. وكان آخر ما ينال الاهتمام هو الحفظ والصيانة.

استرعى المسح الذى أجراه الشاب الإنجليزي الأثريين الجادين، فزاره كثيرون فى بيته المقبرى، منهم الجنرال الكبير «لين فوكس بت ريفرز» أحد رواد الحفائر الدقيقة، وأبدى حماساً شديداً وتشجيعاً لجهود بيترى. وقد افقتن بيترى بكرانكات الهرم ومقاييسها، (كرانك معناها ذراع.. والمعنى هنا مبهم - المترجم).

وفى أوقات راحته من أعمال المسح كان بيترى يجمع الشقفات الخزفية وما يستطيع من أدوات أثرية خفيفة. وكان ماسبيرو قد نصحه بإخفاء الآثار الخفيفة

فى جيو به هرباً من التفتيش. كان ماسبيرو يستخف الآثار الخفيفة، أما بيترى فكان يعتقد أن مثل هذه الآثار كالأوانى الخزفية المزججة فيها ما يعين على كشف الغموض عن مصر القديمة، وهذا بالإضافة إلى ما رآه حوله من آثار التخريب هو الذى دفع بيترى كى يحول اهتمامه من مجرد المسح على الحفر نفسه. كانت عمليات المسح التى يقوم بها تؤيدها الجمعية الملكية، فلما عزم على الحفر توجه لصندوق دعم الكشف لدعمه مادياً. وفى البداية كان أعضاء مجلس الإدارة ساخطين على هذا المارق حتى السيدة آميليا إدواردز نفسها. ولكن نجاحه فى مسح الهرم دفعهم للسماح له ببعض البحوث لكن بلا تمويل. ولم يمس إلا قليلاً من الوقت حتى وصلت من بيترى رسالة إلى السيدة إدواردز: «إن مجال الحفر الأثرى فى مصر يستهوينى كثيراً، وأرجو أن تكون النتيجة محققة للأمال وأشعر أن الأسلوب المناسب يتلخص فى العناية بالتدوين والمقارنة بين التفاصيل الدقيقة.. و (ليس) فى السعى وراء جمع (الآثار) بالجملة والارتجال فى تنظيف (المواقع)».

كانت الاستكشافات الأثرية المصرية فى وضع خطير، وكان بيترى مدركاً لأوجه النقص فى هذا المجال من اتصالاته بالمتحف البريطانى: وكان مدهوشاً من هذا القصور. ومن الأمثلة على ذلك أن المستشرق بيرش طلب من بيترى أن يرسل له صندوقاً يحتوى على فخاريات متنوعة من «كل موقع مهم» لمساعدته فى تتبع التسلسل التاريخى فى مصر. ويقول بيترى إنه «بعد سنة من وجودى فى مصر أحسست أنها مثل البيت المشتعل بالنار... فقد كان التخريب يجرى بسرعة مذهلة. وكان يتعين على جمع ما أستطيع جمعه بسرعة، كى أحفظه حتى أبلغ الستين من عمري فأنقرغ له ولم يكن هناك أى اهتمام بالدقة والإتقان.. أما النهب والسلب فكانا على أشدهما».

أسرع بيترى بالعودة إلى مصر، وبدأ يدخل فى الحفر فى بعض المواقع ومنها تانيش ونوقراطيس، وكانت الأرض فيها «غنية بالخزف الإغريقى القديم (الأثرى)، لدرجة يشعر المرء معها (بالذنب) كما لو كان يندس المكان وهو يدوس أكوام الفخار الأسود اللامع فتتحطم تحت وطء قدميه. وانفرد بيترى عم

سبقوه باتباع أسلوب تأجير العمال وإيوائهم بنفسه دون وساطة الشيوخ ليأمن مكرهم واستغلالهم للعمال، لأنهم اعتادوا على إبعاد العامل الذي لا يدفع «المعلوم»؛ وبهذا الأسلوب اختزلت مشاكل العمل بشكل ملحوظ.

سرعان ما اكتشف بيتري أن مارييت كانت له أساليب مختلفة. كان مارييت يترك الأمر برمته للمشرفين، فكانوا يتعهدون بإحضار العمال من القرى، ويتولون صرف أجورهم. فكان من الطبيعي أن يميل المشرفون إلى التفاوض عن تعبئة الموسرين من الفلاحين لأنهم أقدر على دفع الرشوة. أما فقراء الفلاحين فكانوا يساقون قسراً للعمل. وكانت أغلب الحفائر المحلية تجرى بصورة عشوائية. وكان الحفر الذي يقوم به الأهالي كما يقول بيتري ينحصر في «عمل حفرة عميقة مستديرة ينثرون حولها ما يجدوه بلا نظام، وقد قاسيت الأمرين لحثهم على حفر خنادق مستقيمة ضيقة»، ورغم أن طرق بيتري في تنفيذ الحفائر كانت أحسن من غيره، إلا أنها بالنسبة للطرق الحديثة كانت متخلفة ومخربة. كانت طبقات ثلاثة من العمال: الحفارون، والغواصون (الذين ينزلون إلى الأبيار)، والنزاحون (لرفع المخلفات وإخلاء المنافذ). وكان يصحب كل مجموعة عدد من العمال بمقاطفهم لإزالة الأتربة. وكان بيتري يحرص على توفير الرقابة على العمال، وإن كنا نهمل كيفية ذلك بالضبط ولم يمانع بيتري في استخدام الفتيات في الدق والتكسير. وكانت إحداهن فتاة شقية ثرثارة، أدهشتني كيفية تعاملها مع الشيخ الذي زاملته إلا أنها كانت تسلقه بلسانها بلا توقف، ولا تكف لسانها السليط حتى وهى تنهال عليه بمقطفها».

كان العمل يبدأ في الخامسة والنصف صباحاً وينتهي في السادسة والنصف مساءً، مع فترة راحة قصيرة عند اشتداد الحرارة في الظهر. وأحياناً كان بيتري يذهب لخيمته للإفطار ومن هناك يراقب العمل بالتلسكوب. وفي الأوقات الأخرى تجده دائماً في مواقع العمل وعينه كعين الصقر لا تغفل عما يجري. هذا بينما كان مارييت لا يزور مواقع الحفر إلا مرة واحدة كل فترة (ثلاث أسابيع أحياناً). وفي كل زيارة كان يعطى تعليماته بما يراه جاهزاً في زيارته القادمة. وكان يطلق يد المشرفين في قيادة العمال فحققوا من توظيف العمال والرشاوى

أرباحاً طائلة. وكان هؤلاء يتخوفون من أن الإنتاج إن لم يكن غزيراً، فإن أعمال الحفر قد تتوقف؛ فكانوا إذا تعثرت الحفائر لا يتورعون عن شراء بعض الآثار الخفيفة من تجار الآثار بالقاهرة حتى تظل شهية مربية مفتوحة للحفر. أما نواتج الحفر المهمة فكانوا يخفونها حتى تحين الفرصة المناسبة التي تحقق لهم ما يطمعون من ربح فيظهرونها (المقصود طبعاً المنح الإضافية والبقيشيش... إلخ). لذلك لا تستغرب كثيراً إذا ما كان يصرح به متحف القاهرة من احتوائه على كل ما ينتج من أعمال الحفر التي يقوم بها الأجانب موجود بالمتحف، لا يعنى سوى حدة كبيرة (أى لا أساس لها من الصحة).

حصل بيتري من حفائره على نتائج جيدة مفيدة إذ تمكن من تنظيف وكشف جزء من معبد وفناء كبير مسور للزرعون بسوسنس الأول من الأسرة الحادية والعشرين، واكتشف كمية كبيرة من الفخار ومن الصناديق المليئة بالبرديات التي حُمِل بعضها فيما بعد على الزجاج ثم ترجم. وقد أرسل الكثير مما اكتشفه إلى إنجلترا وعرض في معهد الآثار الملكية بلندن. وأهم من ذلك كله أن بيتري أثناء وجوده في إنجلترا أمضى وقته في تسجيل نتائج أعماله كي تنشر نتائج أعماله بسرعة. وكانت أميليا إدواردز تطلب ما ينشر له في الصحف المتخصصة، وتعتمد عليها في كتابة مقالات مستوقة تنشرها في جريدة التيمز London Times. كان هذا على وجه الحقيقة لا يعدو أن يكون مقدمة في الكشف الأثرية التي استغرقت حياة بيتري كلها بعد ذلك في مصر وفلسطين.

على الرغم من أن حفائر فلندرز كانت أكثر انضباطاً ممن سبقوه، إلا أن تقنياته كانت متخلفة حسب المقاييس الحديثة. فقد اعتاد على استخدام قوة عمل كبيرة تزيح بالكامل تلالاً من الترسيبات الأثرية. ففي حفائره في نواقرطيس سنة ١٨٨٥، استخدم بيتري مائة عامل وسبعة عملوا تحت إشراف اثنين فقط من الأوروبيين؛ مما أربك عملية صرف البقيشيش (المكافأة) نظير العثور على الآثار الخفيفة. وكان بيتري في الواقع يتنافس في ذلك مع تجار الآثار المحليين، مثل من سبقوه. وحاول حل المشكلة على أساس نوعي. كل نوع له

ثمنه، فإذا حدث خلاف على السعر رفض شراء الأثر. والظاهر أن هذه السياسة أثبتت نجاحها.

أدرك بيتري الأهمية القصوى للتبويب حسب التسلسل التاريخي أثناء إجراء حفائره في نوقراطيس، وأهمية طبقات الحفر وأعماقها في تصنيف التسلسل التاريخي للآثار. ونجح في كثير من الأحيان في تحديد تاريخ إنتاج الآثار التي حصل عليها. وحاول تحديد عمر المعابد والمباني بربطها بالطبقات الرسوبية. ومن حسن حظه أنا لكثير من الآثار الخفيفة على أعماق مختلفة يتألف من جعارين وعملات وأشياء منقوشة يسهل تحديد عمرها من النصوص المنقوشة عليها إذا وجدت من يحسن قراءتها. هذا الاتجاه كان جديداً تماماً لم يستخدم في مصر قبل بيتري.

في سنة ١٨٨٧، ترأس بيتري بعثة كشفية مهمة في الفيوم عقب انتهاء عقده مع صندوق دعم الآثار اللندني للعمل كوكيل مستقل. كان اهتمامه - في الفيوم - موجهاً إلى هرم هواره الذي أشاد به بلزوني منذ سبعين عاماً. ولم تكن ظروف العمل مريحة، إذ عسكر بيتري في خيمة صغيرة، وكتب شاكياً «تصور كيف يمكن لإنسان ما أن يتكوم في مساحة طولها ستة أقدام ونصف وعرضها مثل ذلك... ومع السرير كان معي تسعة صناديق تحوى كل أنواع المؤن. بالإضافة إلى بانيو (للحمام) وموقد للطبخ وزير (للشرب) وحامل للزير ذي ثلاثة أرجل... وبعض الآثار (أيضاً). هكذا كتب على أن أعيش وأنام وأغتسل... وأستقبل زوارى». وكان يحفظ المومياوات المهمة تحت سريره زيادة في الاحتياط.

وكان يعمل مع بيتري عدد ضخم من العمال، بدا له أنهم أحبوا العمل معه: «كان النفع في المزامير مستمراً، يصحبه الفناء والتصفيق والصياح. وحالة عامة من المرح» وشق العمال خندقاً يصل إلى قلب الهرم مصحوباً بالاستكشاف أولاً بأول داخل الهرم. ولم يؤد الخندق إلى شيء، إذ انتهى إلى سقف غرفة سميكاً جداً ولم يكن الوقت المحدد لإنهاء الاستكشاف يسمح بنقبة. ولكن بيتري حوالى ذلك الوقت كان قد وجه اهتمامه إلى مجموعة مومياوات رومانية واردة من جبانة

مجاورة، قدر عمرها بين سنتي ١٠٠ و ٢٥٠ ميلادية. كانت ألواح التوابيت الخشبية الخاصة بالمومياوات عليها نقوش بالشمع الملون تمثل صور وجوه بشرية (بورتريه). وهذا النوع معروف أنه كان قبل الوفاة ويعلق على جدران البيوت ثم يسوى منه التابوت ويوضع فيه الميت ثم يدفن. وكانت الجثث تدفن في أبناس جماعية لكل أسرة تحفر بجوار البيوت وتستعمل لجيل من الأفراد وربما أكثر، ثم تنقل من المقبرة الأسرية الجبانة إلى الجماعة الكبيرة المجاورة للهرم.

كل هذه البورتريهات ومعها ستون صندوقاً حاوية لكثير من الآثار الأخرى شحنت إلى متحف بولاق حيث كومت في العراء تحت رحمة الرطوبة وأمطار الربيع. والتلف. وكاد بيتري يصيبه الغثيان وعندما أصر المتحف على الاحتفاظ بأحسن ما في الرسالة من البورتريهات والمنسوجات. رغم ذلك بقي لبيتري ما مكنه إقامة معرض جميل لبعض البورتريهات والمومياوات في صالة كبيرة من الجناح المصري في بيكادلى، هي القاعة نفسها التي أقام فيها جيوفانى بلزوني معرضه من قبل. وكانت هناك فرصة بالطبع لدى الزوار الذين طال بهم العمر (أى الكهول) لى يجروا مقارنة بين المعرضين. على أى حال كان معرض بيتري ناجحاً وحضره جمع كبير، وقد أظهر من الإقبال على المعرض أن المصريين قد ثبتت أقدامها وأصبحت علماً له احترام وتقدير كبيران.

في الموسم التالى عاد بيتري إلى الموقع ودخل الهرم بنفسه، وقد وجد أحد صائدى الكنوز الألمان يعمل في الفيوم بتصريح رسمى. لكنه لم يحقق نجاحاً فتحول إلى المواقع التى أعدها بيتري للحفر فى الأسابيع التالية. من أجل ذلك قام بيتري بتكليف رجلين بالحفر فى المقابر الملحقه بهرم اللاهون، كما كلف اثنين آخرين بالحفر فى أبو غراب حفظاً لحقوقه. هذان الموقعان الإضافيان كان بيتري يضطر لزيارتهم مشياً على الأقدام لمسافة ١٧ كيلو متراً كل أسبوع. وقد أبدى بيتري ضيقه لذلك فقال «كانت متعبة للغاية». احتاج كسر السقف العائق لغرفة الدفن بهرم هواره إلى شهر كامل لأنه كان من الكوارتز الصلد بطول ٢٠ قدماً وعرض ٨ أقدام وسمك ٦ أقدام. بعد أن دخل الغرفة وجد بها تابوتين حجريتين فارغتين، وكانت المياه تغمر الغرفة حتى وسط الزائر. بعد ذلك عثر على

خرطوش يحمل اسم الملك امنمحات الثالث (١٨٠٠ ق.م)، فتم بذلك تنسيب الهرم لصاحبه وتعريفه.

استمر العمل فى كشف هواره واستؤنف تنظيف وكشف المدخل الأصلى لحجرة الدفن. كانت الممرات كلها مسدودة بالطين، نزع بيتري ملابسه وانزلق للدخل ليجرى قياساته. وفى هذه الأثناء كانت مجموعات العمال ترفع النفايات والأقذار، حتى أمكن رصد مكان باب الهرم الرئيسى. وجدت حجرة الدفن على عمق ٤٠ قدماً داخل الهرم ووجد بها مجموعة رائعة من تماثيل الأوشابتي وتابوت حجرى ضخيم. كانت كل الموجودات غارقة حتى الوسط فى الماء وقد أصابها ملوحة شديدة تكفى قطرة منها لجعل العين تلتهب. وتمكن بيتري من تحريك تماثيل الأوشابتي بالرقود فى الماء وتحريكها بقدميه. وكان تحريك التابوت الحجرى أكثر صعوبة فدفقت خروم فى غطاء التابوت، لوضع البكرات (حبال رفع ذات خطاطيف)؛ بينما كان بيتري نفسه وسط الأملاح ينظف التابوت من الرمل العالق به. وقال عند ذكره لهذه الواقعة: «كنت راقداً أنظر مثل الجاموس». المهم أنه أمكن نقل التابوت إلى مكان مضى، لا يضطر فيه بيتري للخوض فى ماء عميق «وسط الخشب العفن والجماجم».

استمر العمل بكثافة فى موسم ١٨٨٨ فى اللاهون ومدينة العمال بكاهون وهى القرية التى بنيت أثناء الأسرة الثانية عشرة لإيواء العائلات التى اشتركت فى بناء اللاهون. أخلى بيتري كثيراً من بيوت كاهون للفحص فوجد بالبيوت أدوات نحاسية ومساند قناديل وأثاث خشبية بالإضافة إلى أدوات أخرى تافهة. وعلى أساس حفائر كاهون بنى بيتري تصوراً معقولاً عن الحياة اليومية للعمال أثناء الأسرة الثانية عشرة. أما من سبقوه فكانوا يركزون اهتمامهم على الآثار والمقابر الضخمة على حساب المدن والقرى البسيطة. ومما يستحق الذكر أن مكتشفات بيتري الأثرية فى كاهون كانت الأساس الذى اعتمد عليه أدولف إيرمان فى تأليف كتابه المعروف «الحياة اليومية فى مصر القديمة» الذى صدر سنة ١٨٩٥.

كانت كشوف بيتري فى أبى غراب أقل أهمية من الناحية الأثرية، لكن موقع المدينة نفسه كان له دلالاته التاريخية. وقد قام بيتري بتنظيف وإخلاء جزئى فى

المدينة، وبالأخص الساحة الكبيرة المسورة بجوار المعبد. وأظهرت المعاينة أنها كانت مخصصة لسكنى مجموعة من الأجانب. ولاحظ بيتري وجود فخاريات على الأسطح وشققات تنتمى إليها فى البيوت. وبالفحص ثبت أنها مصنوعة فى ميسينا ومماثلة لما عثر عليه شيلمان فى ميسنا باليونان. وما عثر عليه غيره فى الجزر الإيجية. من ذلك يثبت وجود علاقات تجارية بين المصريين والإجيين ترجع إلى سنة ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد. زار بيتري ميسينا بنفسه بعد ثلاث سنوات وتحقق من وجود هذه الأشياء التى كانت مصر تستوردها، وتنتمى لنفس الفترة ومطابقة لما وجد فى أبو غراب (الفترة هى الأسرة ١٨). من كل ذلك أظهر بيتري أن علاقات مصر التجارية مع ميسينا بدأت حوالى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد. التاريخ الذى بدأت فيه حضارة ميسينا، ثم تجددت بين سنتى ١٥٠٠، ١٠٠٠ قبل الميلاد. هذا الأسلوب يعتبر من الأمثلة المبكرة على الاستفادة من الآثار بأسلوب يعرف بالمقابلة التاريخية (crossdating) أى إسقاط تاريخ أدوات ما معروف تاريخ إنتاجها على الموقع الأثرى فى البلاد البعيدة لتحديد عمر هذا الموقع. وهو أسلوب مازال متبعاً حتى الآن فى دراسة الأزمنة العتيقة.

تحمس علماء الآثار العاملين بميسينا لهذه النظرية خصوصاً «جاردنر» تلميذ بيتري الذى قرر أن بيتري «أنجز فى أسبوع واحد أكثر مما أنجز الألمان فى عشر سنوات لتأكيد العلاقات بين ميسينا ومصر» وكان علم التاريخ وتسلسله قد استمر منذ عدة سنوات وعليه كان يعتمد السير «آرثر إيفانز» فى تاريخه لقصر مينوس فى كريت. وأمكن للمرة الأولى إثبات أن المدينة المصرية لم تزدهر فى عزلة أو فراغ، ولكن فى ظل علاقات تجارية نشطة مع المجتمعات الأخرى. كذلك ثبت أن العلاقات التجارية قد عكست آثارها على السجل الأثرى.

تميز فليندرز بيتري عن غيره من هواة جمع الآثار بمعلوماته الواسعة النقدية الشاملة عن المشرق الأدنى وعلم الآثار الأوروبى. وقد يكون مع زملاء آخرين دائرة من الباحثين تهتم بالتعميم أكثر من التخصص وذات نظرة شمولية أكثر من التركيز على موقع واحد أو على مصر وحدها. واعتاد تلاميذ «شيلمان» و «إيفانز» و «بيتري» فى أواخر القرن التاسع عشر على إحاطة بحوثهم الأكاديمية

بجو منالزيارات الميدانية المتبادلة والمناقشات الحرة. بالإضافة إلى ذلك أجروا في الآثار، وتراسلوا مع شخصيات العصر الفيكتوري النشطة بصورة جعلت أكثر الباحثين انشغالاً في القرن العشرين يصيهم الرعب من جدول أعمالهم (العبارة مبهمة ولعلها تعنى أن الباحثين وجدوا أن النهب كان على أشده).

كان بيتري يوقن أن الشهرة آتية لا ريب فيها. فلم يتعجلها. وفي نهاية الموسم كتب إلى صديق له يقول «أعظم ما يسعدني أن أتمكن من إصدار سلسلة من الكتب تظل أجيالاً وقرونًا مرحعاً للحقائق والمعلومات في موضوعها». وهذا الاتجاه يتعارض تماماً مع اتجاهات من سبقوه، لأنهم نادراً ما اهتموا بشتر أي شيء عن أعمالهم، أو اعتنوا بتسجيل مصادر الآثار التي اكتشفوها.

كان بيتري من المؤمنين بضرورة استيفاء السجلات والشروح (الوصف). وبالأخص السجلات. وقد ذكر خمساً من الخبرات التي استخدمها هو شخصياً في عمله:

أولاً: «الفن الرفيع المسمى فن اقتناء الآثار. وجمع المعلومات الضرورية عنها وتقدير أهميتها بدون مبالغة أو شطح. وإثبات الفروض واختبار صحتها باستمرار أثناء العمل. والمحافظة على كل ما هو مهم. ليس لتسمى فقط. ولكن لغيري أيضاً».

ثانياً: «نسج (تركيب) تاريخ يعتمد على الأدلة المتناثرة باستخدام المواد المتاحة مثل النقوش والأدوات والمواقع مع الأخذ (بكافة) الاحتمالات».

أما الخبرات الأخرى التي سجلها فهي:

ثالثاً: «البيئة المادية (أي الموجود بها الأثر)».

رابعاً: «المسح الأثري (الحفر والتقيب)».

خامساً: «الأوزان (لعله يقصد إجراء المقارنات. المترجم)».

هذه هي الخبرات والفنون التي يقول بيتري أنه التزم بها.

كان هدف بيتري هو النشر، والتخطيط الدقيق، والحفائر المتقنة، وإمسك السجلات (التسجيل الدقيق). والتزم بذلك في كل الأحوال، وهو ما يتعارض

بشكل ملحوظ مع مريت الذى استغرق ظهور كتاب عن السيرايوم منه أربعين عاماً.

فى هذه الأثناء دخل بيتري . من حيث لا يدري . فى دوامة الصراع السياسى الشائك بسبب تصاريح الحفر وتصدير الآثار . وكان الفرنسيون منذ أيام مريت قد سيطروا على الإدارة فى قطاع الآثار ولاحظ بيتري أن البنية الإدارية بالقطاع فاسدة وعاجزة؛ كما لاحظ أن تصاريح الحفر كانت تعطى لتجار الآثار أو للمستكشفين غير المؤهلين . وكانت حالة المتحف نفسه يرثى لها، والموظفون يتسمون بعدم المبالاة . فتركوا الموميאות والتماثيل الثمينة مكدسة فى الممرات والهواء الطلق عرضة للصدأ والتلف، كذلك كان كثير منهم ضالعين فى معاملات مشبوهة مع تجار الآثار بالقاهرة . وحضر بيتري نفسه إبرام صفقة من هذا النوع بين تاجر كبير وأحد أمناء المتحف، ذكر أحد أصدقاء بيتري بعدها أن التاجر «انصرف ومله ذراعيه كراتين (صناديق ورق مقوى)». كذلك أشار بيتري إلى أن «المتحف كانت له أحوال غريبة من المتاجرة بدون رقيب ولا حسيب».

فى ذلك الوقت ارتفعت الأصوات فى إنجلترا مطالبة بالحد من تدمير الآثار المصرية وضرورة المحافظة عليها . وكان تبنى هذه النظرة نتيجة للمعارض التى أقامها بيتري ومحاضرات آميليا إدواردز ومنشوراتها . من أجل ذلك تأسست «جمعية الآثار المصرية» من ذوى النفوذ والمكانة . وعند التأسيس طالبت الجمعية بضرورة توظيف مفتش مستقل من إنجلترا ، وهذا الاقتراح وقف ضده الفرنسيون بكل حزم.

شكلت لجنة للآثار لدراسة المشكلة، سيطر عليها الفرنسيون خصوصاً «جريبو» الذى كان متعاوناً مع التجار حسب ظن بيتري، استجابت بلا تردد لمشروع بيتري؛ وسرعان ما صدرت تشريعات جديدة تنظم تصدير الآثار جعلت من المستحيل على أية بعثة أجنبية أن تنقب عن الآثار فى مصر حتى بيتري نفسه حُرِّم من إجراء أى حفائر . عند ذلك «اشتعل الموقف وانهارت الرسائل والاستجوابات على البرلمان (الإنجليزى) بكثافة»، كما قال بيتري وهو فى حالة انتشاء . «وبذلت جهود سياسية مكثفة أدت إلى صدور قوانين حازمة لكنها أكثر

مرونة تحدد بوضوح مواصفات الأعمال الاستكشافية، منها ضرورة النشر، وتضييق الخناق على التجار حتى لا يحققوا أرباحاً بأسلوب انتهازى».

كان الباحثون منذ سنين يسعون للكشف عن أصل المدنية المصرية قبل ظهور حضارة عصر الأسرات، وكانت هناك نظرية تدعى أن أول من حملوا مصر الموحدة غزاة أصلهم من بين النهرين (العراق). وتستطرد النظرية فتقول أن هؤلاء حملوا معهم إلى مصر مدنية وادى النهرين الأكثر تقدماً. لكن بيتري عثر سنة ١٨٩٤ على جبانة شاسعة بجوار بلدة نقادة؛ وبالحفر فى الموقع استخرج هياكل عظمية مع كثير من الأوانى والأثاث المقبرى. ولاحظ بيتري أن الأوانى الفخارية لهذه الحضارة لا تنتمى إلى الفار الذى عثر عليه فى مقابر الدولة القديمة إذ كان أكثر اتقاناً وينبئ عن حضارة تأصلت وأسست جذورها فى وادى النيل فى البيئة المصرية الصميمة. كان أول انطباع لدى الأستاذ فى موقعه الأكاديمي الجديد أن حضارة نقادة وافدة من ليبيا (لا العراق). لكن مع استمرار الحفائر لاحظ بيتري أن الجبانة كانت مكتظة بالجثث منذ العصور العتيقة. ثم واصل بيتري حفائره للكشف على ما فيها، وتمكن فى سنة ١٨٩٤ من الكشف عن ألفى مقبرة، وبعد سنوات قليلة من مواصلة الحفائر عثر على مدفن ملكى فى نقادة نفسها، وهو دليل قاطع على التواصل بين الحضارة العتيقة بأوائل حضارة عصر الأسرات. بذلك ثبت أن الحضارة المصرية القديمة جذورها ممتدة إلى حضارات سابقة له فى العصور العتيقة قبل عصر الاتحاد، وأنها نمت وتأصلت فى وادى النيل نفسه. وكان لبيتري أسلوبه المميز الذى ظل يطوره بنفسه فى الحفر والكشف واستخراج الآثار الموجوده بجبانة نقادة.

يلخص بيتري أسلوبه هذا كما يلى:

الخطوة الأولى إرسال أولاد (مهارتهم محدودة) لتحسس الأماكن سهلة الحفر (الليينة) فى أرض الجبانة، وحالما ينظفون حافة المرقد المقبرى يصرفون على الفور. بعد ذلك يتولى العمل عمال عاديون (مهارتهم غير عالية) يقومون بتنظيف المرقد حتى يلمسوا (بالفئوس) الأوانى الفخارية داخل الحفرة. بعد ذلك يتولى عمال من الدرجة الأولى (فى المهارة) يقومون بإزالة الأتربة حول الأوانى

الفخارية والموميאות، دون أن يحركوها من مكانها وأخيراً يأتي دور (على السويفى) البارع لتنظيف الموجودات تماماً من آثار الأتربة، بحيث يكون كل شيء الحفرة وما بها من عظام وآزوار... إلخ. ظاهراً للعيان وهنا ينتهى العمل»

يقول بيترى: «درست الفخار الموجود فى القبور بعناية حسب اشكائه وزخارفه». ومما لاحظته بيترى حدوث تغير تدريجى فى حجم الأوانى، كان أكثر ظهوراً فى مقابض نوع معين من الجرار. كانت التصميمات الفخارية المبكرة ذات وظيفة عملية لتسهيل الاستخدام اليومى، ثم بدأ يضاف إليها أشكال زخرفية تحولت مع الزمن إلى مجرد خطوط ملونة. وكشف عن جرار شبيهة فى مواقع أخرى مثل ديوسبوليس بارها Diospolis Parva تمثل حضارات ما قبل الأسرات كانت منسجمة مع الأثاث الجنائزى.

بعد ذلك اكتشف بيترى مقابر أخرى، استطاع بعد فحصها من تصنيف الأثاث الجنائزى فى مجموعات على أسس «مرحلية» تتسب لفترات متتابعة دل عليها التطور الأسلوبى فى صنع الجرار. أطلق بيترى على أولى المراحل اسم المرحلة الثلاثينية St 30 ، وهى مرحلة لم يعثر فيها على ما يدل على وجود مجتمعات قبل اسرية. وتوالت مراحل التصنيف، وبعد خمسين مرحلة وصل إلى المرحلة الثمانينية St 80 ، التى واكبت المرحلة الأسرية زمنياً، هذا التصنيف يعتبر أول محاولة لوضع تسلسل زمنى لعصر ما قبل الأسرات؛ ومنذ ذلك الوقت التزم بيترى وغيره بهذا الأسلوب فى كافة الحفائر فى وادى النيل بعد ذلك.

تعتبر نظرية بيترى عن التتابع التاريخى واحدة من أهم إنجازاته لأنها تسهل دراسة الآثار التى يستعصى تنسيبها بوسائل أخرى. وتزيد دقة التقديرات كلما زادت كمية الآثار المكتشفة. وقد علق بيترى على ذلك فقال: «لا أجد ما يبرر الغرض من أهمية العصور التاريخية الموثقة» وهى نظرية تفاؤلية ذكرها بيترى فى كتاب له ظهر سنة ١٩٠٤ بعنوان «طرق وأهداف البحث الأثرى» ضمنه ما توصل إليه فى هذا المجال، هذه النظرية فى فحواها ليست أكثر من شكل معدل لترتيب الآثار لا يعرف تاريخها على أساس تطورى. على أى حال كان ظهور هذه النظرية خطوة جريئة ساهمت فى تحسين الأساليب التاريخية للآثار المصرية.

أدت استكشافات بيتري ذات الطابع الابتكاري إلى القيام برحلات عديدة بطول مصر وعرضها، لكن الصراع بينه وبين مصلحة الآثار والمتحف لم يهدأ، إذا لم يسكت بيتري عن الاعتراض والإدانة للصفقات سيئة السمعية بين المصلحة وتجار الآثار. وفي سيرته الذاتية المعنونة «سبعون عاماً مع الآثار» يروي لنا بيتري كثيراً من «خطايا الزملاء الفرنسيين». منذ ذلك أن باحثاً غالياً (أى فرنسياً) قام بكشف في مقبرة أبيدوس الملكية، فلم ينشر دراسة عنها، والأدهى «أنه استعمل ما وجده من الأعمال الخشبية الخاصة بالأسرة الأولى كوقود في مطبخه». أما ما اقتناه فقد تبعثر بين شركائه الذين مولوا الكشف حتى بيعت في مزاد علني بباريس. وكان بيتري يرى أن خلفاء ماسبيرو في إدارة المتحف كونوا صفاء من الموظفين عديمي الكفاءة. ووصلت الأمور إلى الحضيض في عهد آخرهم. فيكتور نوريه V. Loret. ويذكر أن نوريه بلغت به السلبية واللامبالاة شأواً بعيداً: وكان. كما يقول بيتري. إذا نبهه أحد إلى إحدى حالات السطو والتلاعب في الآثار ولو كانت واضحة، لا يزيد على أن يصيح «هذا مستحيل هناك قانون».

في هذه الأثناء تجدد عقد ماسبيرو بشروط جيدة وراتب مجز بلغ ١٥٠٠ جنيتها في السنة خلاف البدلات. وصرح ماسبيرو لبيتري بالحفر في أبيدوس ومعالجة الفوضى الضاربة هناك. وتمكن بيتري عند بدء العمل هناك من كشف مقابر أربعة ملوك من فراعنة الأسرة الأولى الثمانية، ومقبرة إحدى الملكات. وهؤلاء جميعاً تمكن من تمييزهم وتحديد أسماءهم وشخصياتهم. وبالإضافة إلى ذلك كشف بيتري عن أكثر من ثلاثة آلاف مقبرة من مقابر الخدم والحاشية. واستغرق العمل في هذه الكشف من ٢٢ من يونيو سنة ١٨٩٩ إلى مارس سنة ١٩٠٠. ونالت كشوفه في أبيدوس ما تستحقه من أهمية لأنه قام بتسجيلها ونشرها. وفي ٢٢ من يونيو من نفس السنة (١٩٠٠) انتهى بيتري من فهرسة التواريخ. وكان للفهارس وقعا عظيما لأن نشرها واكب عرض مكتشفاته في لندن. كذلك شعور جماهيري جيد، فبدلاً من الاهتمام بأدوات الزينة والآثار الهيرية، تجمهر الزوار حول المناضد يشاهدون بافتتان المعروض عليها من كسرات

وشققفات الأسرة الأولى حتى أن بعض العمال أمضوا استراحة ساعة الغذاء فى غرفة العرض».

لم ينقطع النزاع بين بيتري ولصوص الآثار والتجار فى الجزء الأول من المدة الطويلة التى قضاها بيتري فى الاستكشاف. ورغم أن أبيدوس لم تكن المكان الذى يسهل فيه ممارسة السلب والنهب، إلا أن الأمر لم يسلم من تعرض بيتري لممارسات من هذا النوع. وفى إحدى المرات كان بيتري يعاين اثنى عشر مبنياً ملحقا بالمعبد الكبير، أثناء ترميمها. وأثناء تجوله للاطمئنان على جودة التشطيبات وألوان الأخاديد، تسلل لص إلى حديقة بيته محاولاً سرقة تمثال ثقيل وزنه مائة رطل والهروب به؛ لكن قدميه لم تسعفاه فوقع على الأرض وأمكن اعتقاله. لكن اللص أطلق سراحه لأنه قدم رشوة لرجال الشرطة. وفى مرة أخرى اقترب رجل من الكوخ واطلق غدارته عشوائيا فكادت تصيب الرصاصا السيدة بيتري، ولكن الله سلم وطاشت الرصاصا.

عندما أعيد اكتشاف مقبرة فى لاهون سبق أن تعرضت للنهب، اتخذت احتياطات أمنية مكثفة. ووجد بيتري التابوت الحجرى فى المقبرة فارغاً، فلم يتوقع أن يعثر على شئ ذى بال. ووجد بجوار التابوت أختاماً أسطوانية ذهبية دقيقة الصنع، فصرف العمال فوراً ولم يستبق منهم سوى واحداً مع تلميذة «برانتون» لاحتاسه أنه بصدد الكشف عن خبيثة ثمينة. شرع بيتري وبرانتون فى جمع القطع الذهبية، وكان برانتون يلازم المقبرة صباح مساء لتخليص الكنز فى المقبرة وتنظيف الاختام متحاشياً إتلافها، ثم تصويرها وتغليفها أولاً بأول رغم ذلك كان بيتري يخشى تعرض الكنز للسرقة فى حذر كل العاملين معه وأمرهم بالكتمان وعدم الحديث أو الكتابة عن الكنز الذهبى المكتشف. وثبت أن المجموعة تنتمى إلى الأسرة الثانية عشرة. هذا الكنز اشتراه متحف المتروبوليتان بنيويورك بعد مفاوضات طويلة لم تتجح فى بيعه للمتحف البريطانى.

كان نشاط بيتري وسرعته فى الانجاز مثار دهشة الباحثين بعده. وكان من عادته قضاء الشتاء بطوله فى مصر منهمكاً فى الاستكشاف الأثرى؛ ثم يعود لبلده حيث يقضى الربيع والصيف ليكتب عن كشوفه ويقيم المعارض. وكان بيتري

يتميز بغزارة الانتاج، فيصدر كل سنة كتابا على الأقل، بالإضافة إلى محاضراته الجامعية والعامية. وكان ينظم ويحضر حلقات البحث في مقر عمله بجامعة لندن. وفي حياته الكشفية التي استغرقت اثنتين وأربعين سنة زادت كشوف بيتري عن كشوف مرييت نفسه. وقد حقق من النتائج أكثر مما حقق سابقوه أو الحقوه. ويمثل اكتشاف مدينتا نقراطيس وكاهون عن نقوش العمارة ومقابر أبيدوس والأختام الذهبية بها جانبا يسيرا من إنجازاته ويمكن اعتبار بيتري باعث حضارة مصر العتيقة بعد أن كانت راقدة في نقادة، وفي ديوسبوليس. وبيتري هو الذى عثر على لوحة مرنبتاح. أول أثر مصرى يشير إلى الإسرائيليين، حتى أن أحد زملائه علق على الكشف بقوله «فليهننا المجيلون» أى الحاخامات». والخلاصة أن بيتري كان من المبتكرين فى فنه، وسابقا لعصره، ورغم ذلك كان يجد نفسه مضطرا لبيع الآثار التى يجمعها إلى متاحف أوروبا ليمول استكشافاته. مع كل هذه المزايا كان بيتري ضيق الصدر حاد الطبع لا يعبأ بشخص ومركز من يجادله، لدرجة أن الكاتب الموهوب «جيمس بيكى» الذى له مؤلفات كثيرة عن مصر القديمة لم يسلم من حدة لسانه، فقال يسخر منه «إنه رجل أنيس (يقصد محبا للثرثرة) .. يجادل كل من هب ودب ولكنه يونانية ويغنى الأغانى الاستكلندية بطريقة منفردة». ولما كان بيتري لم يتلق تعليماً نظامياً فإنه لم يهتم أو يعبأ بالاطلاع على مؤلفات معاصرة مهما كانت قيمة. كذلك كان من طبعه الاصرار على أن الحق دائماً معه. ولاشك أن هذا شئ غير مستساغ ولا مرغوب فيه فى مجال علم الآثار.

لم تقتصر إنجازات بيتري على تأسيس مدرسة إنجليزية فى المصريات، ولا على إدخال أساليب جديد لها احترامها فى الحفر والتنقيب إلى مصر، بل زاد على ذلك أنه درب بنفسه جيلا كاملا من الأثريين الذين تتلمذوا عليه فى الهيروغليفية وتلقوا عنه أساليبه فى الحفر والبحث عن الآثار. ومن تلاميذه من أدخل بعض التحسينات على هذه الأساليب. كان «هوارد كارتير» ممن عملوا معه، كما عمل معه آرثر جاردنب فى نقراطيس قبل انتقاله إلى أثينا ليدير مدرسة الآثار بها. وهناك عاون استاذة فى الكشف عن واردات ميسينا من السلع

المصرية. ويجدر أن نذكر أن السير «آلان جاردنر» من ألع علماء المصريات فى العصر الحالى، وكان متحمسا لبيتري وقضى عمره فى دراسة الهيراطليقية ونصوصها. ويعتبر كتابه قواعد اللغة المصرية «الصادر سنة ١٩٢٧ مرجعا أساسيا للطلبة فى دراسة اللغة المصرية القديمة. ومن تلاميذه النوابغ «جى برانتون» الذى دخل دائرة الضوء بكشفه عن كنز اللاهون، ثم أصبح واحد من أشهر الأثريين لاكتشافه بعض مقابر وقرى عصر ما قبل الأسرات. أما تلميذته العظيمة «جرتروود كاتوين طومسون» فكان لها السهم الوافر فى اكتشاف أقدم المزارع المصرية فى منخفض الفيوم فى عشرينات القرن العشرين (الحال)، قبل أن تتوجه للواحات الخارجة بحثا عن حضارة صيادى العصر الحجري القديم. هذه الباقية من التلاميذ النوابغ ما أحرأها بالتتويه فى موسوعة Who is who.

٢١. خاتمة

انقضى أكثر من مائة وخمسين عاماً منذ نفى بلزوني عن قدميه غبار الاسكندرية لآخر مرة، لكنه لو قدرت له العودة لوقعت عيناه على كثير من المناظر المألوفة له، فالأهرام مازالت شامخة في مكانها كالقلاع، وأبو الهول مازال رابضاً في مكانه يحوم حوله السياح الفضوليون، والشمس مازالت تشرق وتغمر الصحراء الشاسعة بنورها، وتنتشر على الأراضى الزراعية الخضراء على ضفتي النيل، ومازالت حرارة وسط النهار الحارقة تطوق هواء المعابد الكثيف أو المقابر الملكية كما كان الحال منذ قرون، ومازالت السفن ذات الأشعة البيضاء تمخر عباب النهر في المسار نفسه الذي كانت تسير فيه الزوارق والقوارب التي استخدمها بلزوني وهو يحقق اكتشافاته العظيمة، فهناك نوع من الخلود في وادي النيل لا ينال منه ممر السنين والأحقاب، ومن يزر مصر يستنشق ما كان يستشقه المصريون القدماء أنفسهم من غبار ساخن ومن رائحة عشبية، ومن روائح النيل المنساب إلى الشمال، وكل سنة في دقة الساعة يأتي الفيضان ليغلب الخصب ويرعى الزراعة التي لم تتبدل طرقها كثيراً من أيام الفراغة (هذا رأى المؤلف ويبدو أنه غير مطلع على النهضة الزراعية في مصر وطرق الزراعة الحديثة المتبعة الآن - المترجم)، هنا يحس المرء بحالة من التوازن الحق والصدق كما كان القدماء المصريون يحترمونه (أى القانون) ليتلاءموا مع بيئتهم المستقرة (التي لا تتغير).

كان حضور بلزوني إلى وادي النيل مواكباً للوقت الذي ظهرت فيه للعالم الأولى أمجاد حضارة مصر القديمة، وكان ما جمعه علماء بعثة نابليون (وعرضوه في أوروبا) قد بعث الحرارة في علماء أوروبا، وتسبب في تهافت المثقفين على التحف المصرية في العواصم الأوروبية، وكان المتحف البريطاني قد تسلم لتوه حجر رشيد، كما كان اللوفر قد فرغ بالكاد من فك العبوات المحتوية على الآثار التي جلبوها من مصر، وامتلأت نفوس الناس بالرغبة الجارفة في حيازة كل جميل غريب، فعملت المتاحف القومية على اقتناء كل ما هو فريد من نتاج المقتنيات الغريبة، وكان من الأولويات في قوائم الشراء لدى أمناء المتاحف - التحف والآثار المصرية. ومن ثم بدأ التهافت على نتاج المدنية المصرية القديمة، وبدأت حملة شرسة هدفها نهب آثار مصر تحت دعوى الظروف الدبلوماسية أو البحث الثقافي من قبل أناس فارغين (المقصود أغنياء منعمين لكن غير مؤهلين - المترجم)، وتفاقم الوضع حتى أدى إلى التخریب، والطمع والكسب غير المشروع، وقد بدأ علم الآثار سواء في مصر أم في غيرها من الأمم يسلب الكنوز الأثرية. وبالتدريج تحول إلى نظام عام مسلح بالطرق والتقنيات التي عرفت في الزمن المعاصر (القرن العشرين) وأصبحت متبعة في تنفيذ العمل الميداني في مواقع الآثار، لكن عندما بدأ تطبيق هذه التقنيات الحديثة كان الكثير من تراث مصر القديمة قد فقد إلى الأبد، إما على أيدي صائدي الكنوز، أو جامعي الآثار معدومي الضمير، أو السياح الفضوليين.

لم يكن رجال حملة نابليون في تكاليفهم على جمع الآثار المصرية يشذون عن القاعدة الإنسانية في حب التملك. وكان الأثريون القدامى - دائماً يسيطر عليهم حب البحث عن الآثار ونهبها، أو على الأقل نقلها إلى مكان آخر حيث يمكنهم ملاطفتها وتأملها في هدوء بعيداً عن جوها المحلي (واضح أن كل هذا الكلام المعقد معناه استسهال زيارتها في أي وقت)، وسرعان ما تدخلت عناصر القومية والطمع الجوف من جانب الدبلوماسيين والحكام في ميدان جمع الآثار، التي تمثل المدينة المصرية القديمة، وأصبحت «الموضة» الإلام بمصر القديمة والتعرف على حضارتها المبهرة، وليس هناك شك في حقيقة أن مصر كانت أعظم ممثل

للحضارات القديمة، كان مجتمعتها قويًا متماسكًا قمع الإسرائيليين، وعانى من الأوبئة الفتاكة (الطاعون)، وصمد للمحن حتى احتل مكانًا مرموقًا فى التاريخ، ولكن ما يدعو إلى الأسف أن المعرفة عادة ما تقترب بحب التملك والتربح فى ذهن كثير من الناس.

ليس من السهل أن نوجه اليوم اللوم إلى أمين متحف أو جامع آثار فى عهد ولى منذ مائة وخمسين عامًا، على مبادئ السلوكيات التى كانت تحركهم، لقد كانوا حيثما تولوا لا يرون إلا معابد تحطم وتماثيل تكسر ومقابر تنهب بحثًا عن الجواهر (الكنوز)، لم يكن الأمان متوفرًا فى مصر، لكن إذا وقعت بردية فى يد المتحف البريطانى فسوف تقض وتفرد بعناية وتتجو من التلف تحت رعاية أعظم متاحف العالم، وعلى رأى ز«واليس بادج» فإن أى مومياء تعرض فى المتحف البريطانى ستكون فى وضع أفضل كثيرًا، من نظيرتها فى مقابر طيبة المعرضة للنهب، فمثلًا لا يجزؤ أحد على انتهاك أى مومياء بالمتحف البريطانى أو تحطيمها، كانت التكتيكات الشرسة التى تجرى فى تجارة الآثار عن طريق القطاع الخاص، مع القيام بالحفائر الأثرية سرًا تحت حماية السلطة (الظاهر أن السلطة المقصودة السلطة الدبلوماسية) كان مما يمكن التفاوض عنه فى مقابل عدم وجود أى وسيلة أخرى (فى ذلك الوقت) لإنقاذ تراث مصر القديمة من الضياع، وقد أثار كثير من الناس السؤال الآتى: «ما حاجة المصريين لماضيهم؟» ثم إن حكومة الباشا كانت لا تكف عن تحطيم الآثار وإهدائها (للأجانب) طول الوقت، فإذا انتقلنا إلى الفلاحين لوجدناهم لا يراعون حرمة للمقابر والمعابد القديمة ولا يشعرون بالانتماء إلى مصر القديمة. كل ما يهتمهم كان ثمن الجثث (المنحلة)، لم يكن فى مصر احساس قومى مثل ذلك الذى ثار فى اليونان عندما استولى اللورد «الجرين» على الأفاريز المرمرية من بوابة البارثينون (موجودة باسمه فى المتحف البريطانى الآن)، وأمن معظم مندوبى المتاحف والسياح منذ قرن ونصف أن المصريين القدماء أنفسهم استباحوا محتويات المقابر الملكية، لقد انتهكوا أكثر الأماكن قدسية والمقابر الملكية جريًا وراء الذهب والثراء الذى يمكنهم من الحياة حياة ناجحة ومقابلة تكاليف الحياة اليومية، وهذه الخطيئة التى بدأها الأسلاف ورثها الأخلاف، وكان جامعو الآثار فى القرن التاسع عشر

ينظرون إليها بازدراء. وإنها حقاً لمعجزة أن يكون قد بقى شئ حتى الآن نتمتع به (من ذلك التراث).

أمكن لرواد الكشف الأثرى مثل بلزوني وبادج أن يستنقذوا كثيراً من النتائج الرائع للعصور الفرعونية، رغم أنه لا يمكن التغاضى عن أساليبهما البدائية العنيفة فى الحفر، وعلى سبيل المثال لا الحصر أمكن استنقاذ بردية آنى وكتاب الموتى والمخطوطات القبطية. وهى موزعة بين المتحف البريطانى واللوفر. هذا بالإضافة إلى عدد من التماثيل والمسلات والكنوز الأثرية الجميلة، وهؤلاء الرواد رغم عيوبهم وأخطائهم كان لهم الفضل فى جذب أنظار العالم إلى مصر، وإلى الاهتمام بآثارها. والإيمان بضرورة صيانتها وحفظها للأجيال القادمة ولولا جهودهم لفقدت واختفت من الوجود.

والذى يدرس تاريخ المصريات سوف تقابله أسماء عمالقة. نخص بالذكر منهم شمبليون وويلكنسون اللذان فتحا الباب للدارسين بالتغلب على مشكلة قراءة الهيروغليفية. وهناك مرييت. أيضاً. الذى بدأ حفائره فى مصر ممثلاً لمتحف اللوفر، وما لبث أن أصبح كبير الدعاة للمحافظة على الآثار وصيانتها من أجل العلم والسياحة الرشيدة، وأخيراً وليس آخراً لا يجب أن ننسى بيتري أول من أدخل التقنيات الحديثة فى الحفر والتنقيب عن الآثار، وأدت دعوة شمبليون العبقري، ومرييت صاحب الحماس والحيوية إلى تأسيس متحف للآثار يحميها من النهب والتخريب، وأصبحت مصر أول دولة فى الشرق الأدنى تقوم بتأسيس المتاحف القومية لحفظ الآثار، ولا يقلل من شأنها أنها بدأت متواضعة فى أحد الحدايق الخلفية فى القاهرة، ولا تأثرها فى عملها بالضغوط السياسية أحياناً. فقد كف الدبلوماسيون بالتدرج عن إقحام أنفسهم فى مجال الآثار وعادوا للاهتمام بأعمالهم الدبلوماسية الأصلية، كذلك أصبح السياح أكثر اهتماماً بزيارة الأماكن الأثرية والاستمتاع بالتراث وأبعدوا أنفسهم عن الانغماس فى سلب الآثار أو تخريبها، كذلك أصبحت مصر نفسها بلداً مهماً فى ذاتها وأصبحت قبلة للسياح الذين أصبحوا يوزرون معالمها الأثرية كالأهرام والمعابد كجزء من البرنامج السياحى للزيارة.

يمكن القول إن السياح والمتقنين . إلى حد ما . كان لهم دور فى إنقاذ آثار مصر، وظهر أول قانون لحماية الآثار فى مصر سنة ١٨٣٥، وكانت فعاليته محدودة لعدم توافر وسائل تنفيذه، وكان عرض آثار مصر المنهوبة فى أوروبا المنبه الذى أيقظ الرأى العام العالمى لضرورة وضع حد لنزيف آثار مصر لأنها ملك للإنسانية جمعاء . من المفارقات العجيبة، وأدركت الجماهير أن عنف مربييت فى رفض طلب أوجينى إمبراطورة فرنسا للحصول على مجوهرات أثرية تخص متحف بولاق، كان له ما يبرره، ومن جهة أخرى كانت السياحة قد تطورت إلى نشاط وتجارة ونشطت حركتها: لذلك تساءل المهتمون بالسياحة كيف يمكن أن تزدهر الحركة السياحية إلى مصر إن خلت من المعابد والمقابر القديمة ومن متاحف الآثار؟ وماذا يفعل السياح وماذا يزورون؟

كان المنطق المدروس والبيروقراطية البريطانية الفعالة فى مصر . فى ذلك الوقت . وراء ظهور اتجاه يرمى لتغيير بعض عادات الجمهور المصرى، وكانت سياحة أميليا إدواردز فى مصر قد تمت خلال مدة طويلة تميزت فيها الحالة السياسية بالاستقرار، وكانت مصلحة الآثار قد أخذت فى تشديد الحراسة على الآثار وتعيين المفتشين والوكلاء النابهين لحماية الآثار من النهب والتخريب، والاستيلاء عليها بطرق غير قانونية، وبالطبع لم يسلم الأمر من وجود حالات صارخة من العبث والنهب المشبوه للمقابر الأثرية، ارتبط بعضها بأسماء متاحف أوروبية محترمة، لكن الاتجاه الجماهيرى والأخلاقيات الأثرية كانت قد تحولت لصالح المحافظة على الآثار واتباع الطرق العلمية فى الكشف الأثرية، وحتى أولئك الذين استهواهم تلطيخ الآثار بكتابة أسمائهم (أو تعليقاتهم) عليها أصبحوا يواجهون بالشجب والاستهجان لهذه الخطيئة الشنعاء، وصارت عملية نزح الآثار من مصر أكثر صعوبة، وأصبح هناك تأييد لدعم متحف الآثار بالقاهرة ليكون على رأس المتاحف التى يحتفظ فيها بالتراث المصرى القديم على مستوى العالم، وسرعان ما سوف تتكون هيئته من المصريين بالكامل* .

(*) أصبح الآن متحف الآثار المصرى مصريا بكامل هيئته.

أدت غطرسة الامبراطورية البريطانية وتعاليلها إلى تنامي الشعور بالوطنية في مصر، وحلت في النفوس رغبة مكبوتة في التخلص من النفوذ الإمبريالي البريطاني، وصاحب ذلك تزايد الإحساس الوطني بالتواصل التاريخي مع الماضي، وانعكست هذه الوطنية على الأحداث التاريخية التي يعرفها الجميع، لكنها انعكست - ايضاً - على رفض «الامبريالية الثقافية» التي ترمى إلى نقل خير ما في مصر من تراث الماضي إلى بيئات أجنبية، وقد ألهب توت عنخ أمون سنة ١٩٢٢ (المقصود كشف مقبرته) الشعور ضد الحضر والتقيب عن الآثار المصرية بواسطة الأجانب، على الرغم من تخطي عائلة اللورد كارنارفون عن محتويات مقبرته للمتحف المصري، وفي عشرينيات القرن العشرين بدأت تقل بالتدريج فرص الكشف الأثري أمام الأجانب، وفي الوقت نفسه بدأت الخلافات بين المتحف المصري والمتاحف الأجنبية تزداد حدة لرفض المتحف السماح بنقل الآثار للخارج، لكن الخلافات خفت حدتها بعد مدة ورأت مصر من المصلحة أن تستأنف السماح للأثريين الأجانب بمعاودة الاستكشافات الأثرية، وهذه المرة كان السماح مشروطاً في ظل ظروف جديدة وتحت السيطرة المصرية.

تغيرت في وقتنا الحالي الأجواء الفكرية بالنسبة للآثار بحيث أصبحت عاملاً في زيادة الانتماء القومي، وأصبح الناس أكثر إدراكاً لأهمية الآثار والوعي بإدراك بما يمكن أن يؤدي إليه التنظيم في مجال الدراسة الصحيحة للجنس البشري، ويوجد تراث مصر القديم - الآن - مبعثراً في كثير من الدول، وتتراكم التوابيت والتماثيل المصرية القديمة في مخازن المتاحف وأروقتها وقد علتها الأتربة، وكانت هذه الآثار أصلاً من مقتنيات هواة جمع الآثار، تنازلوا عنها بعد ذلك للمتاحف، وجاءت نتيجة تكثيف الحفائر في مواسم قصيرة يقومون (هواة الآثار) بتمويله، وكان اهتمامهم بالكم - دائماً - فوق اهتمامهم بالكيف، وحل محل هذا العبث الذي استمر خمسين عاماً موجة من الإتجار في الآثار بطرق غير قانونية يحكمها مبدأ العرض والطلب لاستيفاء رغبات المتاحف والعملاء الأثرياء، هذه الظاهرة سجلها الصحفي المعروف «كارل ماير» في كتابه «الماضي المنهوب The Plundered Past» واستهجنها، وأدان هذا العمل الذي تمتد جذوره إلى بلزوني

ومن يشاكلونه، والكتاب يشبه عريضة دعوى ضد التخريب الذى ينال آثار مصر فى القرن العشرين، ويصف «ماير» الوعى الجماهيرى بخطورة المشكلة بأنه مفقود «فى درجة الصفر»، ويقول إن ذلك سببه سهولة تفهم أهمية الآثار للبشرية من الوجهة النظرية، وصعوبة تكوين وعى أثرى لأن المشكلة نادرًا ما تثار فى الصحف، ويخلص المؤلف إلى أنه من الصعب إقناع دافعى الضرائب بجدوى الصرف على تمويل الكشوف الأثرية على حساب أولوياته الأخرى.

حدث الحكومة المصرية من السماح بالتقريب عن الآثار، متبعة فى هذا الصدد سياسة قومية، لكنها كانت تصرح أحيانًا ببيع الآثار المكررة التى لها نظائر بمتاحفها، ولا تألو جهداً فى الاتصال بالمؤسسات الخارجية لصيانة ما لديها من تراث مصر الفرعونية والمحافظة عليه، ورغم ذلك لم يتوقف السطو على المقابر ولا التخريب فى معبد دندرة، ومازال اللصوص يبحثون عن البرديات، وما زالت تجارة الآثار بصورة غير قانونية موجودة، وهذا كله ممكن فهمه، فدأب المتلاعبين . دائماً . الخروج على القانون، سواء فى الآثار أم فى غيرها، لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ... والمهم أن قطاع الآثار . حالياً . تحت السيطرة الحكومية .

لتشجيع السياحة والحفاظ على الماضى، توجه المصريون بندااهم إلى العالم كله لأن التراث ملك للبشرية جمعاء، وعند بناء السد العالى تم الاتصال بالهيئات الدولية وجرت محاولة تحت إشراف اليونسكو لإنقاذ معبدى أبى سنبل وآثار النوبة من الغرق خلف السد تحت بحيرة ناصر، وقام مئات من الأثريين بتمشيط المنطقة التى سوف يفرقها السد وهى آلاف من الأميال المربعة، وأفلح النداء الذى وجه للعالم فى زيادة الاعتمادات، لنقل تماثيل معبد رمسيس الثانى إلى موقع جديد عال مرتفع عن مستوى ماء بحيرة ناصر وقد تولى التنفيذ هيئات دولية استعانت بالمقاولين والأثريين وجاءت النتيجة باهرة تماماً، والآن، مازالت الشمس تشرق على باب المعبد الأصلى كما كانت أيام بلزونى وصحبه، وإن كان المكان غير المكان، والكاشف وقراء قد اختفت إلى الأبد، وقد كوفئ المشرفون على النقل بالسماح لهم بالاحتفاظ ببعض الآثار الصغيرة التى

وجدوها، ومما يقلل من حدة المشكلة أن المواقع الأثرية التي لم يمكن انتشارها سجل معظمها بدقة قبل ان يندثر إلى الأبد.

بعد ذلك نفذت منظمة اليونسكو مشروعاً طموحاً، هو إنقاذ معبد إيزيس بفيلة بنقله من موقعه الأصلي الذي كان يتعرض للغرق سنوياً . منذ انشاء سد أسوان القديم، وقد أمكن للمهندسين بناء صورة طبق الأصل من الجزيرة الأصلية نقلوا إليها محتوياتها قطعة قطعة إلى مكانها نفسه (الملخص أن جزيرة فيلة بما عليها قد استتسخت بكاملها). والآن ليس هناك من يعرف عن فيلة الأصلية أى شئ، أما العالم فأسعده هذه النسخة منها حيث حافظت على التحفة المعمارية الرائعة (المعبد) سليمة.

لكن مشروع السد العالى له سلبياته، فقبل ذلك كان ماء الفيضان يغسل التربة ويمدها بالخصب، ولكن بعد السد ازدادت ملوحة التربة، وظهر تأثيرها على المحاصيل وعلى المعابد أيضاً، وهناك جهود تبذل من عدة مؤسسات نخص بالذكر منها مؤسسة جيتى The Getty Inst ومعهد الدراسات الشرقية: The Oriental Inst. التابعة لجامعة شيكاغو (أسسها جيمس بريستيد)، هذه الجهود هدفها تسجيل النقوش وترميم المعابد. للحفاظ على ما يمكن إنقاذه قبل قوات الأوان، وهذا للأسف سباق ضد الزمن وليس فقط ضد لصوص الآثار، فتغير المقننات المائية لها تأثيرها على المدى القصير والطويل . حيث تزيد الملوحة فتؤدى إلى تدهور حالة الآثار، هذا بالإضافة إلى كثافة السياحة إلى هذه الأماكن وما تنطوى عليه من سلبيات.

أثرت طائرات الجامبو على النسيج السياحى المصرى وأدت إلى تغيير جذرى فى النمط السياحى، فقد كان السياح حتى ستينيات القرن الحالى (العشرين) يستعملون وسائل بطيئة نوعاً كالسفن والطائرات المروحية وطريق قناة السويس، فمنهم من كان يمضى أياماً قليلة فى السياحة، ومنهم من كان يقضى الشتاء كله فى مصر، لكن النمط الذى أصبح سائداً . الآن . هو السياحة الكثيفة السريعة، لذلك صار ضغط الزوار ثقيلاً على الأقصر والكركنك ودندرة ووادى الملوك، وهذا

وضع مرهق بالنسبة لموظفى الآثار، ومن سلبيات الزيارات الكثيفة أنها بدأت تتسبب فى ظهور تلفيات فى المعابد والمقابر، من ذلك أن ألوان نقوش مقبرة سيتى أخذت تبهت، فأغلقت فى وجه الزائرين لترميمها، والمنفروض للمحافظة على الآثار أن تغلق إلى الأبد عشرات من المواقع الأثرية مثل وادى الملوك ولا يسمح للجمهور بارتيادها، ولكن ذلك سوف يكون له تأثير سلبى على الحركة السياحية، وهكذا يجد المشرفون على قطاع الآثار أنفسهم بين نارين . نار المحافظة على التراث، ونار تشجيع السياحة وتنمية الاقتصاد، ووسط هذه الحيرة يقف المسئولون عن الآثار وأيديهم على قلوبهم حائرين خوفاً على تراث مصر الخالد*.

يشاع أن المصريين القدماء لديهم قوة سحرية تسرى فى كل مكان فيما يعرف بسحر الفراعنة؛ لذلك إفتن الناس عندما سمحت مصر فى سبعينات القرن العشرين بعمل معرض متجول لمجموعة قيمة من آثار توت عنخ آمون، وكانت صنوف الزائرين تتكدس خارج أماكن العرض مثل المتحف البريطانى والمتحف الإقليمى بلوس أنجلوس ومتحف الفنون بياتل (الأخيران أمريكيان). فاضطرت المعارض لعمل سياجات تنظم مرور الزائرين وتقلل من زمن الزيارة بقدر الإمكان، وفى هذه المناسبة دعى المئات من الأثرين الذين لديهم علم بالكشف عن هذه الكنوز لإلقاء محاضرات عامة عنها، وكان إقبال الجمهور على هذه المحاضرات كثيفاً، إذ قدر عدد من حضرها فى شهر واحد بنحو ثمانية عشر ألف شخص. لذلك أطلق على هذه الظاهرة الاجتماعية الفريدة توتمانيا Tutmania، بعد ذلك بوضع سنوات أقيم معرض محدود لرمسيس الثانى شهد هو الآخر إقبالا منقطع النظير، وسحر الفراعنة اصطلاح غامض لم يفسره أحدا تفسيراً مقنعاً حتى الآن، أهذا مثلاً ما يشاع من أن هناك ما يسمى «قوة الاهرام» إى يعتقد البعض أن هذه الصروح الجبارة قادرة على الوصول بالمشاهد إلى قمة السكون النفسى (حالة الترفانا)؟ أم هذا تأثير المومياء ولفائفها الكثيفة (أى تأثير كيماوى)؟ أم هذا تأثير الذهب الكثيف الذى يغطى توت عنخ آمون

(*) يتبع المجلس الأعلى للآثار حالياً تبادل إغلاق مقابر وادى الملوك لفترات محددة بالتتابع.

نفسه؟ أم هذا مجموع الحضارة المصرية نفسها تلك الحضارة الغربية عن الأوروبيين، والتي ولدت لديهم الاعتقاد بأنها تفسر الحياة نفسها، أيًا كان السبب في تفسير هذا السحر فإن افتتان الناس بالآثار المصرية والتكالب على اقتنائها أحد العوامل التي تسهم في تخريب المتبقى من آثار هذه المدنية الفذة بين المدنيات القديمة.

لم يخف على متاحف العالم أمر افتتان الناس بمصر وآثارها، والجمهور بطبيعة متقلب المزاج ولا بد من العمل على اجتذابه والتنافس عليه مع وسائل الترفيه الأخرى.

ومصر القديمة تعتبر ورقة رابحة في أيدي المعارض. فعندما أهدت مصر للولايات المتحدة معبد دندور تقديرا لجهودها في إنقاذ آثار النوبة تناضت عليه ثلاثة متاحف للفنون هي: متحف المتروبوليتان (الشهير في نيويورك) ومؤسسة سميت سوينان وأخيرا أسرة كيندى. وكانت تنوى إقامة بجوار شواطئ البيوتوماك الرطبة الباردة بجوار مجمع كيندى، ثم استقر أخيرا في متحف الميتروبوليتان، وفي الوقت الذي فاز فيه هذا المتحف بالمعبد كان قد فرغ ثلثه من بيع آثار مصرية خفيفة: موميאות وجعلان وخرز وفخار من نتاج حفائر سابقة، وهذا التصرف بالبيع رغم مشروعيته أسخط المصريين لأن فيه إهدار لماضيهم، فهل كان واليس بادج محقا في قوله إن الموميאות في المتحف البريطاني «في الحفظ والصون»؟ حتى الآن يعتبر قوله صحيحا، ولكن لاندري ما الذي سيحدث مستقبلا في دنيا لم يبق فيها من التراث الفرعوني سوى القليل للدراسة أو للتمتع به.

في الوقت الحالي كاد الطلب على شراء الآثار المصرية ينعدم، لأن اسعارها قد ارتفعت بصورة خيالية، ثم كيف لنا أن نتصور أن يزدهر سوق الآثار إذا اعتنق الناس أفكارا مثل أفكار أندريه إمريش الذي وقف ليعلن على الملأ أن «الولايات المتحدة - دون غيرها - هي التي لها حق الوصاية على الفنون البشرية كلها» حقا إننا نعيش في زمن العلم والاستتارة إلا في عالم الآثار وإذا استمر الحال فربما يفقد الناس اهتمامهم بها فتتغزل مصر القديمة وينالها النسيان، ولكن هيا بنا

نسارك شمبليون فى قوله: «مصر هى مصر - دائما وفى كل مراحل تاريخها، دائما عظيمة، و دائما جبارة: فى فنونها وقدرتها على التنوير، وفى كل العصور تتلأأ مصر... وبنفس العبقرية. أما نحن فينقصنا شئ واحد لنشبع غريزة حب الاستطلاع فينا، ذلك الشئ هو معرفة منشأ المدنية نفسها وتطورها».

وبعد فهل ما كتبناه فى هذه الصفحات يشبع حقا غريزة حب الاستطلاع التى ذكرها شمبليون... أشك فى ذلك..

انتهى

•

•

شكرو تقدير

كان النجاح الذى صادفته الطبعة الأولى من هذا الكتاب «السطو على النيل» مثار دهشة بالنسبة لى، فقد ترجم الكتاب إلى عدة لغات وتلقيت مكاتبات عديدة عنه من شتى أنحاء العالم، ولا يسعنى سوى شكر كل من أجهده نفسه بالكتابة إلى معلقاً أو مبدئياً ملاحظاته، ولا يفوتنى أن أشير إلى السيدة الفاضلة التى كتبت إلى مؤكدة أنها سليله مباشرة للربة عشتروت ولجيوهانى بلزوى.

وأبث شكرى لكل الزملاء والأصدقاء الذين أعانوني بأرائهم أثناء إعدادى للطبعة الثانية من الكتاب، وعلى الأخص عدد من علماء المصريات تابعوا النص وتحفوني بأرائهم فيه، وإنى لأعتبر اهتمامهم بالكتاب فى حد ذاته تقريظ فكري لى، وإنى أعتبر أن الكتاب قد صمد فى اختبار الزمن، وقد قمت بإجراء تعديلات طفيفة فى السرد، وبتصحيح هجاء بعض الأسماء المصرية، كذلك أبعدت تحديث الفصل الختامى، كما جددت المصادر بعد الاطلاع على أحدث المؤلفات فى علم المصريات.

يستحق منى «بريت بيل» من مؤسسه مويريل جزيل الشكر لأنه صاحب اقتراح إعادة طبع الكتاب، وكان هو المتولى لتنظيم الإنتاج والنشر.

أما خريطة الكتاب فقد رسمها ستيفن براون، وأود أن أنوه بمساعدى الدائم فيكتور بريور على قوة تحمله ونصائحه الحكيمة التى أسداها لى، كذلك أحب

أن أشير إلى أن هذا الكتاب لم يكن من المتيسر صدوره لولا المعاونة التي بذلتها
لى مكتبة جامعة كليفورنيا .

لا يمكن إلا لمن درس علم الآثار المصرية أن يدرك إلى أى مدى هو مدين
لـمؤلفات من سبقوه فى علوم المصريات، وإنى لاعترف بفضل المؤلفين الذين كتبوا
عن بلزونى وأقرانه، وأخص بالذكر من بينهم «سيرام وجرينر ومايز» وورثام، ثم
أذكر أخيراً مئات غيرهم متخصصين وهواة ممن باثروا العمل الأثرى بأنفسهم
فى وادى النيل.

المؤلف

المصادر

رجعت إلى المئات من الكتب والمقالات والدوريات لتأليف هذا الكتاب وقد تكون المراجع الأساسية لهذا البحث ذات أهمية لدى من يريد التعمق بدرجة أكبر في مجال المصريات، وللإختصار التزمت بقدر الإمكان بذكر المصادر الصادرة بالإنجليزية.

GLOSARY

المفردات

يركز التوضيح على الآلهة المصرية والمصطلحات والصنایع، ولا ننوى التوسع فى ذلك، ويمكن الرجوع للبيولوجرافيا لمن يريد التوسع فى ذلك. منذ الطبعة الأولى تغير معنى الكلمات المألوفة فى الاستخدام الدارج، وفيما يلى هجاء أهم المصطلحات.

ملحوظة: سنعنى . هنا فقط . بالكلمات المشروحة ونهمل الهجاء بدون شرح لأنه مأخوذ من العربية مباشرة.

المترجم

تميمة . تعويذة . حجاب Amulet

تستخدم كرقية أو وسيلة للحماية بطريق السحر سواء فى الحياة أم الممات والتمائم كانت أشكالها متنوعة وعادة توضع بين اللفائف التى تغطى المومياوات.

أمون Amun

إله الشمس. ارتفعت عبادته للصدارة فى الدولة الحديثة، وكان فى الأصل إلهًا محليًا فى طيبة. وأصبح كبير الآلهة فى الأسرة ١٨. وكان مقره معبد الكرنك الكبير.

عنخ Ankh

هو الرمز الهيروغلىفى لكلمة «حياة». وكان الآلهة يحملونه عادة، له تأثير سحرى مهم، تصور على شكل وجه الخف (الصندل). والنسب أن كلمة صندل فى المصرية القديمة كانت تنطق مثل كلمة حياة. وهذا هو سبب الربط بينهما فى الرسم الهيروغلىفى.

آتون (قرص الشمس) Aten

الفرعون المارق أخناتون من الدولة الحديثة نادى بعبادة قرص الشمس عبادة وحيدة باعتبارها مصدر قوة الكون.

عجل أبيس Apis

العجل المقدس الذى يعتقد أنه يحتوى أوزوريس، وعجل أبيس من آلهة الخصوبة، وانتشرت عبادته فى الدولة الحديثة والعصر المتأخر، وكانت له مواصفات خاصة فيجب أن يكون لونه أسود وله علامات خاصة على أجزاء معينة من جسمه. وكانت عجول أبيس فى العصور القديمة يضحي بها وتذبح فى احتفال مهيب وتدفن باحترام فى السيرا بيوم بمنف.

Basst Bastet

إلهة المرح تحمل رأس قطة.

Bes بس

الإله القزم، إله الموسيقى والبهجة والزواج والرقص، وهو إله، منزلى ويعتبر أيضاً - من آلهة الخصوبة.

Bub تل بسطة

مدينة فى الوجه البحرى يعبد سكانها الربة القطه. وبها جبانة خاصة لدفنها، وهذه الجبانات بها مئات من القطط المحنطة.

Cartonnage الأغلفة

أغلفة أقنعة الرأس والتوابيت كانت من الكتان المغطى بالجص الذى كان يطلّى بعد ذلك ويموه بالذهب.

Cartouche الخرطوش

إطار رمزى من الحبال يكتب داخله اسم الفرعون، والخرطوش يرمز لسيادة الفرعون على العالم (نعرفه بالخاتم وكان على شكل الحبل).

Coffin texts نصوص التوابيت

أقوال سحرية (أى عبارات لها مفعول سحرى) كانت تنقش داخل التوابيت الخشبية فى الدولة الوسطى، ومفعولها وقاية الميت فى الحياة الآخرة.

Coptic القبطية

آخر أشكال اللغة المصرية القديمة، وتستخدم فى كتابتها الحروف اليونانية وبعض الرموز الجديدة، واستمر استعمال اللغة القبطية حتى العصور الوسطى،

وما زالت تستعملها الكنيسة القبطية، والكلمة منسوبة لها (أى للكنيسة القبطية ومعتقى مبادئها القبط - المترجم).

المتصل Cursive Scripts

فى الكتابة الهيراطيقية والديموطيقية المتطورة عن الهيروغليفية، كان يستخدم قلم البسط حيث ينساب الحبر على سطح البردى أو الخزف (أى يتشابك).

الدهبية Dahabiyah

نوع من السفن النهرية كانت تستخدم لنقل المسافرين والبضائع الثقيلة، وكان السياح يؤجرونها (للسفر النيلى) فى القرن ١٩ (وهى تشبه الفندق العائم - المترجم).

الخط الديموطيقى Demotic Script

خط متشابك متصل الحروف تطور عن الهيروغليفية فى القرن السابع الميلادى، كان يستخدم فى المعاملات اليومية الجارية لتسهيل الشئون الإدارية، وكان منتشرا مع الهيراطيقية والهيروغليفية.

الأسرة Dynasty

قسم الكاهن المؤرخ مانيثون تاريخ مصر على أساس أسرى، وهى كلمة لاتمت إلى معنى الأسرة بصلة كبيرة، لكن المشتغلين بالمصريات يستخدمون الاصطلاح حتى الآن للتبسيط وتسهيل الفهم.

خزف مزخرف Faience

نوع خاص من الاوانى المزججة يصنع من الكوارتز المطحون بعد تلوينه، واللون الغالب عليه الأزرق المائل للاخضرار.

الفيوم Fayyum) لها هيمنة عظيمة، فقدم هذا حيزها، فوجدت هناك تماثيل

منخفض على شكل بركة تكون في العصر الجليدي في غرب النيل، وكانت تروى أثناء الدولة الحديثة وسكن الفيوم قوم من أوائل من اشتغلوا بالزراعة في مصر يرجع تاريخهم إلى قبل سنة ٦٠٠٠ ق.م.

جحتور Hat-Hor

إلهة الموسيقى والحب والرقص وتبدو في الغالب على شكل بقرة، وتعتبر جحتور مربية ملك مصر، كما أنها من إلهات السماء. وكثيراً ما يربط بينها وبين إيزيس كأماً لحورس (لعل المقصود أنها مربية حورس فهي في مقام أمه. المترجم).

الخط الهيرواطيقي Hieratic script

خط متشابه (متصل) متطور عن الهيروغليفية استخدم في كتابة الوثائق القانونية وفي مجال الأعمال حتى نهاية الدولة الحديثة، حيث شاركه في ذلك الخط الديموطيقي.

الهيروغليفية «النقش الهيروغليفى» Hieroglyphs

كتابة تصويرية ظهرت كاملة التطور حول سنة ٣١٠٠ ق.م. ظلت مستخدمة حتى العصر الرومانى وهى مزيج النطق (خواص الصوت أى الفونجرام) والرموز التصويرية (إيدوجرام)، وكانت تستخدم أساساً فى كتابة النصوص الدينية والأدبية.

حورس Horus

أطلق هذا الاسم على آلهة كثيرة، وكان هناك إله سماوى. قديماً على شكل صقر يحمل القرصون، وحورس (حارويريس) كان زوجاً للإلهة جحتور، أما حورس (حرسا إيزة) فكان ابناً لإيزيس وأوزيريس، وحاول أخذ ثأر أبيه الميت.

بمحاربة الإله ست، أما حورس السماوى - حرماخيس - فتجسيد الشرق الشمسى،
ورمز الحياة الخالدة.

بهو الأساطين Hypostele

كان بالمعابد المصرية القديمة بهو أو أكثر من الأبناء المعمدة، وأقرب وصف
لها أنها كانت مهيأة للتشريفات، وتتميز بكثرة الأساطين التى تدغم السقف،
وهذه الأساطين ذات أشكال نباتية عادة.

إيزيس Isis

زوجة أوزيريس، رمز الوفاء للزوج (الزوجة المخلصة)، أهل الزوجة المثالية
والأم والإلهة الممثلة للأمومة، كانت أخت زوجها أوزيريس، وأبناها حورس الصغير
الذى يصور كثيراً جالساً فى حجر أمه.

الكا Ka

الروح الحية للإنسان التى تستمر فى الحياة بعد موت الجسد، تتركز فيها
روح الإنسان، وترعى نسله بالغذاء والشراب فى المقبرة طويلاً بعد الوفاة. وتعتبر
المقبرة «بيت الكا».

لازورد Lapis Lazuli

حجر نصف نفيس (شبه كريم) كان المصريون القدماء مغرمين به، كان
يستخدم كجوهر فى التطعيم، وكان يستورد من أفغانستان.

مصر السفلى. الوجه البحرى Lower Egypt

الجزء الشمالى من مصر بما فيه الدلتا، وكانت تعرف «بأرض رع»، وكان
الفراعنة يلبسون التاج المزدوج الذى يرمز للوجهين البحرى والقبلى.

ماعت Ma'at

إلهة الصدق والعدالة، حاملة ميزان العدل والنظام في الكون، وهي رمز السلوك السوى للإنسان، وفي يوم الحساب توزن ريشة ماعت مقابل روح الميت لتقييمه.

المقمة Mace

كانت المقمة ذات الرأس الحجرية من رموز السلطة في مصر القديمة.

الملاخيت Malachite

نوع من كربونات النحاس يوجد بسيناء والصحراء الشرقية.
كان يستخدم كصبغة للعين وأغراض التلوين بصفة عامة.

مانيتون Manetho

كاهن من القرن الثالث الميلادي اشتهر بكتابة «تاريخ مصر» لم يصلنا منه سوى مقطعات/ ويحتوى تاريخه على الثلاثين أسرة فرعونية التي نعرفها الآن.

مصطبة Mastaba

مقبرة مستطيلة جدرانها مائلة ميلا طفيفا، كانت تستخدم كمقابر للنبلاء في الجيزة وسقارة أثناء الدولة القديمة، تشتهر بزخارف جدرانها.

معبد جنازى Mortuary Temple

معبد مخصص لأداء الطقوس التي تضمن استمرار حياة الفرعون المتوفى وطقوس ترحيب الفراغة به بينهم، ومساواته بأوزوريس.

وكان كل فرعون له معبد جنازى خاص به . هو فى العادة جزء من مجمعه الجنازى (مجمع الدفن أو المجمع المقبرى)، والهرم أحد أشكال المجمع المقبرى، ثم

انفصل المعبد الجنائزى (الجنائزى) بعد ذلك وصار وحدة مستقلة . كما فى وادى الملوك.

موميا Mumy

اصطلاح يعلق على الجثث المحنطة وكانت أحشاء الميت الداخلية تزال «تحفظ مستقلة»، أما الجسد فكان يجفف بالنطرون هو مركب كيماوى طبيعى من كربونات وبيكربونات الصوديوم، بعد التجفيف كانت الجثة المحنطة تعطر وتغلف بالكتان تغليفا كثيفا .

حضارة نقادة Nagada Culture (Nekadeh)

حضارة زراعية كانت موجودة قبل الأسرات فى منطقة طيبة، انتشرت فى وادى النيل قبل سنة ٣٥٠٠ ق.م .

جبانة Necropolis

كلمة يونانية تعنى «مدينة الموتى» وهى منطقة تكون عادة عند حواف الصحارى بعيدا عن الأرض الخصبة التى تحفظ للميت.

إقليم Nome *

الأقاليم أسماء تطلق على المحافظات المصرية القديمة، وكان يحكمها حكام كان لهم نفوذ كبير عندما تضعف السلطة المركزية.

مسلة Obelisk

حجر طويل مستدق يشبه القلم رأسه هرمية الشكل، كانت على علاقة بمباداة الشمس، استولى الأثريون الأوائل على كثير منها .

سخمت Sekhmet

الإلهة ذات الرأس الأسدية، إلهة الشفاء، زوجة بتاح، الراعية للأطباء والمرضى وهى . أيضا . سيدة الصحارى والقوة المدمرة لأعداء الفرعون.

سيرابيوم Serapeum

مجمع تحت الأرض يتركب من سراديب طويلة فى سقارة بجوار منف وجد به مريت ٦٤ من عجول أبيس المقدسة مدفونة هناك.

سيرابيس Serapis

إله مركب يجمع بين أبيس وأوزوريس. اخترعه اليونانيون فى منف فى العصر البطلمى.

ست أخو أوزوريس Seth

إله الشر، هزمه حورس أخذاً بثأر أبيه أوزيريس.

شادوف Shaduf

أله رى معروفة تتركب من جردل مربوط إلى ذراع خشبية يرفعها ثقل مناسب من الخلف للرى، من أقدم وسائل الرى بمصر ومزال يستخدم حتى الآن.

شوابتى . أو شابتى Shawabty (ushabti)

معناها «المجيب» أى حاضر السمع والطاعة، وهى تماثيل خشبية أو خزفية توضع فى المقبرة لتقوم مقام العبيد فى خدمة السيد صاحب المقبرة «فى حقول أوزوريس» فى الحياة الآخرة.

ابو الهول Sphinx

اصطلاح مأخوذ من التعبير المصرى شسب عنخ Shesep ankh ومعناه «الصورة

الحياة» تمثل قوة وسلطة الفرعون، تمثال رأسه بشرية وجسده جسم أسد ضخمة
رأبض، وهو حامى الخير وطارد الشر.

قرص الشمس Sun disk

هو مصدر الحياة للمصريين، والشمس الكاملة هي «رع».

تحتوث Thoth

إله برأس أبو منجل، راعى الكتابة (إله الكتابة) والقراءة والحساب والكتابة،
وهو كاتب الآلهة وله دور كبير يوم البعث والحساب.

وزير Vizier

حاكم مصر كلها (نيابة عن الفرعون)، فهو الشخص التالى فى الأهمية
للفرعون، كان فى العادة من الأسرة المالكة ووظيفته إدارة المملكة.

انتهى

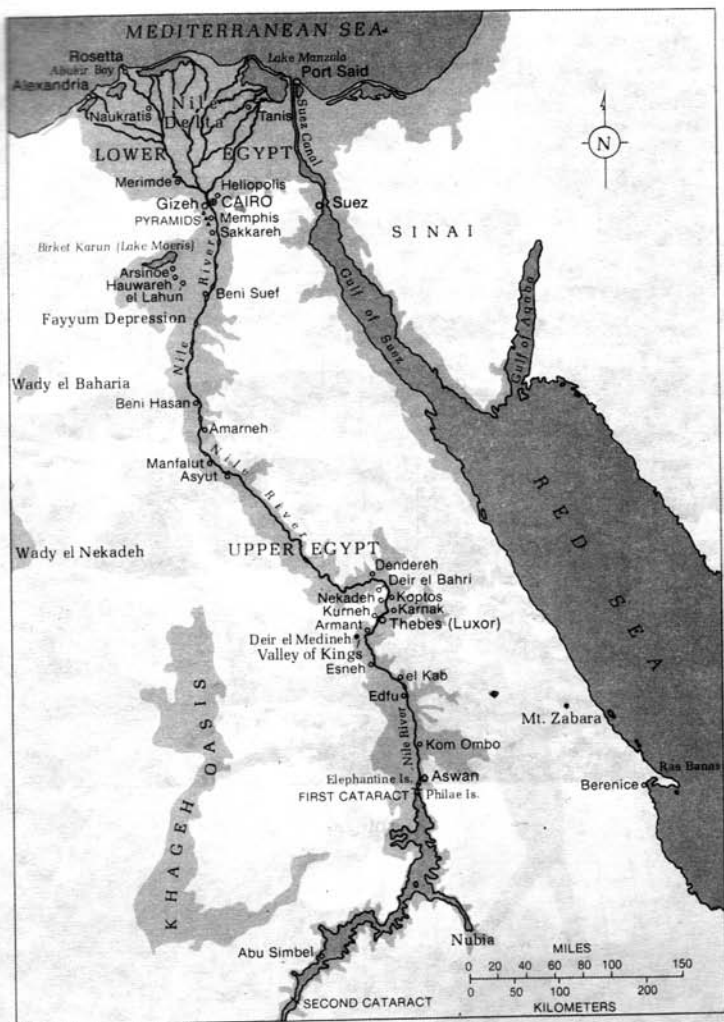
•

ملحوظة

ليس هناك اتفاق مطلق على نطق الأسماء الفرعونية بين علماء
المصريات. وقد استقر رأينا على استخدام طريقة وليام هايز
W. Hayes كما وردت في صولجان مصر The Scepter of Egypt،
بمتحف المتروبوليتان بنيويورك سنة ١٩٥٣. وذلك لذيوع أسلوبه في
التهجى.

•

ملحق الصـور



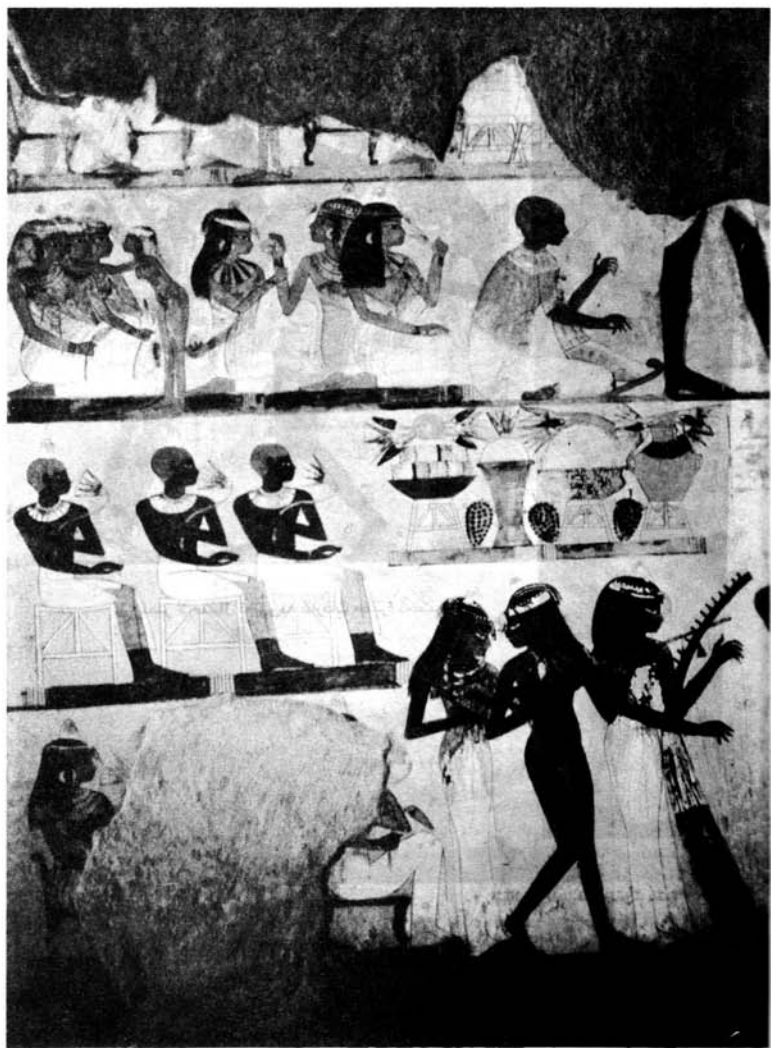
(١٨ - نهب آثار وادي النيل)

خريطة مصر.



وادی الملوك.





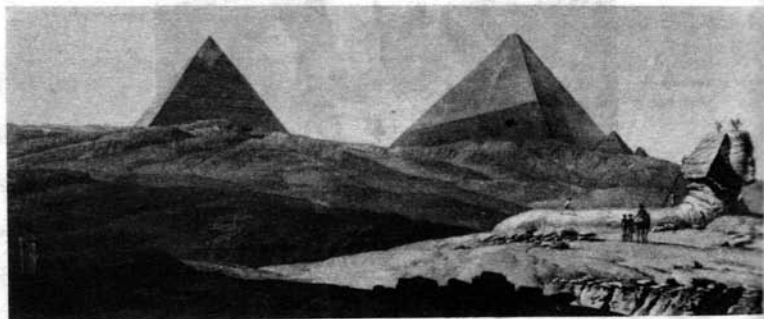


منظر لاحتفال تظهر به عازقات مقبرة نخت.

مومياء ملكية

التابوت الداخلى لتوت عنخ آمون.

رئيس الثاني
(تمثال بمتحف تورين).



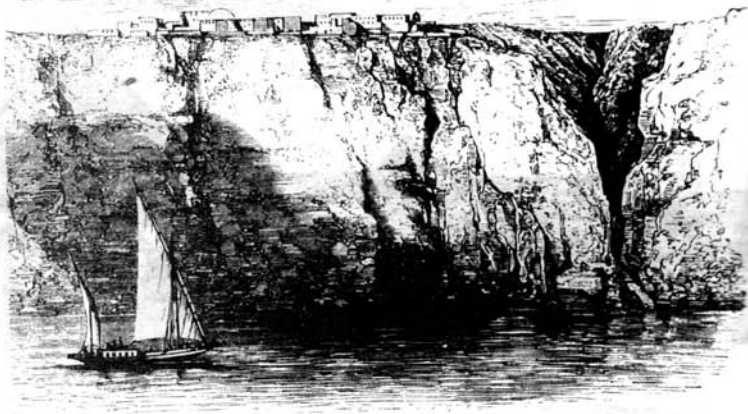
أهرام الجيزة وأبو الهول عند الغروب، عن وصف مصر.



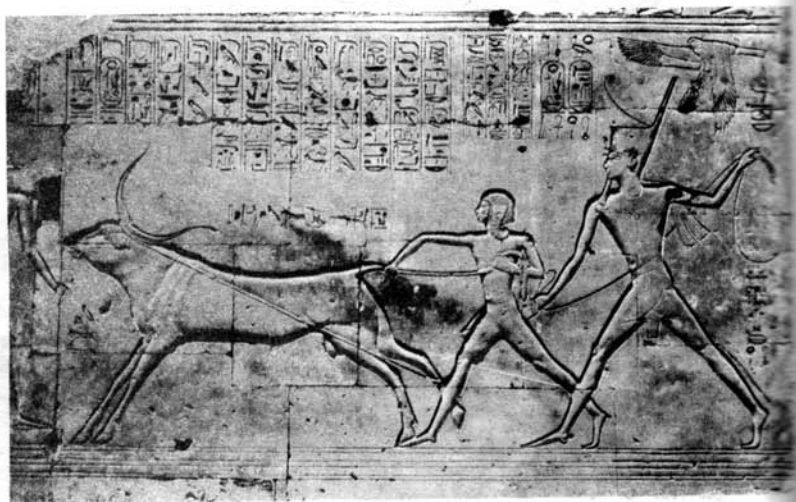
هوارد كارتريشرف على افتتاح غرفة دفن توت عنخ آمون.

الكنائس التي بنيت في القرنين الرابع والخامس.

في كنيسة القديس بطرس، في روما، في القرن الخامس.



صخور نيلية.



نقش جدارى بارز بمعبد سيتى الأول بأبيدوس: بالصورة رمسيس الثانى، واحد الأمراء يقيدان ثورا.



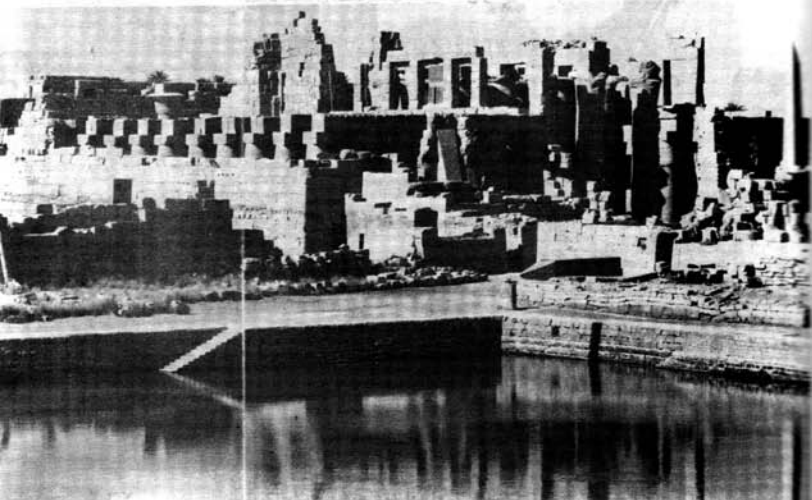
أهرام الجيزة وأبو الهول في العصور الحديثة.



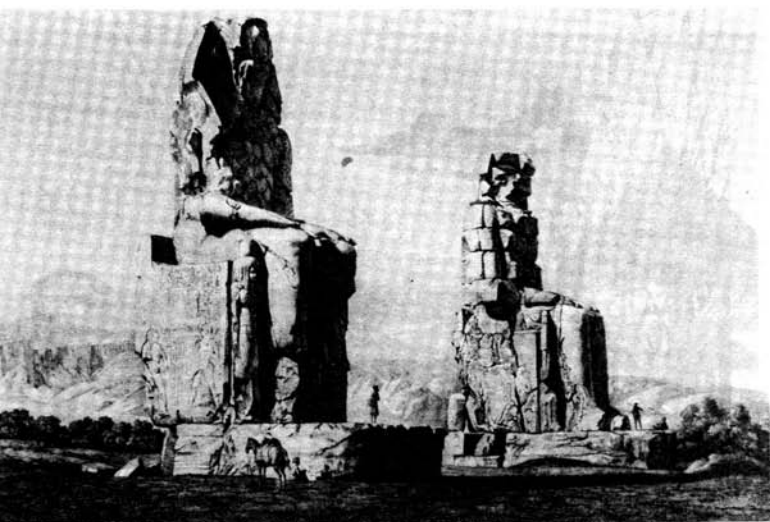
معبد الرمس في بطمية.



تماسيح نيلية: «مخلوقات جبانة وخجولة، ويقال إنه يمكن إبعادها بصفير البواخر المزعج».



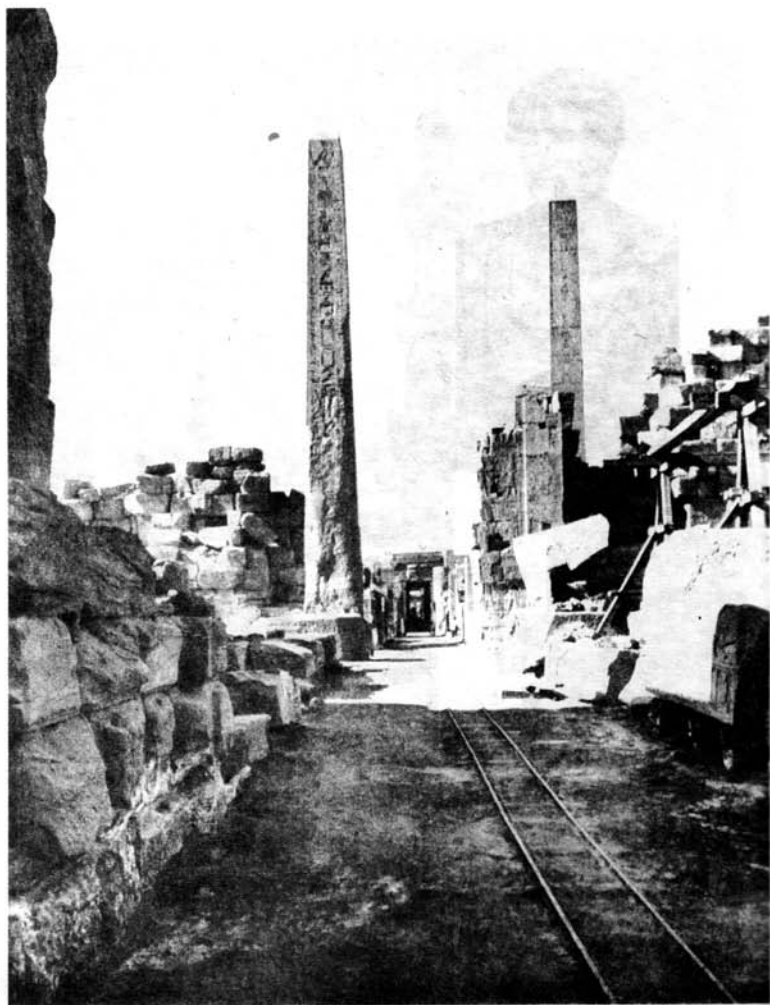
الكرنك : بهو الأساطين: بهو استقبال للملكين سيتي الأول، ورمسيس الثاني.



تمثالا ممنون الضخمان بطيبة، عن وصف مصر.

ΘΗΚΕΣΕΦΩΗΗΕΝΤΑΘΕΑ ΡΩΔΟΔΟΔΑΚΤΥΛΟΣΗΩΣ
 ΣΗΜΗΤΕΙΡΚΑΥΤΕΜΕΜΝΟΝΕΕΑΔΟΚΡΗΜΩΟΙΛΚΟΥΣΑΙ
 ΣΗΦΩΝ — ΥΔΑΒΑΝΤΙΠΕΡΙΚΛΥΤΟΥΑΝΤΩΝΕΙΝΟΥ
 ΡΚΑΤΩΚΑΜΕΝΙΠΑΧΩΚΤΡΙΣΚΑΙΔΕΞΛΕΧΟΝΤΙ
 ΤΑΚΗΠΟΔΩΟΝΤΕΣΕΚΛΥΟΝΑΤΔΗΣΑΝΤΟΣ
 ΚΑΛΜΕΑΡΕΙΘΕΛΜΙΠΩΝΤΟΣ
 ΟΛΙΝΣΒΑΣΙΑΝΑΒΑΘΗΚΕΚΡΟΝΕ
 ΟΥΦΩΗΗΗΑΔΑΠΟΠΕΤΕΟΤΕ —
 ΟΡΑΜΟΙΒΑΔΙΣΕΝ
 ΑΛΟΧΩΕΥ
 ΕΥΤΥΧΩ

liard del'



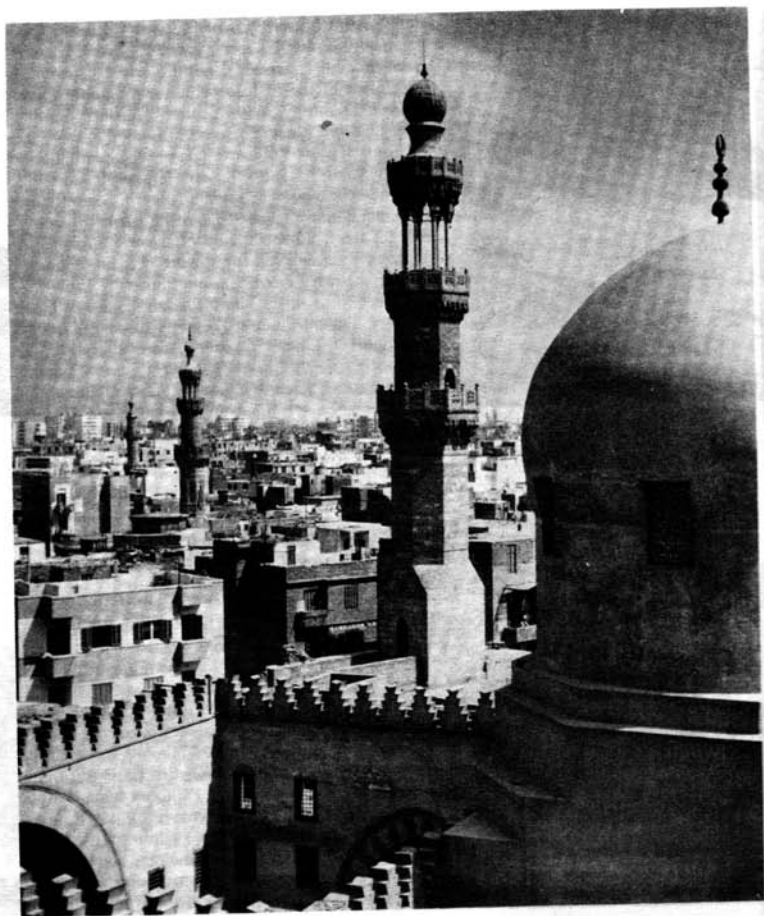
مسلة تحتمس الأول، والملكة حتشبسوت بالكرنك.



الإمبراطور هدریان.



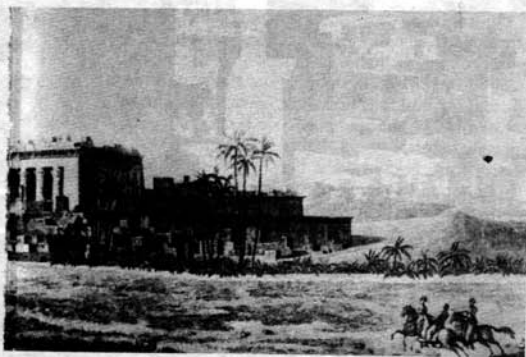
رأس منحوت من حجر الديوريت للملك امنحتب الثالث،
من الأسرة ١٨.



مدرسة ضرغتمش بجوار جامع ابن طولون بالقاهرة، تأسس في القرن التاسع الميلادي.



«جزيرة فيله: منظر لبعض معالمها الأثرية، «عن وصف مصر».

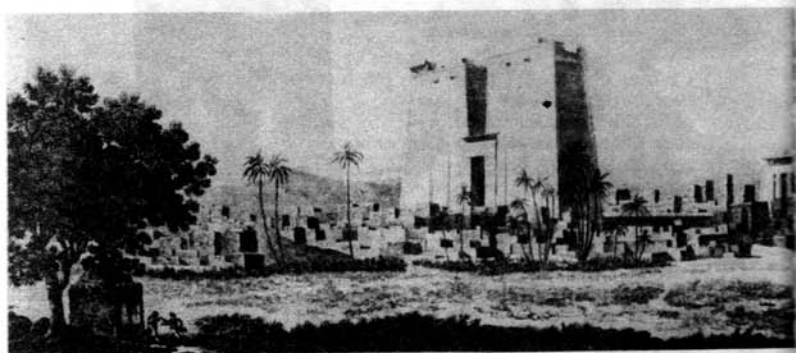


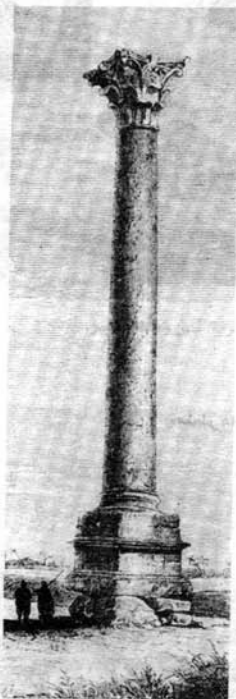
«من الأسطورة».

«الأسطورة» هي قصة أو قصة خيالية، غالباً ما تكون متعلقة بالثقافة أو التاريخ، وتحتوي على عناصر خيالية أو مبالغ فيها.



«منظر عام للإدفو، عن وصف مصر»

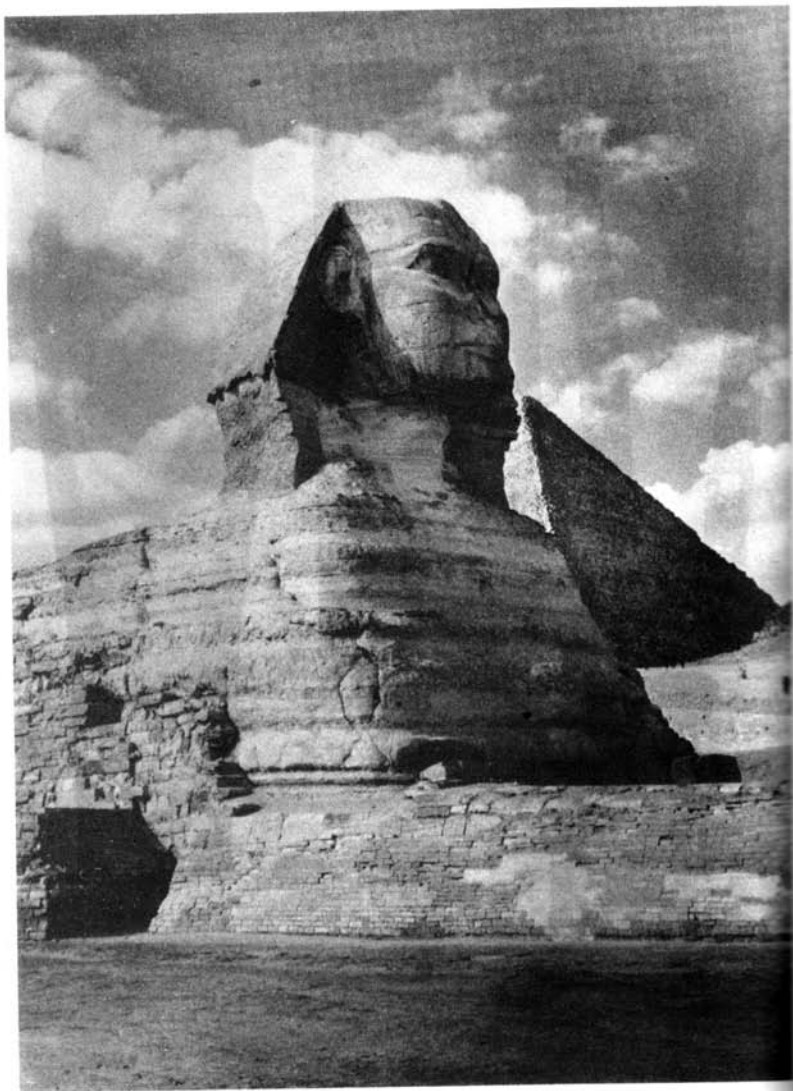




عمود بومبي بالإسكندرية.



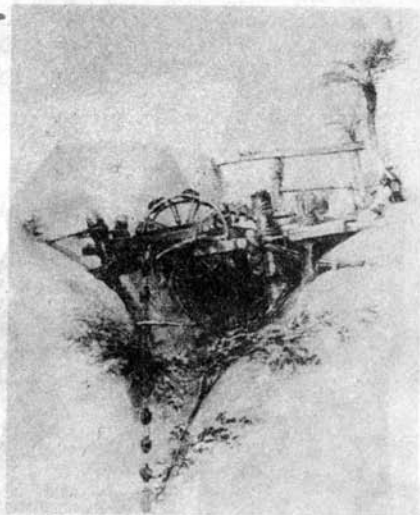
تمثال جالس لأمنحتب الثالث
منحوت من الجرانيت الأسود؛
من الأقصر، الأسرة الثامنة عشرة.



أبو الهول.

(١٩ - نهب آثار وادي النيل)

ساقية: آلة رى مصرية (معروفة)
من رسم الرسام الفيكتوري
الشهير دافيد روبرتس.



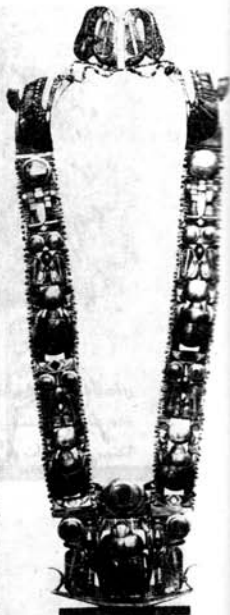
تمثالان من الخشب الملون يمثلان فنانين على رأسيهما
سلطان بهما نبيذ ولحم ويطحن، من مقبرة مكت رع بطيبة،
الأسرة الحادية عشرة.



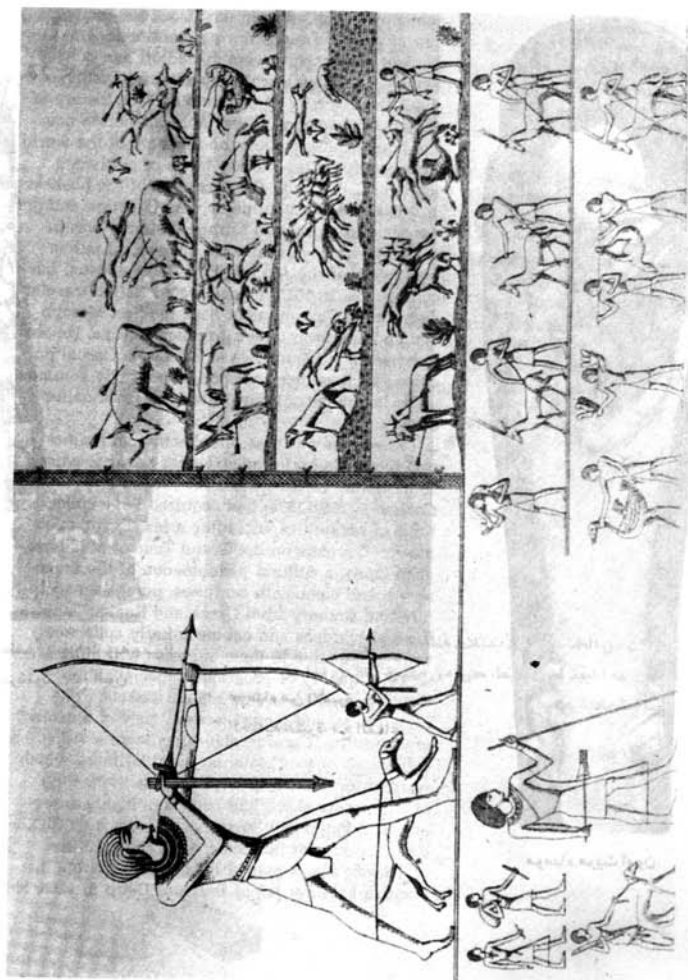
مومياء مريت آمون.



مومياء من الأسرة
الحادية عشرة، مع القناع.



عقد مطعم بالجواهر وبه مشبك،
من مقبرة توت عنخ آمون.





راقصات بالقاهرة من رسم المصور دافيد رويرتس في منتصف القرن التاسع عشر،
 «هم عادة في منتهى الوسامة، كما كتب (الرسام)». ومنهن أرق بنات مصر وأجملهن،
 لكنهن ممنوعات من الالتحاق بالحريم المحترم، لأنهن أكثر الفئات المنبوذة بين المحظيات.



كوخ فلاحي وسط أرض مقسمة إلى أحواض (رى بالحياض).

مقهى بأحد ضواحي القاهرة،
«الزبائن تعودوا الجلوس (فيه)
ساعات طويلة، يحتسون القهوة
أو المشروبات، على أنغام الربابة».



دكان لبيع الكعك في سوق القاهرة رسم لأميليا إدواردز
بعنوان «صلى على النبي . كعك».

بنوا دي مييه (١٦٥٦ . ١٧٣٨) . هذا البورتريه
ظهر في كتابه المسمى وصف مصر (١٧٣٥)
(وهو غير كتاب حملة نابليون).



(رسم لأميليا إدواردز)



أبو الهول كما صورته ريتشارد بوكوك سنة ١٧٤٣

تمثال أمنمحات الثالث، الأسرة الثانية عشرة.

فريدريك نوردن (١٧٠٨ - ١٧٤٢) «سوف يصحب القارئ المؤلف في رحلته، ويشاطره جميع المتع دون أن يتعب أو يواجه المخاطر». مقتبس من نوردن. الطبعة الإنجليزية. مقدمة الناشر.





نابليون بونابرت.
تصوير جورين.



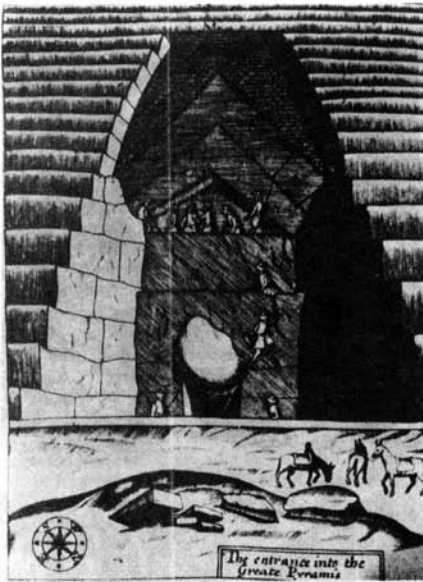
مولج.



شيفان دينون.

حملة عسكرية إلى الصحراء، عن وصف مصر.





مدخل الهرم الأكبر
كما صورته نوردن.

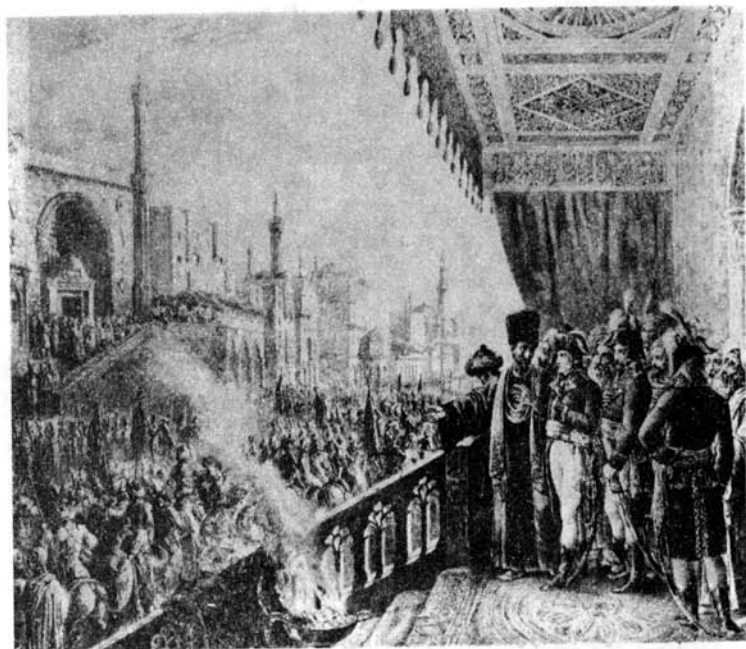


أبو الهول
كما صورته نوردن سنة ١٧٥٥.

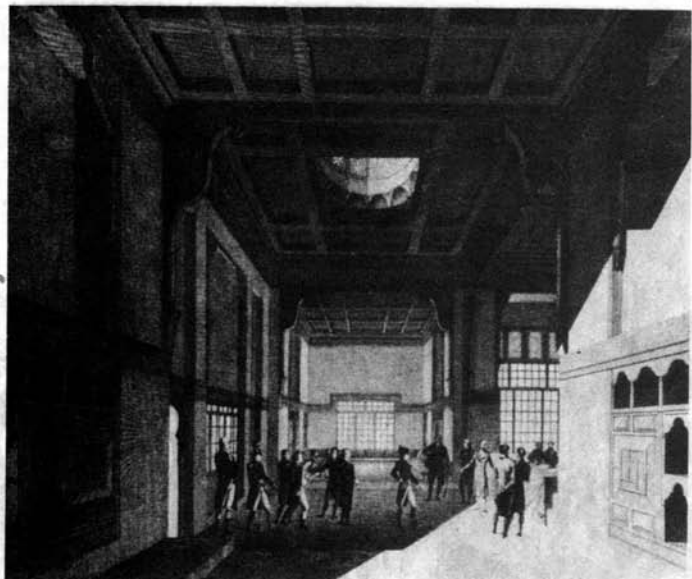


نوردن في رحلة عبر الأهرام.



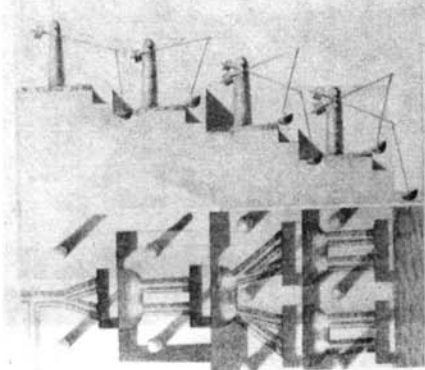
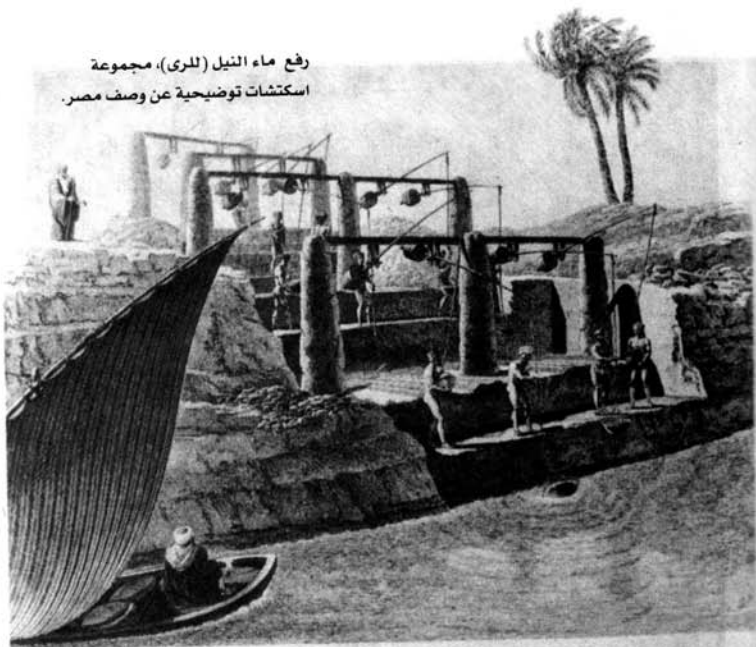


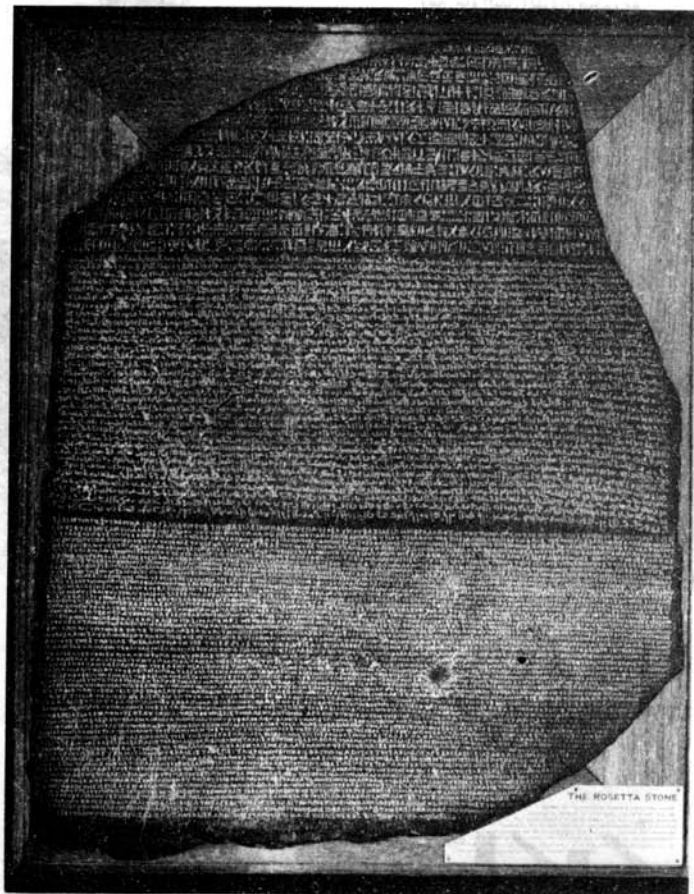
نابليون في القاهرة.



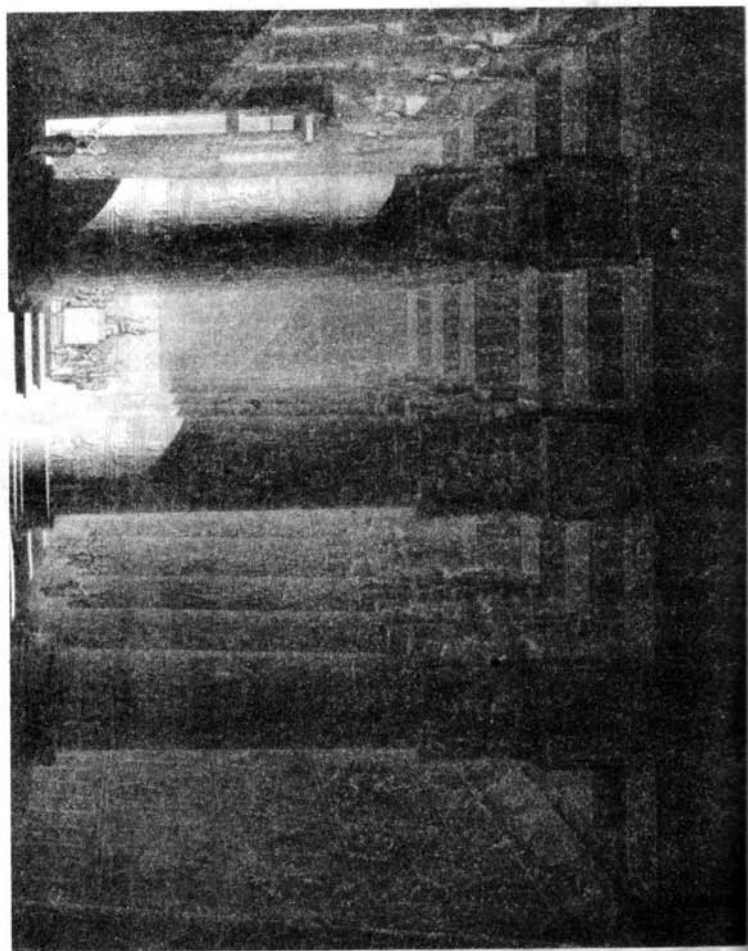
المقر الرئيسي للمؤسسة المصرية (العلمية) بالقاهرة، عن وصف مصر.

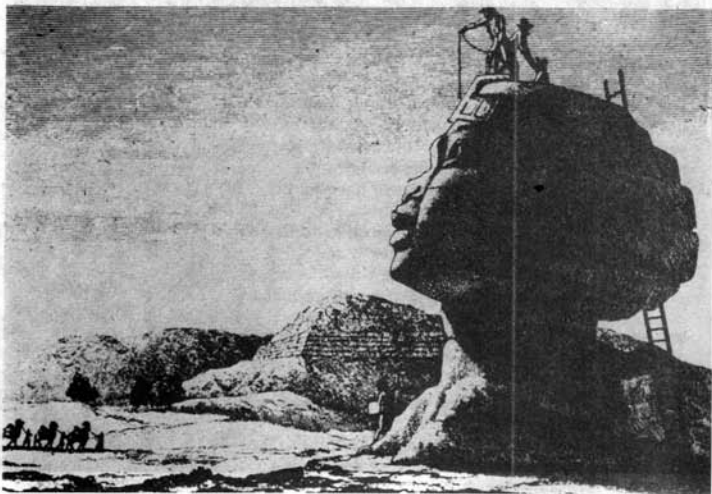
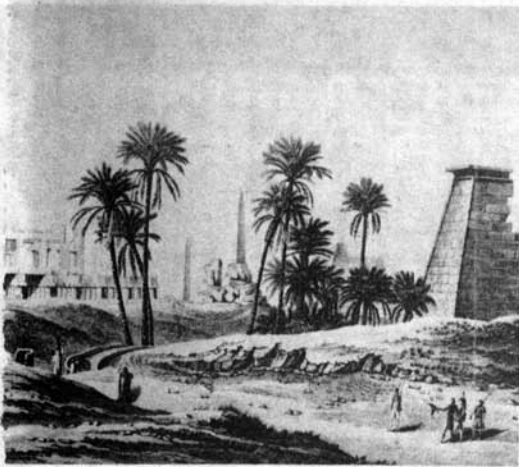
رفع ماء النيل (للى)، مجموعة
استكشاث توضيحية عن وصف مصر.



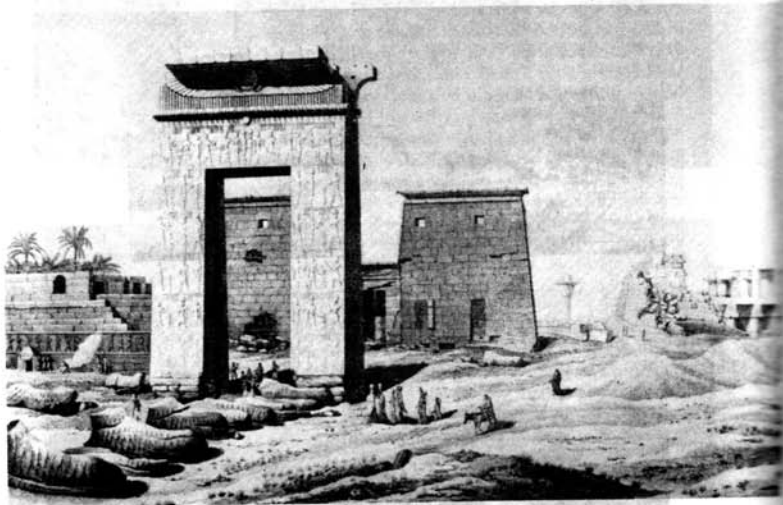


حجر رشيد المحفوظ بالمتحف البريطاني.





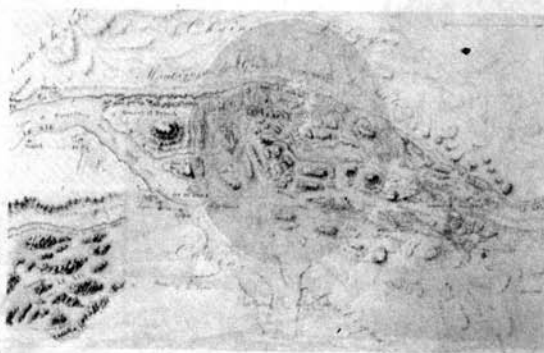
العلماء يقومون بمسح أبو الهول، تصوير فيشان ديتون.

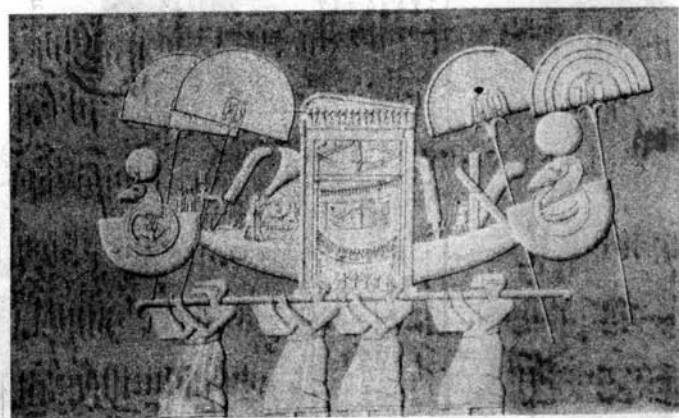
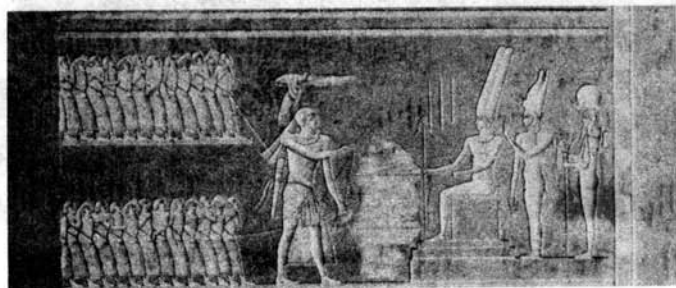


الكرنك: منظر البوابة والمعابد من الجنوب، عن وصف مصر.

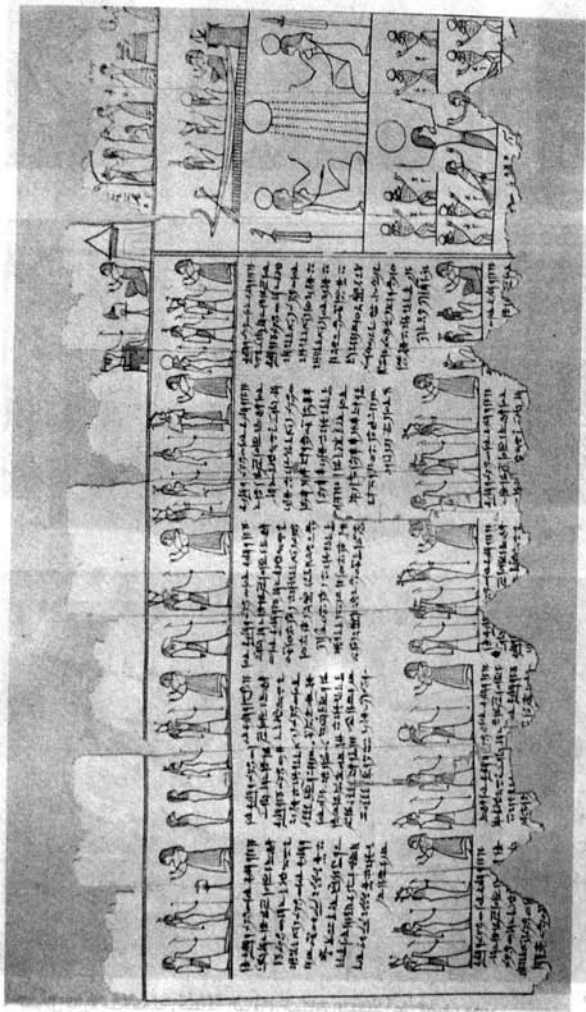


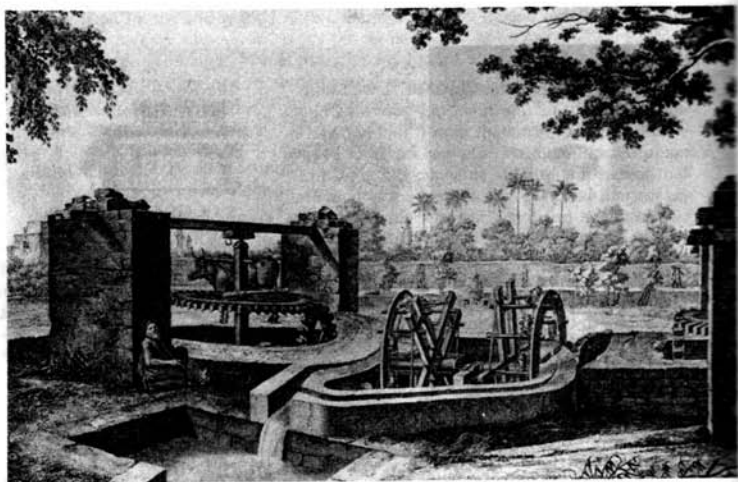
الجنرال ديزيه.





صورة منسوخة تمثل بردية من أحد مقابر طيبة، تبدو فيها محاولة لنسخ الكتابة الهيروغليفية، عن وصف مصر.





«فنون وصنائع، منظر ساقية وآلة رفع (مياه)»، عن وصف مصر، مثال واضح عن اهتمام العلماء في الحملة بالحياة العامة.



محمد علي والي مصر (١٨١٨).



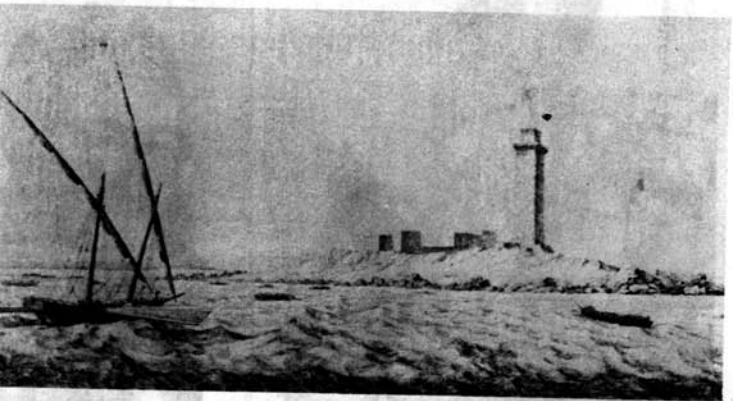
برنارد ديتو دروفيتي.



هنرى سولت قنصل بريطانيا العام فى مصر
بورتريه تصوير هولز.



قصر حاكم منفلووط.



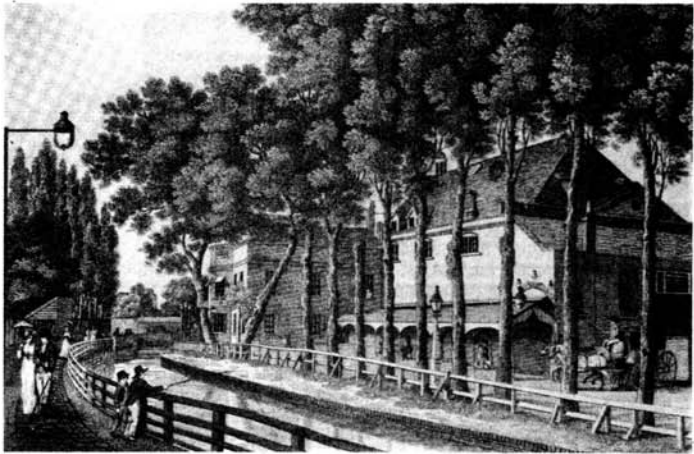
الجيش الفرنسى يرسو فى الاسكندرية، عن وصف مصر.



«كان صعود الهرم الأكبر مغامرة صعبة».



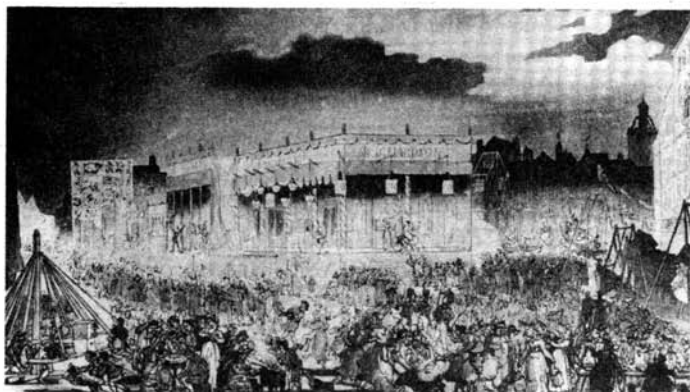
استعراض بیلزونی فی مسرح سادلرز ویلز.



«مسرح الاكواتيك». صورة تاريخها سنة ١٨١٣.



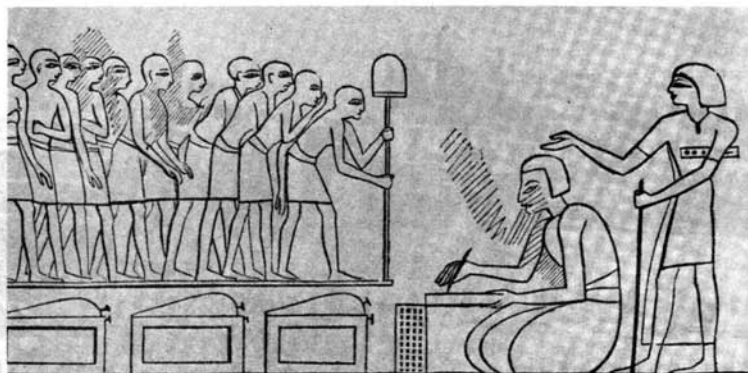
شمشون البنتاجوني.



سوق بارثولوميو. عن رولاند سون سنة ١٨٠٩.



لوحة من تصوير كريشاندك
لأحد عروض بلزوني في
بارثولوميو.



5. Persons coming to be registered.

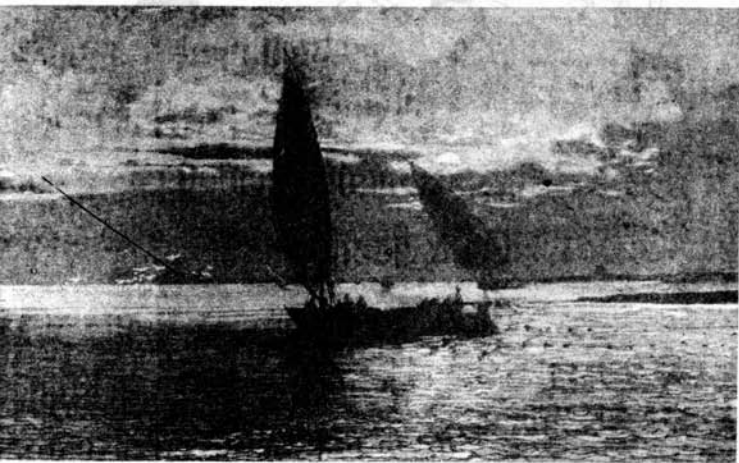
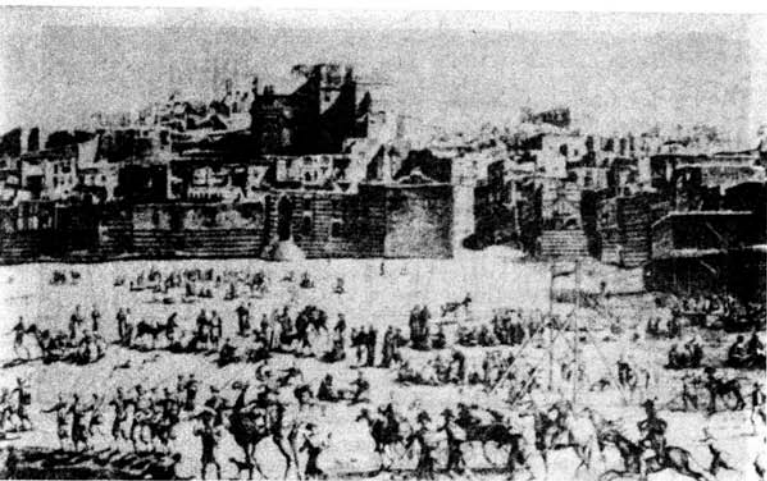
Thebes.



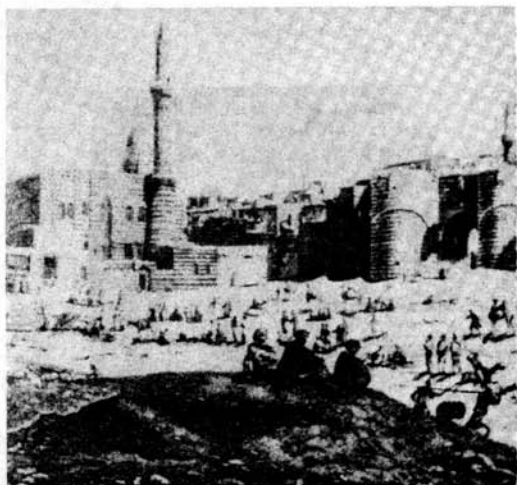
Brought before the scribes.

Thebes.

البيروقراطية المصرية، لوحة منقولة من كتاب جون جاردنر
ويلكنسن دعادات وسلوكيات المصريين القدماء (١٨٣٥).



مراكب تسيير في النيل في رحلة إلى الصعيد.

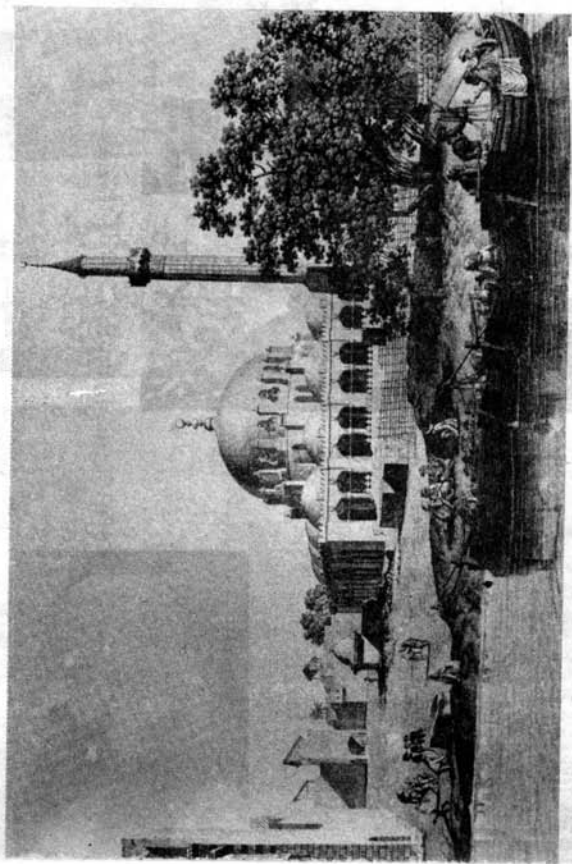


القاهرة في أوائل القرن التاسع عشر، عن وصف مصر.



جيوفاني بلزوني،

تصوير بروكيندون (مجهولة التاريخ).

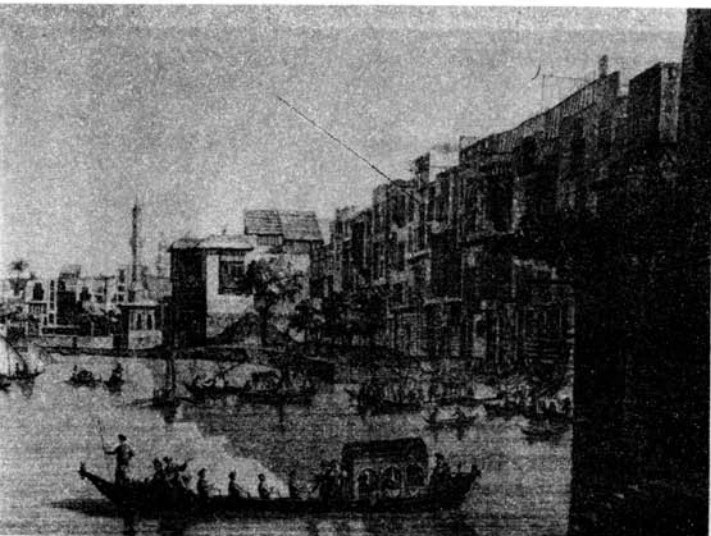


القاهرة: المرقا والمسجد الكبير ببولاق، عن وصف مصر.



خريطة القاهرة: إعداد المعهد المصري، عن وصف مصر.

٣٠١ (٢١- نهب آثار وادي النيل)



«على مدى أربع مائة ميل من الشمال إلى الجنوب تصطاد
السواكف ومعه الرجال والنساء والصبية... يقضون
حياتهم كلها فى رفع المياه من النهر لرى حقولهم».





ميدان الأزقية الكبير بالقاهرة،

عن وصف مصر.

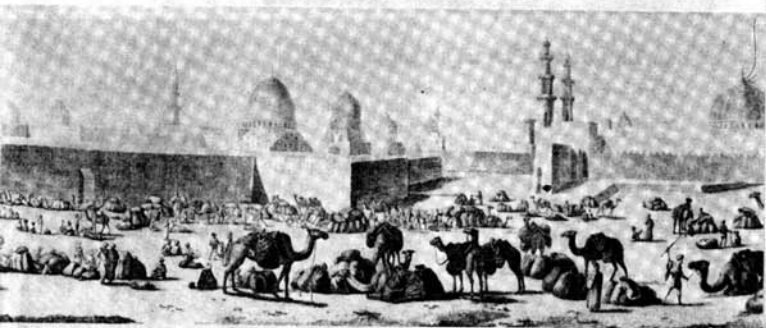


فيلا وحديقة قرب القاهرة.





منظر القاهرة من القلعة، ويظهر بالصورة عساكر أتراك.



منظر لمكان تجمع القوافل بالقاهرة، تظهر به قافلة في طريق التكوين، عن وصف مصر.



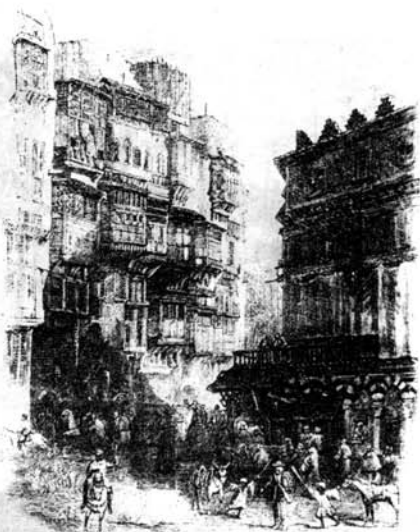
النيل في الفيضان.



مومياوان لأبيس.



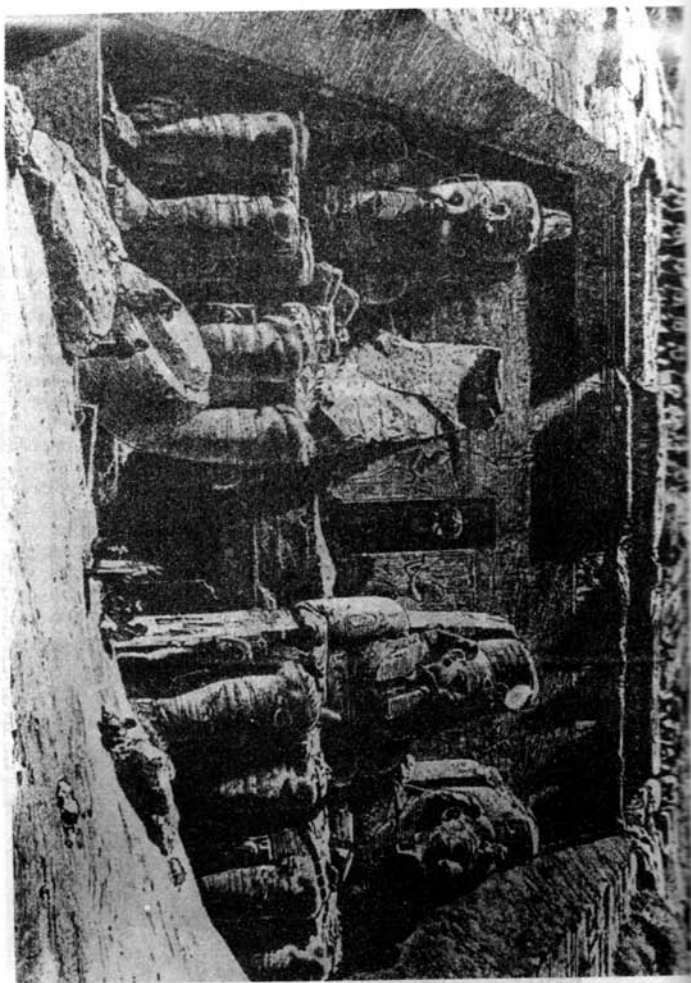
جون لويس بورخارت في زي عربي.



أحد شوارع القاهرة، القاهرة مدينة كبيرة، وإمكانات تطويرها كبيرة أيضا،.. من أقوال سائح أمريكي.

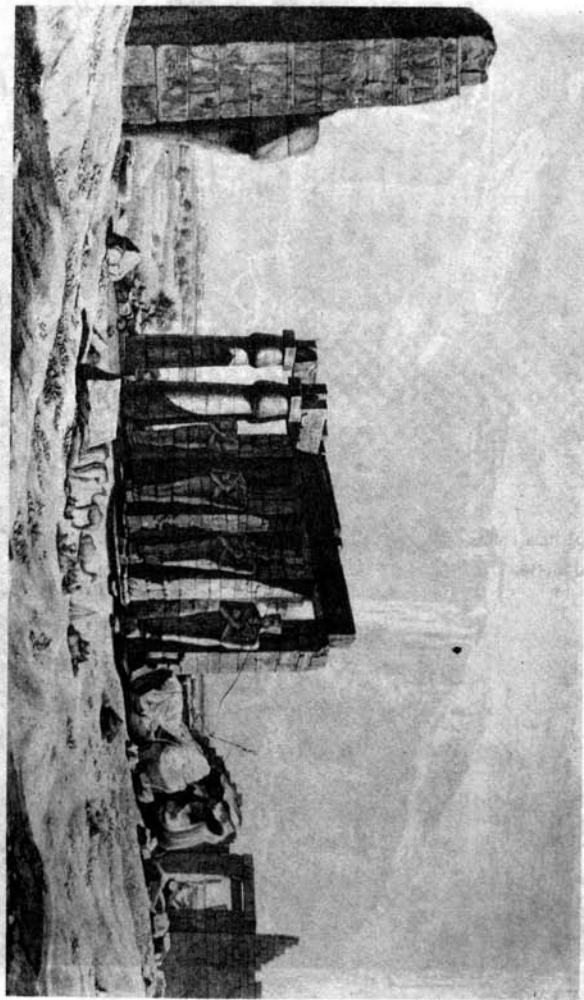
قصر بالقاهرة، عن وصف مصر.



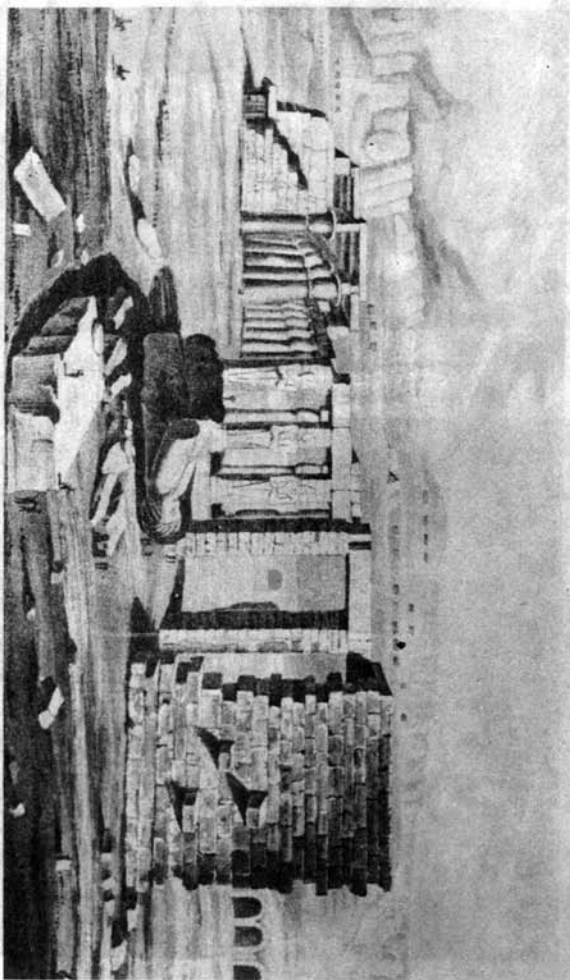


واجهة أبو سنبل كما رسمها المصور الفرنسي فرانتز جو سنة ١٨٢٢.
هذا المنظر بين المبد والتماثيل عقب تنقيته وإخلاقه من المواق.

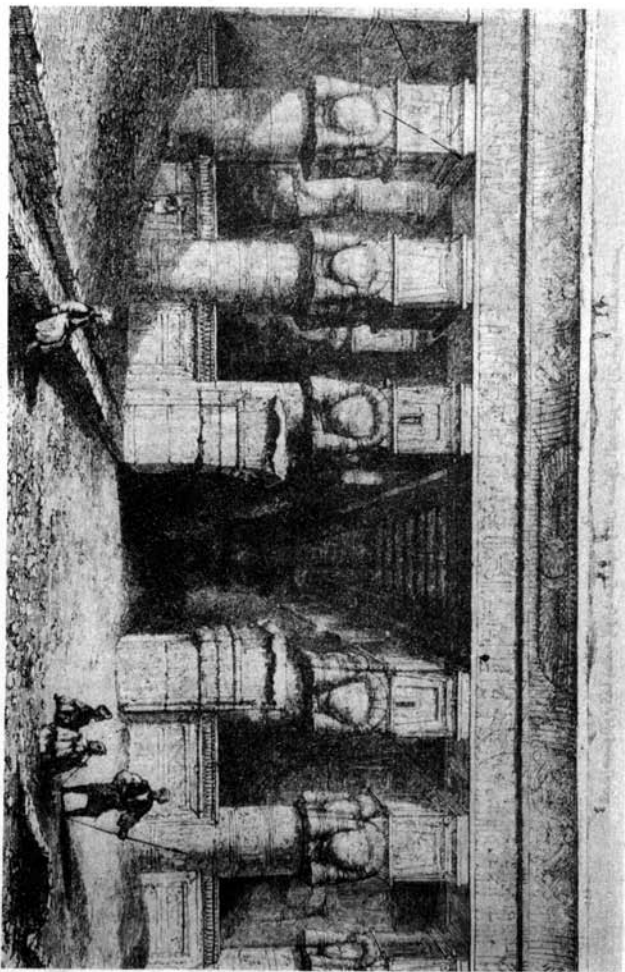
معبد الرمسيوم حيث نرى التمثال الضخم قبل أن يحركه بلزوزي، من وصف مصر.



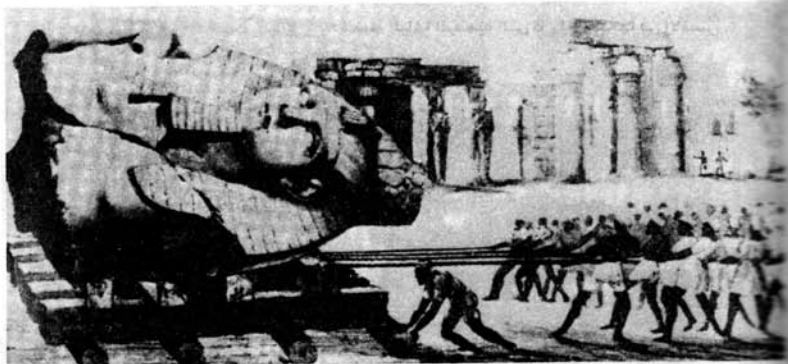
معبد الرمسيوم حيث نرى التمثال الضخم قبل أن يحركه بلزوزي، من وصف مصر.



قصر مونتنيوم كما رسمه إدوارد مونتلييه، وكان مونتون الصغير ما زال في مكانه، وقصر مونتون أثر ضخم جداً، تدعّمه الأساطين، ولكنه متهدم، والتناقض بين الوحدات مفقود.



معبد آمون بالكرنك . تفاصيل الأساطين واضحة.

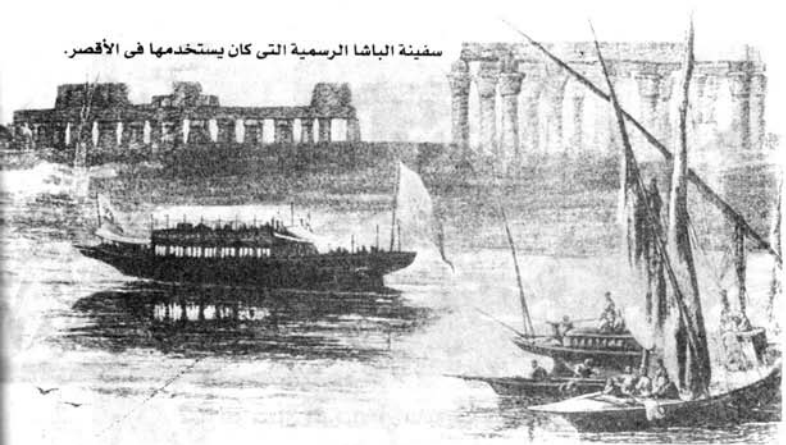


نجاح نقل ممنون، صورة بالألوان المائية رسم جيوفاني بلزوني.



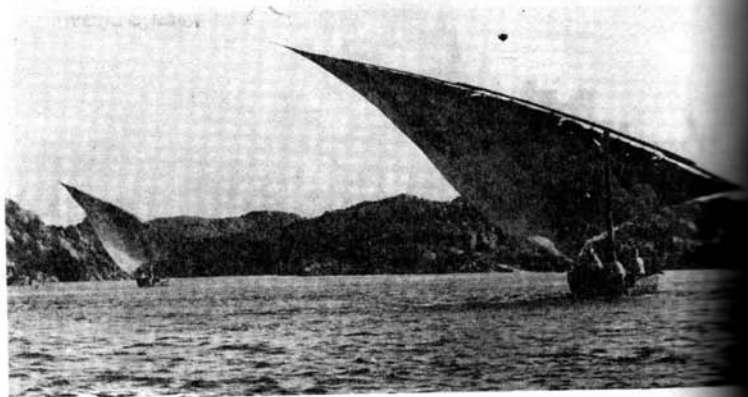
«ممنون الصغير، معروض في القاعة المصرية
بالمتحف البريطاني، ولا يوجد على قاعدته
اسم بلزوني كمهدي للتمثال.

سفينة الباشا الرسمية التي كان يستخدمها في الأقصر.



معبد حورس بإدفو.

جزيرة فيله وتشاهد ذهبية في مرسى السياح.

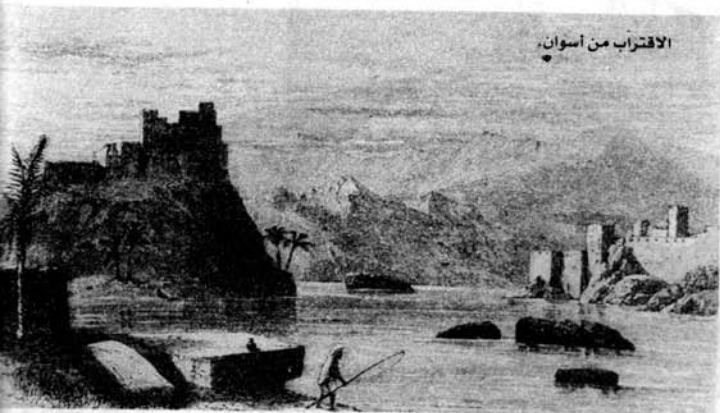


الإبحار في النوبة.

أبو سنبل: صورة بالألوان المائية لبلزوني، «إذا أمكن لإزالة
الرمال. فسيظهر معبد ضخمة».

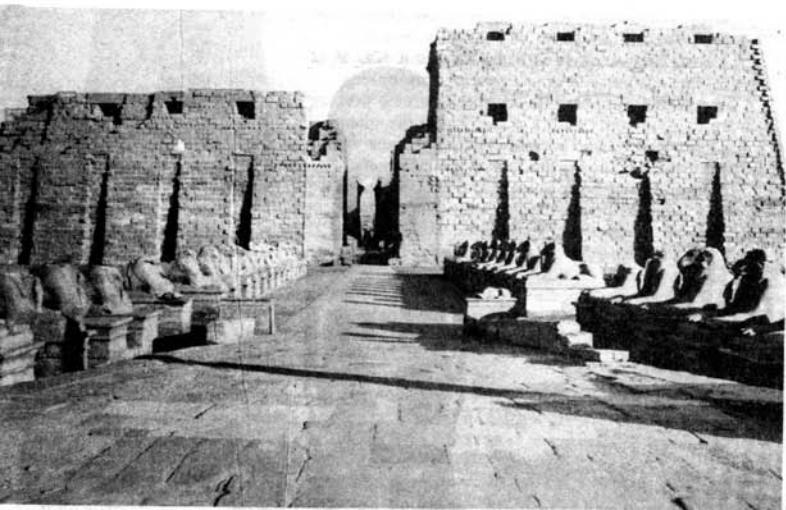


الاقتراب من أسوان.





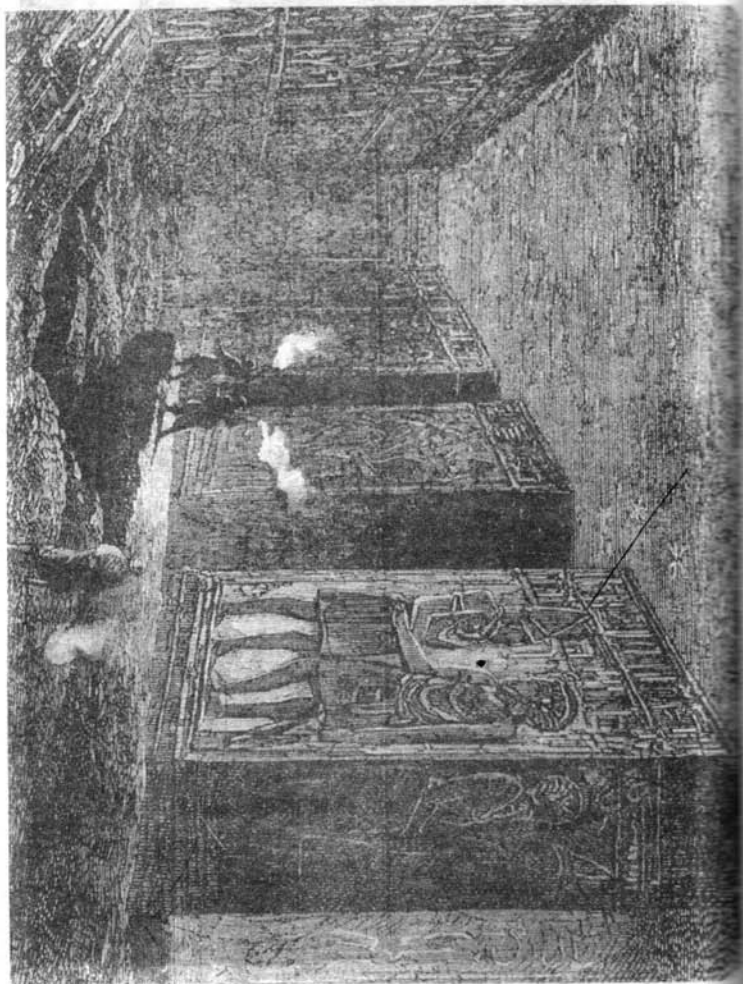
تمثال جالس للآلهة سخمت صاحبة الرأس الأسدية،
منحوتة من الجرانيت الأسود، اكتشفها بلزوني في معبد
موت، وهي الآن بالمتحف البريطاني.

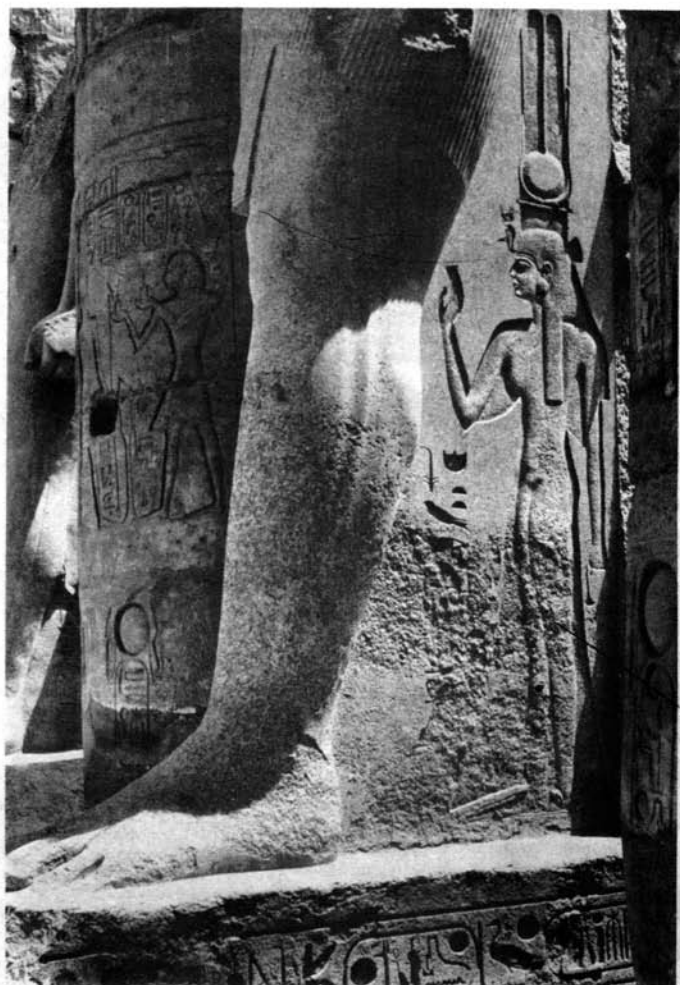


طريق الكباش بمعبد آمون بالكرنك.

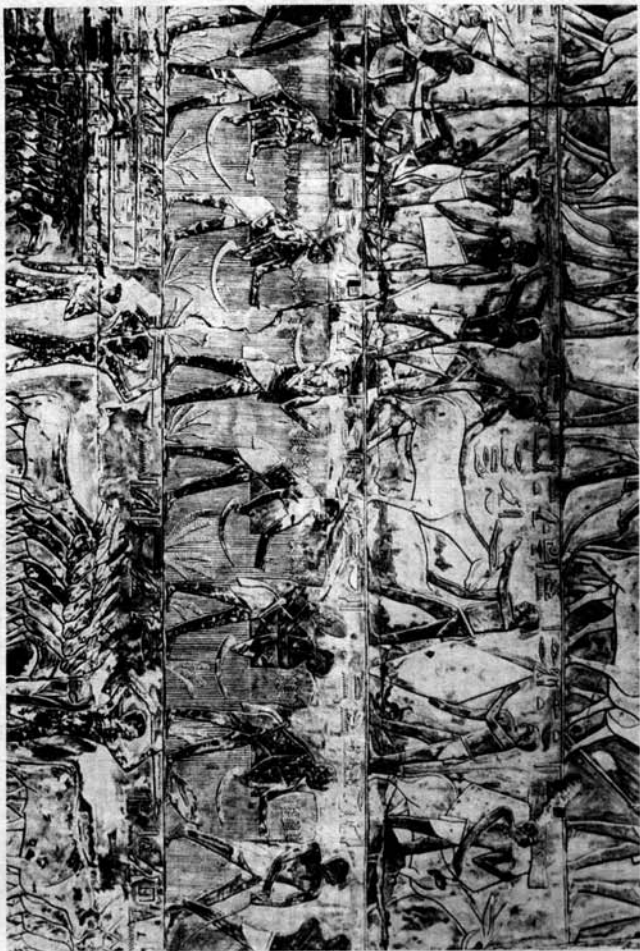


منظر آخر للكبّاش بالكرنك.





الأقصر: معبد امون، موت، خنسو. الملكة نفرتاري بجوار تمثال رمسيس الثاني في الفناء الخارجي.



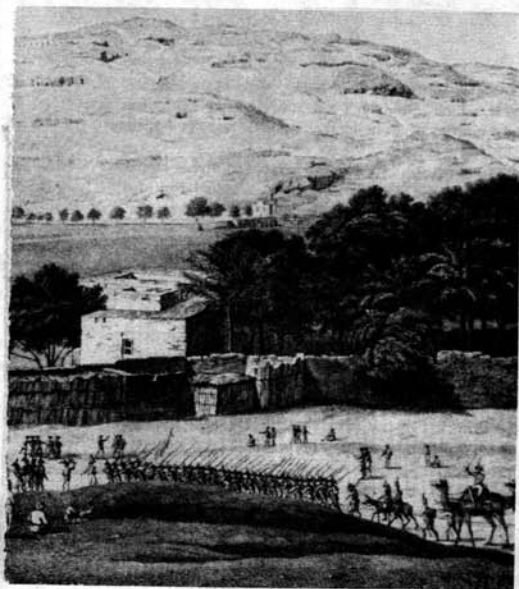
منظر الحصاد من مقبرة ميركا.



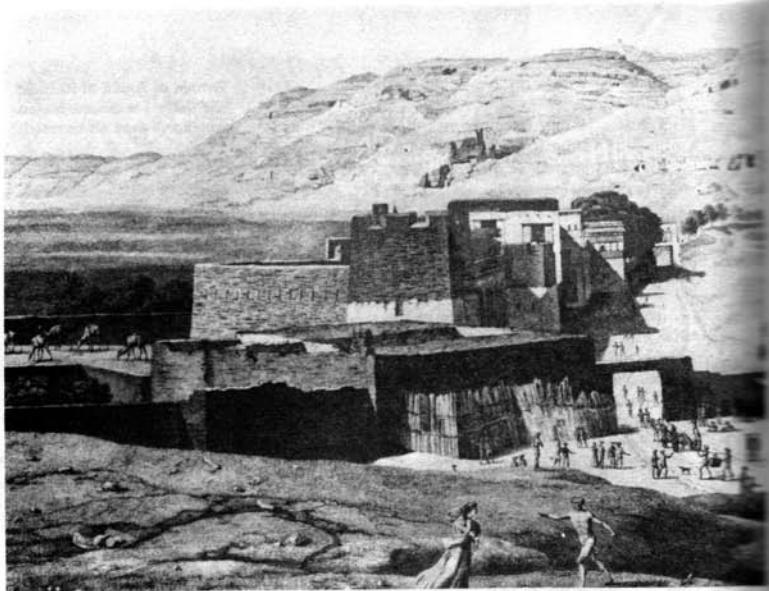
معبد آمون بالكرنك: «أحيانا لا أشعر بأننى على الأرض».



«تي» يراقب رجاله ومعهم الحراب والحيال لصيد أحد أفراس النهر أمام دغل من البردى.
عن مقبرة بسقارة من الأسرة الخامسة.

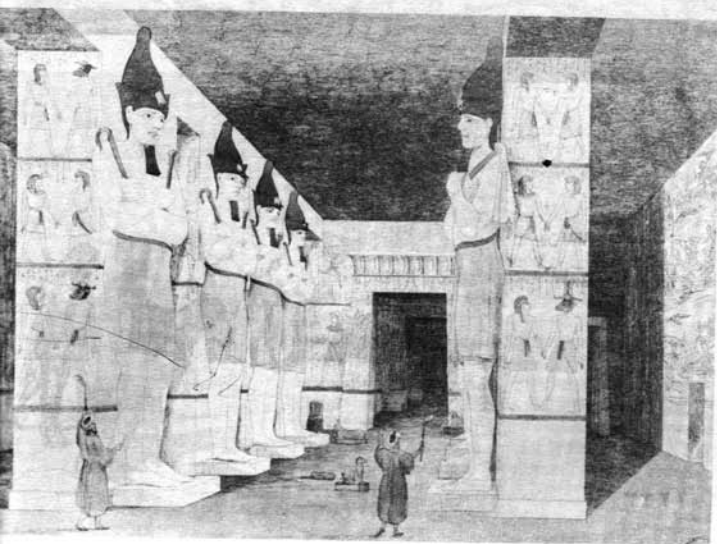
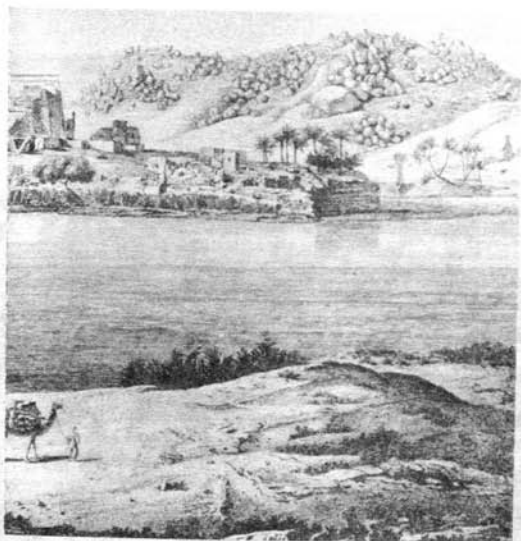


مدينة أسيوط، عن وصف مصر.

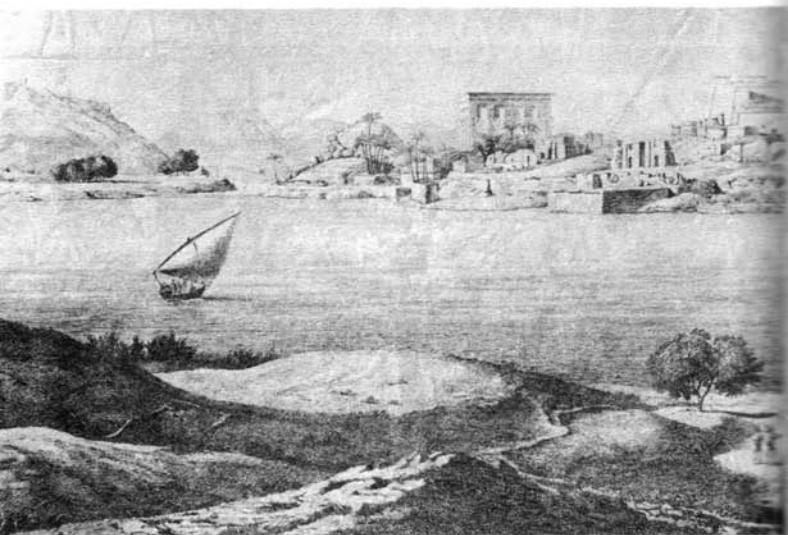


بين المقابر المجاورة
لأسيوط.

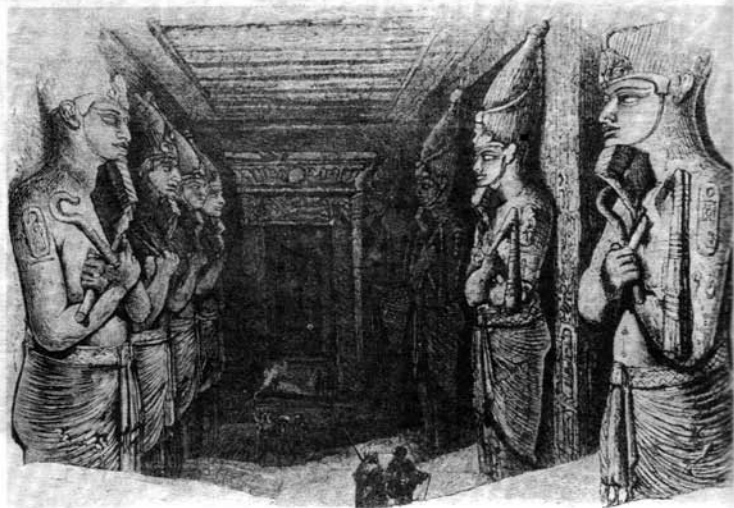




صورة بالألوان المائية صورها بلزوني لمعبد أبو سنبل من الداخل.



منظر لجزيرة فيله من الشمال الغربي . عن وصف مصر.



معبد أبو سنبل من الداخل في سبعينيات القرن التاسع عشر.



فلاحون يسوقون مواشى وطيور أليفة، من مقبرة بتاح حتب، من الأسرة الحادية عشرة بستان



تمثال جالس لياسر حاكم النوبة
في عهد رمسيس الثاني. اكتشفه
بلزوني في معبد أبو سنبل.



منظر سياحي لوادي الملوك في القرن التاسع عشر.

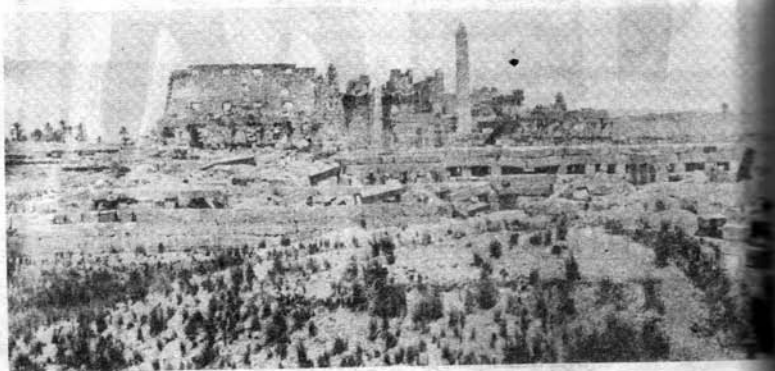


رَمْسِيسُ الثَّانِي فِي عَرِيَّتِهِ الْحَرْبِيَّةِ فِي مَوْقِعَةِ قَادَش.



تمثال خشبي للكا الخاصة برمسيس الأول
عثر عليه بلزوني في مقبرته سنة ١٨١٧.

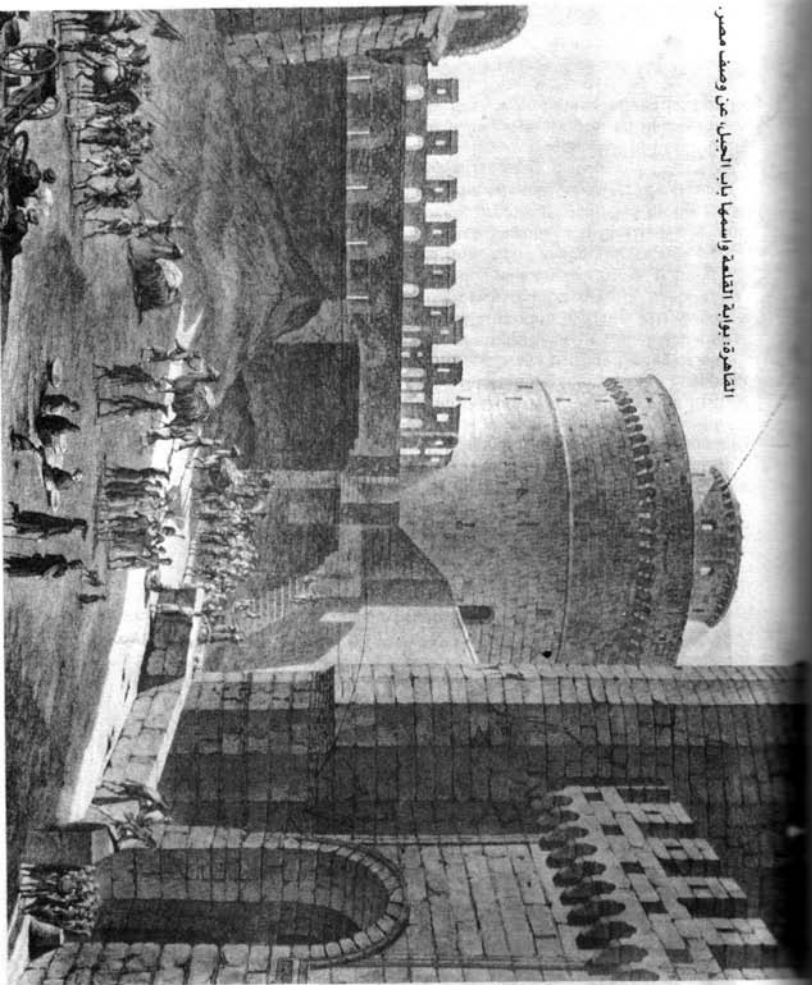
سيد الكرنك: صورة فوتوغرافية تصوير مكسيم دي كامب

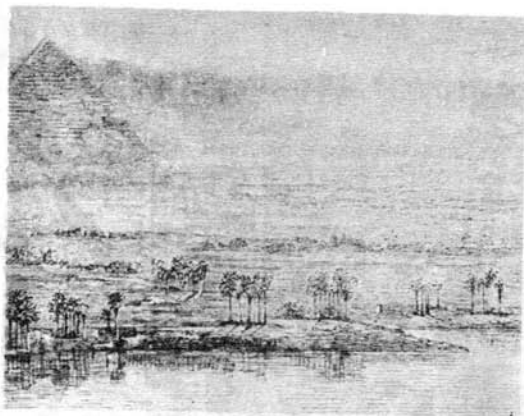




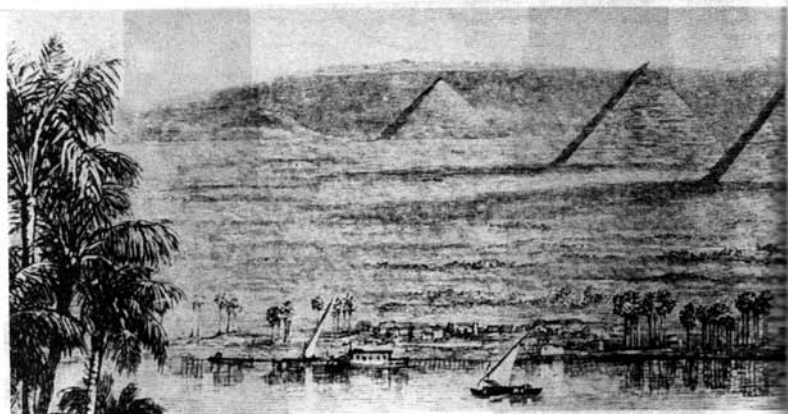
تخطيط (سكتش) لبلزوني يمثل سيتي في حضرة الآلهة
منسوخ عن منظر بالألوان في المقبرة التي اكتشفها بلزوني.

القاهرة: بوابة القلعة واسمها باب الجبل عن وصف مصر.

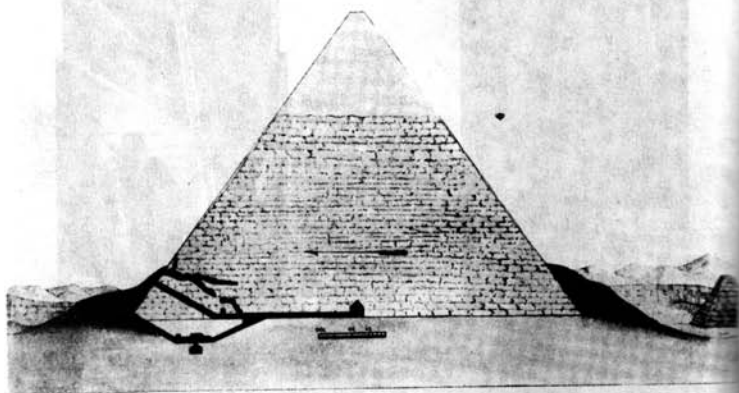




مدخل الهرم (الأوسط).



أهرام الجيزة.



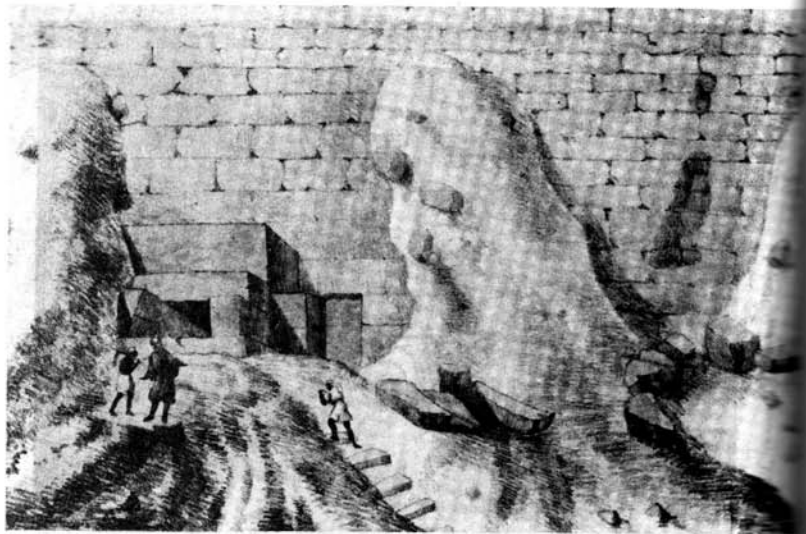
تخطيط بلزوني يمثل الهرم الثاني (هرم خفرع).



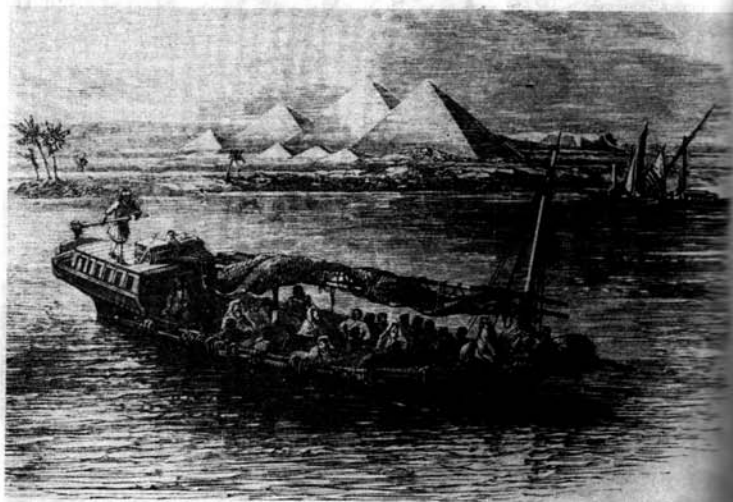
باقى جولة الهرم



علماء من حملة نابليون
يتجولون داخل الهرم.



تخطيط من رسم بلزوني للمدخل نفسه.



زورق تجارى فى النيل.





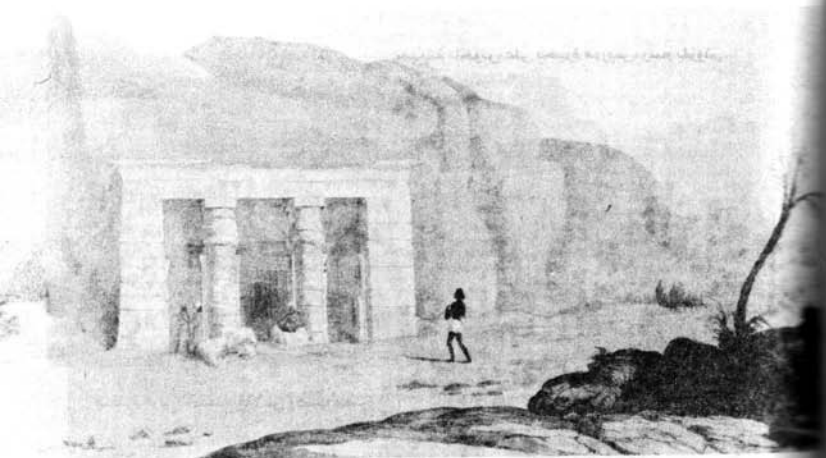
تمثال جالس لسي تي الثاني يحمل مقصورة
يعلوها رأس كبش، اكتشفه بلزوني في طيبة.

«فيضان النيل»: اسكتش من رسم بلزوني هدفه توضيح آثار الفيضان المدمرة.



خيمة بدوية، رسم بلزوني.





«معبد في الطريق إلى برنيس على البحر الأحمر». رسم بلزوني.

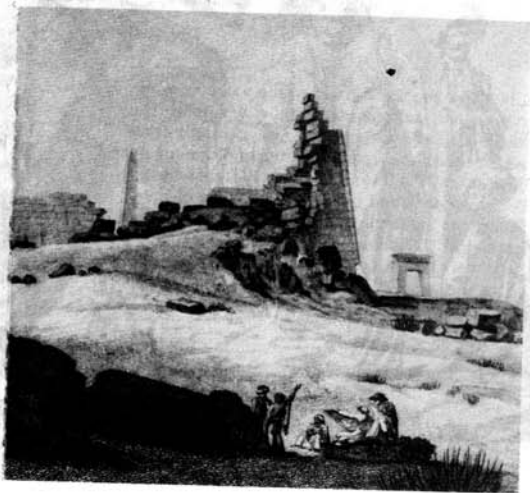


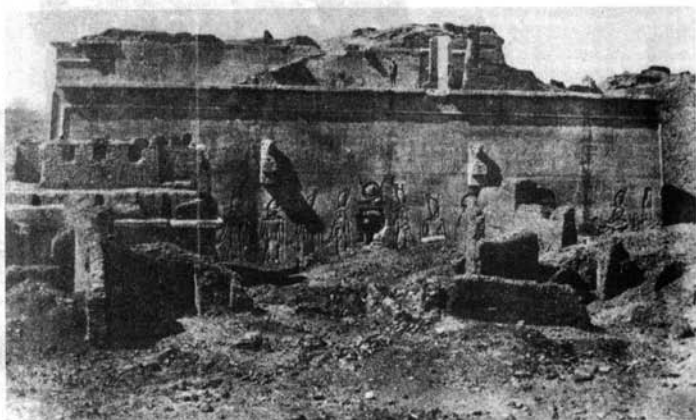
برناردينو دروهيتي وأعوانه.

مدينة باخوس على بحيرة موريس، رسم بلزوني.

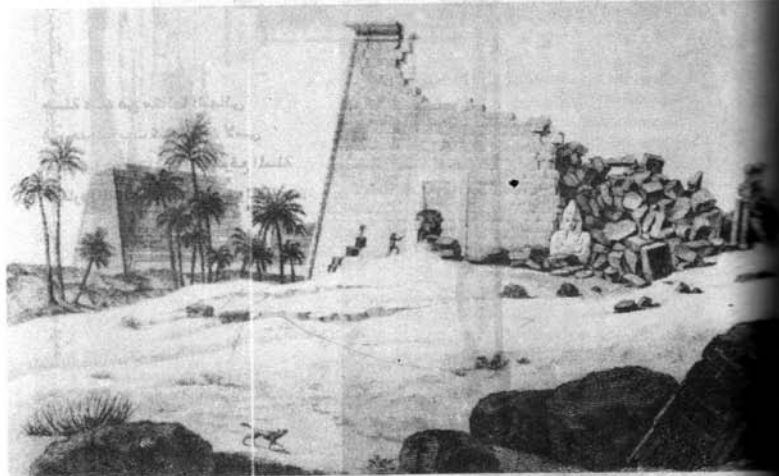


قنطرة قرب الاسكندرية، عن وصف مصر.

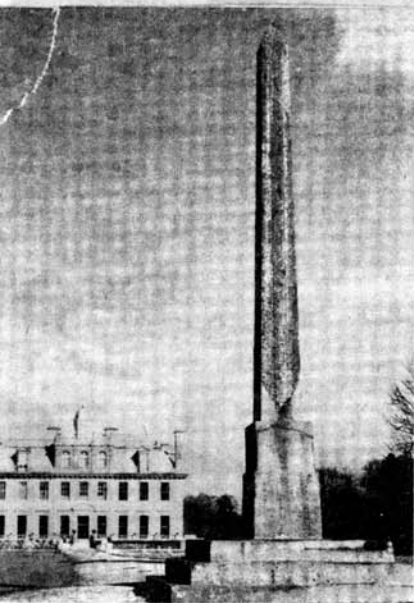
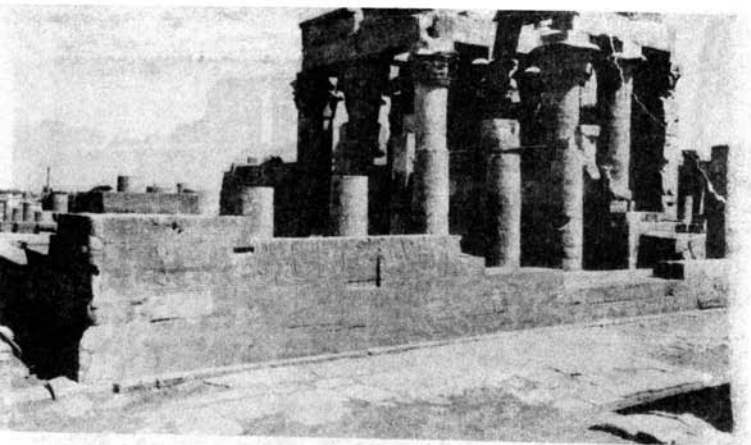




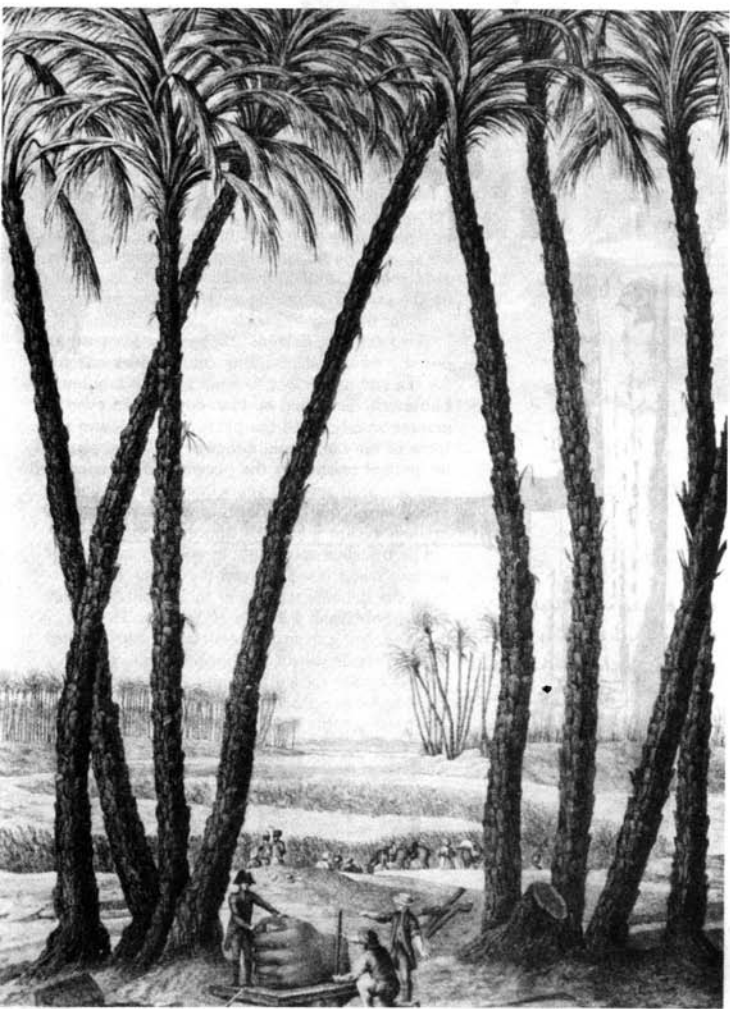
صورة قديمة لمعبد دندرة. تصوير مكسيم دى كامب.



الصرح الخارجى لمعبد الكرنك من الجنوب. عن وصف مصر.



مسلة فيله في مكانها النهائي
في حديقة بيت كنجستون لاسي
بضاحية دورست بلندن، وموقع المسلة
اختاره (القائد المعروف) دون ولينجتون.



«نصف: منظر اطلال المدنية من الجنوب الشرقى، عن وصف مصر.



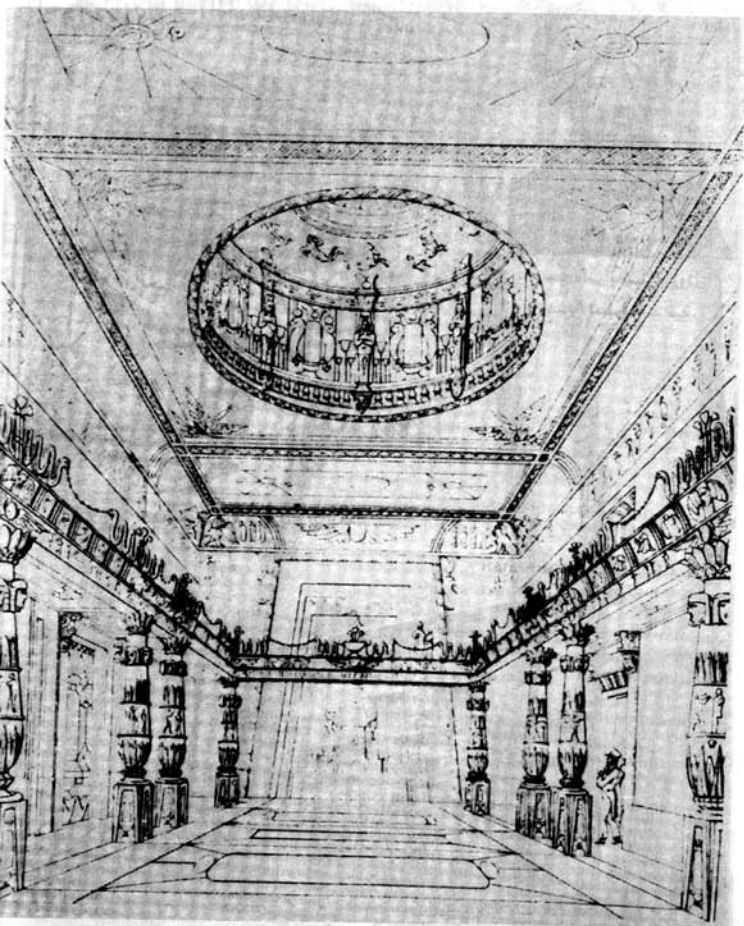
جيو فاني باتستا بلزوني
صورة لسيرته الذاتية.



إعلان عن القاعة المصرية الجديدة الرائعة.

القاعة المصرية بيكادلي - لندن.

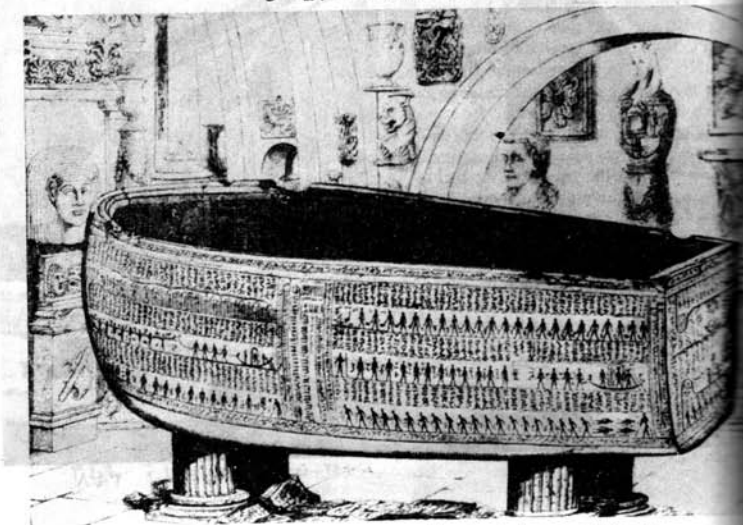




الجزء الرئيسي لصالة معرض بلزوني.



الصالة المصرية بالمتحف البريطانى.

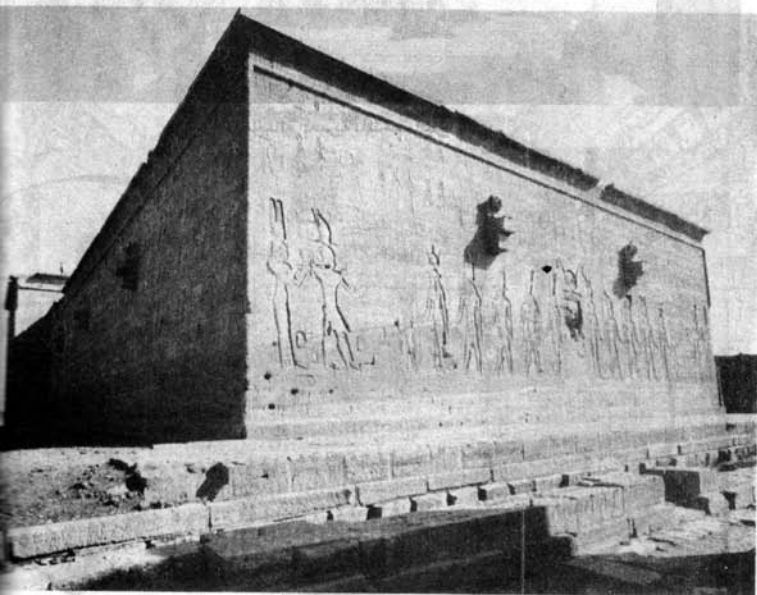


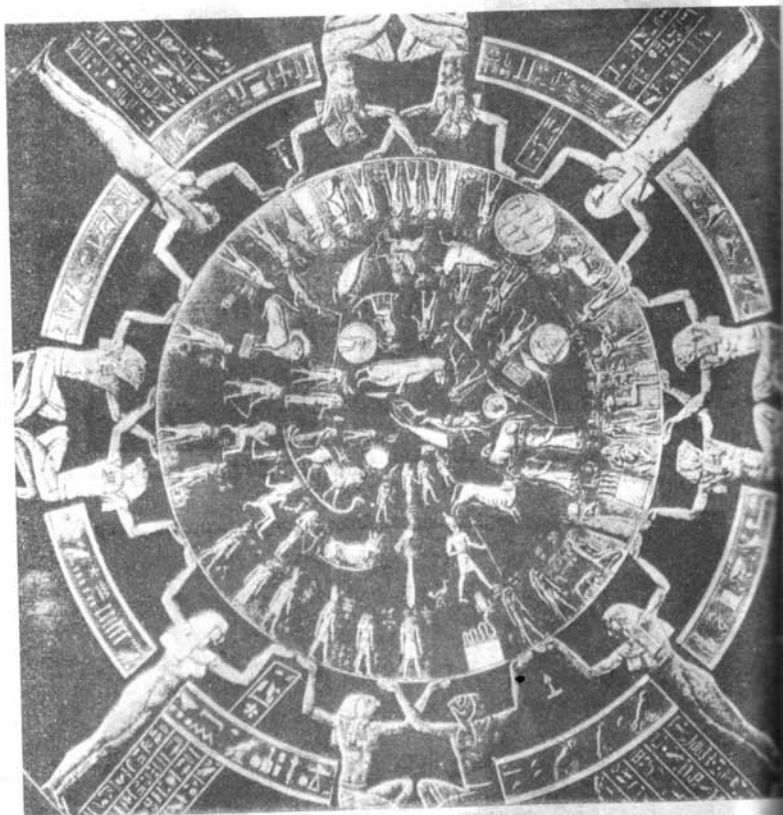
التابوت المرمرى بمقبرة سبتى الأول معروض بمنزل السير جون سونى بلندن.



رأس رجل فرعونى مجهول. من مكتشفات سولت.

معبد حتحور بدندرة. من الجنوب الغربى .





الأبراج السماوية كما رسمها بعثة نابليون . عن وصف مصر.



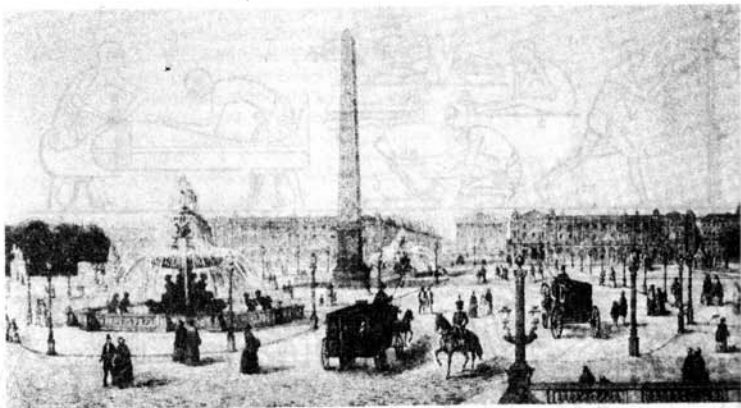
توماس يونج (١٧٧٣ - ١٨٢٩).



جان فرانسوا شامبليون، تصوير ليون كونيه.

لوحة للرسم نيكولو روسيليني تمثل المركبة الحربية للملك رمسيس الثاني. منسوخة من معبد أبو سنبل.





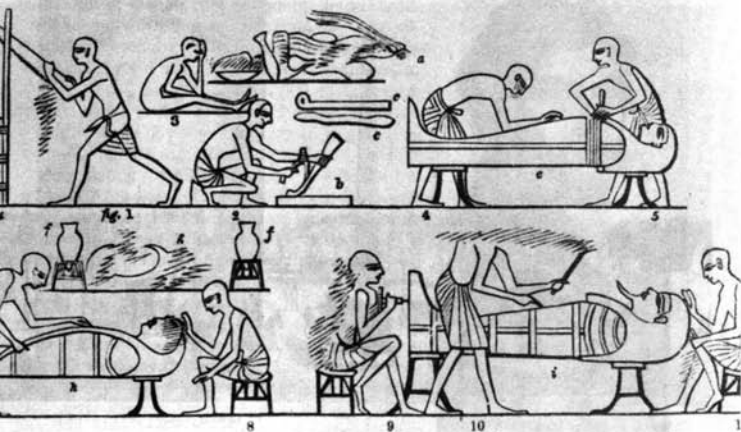
مسلة من معبد الأقصر مقامة . حاليا . في ميدان الكونكورد بباريس .



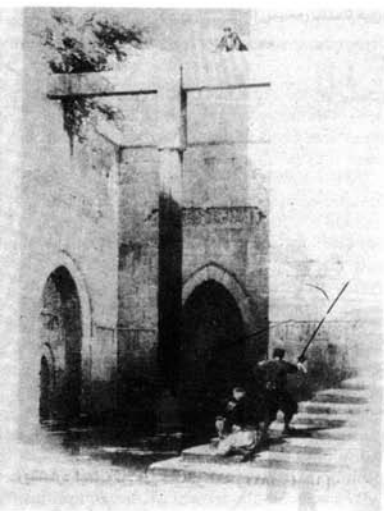
السير جون جاردنر ويلكنسون (١٧٩٧ . ١٤٣٧) .



ريتشارد لبسيوس في شيخوخته (١٨١٠ . ١٨٨٤) .

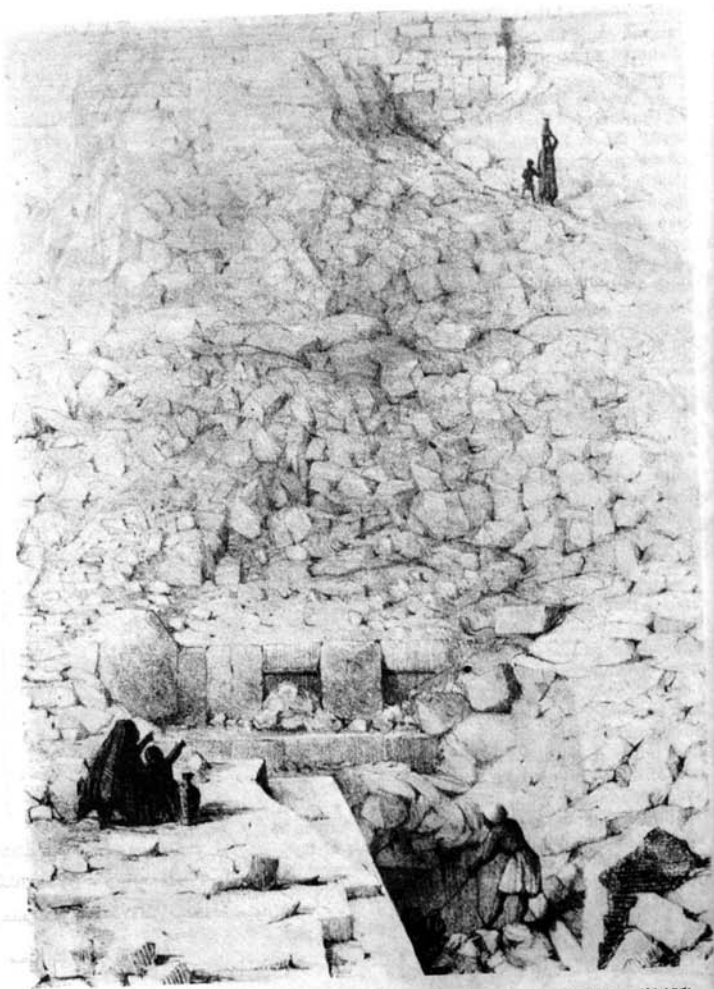


موميאות: رسوم توضيحية من كتاب ويلكنسون «لسلوكيات وعادات المصريين القدماء» (١٨٣٧).



مقياس النيل.

تصوير دافيد روبرتس سنة ١٨٤٦.



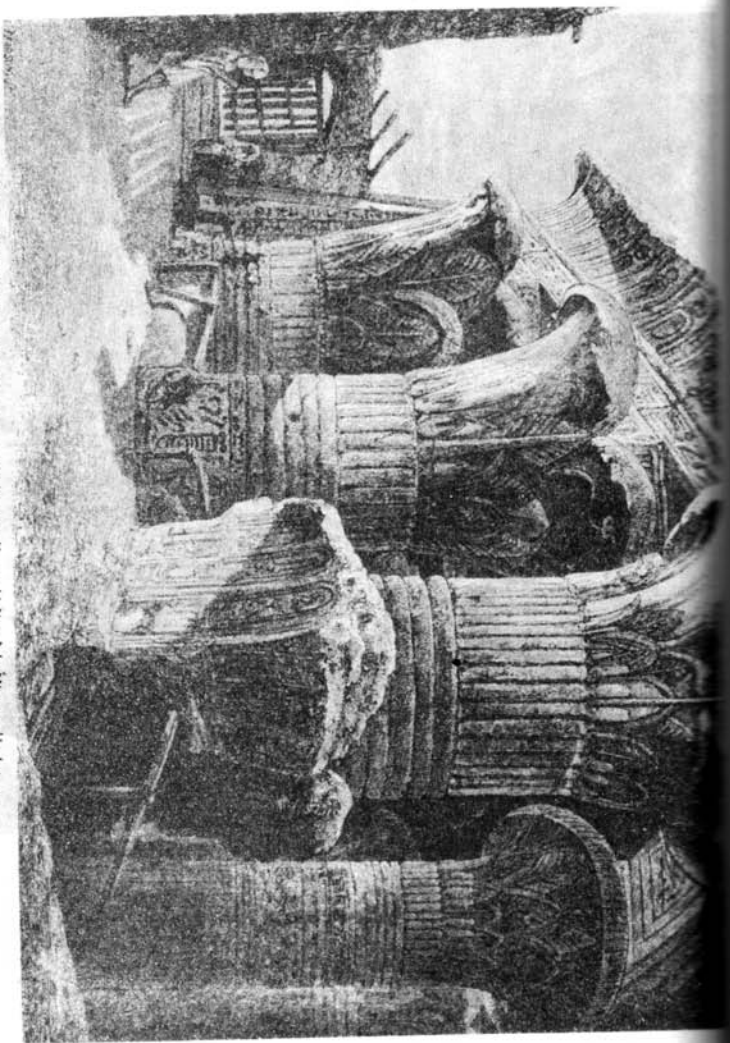
اكتشافات الكولونيل هوارد فيز عند الأهرام، ١٨٣٥.



إميل بريس دافن في زمن استكشافاته بالكرنك.



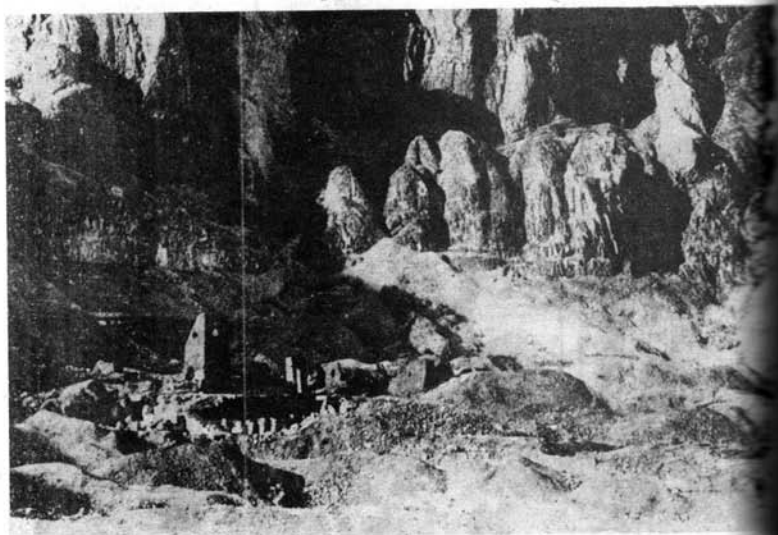
الكاتب الجالس القرقصاء:
تمثال مشهور عثر عليه مريت في السراييوم،
وهذه الصورة مأخوذة من مؤلف له بعنوان
«مختارات أثرية» (١٨٥٦).



معبد إيسن: بنو الآساطين الخارجي للمعبد. اكتشفه محمد علي باشا سنة ١٨٤٢: ليس حينئذ في الآثار ولكن أثناء البناء من مستودع مناسب تحت الأرض لحفظ البارود. أميليا أوديز.



معبد حتشيسوت الجنائزى بالدير البحرى.



حفائر مرييت بالموقع (الدير البحري).



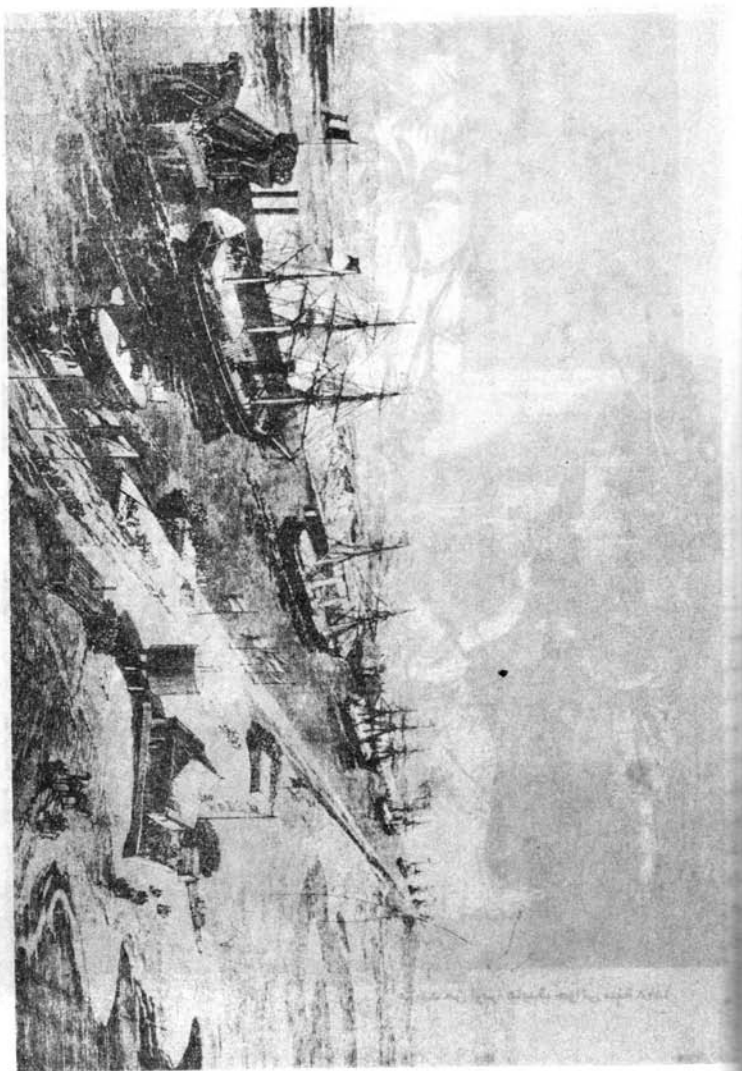
الخديوى إسماعيل (١٨٣٠ - ١٨٩٥) مع ابنه توفيق.



«المسجد التركي وسراى والى مصر». صورة تم عرضها في معرض باريس الدولى، ١٨٦٧ سراى عابدين.



«دار الأوبرا (القديمة) بالقاهرة وتمثال إبراهيم باشا».





مشهد من أوبرا عايدة، حوالى سنة ١٨٧٨.



أوجست مرييت سنة ١٨٦١.

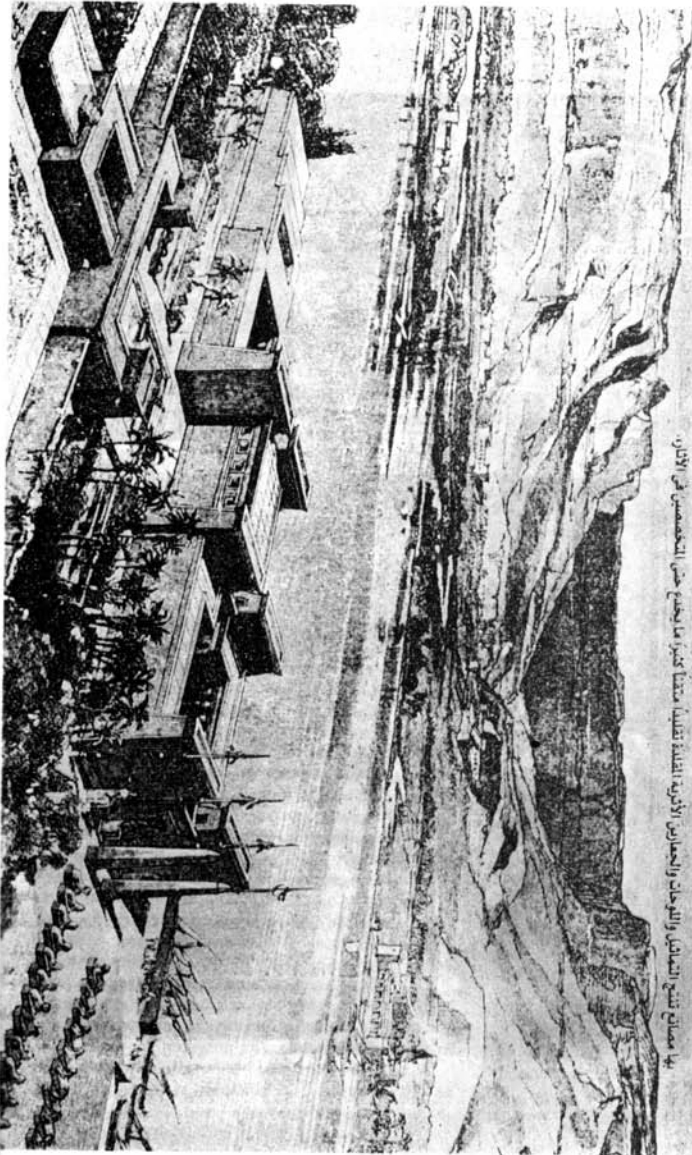


السير إفلين بارنج
(لورد كرومر) (١٨٤١-١٩١٧).



جستون ماسبيرو وأميل بروجش بك
ومحمد عبدالرسول عند فوهة شرخ
الدير البحري، صورة من مجلة Century،
مايو سنة ١٨٨٧. «عندما صعدنا من المقبرة
جمعت أصحابي عند فوهتها، وصورت
المنظر من أجل التواصل التاريخي، ويظهر
ماسبيرو متكاً على الصخور على اليمين،
وأميل بروجش بك واقف أمام جذع نخلة،
ومحمد أمامه ومعه الحبل نفسه الذي
استخدم في إخراج موميאות أصحاب
الجلالة من مكمنها الذي اختبأت فيه فترة
طويلة..»

«مماثل لتخطيط المسجد الأقصى كما كان أيام الفراعنة» أين عقل جاسوس ما سيبور ارشادي وبقيا دعيا قبيحا، كما أنكرت
 مورييت في دليل إرشادي عن الآثار، أن الأقصى كانت في قديم الزمان مركزا من مراكز التطوير والتنمية، والأقصى الآن
 بها مصانع تشيخ النشايين واللوحات والجدران الأثرية القليلة الباقية متبقيا كثيرا، مما يطبع حتى المتخصصين في الآثار،





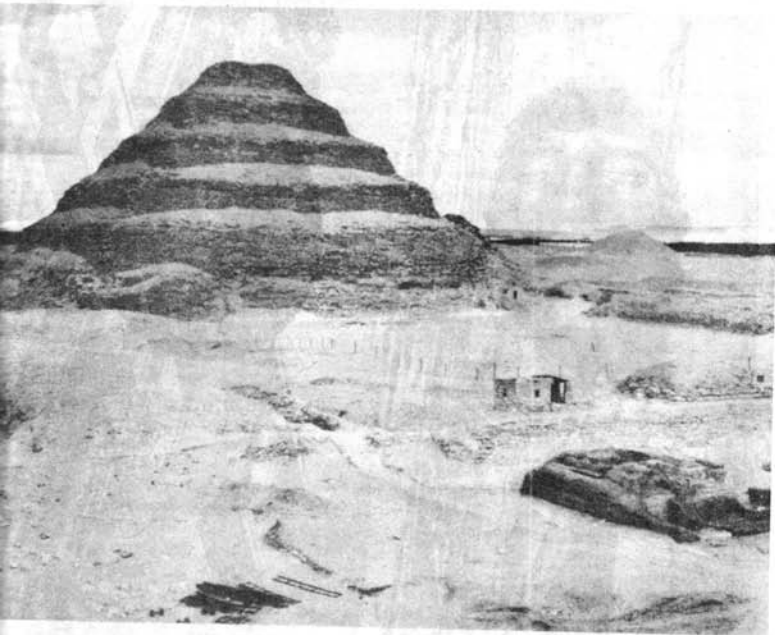
رأس سيتي الأول، الأسرة التاسعة عشرة.



صمويل بيرش.



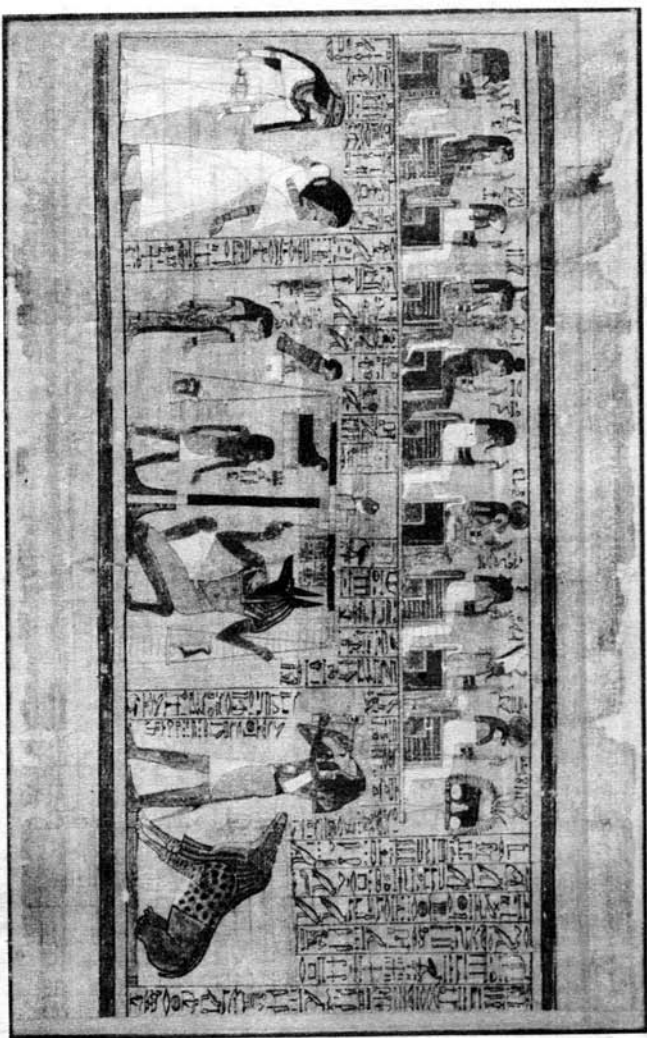
واليس بادج.



هرم زوسر المدرج بسقارة.

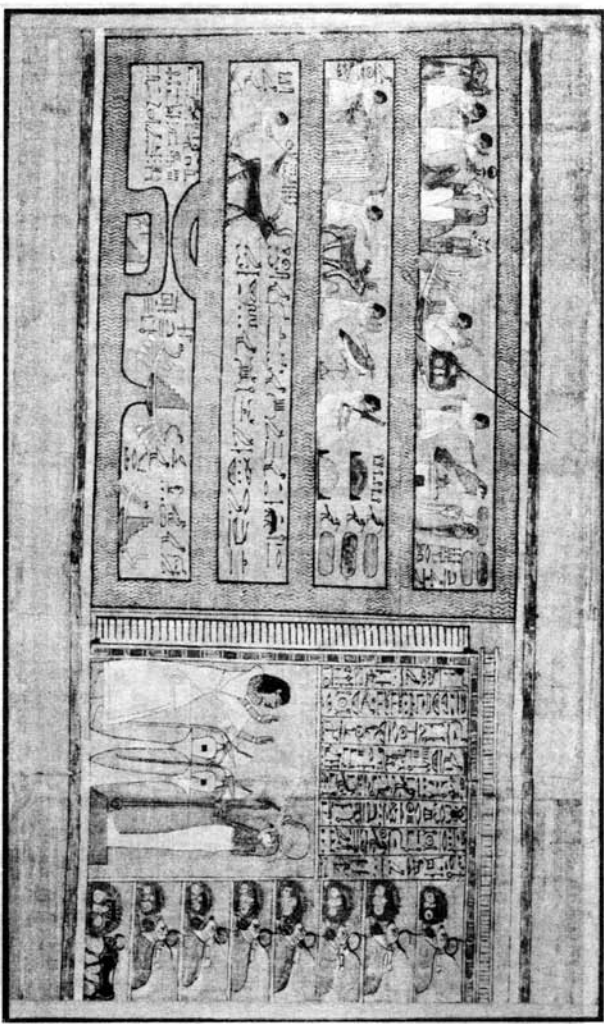


دكان حلاق بالقاهرة.

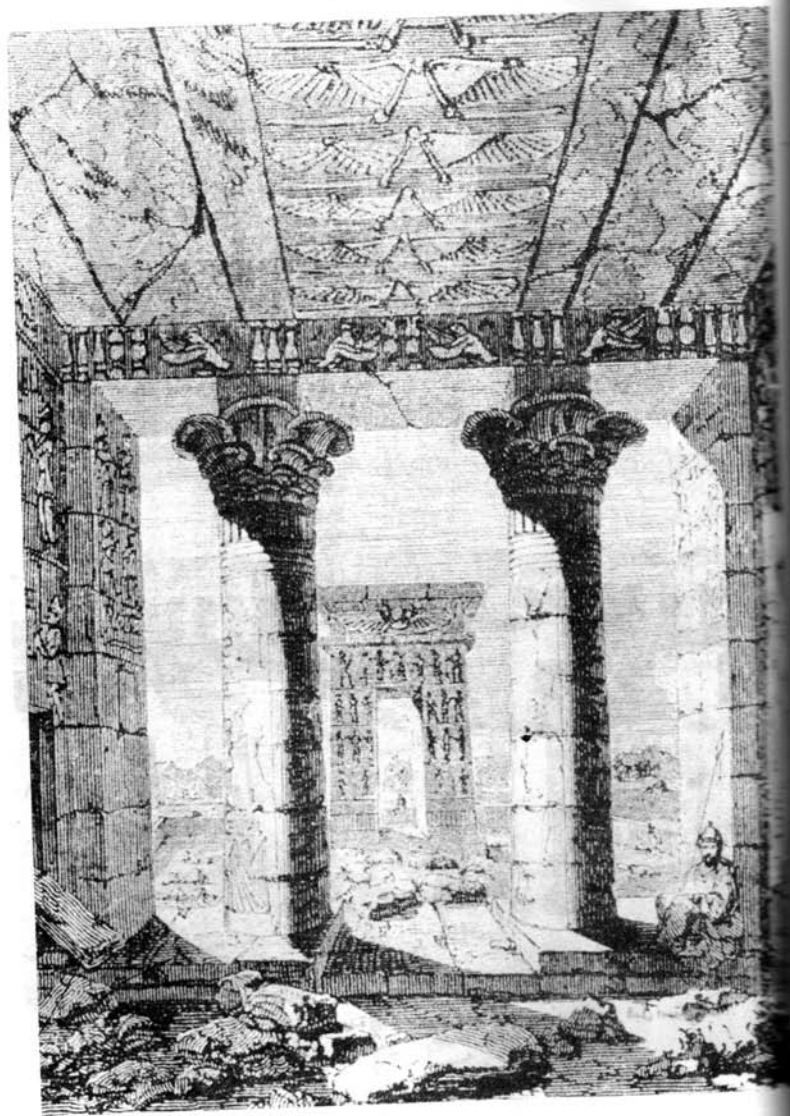


كتاب الموتى - بردية أني - وزن قلب أني مقابل الماعت.

منظر آخر من نفس البردية الشهيرة (بردية النسي).



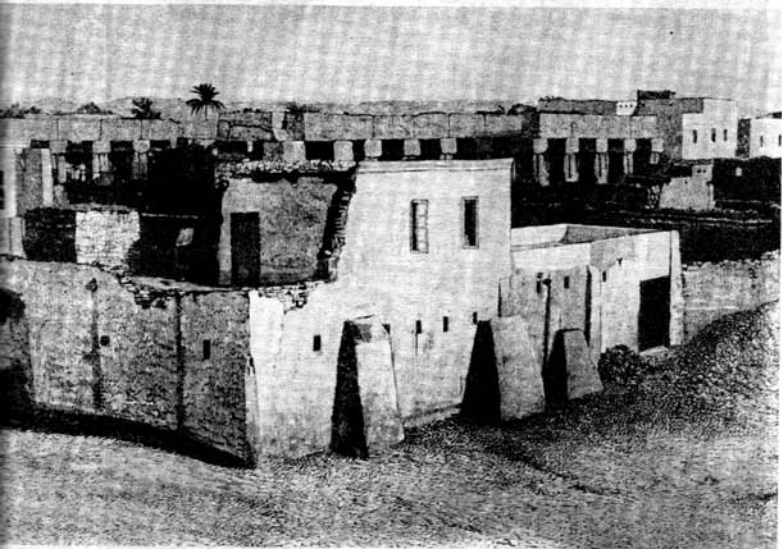
مناظر أخرى من نفس البردية الشهيرة (بردية النسي).



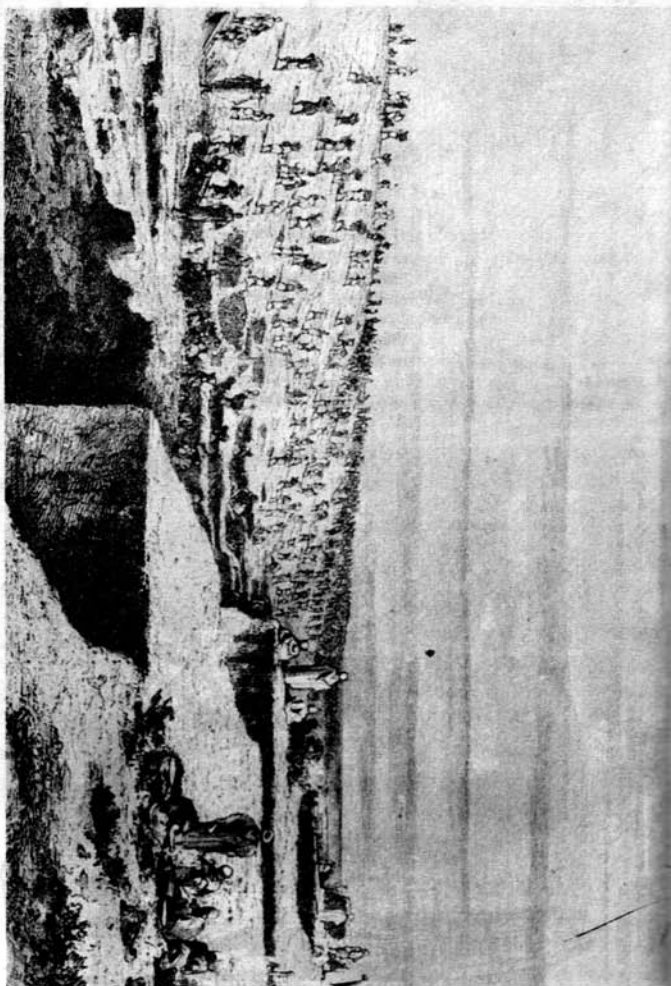


Luce Duff Gordon

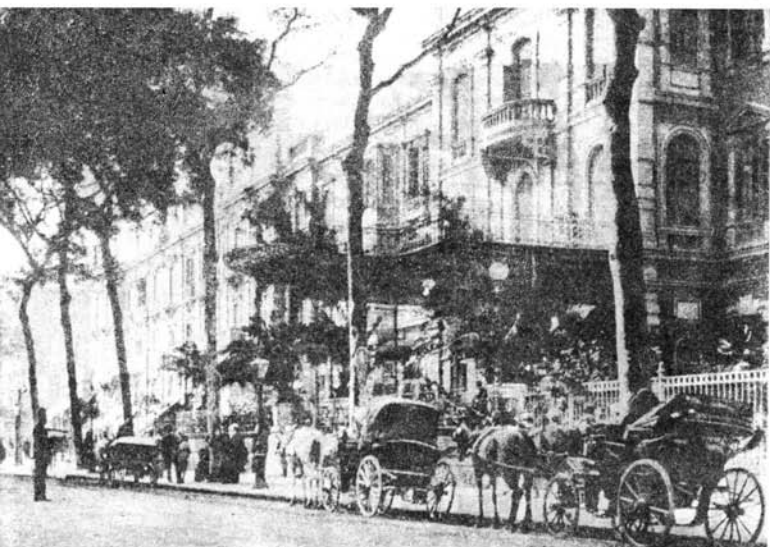
ليدي لوسي داف. جوردن (١٨٢١ . ١٨٦٩).



«بيت السيدة داف. جوردن فوق سطح معبد الأقصر قبل استكشافه».

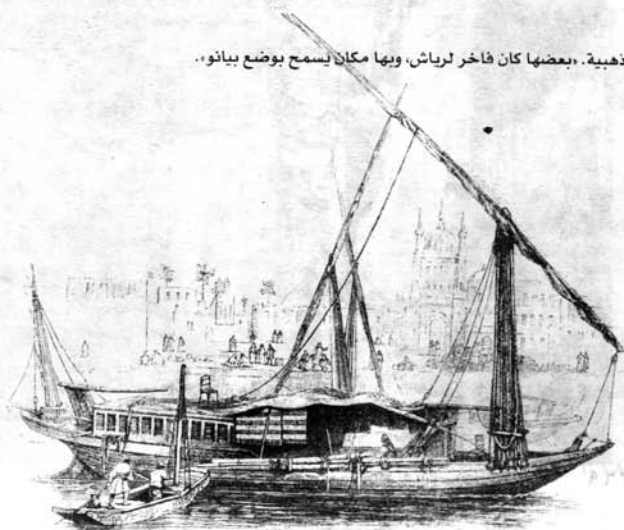


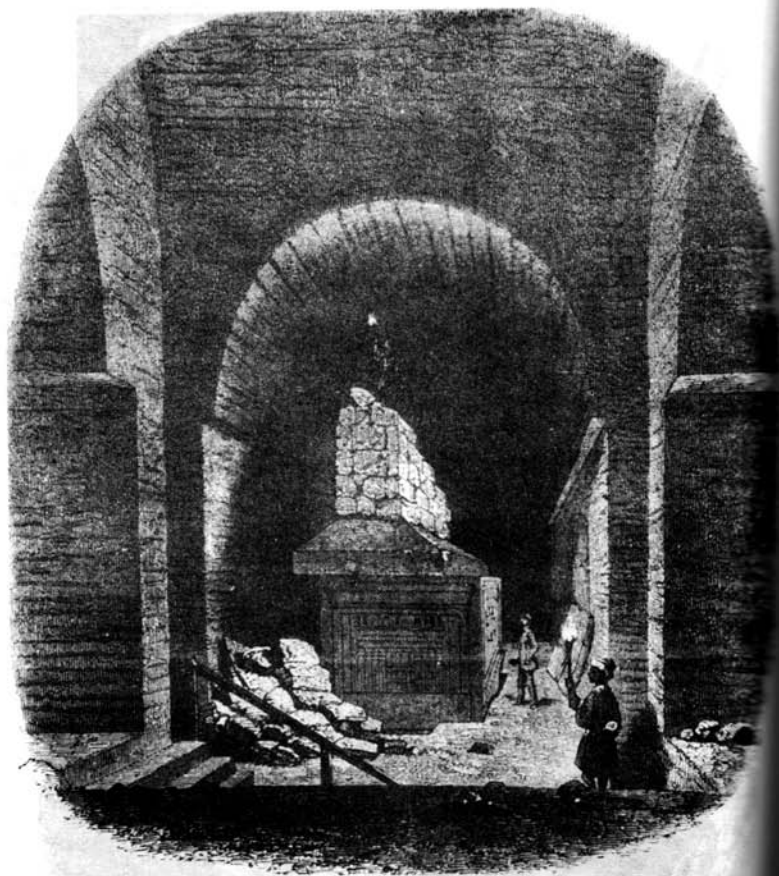
استقلال الملايحين (ف) حفر قناة السويس بالسمرة قامت التي في ذلك حزين بيل جود كثيرة الجمالين بتجارات الياندا.



فندق شبرد (القديم) بالقاهرة.

ذهبية. «بعضها كان فاخر لرياش، وبها مكان يسمح بوضع بيانو».





السياح يتجولون في حجرة دفن (عجول أبيس) في السيرايوم في ضوء المشاعل.

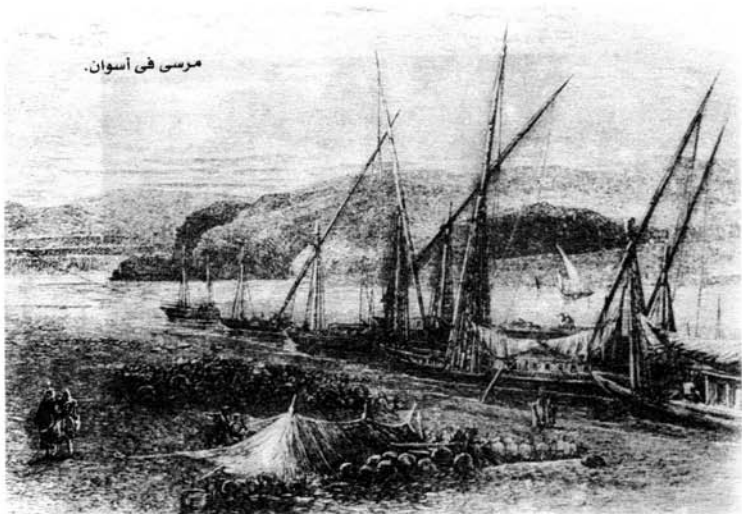
أميليا إدواردز (١٨٣١ - ١٨٩٢).



صخرة أبو صير. «عثرنا على اسم بلزوني»، كما كتبت أميليا إدواردز، «ولكن
فشلنا في العثور على إمضاءات بورخات وشميليون ولبسيوس وأمبير».



مرسى في أسوان.



قطر ذهية.





السياح يتجولون. «في أحد الشوارع المصرية».



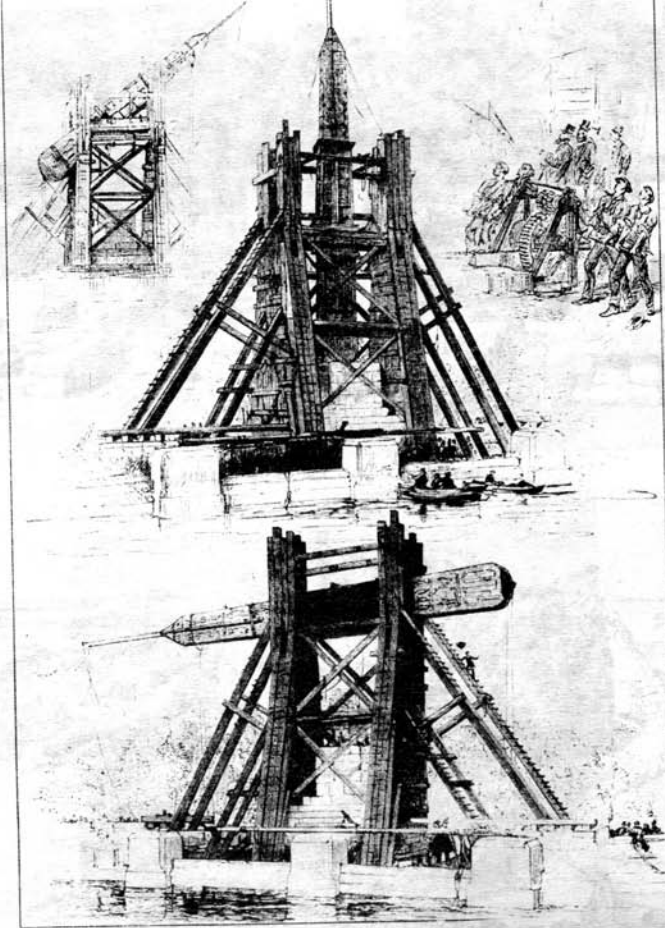
والحضر بحثا عن المومسات، وولفت أميليا إيداردز الأنظار إلى أن «دويتها» (المومسات) أرض القادة كما لو كانت
 الانحسار قد تركتها توا تسبب (المشاهد) هزة (عصية) - خصوصا وإن الأيدي العالقة ترفعها بخشونة، حيث
 تفحص (التهاك آخر) «و تزال أعاقتها (أي تكشف) وربما تتكسر فتصبح غير صالحة للعمل ركن في متحف بولاق».



بحارة ذهبية يعزفون الموسيقى، «لم يكن بالدهبيات مكان مهياً لنوم البحارة، لذلك كان البحارة يلفون أنفسهم في برانسهم (جمع برنس. رداء معروف) ويستلقون على ظهر السفينة مثل اثواب القماش، وكثيراً ما التبس على الأمر بينهما (البحارة واثواب الأقمشة)».



نصب مسلة كليوباترا في لندن: سبتمبر ١٨٧٨.



١. المسلة في ١١ من سبتمبر.

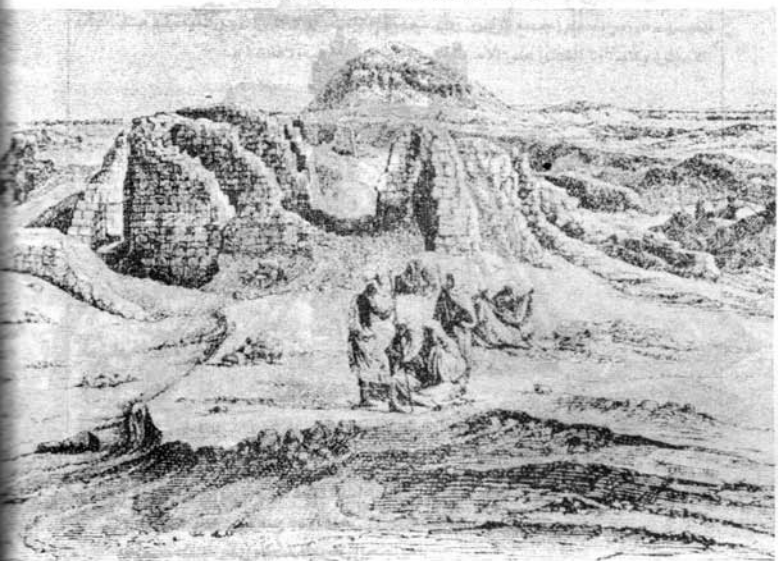
٢. الونش يقوم بخفض قاعدة المسلة.

٣. إقامة المسلة في وضع عمودي في ١٢ من سبتمبر.

٤. نصب المسلة على منصة العرض الحجرية.

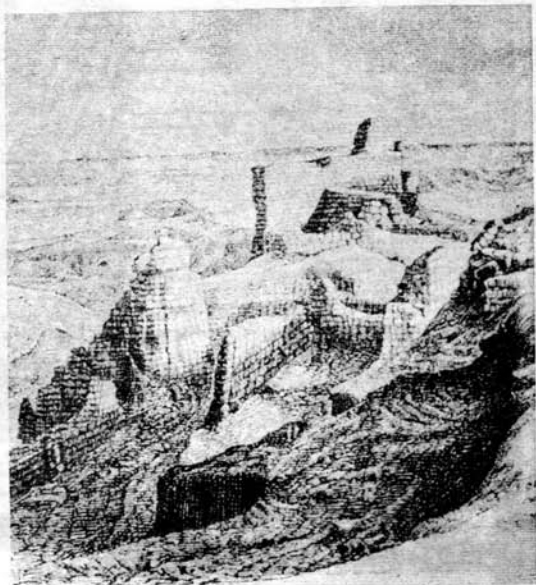


الضياء الخارجى لمعبد سيتى الاول بابيدوس.





آدولف إرمان (١٨٥٤ - ١٩٣٧).



أحد مواقع حفائر مريبت. «في كل مكان ينبعث صوت المزامير والأصوات العالية».



نقش بارز عشرت عليه بمئة فلندرز بتری سنة ۱۸۹۴. وزن المعادن النفسية. أشجار البخور فی اصص.

لوحة الملك نعرمر التي تخلد أسطورة
توحيد (قطرى) مصر.



مومياء أرتيميدورس، من الجالية اليونانية.



تمثال قط جالس.



(٢٦- نهب آثار وادي النيل) ٣٨١



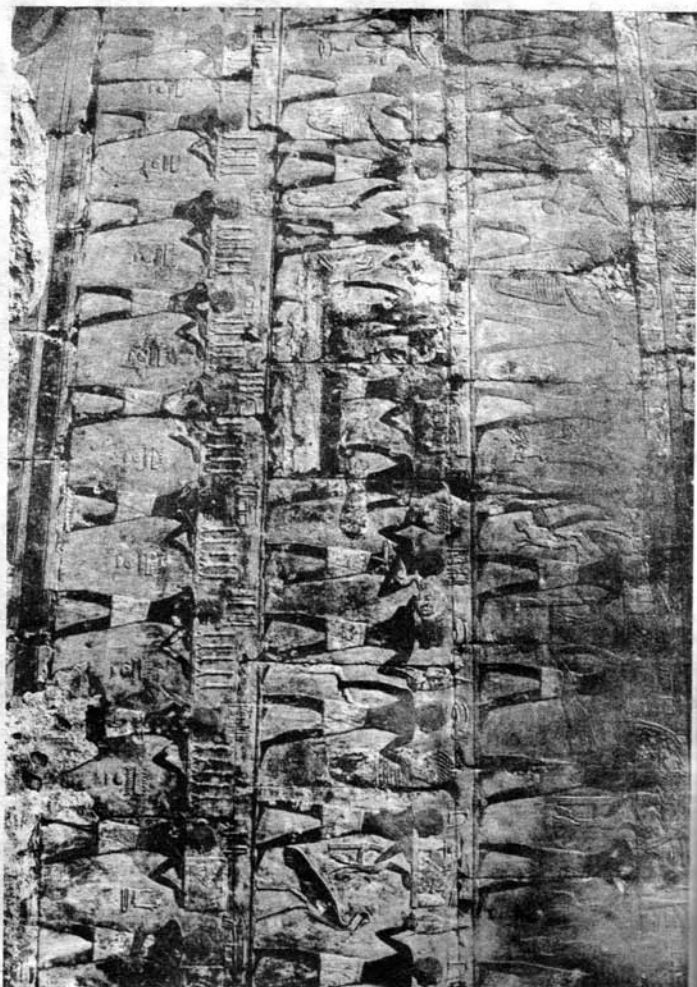
قاعة عرض مصرية من العصر الفيكتوري، أصابها بعض
الخلل، لكن الأثريين مستمرون في استعمالها.



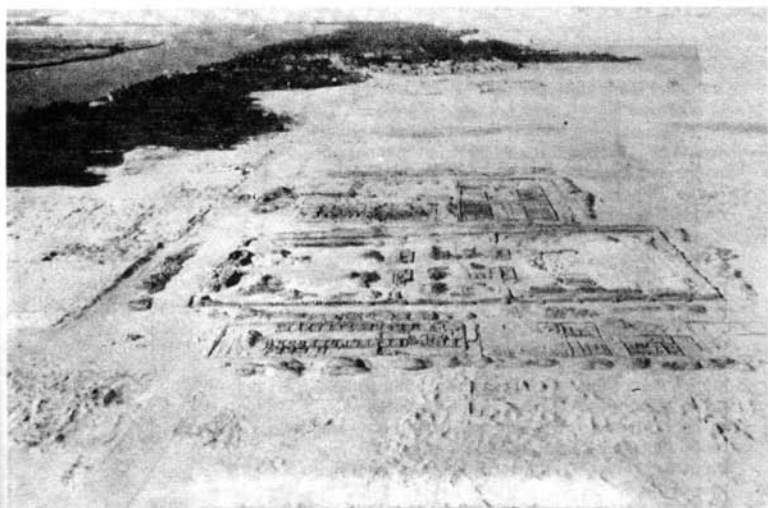
رأسى الملكة نفرتيتى من الحجر الجيرى . الأسرة الثامنة
عشرة (١٣٥٥ ق.م) ، عثر على هذه الرأس الشهيرة
فى العمارنة .



تمثال من المرمر لأبي الهول من عصر الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. من مكتشفات بترى.

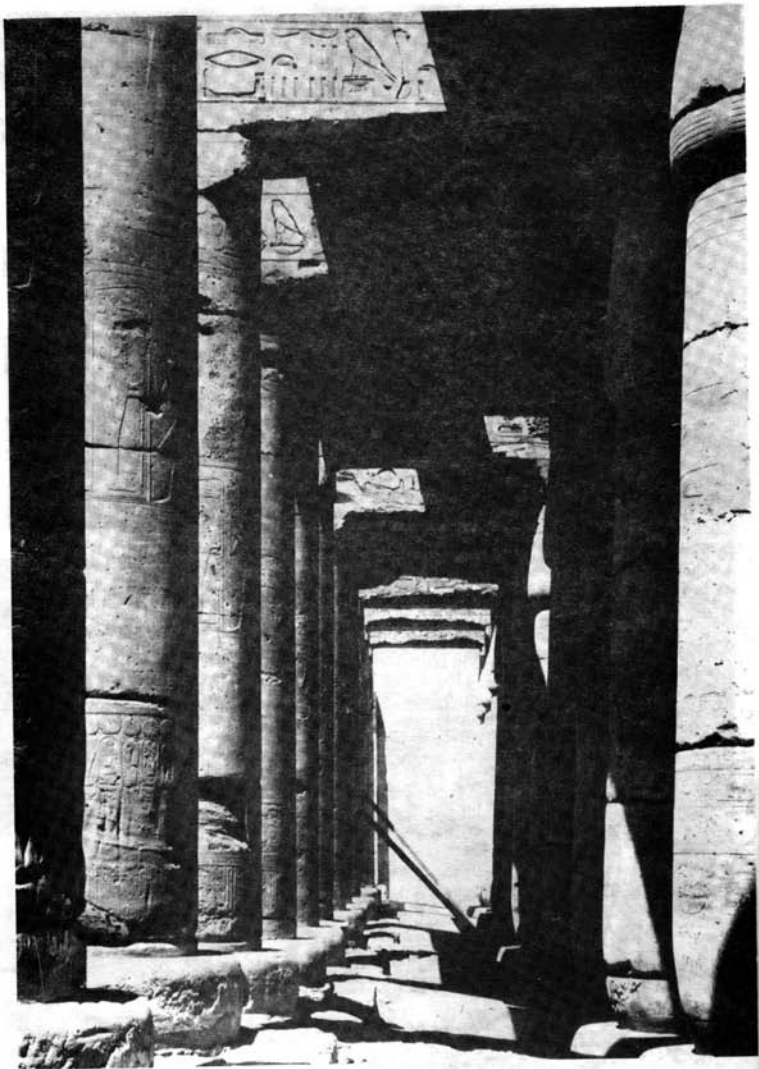


تقديم القرابين الجنائزية للملكة حتشبسوت، عثرت عليها بعثة بترى سنة ١٨٩٤.



مبنى محفوظات العمارة أثناء الحفر والاستكشاف.





اساطين فى معبد سيتى الاول بآبيدوس.



السير فلنדרز بيتري ينظم معرض الخزفيات الفلسطينية في لندن.

السير فلنדרز بيتري يجوب فلسطين في سن الثالثة والثمانين، يظهر بترى وزوجته وقد أكملتا رحلة طولها ١٢٠٠ ميلا في حافلتهم العتيقة الخضراء الظاهرة في خلفية الصورة.

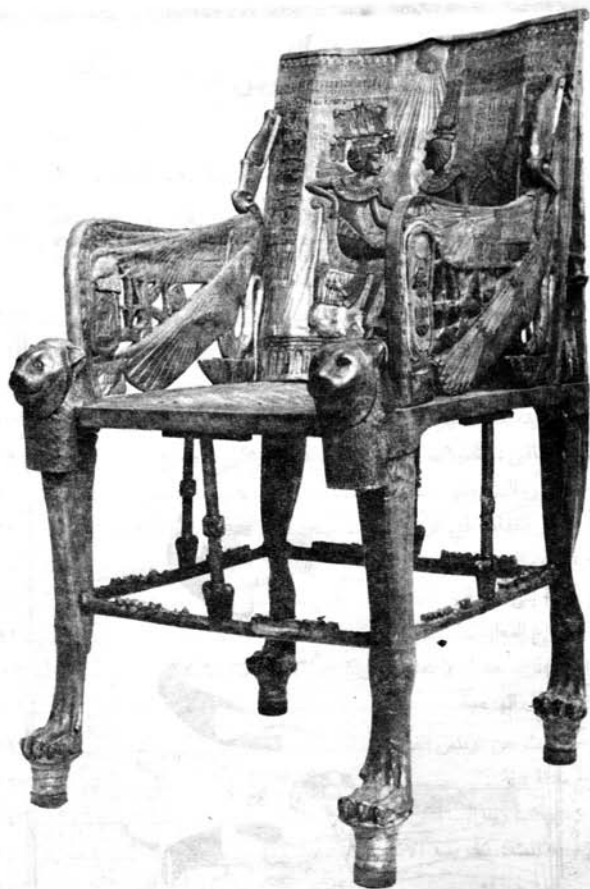




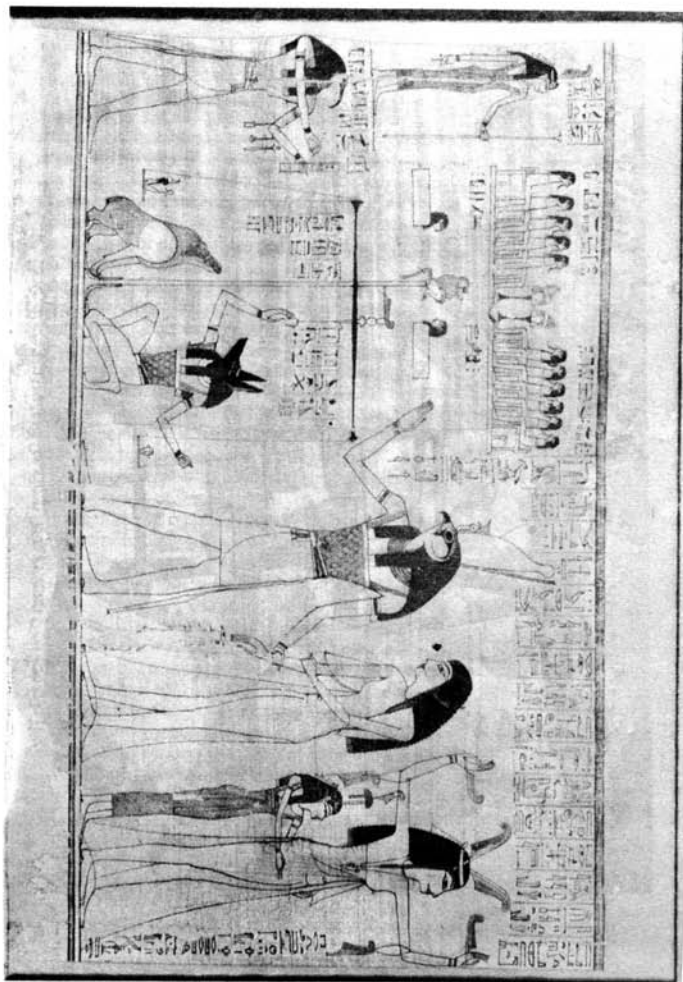
شاهد قبر من باب مقصورة قبطية بإدفو.



كثرت منح أمن المكتشفة تنقل بناية من وادي اللوك تحت الحراسة،
مثل هذه الاحتياجات مطلوبة والحمد حتى في وقتنا الحالي.



كرسى عرش من مقبرة توت عنخ آمون.



وزن قلب الأميرة صفيح أي أمام الماعت . بردية في المتحف البريطاني.

الفهرس

- ٩ ملحوظة بخصوص الصور -
- ١٠ التقويم والأسرات والفراعنة والأحداث الرئيسية والتطورات الثقافية في مصر القديمة -
- ١٣ الجزء الأول: المقابر - السائحون - الكنوز -
- ١٥ ١ - التخريب ينال الفراعنة -
- ٢٢ ٢ - أبوالنارخ والسائحون الأوائل -
- ٣١ ٣ - عندما أصبحت المومياوات تجارة -
- ٣٩ ٤ - كل يسعى وراء مجموعة أثرية -
- ٤٧ ٥ - لغة ميتة غير مفهومة -
- ٥٩ الجزء الثاني: المهرب الأكبر الذى طفى على الجميع -
- ٦١ ٦ - شمشون البتاجونى -
- ٦٩ ٧ - الخبير الفهامة فى الرى -
- ٧٤ ٨ - ممنون الصغير -
- ٨١ ٩ - رحلة إلى النوبة -
- ٩١ ١٠ - أروع المعابد -
- ١٠٣ ١١ - أثر فريد جميل لا يقدر بثمن -
- ١٠٩ ١٢ - العقول الهرمية -
- ١١٧ ١٣ - البحث عن برينس القديمة -
- ١٢٧ ١٤ - مسلة فيلة -
- ١٤٣ ١٥ - عجائب وغرائب أخرى -
- ١٥١ الجزء الثالث: تخريب الآثار -
- ١٥٣ ١٦ - رغبة جارفة -
- ١٦٣ ١٧ - هناك واحد أقوى منى -

١٨ -	فى المتحف البريطانى وضع فى الحفظ والصون.....	١٧٩
١٩ -	السفينة النيلية وما بها من آثار.....	١٩٠
٢٠ -	نقوش وأدوات وأماكن واحتمالات.....	٢٠٦
٢١ -	خاتمة.....	٢٢٣
	شكر وتقدير.....	٢٣٥
	المصادر.....	٢٣٧
	المفردات.....	٢٣٨
	ملحوظة.....	٢٥٠
	ملحق الصور.....	٢٥١